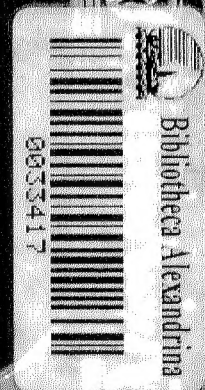


مشحون باللغة

لبن أبي أحمد

المجلد الرابع

دار الجليل



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بمحقق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم
رقم التسجيل ٤٦٤٨/٢
١١

دار الجليل
بيروت

محقق الطبع محفوظ للنشر

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

(٩٠)*

الأصل:

فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرَهُ ^(١) مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أَكْلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِفْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ . فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِذَنْبِهِ ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَمْ يُخْلِسْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رَبُّوبِيَّتِهِ ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى السُّنَنِ الْخَيْرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ ؛ قَرْنَا فَقَرْنَا ؛ حَتَّى تَمَّتْ بِبَيْدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعُ عُذْرَهُ وَنُدْرَهُ .

الشرح :

مهَّد أرضه : سَوَّاهَا وَأَصْلَحَهَا، وَمِنْهُ الْمَهَادُ وَهُوَ الْفَرَّاشُ ، وَمَهَّدْتُ الْفَرَّاشَ ، بِالْتَّخْفِيفِ
مهَّدًا ، أَيْ بِسَطِّهِ وَوُطْآنِهِ . وَقَوْلُهُ : « خَيْرَةً مِنْ خَلْقِهِ » عَلَى « فِعْلَةٍ » ، مِثْلُ عَذْبَةٍ ، الْأَسْمِ

(*) بقية الخطبة التسعين ؛ وأولها في الجزء السادس من ٣٩٨

(١) مخطوطة النهج : « خيرة » ، بالتسكين .

من قولك : اختاره الله ؛ يقال : محمد خَيْرَةُ الله من خلقه ؛ ويجوز : « خَيْرَةُ الله » بالتسكين ، والاختيار : الاصطفاء .

والجِبِلَّة : الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١) ، ويجوز « الجِبِلَّة » ، بالضم ، وقرأ بها الحسن البصري ، وقرئ قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) على وجوه : فقرأ أهل المدينة بالسكسر والتشديد ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ مثل قُل ، وقرأ الكِسَائِيُّ « جُبَلًا » كثيراً بضم الباء مثل « حُلُم » ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ جِبِلًّا ﴾ بكسر الجيم ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحق : ﴿ جُبَلًا ﴾ بالضم والتشديد .

قوله : « وَأَرْغَدَ فِيهَا أَكْلُهُ » ، أى جعل أَكْلَهُ - وهو لما كُولَ - رَغْدًا ، أى واسعاً طيباً ، قال سبحانه : ﴿ وَكَلا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ^(٣) ، وقرأ رَغْدًا ورَغْدًا بكسر الغين وضمها ، وأَرْغَدَ القَوْمُ : أَخْصَبُوا ، وصاروا فى رَغْدٍ من العيش .

قوله : « وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَا عَنْهُ » ، أى تقدم إليه بالإِندَارَ ^(٤) ، ويجوز « وَوَعَزَ إِلَيْهِ » بالتشديد توعيزاً ، ويجوز التخفيف أيضاً وعز إليه وعزا .

والواو فى « وَأَعْلَمَهُ » عاطفة على « وَأَوْعَزَ » ، لا على « نَهَا » .

قوله ، « موافاةً لسابق علمه » لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له ، وذلك لأن المفعول له يكون عذراً وعلّة للفعل ، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلهى السابق ، ولا يستمر ذلك على مذاهبنا ، بل يجب أن ينصب « موافاةً » على

(١) سورة الشعراء ١٨٤ .

(٢) سورة يس ٦٢ .

(٣) سورة البقرة ٣٥ .

(٤) ب : « الإِندَار » ، وما أثبتة من ج ، د .

المصدرية المحضة ؛ كانه قال : فوافى بالمعصية موافاة ، وطابق بها « سابق العلم » مطابقة .

قوله : « فأهبطه بعد التوبة » ، قد اختلف الناس في ذلك ، فقال قوم : بل أهبطه قبل التوبة ؛ ثم تاب عليه وهو في الأرض . وقال قوم : تاب قبل الهبوط ، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾^(١) ، فأخبر عن أنه أهبطهم بعد تلقى الكلمات والتوبة . وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^(٢) . فبين أن اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط . وقال في موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾^(٣) ؛ فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة ، واحتج الأولون بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾^(٤) ، قالوا : فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب لإزال الشيطان لهما ، ثم عقب الهبوط بفاء التعقيب في قوله : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ، فدل على أن التوبة بعد الهبوط .

(١) سورة البقرة ٣٧ ، ٣٨

(٢) سورة الأعراف ٢٢ - ٢٤

(٣) سورة طه ١٢١ - ١٢٣

(٤) سورة البقرة ٣٥ - ٣٨

ويمكن أن يجاب عن هذا فيقال : إنه تعالى لم يقل : « فقلنا اهبطوا » بالفاء ، بل قال : « وَقُلْنَا اهْبِطُوا » بالواو ، والواو لا تقتضى الترتيب ، ولو كان عوضها فاء لسكانت صريحة في أن الإهباط كان عقيب الزلة ؛ فأما الواو فلا تدل على ذلك ؛ بل يجوز أن تكون التوبة قبل الإهباط ، ويخبر عن الإهباط بالواو قبل أن يخبر عن التوبة .

قوله عليه السلام : « وَلَيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ » ، أى إذا كان أبوم أخرج من الجنة بخطيئة واحد ثم فأخاف بها ألا يدخلها ذو خطايا جنة ؛ وهذا يؤكّد مذهب أصحابنا في الوعيد .

ثم أخبر عليه السلام أن البارئ سبحانه ما أخلى عباده بعد قبض آدم ونوفيه بما يؤكّد عليهم حجج الربوبية ، بل أرسل إليهم الرسل قرّنا فقرّنا ، بفتح القاف ؛ وهو أهل الزمان الواحد ، قال الشاعر :

إِذَا مَاضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ^(١)
وتعاهدّهم بالحجج ، أى جدد العهد عندهم بها ؛ ويروى « بل تعهدّهم » بالتشديد ، والتعهد : التحقّق بالشئ ؛ تعهدت فلانا وتعهدت ضيعتى ؛ وهو أفصح من « تعاهدت » لأنّ التفاعل إنما يكون من شيئين ؛ وتقول : فلان يتعهده صرّح .

قوله : « وَبَلَغَ الْمَقْطَعُ عُذْرَهُ وَنُدْرَهُ » ، مقطع الشئ حيث ينقطع ، ولا يبقى خلفه شئ منه ، أى لم يزل يبعث الأنبياء واحدا بعد واحد حتى بعث محمدا صلى الله عليه وآله ؛ فتمتّ به حجته على الخلق أجمعين . وبلغ الأمر مقطعه ، أى لم يبق بعده رسول ينتظر ؛

(١) البيت في اللسان ١٧ : ٢١٢ .

وانتهت عُدْر الله تعالى ونُذْرُهُ ، فعذرُهُ مَا بَيْنَ للمسكَلَفِينَ من الإِعْذار في عقوبته لهم إنَّ عَصَوْهُ ، ونُذْرُهُ ما أنذرهم به من الحوادث ، وَمَنْ أنذرَهُمْ على لسانه من الرسل .

[القول في عصمة الأنبياء]

واعلم أنَّ المتكلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء ؛ ونحن نذكر هاهنا طَرَفًا من حكاية المذاهب في هذه المسألة على سبيل الاقتصاص ونقل الآراء ؛ لا على سبيل الحِجَاج ؛ ونخصّ قِصَّة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر ؛ إذ كانت هذه القصة مذكورة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل ؛ فنقول :

اختلف الناس في المعصوم ما هُوَ ؟ فقال قوم : المعصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي ؛ وهؤلاء هم الأفولون أهل النظر ؛ واختلفوا في عدم التمكن كيف هو ؟ فقال قوم منهم : المعصوم هو المختص في نفسه أو بدنه أو فيهما ، بخاصّة تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي .

وقال قوم منهم : بل المعصوم مساوٍ في الخواصّ النفسية والبدنية لغير المعصوم ؛ وإنما العصمة هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية ، وهذا قول الأشعرى نفسه ؛ وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه .

وقال الأكثرون من أهل النظر : بل المعصوم مختار متمكن من المعصية والطاعة .

وفسروا العصمة بتفسيرين :

أحدهما : أنها أمورٌ يفعلها الله تعالى بالمسكَلَف فتقتضي ألا يفعل المعصية اقتضاء

غير بالغ إلى حد الإيجاب ، وفَسَّرُوا هذه الأمور فقالوا: إنها أربعة أشياء : أولها أن يكون لنفس الإنسان مَلَكَةٌ مانعة من الفجور ، داعية إلى العفة ؛ وثانيها العلم بمطالب المعصية ومناقب الطاعة . وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحى والبيان من الله تعالى . ورابعها أنه متى صَدَرَ عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملاً بل يعاقب وينبه ويضيق عليه العذر ؛ قالوا : فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوماً عن المعاصي لا محالة ، لأنَّ العِفَّة إذا انضاف إليها العلم بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة ؛ ثم أكد ذلك تتابع الوحى إليه وتراذفه ، وتظاهر البيان عنده ، وتتم ذلك خوفه من العتاب على القدر القليل ، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة .

وقال أصحابنا^(١) : العصمة لطف يتمتع المكلف عند فعله من القبيح اختياراً ، وقد يكون ذلك اللطف خارجاً عن الأمور الأربعة المحدودة ، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إن أنشأ سبحانه ، أو أهبَّ ريحاً ، أو حَرَكَ جسماً ؛ فإن زيدا يتمتع عن قبيح مخصوص اختياراً ، فإنه تعالى يحب عليه فعل ذلك ، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد ، وإن كان الإطلاق المشتهر في العصمة إنما هو لمجموع أُلُفٍ يتمتع المكلف بها عن القبيح مدة زمان تسكينه .

وينبغي أن يقع [الكلام^(٢)] بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في حال الأنبياء قبل البعثة ومن الذى يجوز أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذى عاينه أصحابنا المعتزلة رحمهم الله ، أنه يجب أن ينزله النبي قَبْلَ البعثة عما كان فيه تنفيراً عن الحق الذى يدعو إليه ، وعملاً فيه غضاضة وعيب .

(١) هو التفسير الثانى للعصمة . (٢) تكملة من ج ، د .

فالأول نحو أن يكون كافرا أو فاسقا ، وذلك لأننا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناسُ منه السُّخْفُ والحجون والفُسْقُ ، لا يقع أمرُهُ بالمعروف ونهيهِ عن المنكر عند الناس موقعا ممن لم يمهده إلا على السَّداد والصلاح .
والثاني نحو أن يكون حَبَّامًا أو حَائِكًا أو محترفًا بِحِرْفَةٍ يَقْدِرُهَا الناسُ ، ويستخفُّون بصاحبها ، إلا أن يكون المبعوثُ إليهم على خلاف ما هو الممهود الآن ، بالألا يكون من تعاطى ذلك مستهانًا به عندهم .

ووافق أصحابنا في هذا القول جمهورُ المتكلمين .

وقال قوم من الخوارج : يجوز أن يبعث الله تعالى مَنْ كان كافرا قبل الرسالة ، وهو قول ابن فورك^(١) من الأشعرية ، لكنه زعم أن هذا الجائز لم يقع .
وقال قوم من الحشوية : قد كان محمد صلى الله عليه وآله كافرا قبل البعثة ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾^(٢) . وقال برغوث المتكلم ، وهو أحد النجارية^(٣) : لم يكن النبي صلى الله عليه وآله مؤمنا بالله قبل أن يبعثه ، لأنه تعالى قال له : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾^(٤) .

وروى عن السُّدِّي في قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ نَهْرَكَ ﴾^(٥) ، قال : وزره : الشرك ، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة .

وقال بعض السكرامية^(٦) في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وآله ،

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ؛ الأديب المتكلم الواعظ ؛ ترجم له ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) سورة الضحى ٦ .

(٣) النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار ؛ ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث من رجالهم ؛ وانظر الشهرستاني ١ : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) سورة الشورى ٢ .

(٥) سورة الشرح ٢ .

(٦) السكرامية ؛ أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ؛ وانظر تفصيل آرائهم في الشهرستاني .

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾^(١) : إنه أسلم يومئذ ، ولم يكن من قبل ذلك مسلماً ، ومثل ذلك ، قال
اليان بن رباب ، متكلم الخوارج .

وحكى كثير من أرباب المقالات عن شيخنا أبي الهذيل وأبي عليّ جواز أن يبعث
الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة ، ولم أجد في كتب أصحابنا حكاية هذا
المذهب عن الشيخ أبي الهذيل ، ووجدته عن أبي عليّ ، ذكره أبو محمد بن متويه في
كتاب « الكفاية » ، فقال : منع أهل العدل كلهم من تجويز بعثة من كان فاسقاً قبل
النبوة إلا ماجرى في كلام الشيخ أبي عليّ رحمه الله تعالى من ثبوت فصل بين البعثة
وقبلها ، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكباً لكبيرة ثم يتوب ، فيبعثه الله تعالى حينئذ ،
وهو مذهب محكي عن عبد الله بن العباس الرّاهم مزيّ .

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى : والصحيح من قول أبي عليّ رحمه الله تعالى
مثل ما اختاره من التّسوية بين حال البعثة وقبلها في المنع من جواز ذلك .

وقال قوم من الأشعرية ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث : إن ذلك جائز واقع ،
واستدلوا بأحوال إخوة يوسف . ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نبوة إخوة يوسف ،
ثم هؤلاء المجوزون ، منهم من جوّز عليهم فعل الكبائر مطلقاً ، ومنهم من جوّز ذلك
على سبيل الذّرة ثم يتوبون عنه ، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح ، فأما لو فرضنا^(٢)
إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصي ، فإن ذلك لا يجوز ،
لأنه يفوّت الغرض من إرسالهم ونبوتهم على هذا التقدير .

وقالت الإمامية : لا يجوز أن يبعث الله تعالى نبياً قد وقع منه قبيح قبل النبوة ،

(١) من قوله تعالى في سورة البقرة ١٣١ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ . (٢) ب : « لو فرض » ، وما أنبته من ج ، د .

لا صغيرا ولا كبيرا، لا عمدا ولا خطأ، ولا على سبيل التأويل والشبهة؛ وهذا المذهب مما تفرّدوا به؛ فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة، لم يمنعوا وقوع الصفائر منهم إذا لم تكن مسخّفة منفرة.

أطردت الإمامية هذا القول في الأئمة فجعلت حكمهم في ذلك حكم الأنبياء في وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوة وبعدها.

الفصل الثاني

في عصمة الأنبياء في زمن النبوة عن الذنوب في أفعالهم وتروكهم
عدا ما يتعلق بتبليغ الوحي والفتوى في الأحكام

جوز قوم من الحشوية عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء؛ كالزنا والواط وغيرهما، وفيهم من جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان، وفيهم من جوز ذلك على الأحوال كلها.

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلاً، ومنعوا أيضاً من وقوع الصفائر المسخّفة منهم، وجوزوا وقوع الصفائر التي ليست بمسخّفة منهم. ثم اختلفوا فمنهم من جوز على النبي الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخّفة عمداً^(١)؛ وهو قول شيخنا أبي هاشم رحمه الله تعالى؛ فإنه أجاز ذلك وقال: إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على خوف ووجل، ولا يتجرأ على الله سبحانه.

ومنهم من منع من تعمّد إتيان الصغيرة، وقال: إنهم لا يقدمون على الذنوب التي يعلمونها ذنوباً، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة؛ وهذا قول أبي على رحمه الله تعالى.

(١) كذا في ج، د، وفي ب: « عملاً ».

وَحَكِيمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّظَامِ وَجَعْفَرَ بْنِ مَبَشَّرٍ، أَنَّ ذُنُوبَهُمْ لَا تَسْكُونُ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ السَّهْوِ وَالذَّسِيانِ ، وَأَنَّهُمْ مُؤَاخَذُونَ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَوْضُوعًا عَنْ أُمَّتِهِمْ ، لِأَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ أَقْوَى ، وَدَلَالَتُهُمْ أَكْثَرُ ، وَأَخْطَارُهُمْ أَعْظَمُ ؛ وَيَهْتِمُّ أَلْهَمُ مِنَ التَّحَقُّقِ مَا لَا يَهْتِمُّ لَغَيْرِهِمْ .

وقالت الإمامية : لا تجوزُ عليهم الكبائر ولا الصفائر ، لا عمداً ولا خطأ ، ولا سهواً ، ولا على سبيل التأويل والشبهة ؛ وكذلك تولم في الأئمة ؛ والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً ، لأنَّ أصحابنا إنما يجوزون عليهم الصفائر ، لأنه لا عقابَ عليها ؛ وإنما تقتضى نقصان الثواب المستحقّ على قاعدتهم في مسألة الإحباط ، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنّه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمّاً ولا عقاباً ؛ والإمامية إنما تنفى عن الأنبياء الصفائر والكبائر ؛ من حيث كان كلُّ شيء منها يستحق فاعله به الذمّ والعقاب ، لأنَّ الإحباط باطل عندهم ؛ فإذا كان استحقاقُ الذمّ والعقاب يجب أن ينفي عن الأنبياء ، وجب أن يُنفي عنهم سائر الذنوب ، فقد صار الخلافُ إذاً متعلّقاً بمسألة الإحباط ، وصارت هذه المسألة فرطاً من فروعها .

واعلم أن القول بجواز الصّغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على ما ذهب إليه شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى ؛ إنما اقتضاه تفسيره لآية آدم والشجرة ، وتكلفه إخراجها عن تعمد آدم للعصيان ، فقال : إنَّ آدَمَ نُهِيََ عَنْ نَوْعِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ لَا عَنْ عَيْنِهَا ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وأراد سبحانه نوعها المطلق ، فظن آدم أنه أراد خصوصيّة تلك الشجرة بعينها ؛ وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بعينها ، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نوعها ، فأخطأ في التأويل . وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب ، ويقولون إنَّ الإشكال باقٍ بحاله ، لأنَّ آدم أخلَّ بالنظر على

هذا القول في أنّ المنهى عنه : هل هو عينُ الشجرة أو نوعها ؟ مع أنه قد كان مدلولاً على ذلك ، لأنه لو لم يكن مدلولاً على ذلك لكانَ تكليفُ الامتناع عن تناول تكليف مالا يطاق ، وإذا دلّ على ذلك وجب عليه النظر ؛ ولا وجه يجب النظر لأجله إلا الخوف من تركه ؛ وإذا لم يكن بد من كونه خائفاً فهو عالم إذاً بوجوب هذا التأمل والنظر ؛ فإذا أُخلّ به فقد وقعت منه المعصية مع علمه .

وكما لا يرضى أصحابُ شيخنا أبي هاشم هذا المذهب ؛ فكذلك لا يرتضون مذهب النظام وجعفر بن مبشر ؛ وذلك لأنّ القول بأنّ الأنبياء يؤخذون على ما يفعلونه سهواً متناقض ؛ لأنّ السهو يُزيل التّكليف ، ويخرج الفعل من كونه ذنباً مؤاخذاً به ؛ ولهذا لا يصحّ مؤاخضة المجنون والناثم ، والسهو في كونه مؤثراً في رفع التكليف جاري مجرى فقد القدر والآلات والأدلة ؛ فلو جاز أن يخالف حالُ الأنبياء حالَ غيرهم في صحة تكليفهم مع السهو ، جاز أن يخالف حالهم حالَ غيرهم في صحة التكليف مع فقد القدر والآلات ؛ وذلك باطل .

واعلم أنّ الشريف المرتضى - رحمه الله تعالى - قد تكلم في كتابه المسمى « بتنزيه الأنبياء والأئمة » على هذه الآية ، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها] ^(١) ، وحاول صرّفها عن ظاهرها ، وتأول اللفظ بتأويل مستكره غير صحيح ؛ وأنا أحكي كلامه هاهنا وأتكلم عليه نصرةً لأصحابنا ، ونصرةً أيضاً لأمر المؤمنين عليه السلام ؛ فإنه قد صرح في هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام ، ألا ترى إلى قوله : « والمخاطرة بمنزلة » ؛ وهل تكون هذه اللفظة إلا في الذنب ؛ وكذلك سياقة الفصل من أوله إلى آخره ؛ إذا تأمله المنصف وأطرح الهوى والتعصب . ثم إننا نذكر [كلام] ^(١) السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى ، قال رحمه الله تعالى :

(١) تكملة من ج ، د .

أما قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ فَإِنَّ المعصية مخالفة للأمر^(١)؛ والأمر من الحكيم تعالى قد يكون بالواجب وبالندب معا ؛ فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوبا إلى ترك التناول من الشجرة ، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلاً ، وغير فاعل قبيحا ، وليس يمتنع أن يسمى تارك النفل عاصياً ، كما يسمى بذلك تارك الواجب ، فإن تسمية من خالف ما أمر به سواء كان واجبا أو نفلا بأنه عاصٍ ظاهر ، ولهذا يقولون : أمرت فلانا بكذا وكذا من الخير فمعصاني وخالفني ، وإن لم يكن ما أمر به واجبا^(٢) .

يقال له : الكلام على هذا التأويل من وجوه :

أولها أن ألفاظ الشرع يجب أن تُحمّل على حقائقها اللغوية ما لم يكن لها حقائق شرعية ، فإذا كان لها حقائق شرعية وجب أن تحمل على عُرف الشرع واصطلاحه ، كالصلاة والحج والنفاق والكفر ، ونحو ذلك من الألفاظ الشرعية ، وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف ” بالذريعة “ في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لا مندوحة عنه . وإذا كان لفظ العصيان في الاصطلاح الشرعي موضوعا لمخالفة الأمر الإيجابي لم يجز العدول عنه وحمله على مخالفة الندب .

ومعلوم أن لفظ العصيان في العُرف الشرعي لا يطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضى للوجوب ، فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندبي قول تبطله وتدفعه تلك القاعدة المقررة التي ثبتت بالاتفاق والدليل ، على أننا قبل أن نجيب بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال إيتارك النفل : إنه عاصٍ لافي أصل اللغة ، ولا في العُرف ، ولا في الشرع ، وذلك لأن حقيقة النفل هو ما يقال فيه للسكّاف : الأولى أن تفعل هذا ، ولكّ ألا تفعله ، ومعلوم أن

(١) العبارة في كتاب تنزيه الأنبياء بعد ذكر الآية « ... قالوا : وهذا تصريح بوقوع المعصية التي لا تكون إلا قبيحة ؛ وأكده بقوله : « ففوى » ، والفي ضد الرشيد . الجواب : يقال لهم : أما المعصية ... » .
(٢) تنزيه الأنبياء ٩ .

تارك مثل ذلك لا يطلق عليه أنه عاصٍ ؛ وبين ذلك أن لفظ « العصيان » في اللغة موضوع للامتناع ؛ ولذلك سُمِّيَتِ العصا عَصًا ، لأنه يُمْتَنَعُ بها ؛ ومنه قولهم : قد شقَّ العصا ، أى خرج عن الرَبْقَةِ المانعة من الاختلاف والتفرق ، وتارك الذنب لا يمتنع من أمرٍ ، لأن الأمر النذبي لا يقتضى شيئاً اقتضاء اللزوم ، بل معناه إن فعلت فهو أولى ؛ ويجوز ألا تفعل ، فأى امتناع حدث إذا خولف أمر الذنب سمي الخالف له عاصياً ، وبين ذلك أيضاً أن لفظ « عاصٍ » اسم ذمٍّ ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الذنب : كما لا يسمّى فاسقاً ؛ وإن كان الفسق في أصل اللغة للخروج .

ثم يسأل المرتضى رحمه الله تعالى عما سأل عنه نفسه ، فيقال له : كيف يجوز أن يكون ترك الذنب معصية ؟ أو آيُس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة في كل حال ، وأنهم لا ينفكُّون عن المعصية ؛ لأنهم لا يكادون ينفكُّون من ترك الذنب^(١) ؟

وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا ، فقال : وَصَفَ تارك الذنب بأنه عاصٍ توسع وتجوز ، والجاز لا يقاسُ عليه ، ولا يمدى عن موضعه . ولو قيل إنه حقيقة في فاعل القبيح ، وتارك الأولى [والأفضل]^(٢) لم يجوز إطلاقه في الأنبياء إلا مع التقييد ، لأن استعماله قد كثُر في فاعل القباح ، فإطلاقه عن التقييد مُوهِمٌ .

اسكننا نقول : إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنهم فعلوا القبيح ، فلا يجوز ذلك ، وإن أردت أنهم تركوا ما لو فعلوه لا يستحقُّوا الثواب ؛ وليكن أولى ، فهم كذلك . كذلك يقال له : ليس هذا من باب القياس على الجاز الذى اختلف فيه أربابُ أصول الفقه ؛ لأن مَنْ قال : إذا ترك زيد الذنب ؛ فإنه يسمّى عاصياً ؛ يلزمه أن يقول : إن عمراً إذا ترك الذنب يسمّى عاصياً ؛ وليس هذا قياساً ، كما أن من قال لزيد البليد : هذا

(١) تنزيه الأنبياء ١٠

(٢) من تنزيه الأنبياء .

حمار ، قال لعمرى البليد : هذا حمار ، والقياس على الجواز الذى اختلف الأصوليون فى جوازه خارج عن هذا الموضع .

ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها : ﴿ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلٰٓءِ (١) ﴾ ، هل يجوز أن يقال : طأطأ لهما عنق الذل !

وأما قوله : لو سلمنا أنه حقيقة فى تارك النذب لم يجز إطلاقه فى حق الأنبياء ؛ لأنه يوم العصيان ؛ بل يجب أن يقيّد .

فيقال له : لكن البارى سبحانه أطلقه ولم يقيده فى قوله : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ ﴾ ، فيلزمك أن يكون تعالى موهما وفاعلا للقييح ؛ لأن إيهام القبيح قبيح .

فإن قال : الالة العقلية على استحالة المعاصى على الأنبياء تؤمن من الإيهام . قيل له : وتلك الدلالة يعينها تؤمن من الإيهام فى قول القائل : الأنبياء عصاة ؛ فهلا أجزت إطلاق ذلك !

وثانيتها أنه تعالى قال : ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ والغى الضلال .

قال المرتضى رحمه الله تعالى : معنى غوى ها هنا خاب ، لأنه نعلم أنه (٢) لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لاستحق الثواب العظيم ؛ فإذا خالف الأمر ولم يصير (٣) إلى ما ندب إليه ، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصير إلى الثواب الذى كان يستحقه بالامتناع ؛ ولا شبهة فى أن لفظ « غوى » يحتمل الخيبة ، قال الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَى لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَأَمَّا (٤)

(١) سورة الإسراء ٢٤ . (٢) التنزيه : « لأننا نعلم » .

(٣) ب : « فإذا خالف الأمر إلى ما ندب إليه » .

(٤) للمعرقش ، اللسان ١٩ : ٣٧٧ .

يقال له : أَلَسْتَ الْقَائِلَ فِي مَصْنَفَاتِكَ السَّكَلَامِيَّةِ : إِنَّ الْمُنْدُوبَاتِ إِنَّمَا نَدَبَ إِلَيْهَا ، لِأَنَّهَا كَلِمَاتُهَا وَلِلسَّهْلَاتِ وَلِلسَّرَاتِ لِفَعْلِ الْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَلْطَافًا فِي وَاجِبِ عَقْلِي ؛ وَأَنَّ ثَوَابَهَا يَسِيرٌ جَدًّا بِالْإِضَافَةِ إِلَى ثَوَابِ الْوَاجِبِ ! فَإِذَا كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا خَلَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ، وَلَا فَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْمُقْبَحَاتِ ؛ فَقَدْ اسْتَحَقَّ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ مَا يَسْتَحَقُّهُ ثَوَابُ الْمُنْدُوبِ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَقَالُ فِيهِ لِمَنْ تَرَكَ الْمُنْدُوبَ إِنَّهُ قَدْ خَابَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ اكْتَسَبَ مِائَةَ أَلْفِ قَنْطَارٍ مِنَ الْمَالِ ، وَتَرَكَ بَعْدَ ذَلِكَ دَرَاهِمًا وَاحِدَةً كَانَ يَمْكُنُهُ أَنْ يَكْتَسِبَهَا فَلَمْ يَكْتَسِبْهَا ، لَا يَقَالُ : إِنَّهُ خَابَ !

وَنَائِلُهَا أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ يَخَالِفُ مَا ذَكَرَهُ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ آدَمَ مِنْهُيٌّ عَنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ أَنُهَاكُمْ عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾ ؛ وَهَذَا يُوجِبُ أَنَّهُ قَدْ عَصَى بِأَنْ فَعَلَ مِنْهُيًّا عَنْهُ ، وَالشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّهُ عَصَى بِأَنْ تَرَكَ مَأْمُورًا بِهِ .

قَالَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا عَنْ هَذَا : إِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَيْسَا بِمُخْتَصَّصَيْنِ ^(١) عِنْدَنَا بِصِغَةِ لَيْسَ فِيهَا احْتِمَالٌ وَاشْتِرَاكٌ ، وَقَدْ يُؤْمَرُ عِنْدَنَا بِلَفْظِ النَّهْيِ وَيُنْهَى بِلَفْظِ الْأَمْرِ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّهْيُ نَهْيًا بِكَرَاهَةِ النَّهْيِ عَنْهُ ، فَإِذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، وَلَمْ يَكِرْهُ قُرْبَهُمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ نَاهِيًا ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَإِذَا احْمَلْتُمْ فَاقْصِدُوا ﴾ ^(٣) ؛ وَلَمْ يَرُدْ ذَلِكَ ؛ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا بِهِ ؛ وَإِذَا كَانَ قَدْ صَحِبَ قَوْلَهُ : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إِرَادَةَ تَرْكِ التَّنَاوُلِ ، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ أَمْرًا ؛ وَإِنَّمَا سَمَّاهُ مِنْهُيًّا ، وَسَمِيَ

(١) التَّنْزِيهِ : « أَمَّا النَّهْيُ وَالْأَمْرُ مَعًا فَلَيْسَا . . . » .

(٢) سُورَةُ فَصَّلَاتٍ ٤٠ .

(٣) سُورَةُ الْمَائِدَةِ ٢ .

أمره له بأنه نهى من حيث كان فيه معنى النهى ؛ لأنّ في النهى ترغيباً في الامتناع من الفعل ، وتزهيدا في الفعل نفسه ، ولما كان الأمر ترغيباً من فعل المأمور ، وتزهيدا في تركه جاز أن يستى نهياً .

وقد يتداخل هذان الوضعان في الشاهد ، فيقول أحدنا : قد أمرت فلانا بآلا يلقى الأمير ؛ وإنما يريد أنه نهاه عن لقائه ؛ ويقول : نهيتك عن هَجْر زيد ؛ وإنما معناه أمرتُك بمواصلته^(١) .

يقال له : هذا خلاف الظاهر ، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصري اللفظ عن ظاهره ؛ ويكفي أصحاب أئى هاشم في نصرة قولهم التمسك بالظاهر .
واعلم أنّ بعض أصحابنا تأول هذه الآية ، وقال : إنّ ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوته ؛ لأنه لو كان نبيا قبل إخراجه من الجنة ، لكان إما أن يسكون مرسلًا إلى نفسه ؛ وهو باطل ، أو إلى حواء وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة ، لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أو إلى الملائكة ، وهذا باطل ، لأن الملائكة رسل الله ، بدليل قوله : ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾^(٢) ؛ والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر ، أو يكون رسولاً وليس هناك من يرسل إليه ؛ وهذا محال . فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوته وإرساله .

الفصل الثالث

في خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا : إنّ الأنبياء معصومون من كل خطأ يتعلّق بالأداء والتبليغ ، فلا يجوز

(١) التنزيه ١١ .

(٢) سورة فاطر ١ .

عليهم الكذب ولا التغير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة ، ولا الغلط فيما يؤدونه عن الله تعالى ، ولا السهو فيه ولا الإلغاز ولا التعمية ؛ لأن كل ذلك إما أن ينقض دلالة المعجز على صدقه ، أو يؤدى إلى تكليف ما لا يطاق .

وقال قوم من الكرامية والحشوية: يجوز عليهم الخطأ في أقوالهم ، كاجاز في أفعالهم ؛ قالوا : وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله في التبليغ ، حيث قال : « تلك الغرائق العلاء * وإن شفاعتهن لترتجى » .

وقال قوم منهم : يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تسكن الحجة فيه مجرد خبرهم ، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه ، كما وقع من النبي صلى الله عليه وآله في هذه الصورة ، فإن قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها ، ولا ترجى شفاعتها . فأما ما كان السبيل إليه مجرد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم .

وقال قوم منهم : إن الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم ، إذا لم تجز تلك الأفعال مجرد بيان الوحي ، كبيانهم عليه السلام لنا الشريعة ، ولا يجوز عليه الخطأ في حال البيان ، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان ، كما روى من خبر ذى اليمين^(١) حين سها النبي صلى الله عليه وآله في الصلاة ، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحي ، فإنه لا يجوز عليه أن يخطئ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . فأما في أقواله الخارجة عن التبليغ ، فيجوز

(١) نقله أبو داود في كتاب الصلاة ١ : ٣٦٣ بسنده عن أبي هريرة قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتي العشي : الظهر أو العصر ؛ قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم ، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يديه عليها ؛ إحداها على الأخرى ، يعرف في وجهه الغضب ، ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون : قصرت الصلاة ! قصرت الصلاة ! وفي الناس أبو بكر وعمر ؛ فهاباه أن يكلماه ، فقام رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه ذا اليمين ؛ فقال : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » ، قال : بل نسيت يا رسول الله ، وأقبل رسول الله على القوم فقال : « أصدق ذو اليمين ؟ » فأومئوا : أى نعم ، فرجع رسول الله إلى مقامه فصلى الركعتين الباقيتين ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع فكبر » .

أن يخطئ كما روى عنه صلى الله عليه وآله في نهيه لأهل المدينة عن تأخير الدخول^(١) .
فأما أصحابنا المعتزلة ، فإنهم اختلفوا في الخبر المروي عنه عليه الصلاة والسلام في
سورة النجم ، فمنهم من دفع الخبر أصلاً ولم يقبله ، وطعن في روايته ، ومنهم من اعترف بكونه
قرآناً منزلاً ، وهم فريقان : أحدهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة ، فلما ظن المشركون
أنه وصف أئمتهم ، رفع ونسب عن تلاوته . وثانيهما القائلون إنه خارج على وجه
الاستفهام بمعنى الإنكار ، فتوهم سامعوه أنه بمعنى التحقيق ، ففسخه الله تعالى ونهى
عن تلاوته .

ومنهم من قال : ليس بقرآن منزل ، بل هو كلام تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله
وآله من قبل نفسه على طريق الإنكار والمزء بقریش ، فظنوا أنه يريد التحقيق ،
ففسخه الله بأن بين خطأ ظنهم ، وهذا معنى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾^(٢) . قالوا : فالقاء الشيطان هاهنا هو إلقاء الشبهة في قلوب المشركين ،
وإنما أضافه إلى أمنيته ، وهي تلاوته القرآن ، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون
إلى تلاوته عاينه السلام ما لم يردده بها .

وأنكر أصحابنا الأخبار الواردة التي تقتضي الطعن على الرسول صلى الله عليه وآله ،
قالوا : وكيف يجوز أن تصدق هذه الأخبار الأحاد على من قد قال الله تعالى له : ﴿ كَذَلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾^(٣) وقال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾^(٤) وقال عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل ٤ : ١٨٣٦ بسنده عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم
يلعبون النخل ؛ فقال : « لو لم يعملوا لصالح » قال : فخرج شيخاً (وهو البسر الرديء) فربهم فقال :
« ما انخلاكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ! قال : « أأنتم أعلم بأمر دينكم » .

(٢) سورة الحج ٥٢ .

(٣) سورة الفرقان ٣٢ .

(٤) سورة الأعلى ٦ .

عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ لَا خُذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ^(١) . وَأَمَّا
خبر ذى اليمين وخبر تأبير النخل ، فقد تكلمنا عليهما فى كتبنا المصنفة فى أصول الفقه .

الأصل :

وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَمَهَا عَلَى الضَّيِّقِ وَالسَّعَةِ ، فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ
مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غِنْيِهَا وَفَقِيرِهَا .
ثُمَّ قَرَنَ بِسَمْعِهَا عَقَابِيلَ فَاقْتَبَاهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرْجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ
أَتْرَاحِهَا . وَخَلَقَ الْآجَالَ فَاطَّالَاهَا وَقَصَّرَهَا ، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا ، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَشْبَابَهَا ،
وَجَمَلَهُ خَالِجًا لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطَعًا لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا .

الشرح :

الضَّيِّقُ وَالضَّيِّقُ : لغتان ، فأما المصدر من « ضاق » فالضَّيِّقُ بالكسر ، لا غير .
وَعَدَّلَ فِيهَا : من التعديل وهو التقويم ، وروى : « فعدَّل » ، بالتخفيف ، من العدل
نقيض الظلم .

والميسور والمعسور : مصدران . وقال سيبويه : هما صفتان ، ولا يجىء عنده المصدر
على وزن « مفعول » ألبيته ، ويتأول قولهم : « دعه إلى ميسوره » ، ويقول كأنه قال : دعه إلى
أمر يوسر فيه ، وكذلك يتأول « المعقول » أيضا ، فيقول كأنه عَقِلَ له شيء ، أى حبس
وأيد وسدد .

ومعنى قوله عليه السلام : « لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا » ، هو معنى قول
النبي صلى الله عليه وآله : « إِنَّ إعطاء هذا المال فتنة ، وإمساكه فتنة » .

والعقابيل في الأصل : الحلال ، وهو قروح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض .
والفاقة : الفقر .

وطوارق الآفات : متجددات المصائب ، وأصل الطروق ما يأتى ليلا .
والأنراح : الغيوم ، الواحد ترّح ، وترّحه تريحاً ، أى حزنه .
وخالجا : جاذبا ، والخلج الجذب ، خلجه يخلجه بالكسر ، واختلجه ، ومنه الخليج :
الخبيل لأنه يجذب به ، وسى خليج البحر خليجا ؛ لأنه يجذب من معظم البحر .
والأشطان : الجبال ، واحدها شطن ، وشطنتُ الفرس أشطنه ، إذا
شدته بالشطن .

والقرائن : الجبال ، جمع قرّن ؛ وهو من شواذ الجمع ، قال الشاعر :
أبلغ خليفة نسا إن كنت لاقية أئ ، لدى الباب كالشدود في قرّن^(١)
ومرائر القرائن : جمع مرير ، وهو ما لطف وطال منها واشتدّ فتله ، وهذا الكلام
من باب الاستعارة .

الأفضل :

عالمُ السرِّ من ضماير المضميرين ونجوى المتخافين ، وخواطر رجم الظنون ، وعقد
عزيمات اليقين ، ومسارقي إيمان الجفون ، وما ضمنتها أكنان القلوب ، وغيابات
الغيوب ، وما أضفت لإستراقه مصايح الأسماع ، ومصائف الدر ، ومشاتي الهوام
ورجع الحنين من المولات ، وهمس الأقدام ، ومنفسح النمرة من ولائح غلف
الأكمام ، ومنمقع ألوحوش من غيران الجبال وأوديتها ، ومختبأ البعوض بين سوق

(١) اللسان ١٧ : ٢١٥ من غير نسبة ، وروايته : « أبلغ أبا سم » .

الْأَشْجَارِ وَالْحَيَّاتِ ، وَمَغْرَزِ الْأَوْزَاقِ مِنَ الْأَفْنَانِ ، وَتَحَطُّ الْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ
الْأَصْلَابِ ، وَنَاشِئَةِ الْغُيُومِ وَمُتَلَاكِهَها ، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِهَها ، وَمَتَسْنِفِ
الْأَعَاصِيرِ بِذُبُولِها ، وَتَعْفُو الْأَمْطَارِ بِسُيُولِها ، وَعَوزِمِ بَنَاتِ الْأَرْضِ فِي كُثْبَانِ الرِّمَالِ ،
وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ بِذُرَا شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمَنَاطِقِ فِي دِيَارِ حَبِيرِ
الْأَوْكَارِ ، وَمَا أَوْعَيْتَهُ الْأَصْدَافُ ، وَحَضَنْتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ الْبَحَارِ ، وَمَا غَشِيَتْهُ
سُدُفَةُ اللَّيْلِ ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارِ ، وَمَا أَعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدِّيَارِ حَبِيرِ ، وَسُبُحَاتُ
النُّورِ ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خُطْوَةٍ ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ
شَفْعَةٍ ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَةٍ ، وَمَا عَلَيْنَاهُمَا مِنْ
كَمَرِ شَجَرَةٍ ، أَوْ سَاقِطِ وَرْقَةٍ ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ ، أَوْ نِقَاعَةِ دِيمٍ وَمُضْغَةٍ ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ
وَسَلَالَةٍ ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُفْلَةٌ ، وَلَا أَعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ ،
وَلَا أَعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَتَدَايِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فِتْرَةٌ ، بَلْ نَفَّذَهُمْ عِلْمُهُ ،
وَأَحْصَاهُمْ عَدْدُهُ ، وَوَسَّعَهُمْ عَدْلُهُ ، وَعَمَّرَهُمْ فَضْلُهُ ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ .

الْبَيْتُ :

لَوْ سَمِعَ النَّظْرُ بِنَ كِدَانَةِ هَذَا السِّكْلَامِ لَقَالَ لِقَائِهِ مَاقَالَهُ عَلَى بَنِ الْعَبَّاسِ بَنِ جُرَيْجٍ ،
لِإِسْمَاعِيلِ بْنِ بَلْبَلٍ :

قَالُوا أَبُو الصَّغْفَرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ كَلًّا ، وَلَكِنْ لَعَمْرِي مِنْهُ شَيْبَانٌ ^(١)
وَكَمْ أَبٌ قَدْ عَالَ بَابِنِ ذُرَا شَرَفٍ كَمَا عَالَ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
إِذْ كَانَ يَفْخَرُ بِهِ عَلَى عَدْنَانَ وَقُحْطَانَ ، بَلْ كَانَ يَقْرَبُهُ عَيْنُ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ،

(١) ديوانه الورقة ٢٧٣ (مخطوطة دار الكتب ، رقم ١٣٩ - أدب) .

ويقول له : إنه لم يُنفِ مَشِيدَتُ من معالم التوحيد ، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهلية القبط ؛ بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس ، القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ؛ لخشع قلبه وقفت شعره ، واضطرب فكره ؛ ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة ، والعظمة والفخامة ، والمتانة والجزالة ! مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة ؛ ألا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه ، فإن هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة ، وجدول من ذلك البحر ، وجذوة من تلك النار ؛ وكأنه شرح قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

نم نعود إلى التفسير فنقول :

النَّجْوَى : المسارة ، تقول : انتجى القومُ وتناجَوْا ، أى تساروا ، وانتجيت زيدا إذا خصصته بمناجاتك ؛ ومنه الحديث ، أنه صلى الله عليه وآله أطلال النجوى مع على عليه السلام ؛ فقال قوم : لقد أطلال اليوم نجوى ابن عمه ، فبلغه ذلك فقال : « إني ما انتجيتُهُ ؛ ولسكن الله انتجاء » . ويقال للسرى نفسه النجوى ؛ يقال : نجوته نجوياً أى ساررته ؛ وكذلك ناجيته مناجاة ، وسَمِيَ ذلك الأمرُ الخصوص نجوى لأنه يستسر به ؛ فأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ فجعلهم هم النجوى ؛ وإنما النجوى فعلهم ؛ فإنما هو كقولك : « قوم رضا » وإنما الرضا ، فعلهم ؛ ويقال الذى تسارّه : النجى على « فعيل » ؛ وجمعه أنجية ، قال الشاعر :

* إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةً ^(١) *

وقد يكون النجى جماعة ؛ مثل الصديق ؛ قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ^(٢) ،
وقال الفرّاء : قد يكون النجى والنجوى اسما ومصدرا .

والمتخافتين : الذين يسرون المنطق ، وهى الخفاضة والتخافت والخفت ، قال الشاعر :
أَخَاطِبُ جَهْرًا إِذْ لَمْ تُنْجَحْ تَخَافُ وَشَمَانٌ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَنْطِقِ انْخَفَتْ ^(٣)
وَرَجَمَ الظُّنُونُ : القولُ بالظن ، قال سبحانه : ﴿ رَجَا بِالْغَيْبِ ﴾ ، ومنه « الحديث
المرجّم » بالشديد ، وهو الذى لا يدرى أحقّ هو أم باطل ، ويقال صار رجما ، أى
لا يوقف على حقيقة أمره .

وعقد عزمات اليمين ، المزائم : التى يعقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها .
ومسارق إيماض الجفون : ما استرقه الأبصار حين نومض ، يقال : أومض البصر والبرق
إيماضا إذا لمع لمعا خفيفا ، ويجوز : ومض بغير همز ، يمض ومضا وميضا وممضانا . وأكفانُ
القلوب : غلغها ، والسكن : الستر ، والجمع أكفان ، قال تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ
أَكْفَانًا ﴾ ^(٤) وبروى : « أكنة القلوب » وهى الأغطية أيضا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ ^(٥) ، والواحد كِفَان ، قال عمر بن أبى ربيعة :

(١) اللسان ٢٠ : ١٧٩ ، ونسبه إلى سحيم بن وثيل البربوعى ؛ وبعده :
واضطرب القوم اضطراب الأرضية هناك أوصيني ولا توصي بيبة

(٢) سورة يوسف ٨٠ .

(٣) اللسان ٢ : ٣٣٥ من غير نسبة .

(٤) سورة النحل ٨١ .

(٥) سورة الأنعام ٢٥ .

تَحْتَ عَيْنٍ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلٍ^(١)

ويعنى بالذى ضمنته أكنانُ القلوب الضمائر .

وغيابات الغيوب : جمع غيابة ، وهى قَعَر البئر فى الأصل ؛ ثم نقلت إلى كلِّ غامض خفى ، مثل غيابة ، وقد روى : « غَبَابَات » بالباء .

وأصغَتْ : تسمعت ومالت نحوه . ولاستراقه : لاستماعه فى خفيه ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾^(٢) .

ومصائخ الأمماع : خروقاتها التى يُصَيِّخُ بها ، أى يتسمع .

ومصائف الذر : المواضع التى يصيف الذر فيها ، أى يقيم الصيف ، يقال : صاف بالمكان واضبطاف بمعنى ، والموضع مصيف ومصطاف .

والذر : جمع ذرة ، وهى أصغر النمل .

ومشاقى الهوام : المواضع التى تشتو الهوام بها ، يقال : شتوت بموضع كذا وتشقيت ، أى أقت به الشتاء .

والهوام : جمع هامة ، ولا يقع هذا الاسم إلا على المخوف من الأحناش .

(١) اللسان ١٧ : ٢٤٣ ، وذكر قبله :

هَاجَ ذَا الْقَلْبِ مَنْزِلُ دَارِسُ الْعَهْدِ مُحَوِّلُ
أَيْنَا بَاتَ أَيْمَلَةَ بَيْنَ غُصْنَيْنِ يُوبَلُ

قال ابن برى : صواب لشاده :

* بَرْدُ عَصَبٍ مُرَحَّلُ *

وأنشده ابن دريد :

تَحْتَ ظِلِّ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلُ

(٢) سورة الحجر ١٨ .

ورجع الحنين : ترجيعه وترديده ، والمولّات : الذوق والنساء اللواتي حيل بينهن وبين أولادهن .

وهس الأقدام : صوت وطئها خفياً جداً ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾^(١) ، ومنه قول الراجز .

* فَهَنْ يَمْشِينَ بِنَا هَيْسًا^(٢) *

والأسدُ الهُموس : الخفيّ الوطاء .

ومنفسحُ الثمرة ، أى موضع سعتها من الأكمام ، وقد روى : « متفسخ » بالخاء المعجمة وتشديد السين وبقاء بعد الميم ، مصدرا من تفسخت الثمرة ، إذا انقطعت .

والولائج : المواضع الساترة ، والواحدة وليجة ، وهو كالكهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره ، ويقال أيضا في جمعه : ولج وأولج .

ومتقمع الوحوش : موضع تقمّعها واستتارها ، وسمى قمعة^(٣) بن إلياس بن مضر بذلك ، لأنه انقمع في بيته كما زعموا .

وغيران الجبال : جمع غار ، وهو كالكهف في الجبل ، والمغار مثل الفار والمغارة مثله .

ومختبأ البعوض : موضع اختبأها واستتارها ، وسوق الأشجار : جمع ساق . وألحيتها جمع لحاء وهو القشر .

ومغرز الأوراق : موضع غرّزها فيها .

(١) سورة طه ١٠٨ .

(٢) اللسان ٨ : ١٣٦ من غير نسبة .

(٣) قمعة ؛ بفتح القاف والميم ، قال صاحب اللسان : « كان اسمه عميراً فأغبر على إبل أبيه فانقمع في البيت فرقا ، فسماه أبوه قمعة ، وخرج أخوه مدركة بن إلياس لبقاء إبل أبيه ، فأدركها وقعد الأخ الثالث يطبخ القدر ، فسمى طابخة » .

والأفنان : جمع قَنَن ، وهو الفصن والأمشاج : ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها ، جمع مَشِيح ، كينيم وأيتام . ومحطما : إما مصدر أو مكان .

ومسارب الأصلاب : المواضع التي يتسرب المني فيها من الضائب ، أى يسيل .
وناشئة الغيوم : أول ما ينشأ منها ، وهو النشء أيضا ، وناشئة الليل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ ^(١) أول ساعاته ؛ ويقال : هى ما ينشأ في الليل من الطاعات . ومتلاحمها ، ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم .

ودرور قطر السحاب : مصدر ، من دَرَّ يَدِرُّ ، أى سال ، وناقة دَرُور : أى كثيرة اللبن ، وسحاب درور : أى كثير المطر ، ويقال : إن لهذا السحاب الدرة ، أى . صبها ، والجمع درور . ومتراكها : المجتمع الكائن منها ، رَكَمْتُ الشئ أركمه بالضم : جمعته وألقيت بعضه على بعض ، ورمل ركام : وسحاب ركام ، أى مجتمع .

والأعاصير : جمع إعصار ، وهى ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود . وقال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ ^(٢) .

وتسفى ، من سَفَتَ الريح التراب سَفْيًا ، إذا أذرتة فهو سَفَى . وذبولها هاهنا ، يريد به أطرافها وما لاحف الأرض منها .

وما تعفو الأمطار : أى ما تدرُس ؛ عفت الريح المنزل أى درسته ، وعفا المنزل نفسه يعفو : درس ، يتعدى ولا يتمدى .

وبنات الأرض : الهوام والحشرات التي تكون في الرمال ، وعَومها فيها : سباحتها ؛ ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضا : عَوم ، نُعِمْتُ في الماء ، بضم أوله أعوم .

(١) سورة المزمل ٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

وكُثبان الرمال : جمع كَثِيب وهو ما انصبَّ من الرَّمْل واجتمع في مكانٍ واحد
فصار تَلًّا ، وكثبت الشيء أ كَثَبَهُ كَثَبًا ، إذا جمعته ، وانكثب الرَّمْلُ : اجتمع .

وشَفَاخِيب الجبال : رموسها ، واحدها شُنخوب . وذُرَّاهَا : أعاليها جمع ذِرْوَة وذُرْوَة ،
بالكسر والضم .

والتَّغْرِيد : التطريب بالغناء ، والتغريد مثله ؛ وكذلك الغَرَد بفتحهما ؛ ويقال : غَرِدَ
الطائر فهو غَرِد ، إذا طَرَب بصوته .

وذوات المنطق هاهنا : الأطيَّار ؛ وسَمَى صوتها منطقا وإن كان لا يطلق إلا على أَلْفَاظ
البشر مجازا .

ودياجير : جمع دَيَّجور ؛ وهو الظلام . والأوْكار : جمع وَكْر ؛ وهو عُش الطائر ؛
ويجمع أيضا على وَكُور ، وَوَكَّر الطائر يَكِر وَكْرًا ، أى دخل وَكْرَه .

وقوله : « وما أوعبته الأصداف » ، أى من الأولؤ . وحَصَّنَتْ عليه أمواجُ البحار :
أى ماضمتها كما تحضن الأتني من الطير بيضها ، وهو ما يكون في لجة ؛ إما من سمك أو
خشب أو ما يحمله البحر من العنبر كالجواجم بين الأمواج وغير ذلك .

وسُدْفَة الليل : ظلمته ، وجاء بالفتح . وقيل : السُدْفَة اختلاط الضوء والظلمة معًا
كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار .

وغشيتُه : غطَّته . وذَرَّ عليه شارق نهار ، أى ما طلعت عليه الشمس ، وذرت الشمس
تَذَرُّ بالضم ، ذُرُورًا : طلعت ، وذَرَّ البقل ، إذا طلع من الأرض .

وشَرَّقَت الشمس : طلعت ، وأشرقت بالهمزة ، إذا أضاءت وصفت .

واعتقبت : تعاقبت . وأطباق الدياجير : أطباق الظلم . وأطباقها : جمع طَبَقَة ، أى

أعطيتها، أطبقت الشيء أى غطيته ، وجعلته مطبّقاً؛ وقد تطبّق هو ، ومنه قولهم : لو تطبقت السماء على الأرض لما فعلتُ كذا . وسُبُحات النور : عطف على أطباق الدياجير ، أى يعلم سبحانه ما تعاقب عليه الظلام والضياء . وسُبُحات هاهنا ، ليس بمعنى به ما يعنى بقوله : « سبحانه وجه ربنا » ، لأنه هناك بمعنى ما يسبح عليه النور ، أى يجرى ، من سَبَّح الفرس وهو جرّيه ، ويقال : فرس سابح .

والخطوة : ما بين القدمين ، بالضم ، وخطوت خَطْوَةً بالفتح ، لأنه المصدر .
ورَجَّع كلّ كلمة : ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك .
والنَّسَمَة : الإنسان نفسه ، وجمعها نَسَمٌ ، ومثقال كلّ ذرة : أى وزن كلّ ذرة ، وما يخطئ فيه العامة قولهم الدينار : مثقال ، وإنما المثقال وزن كلّ شيء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (١) .

وهمّام كلّ نفس هامة ، الهاهيم : جمع همهمة ، وهى تردد الصوت فى الصّدر ، وحاز همهم : يهيمهم فى صوته ، وهممت المرأة فى رأس الصبيّ ، وذلك إذا نومت به بصوت ترققه له . والنفس الهامة : ذات الهمة التى تنزم على الأمر .

قوله : « وما عليها » أى ما على الأرض ، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه ، اعتماداً على فهم المخاطب ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٢) .

وقرارة النطفة : ما يستقرّ فيه الماء من الأماكن ، قال الشاعر :
وَأَنْتُمْ قَرَارَةُ كُلِّ مَعْدِنٍ سَوَاءٍ وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَسِيلُ قَرَارُ
والنطفة : الماء نفسه ، ومنه قوله عليه السلام فى الخوارج : إن مصارعهم النطفة ، أى لا يعبرون النهر ، ويجوز أن يريد بالنطفة المنيّ ويقويه ما ذكره بعده من المضمّة .

(١) سورة النساء ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن ٢٦ .

والنقاعة : نُقْرَة يجتمع فيها الدم ، ومثله أنقوعة ، ويقال لوقبة الثريد : أنقوعة .
 والمضغة : قطعة اللحم . والسلالة في الأصل : ما استقل من الشيء ، وسميت النطفة سلالة
 الإنسان ، لأنها استقلت منه ، وكذلك الولد .
 والسكفة : المشقة ، واعتورته مثل عرته . ونفذهم علمه ، تشبيهه بنفوذ السهم ، وعدى
 الفعل بنفسه وإن كان معدى في الأصل بحرف الجر ، كقولك : اخترت الرجال زيدا ،
 أى من الرجال ، كأنه جعل علمه تعالى خارقاً لهم وناظراً فيهم . ويروى : « وأحصاهم
 عدّه » ، بالتضعيف .

الأفضل :

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ ، وَالتَّعَدَادِ الْكَثِيرِ ، إِنْ تَوَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ ،
 وَإِنْ تَرْجُحْ فَخَيْرُ مَرْجُوعٍ . اللَّهُمَّ فَقَدْ بَسَطْتُ لِي فِيمَا لَا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلَا أَثْنِي
 بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ ، وَلَا أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَلْقِ وَمَوَاضِعِ الرِّبَا ، وَعَدَلْتُ
 بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْأَدَمِيِّينَ ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ . اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ
 عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ ، أَوْ عَافِيَةٌ مِنْ عَطَاءٍ ؛ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلًا عَلَى
 ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ .

اللَّهُمَّ ، وَهَذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ ، وَلَمْ يَرِ مُسْتَحِقًّا لِهَذِهِ
 الْمَحَامِدِ وَالْمَادِحِ غَيْرَكَ ؛ وَبِإِفَاقَةِ إِلَيْكَ لَا يَجُزُّ مَسْكَنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ ، وَلَا يَنْعَمُ
 مِنْ خَلْقٍ إِلَّا مِنْكَ وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْقَامِ رِضَاكَ ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي
 إِلَى سِوَاكَ ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

البَيِّنُ :

التمداد : مصدر : وخَيْرٌ : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : فأنت خير مأمول .
ومعنى قوله : « قد بسطت لى » ، أى قد آتيتنى لسفكاً وفصاحة وسعة منطق ، فلا أمدحُ
غيرك ، ولا أحمدُ سواك .

ويعنى بمعادن الخيبة : البشر ، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب فى الأكثر ، وجملهم
مواضع الريبة ، لأنهم لا يوثق بهم فى حال :
ومعنى قوله عليه السلام : « وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة » ، أنه
راجع منه أن يدلّه على الأعمال التى ترضيه سبحانه ، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة ،
وكأنه جعل تلك الأعمال التى يرجو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً .
والفاقة : الفقر ، وكذلك المسكفة .

ويدعش ، بالفتح : يرفع ، والماضى نعش ، ومنه الدعش لارتفاعه .
والمنّ : العطاء والنعمة ، والمنّان ، من أسماء الله سبحانه .

(٩١)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان

رضى الله عنه :

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي ؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَأَلْوَانٌ ؛ لَا تَقُومُ لَهُ
الْقُلُوبُ ، وَلَا تَذْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ . وَإِنِّ أَلَا فَاقَ قَدْ أَغَامَتْ ، وَالْمَحِجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ .
وَأَعْلَمُوا^(١) أَنِّي إِنِ اجْتَبَيْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ؛ وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ ، وَعَقَّبِ
الْعَانِبِ ، وَإِن تَرَ كُتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ ؛ وَلَعَلِّي أَنْتَمُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ
أَمْرَكُمْ ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا ؛ خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا !

البيان :

في أكثر النسخ: « لما أراده الناس على البيعة » ، ووجدت في بعضها : « أداره الناس
على البيعة » ، فمن روى الأول جعل « على » متعلقة بمحذوف ، وتقديره « موافقا » ، ومن
روى الثاني جعلها متعلقة بالفعل الظاهر نفسه ، وهو « أداره » ، تقول : أدرت فلانا
على كذا ، وداورت فلانا على كذا ، أى عالجته .

ولا تقوم له القلوب ، أى لا تصبر . وأغامت الآفاق : غطاها الغيم ، أغامت وغامت ،
وأغيمت وتغيمت^(٢) ، كلة بمعنى ، والمحجة : الطريق . وتفنكرت : جهلت فلم تعرف . و« وزيراً »
و « أميراً » : منصوبان على الحال .

وهذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ؛ ويقولون : إنه عليه السلام لم يكن منصوباً

(١) كذا في ١ ، ج ، و في ب ، ومخطوطة النهج « وأعلم » .

(٢) د : « وغيمت » .

عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وآله ، وإن كان أولى الناس بها وأحقهم بمنزلتها ، لأنه لو كان منصوباً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول : « دَعُونِي وَالتَّسَوَاغِيرَى » ؛ ولا أن يقول : « ولعلى أسمعكم وأطوعمكم إن وليتموه أمركم » ، ولا أن يقول : « وأنا لكم وزيراً خيراً منى لكم أميراً » . وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون : إن الذين أرادوه على البيعة هم كانوا العاقدين ببيعة الخلفاء من قبل ؛ وقد كان عثمان ممنعهم أو منع كثيراً منهم عن حقه من العطاء ؛ لأنّ بنى أمية استأصلوا الأموال فى أيام عثمان ؛ فلما قُتل قالوا لعلّى عليه السلام : نبايمك على أن تسيرَ فيما سيرة أبى بكر وعمر ؛ لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما ، فطلبوا من علىّ عليه السلام البيعة ، على أن يقسم عليهم بيوت الأموال قسمة أبى بكر وعمر ؛ فاستعفاهم وسألهم أن يطلبوا غيره ممن يسير بسيرتهما ؛ وقال لهم كلاماً تحته رمز ، وهو قوله : « إِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْهٌ وَأَلْوَانٌ ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ ، وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ ، وَالْحَبِجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ » .

قالوا : وهذا كلام له باطنٌ وغورٌ عميق ، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونهم ^(١) ، وهو الإنذارُ بحرب المسلمين بعضهم لبعض ، واختلاف الكلمة وظهور الفتنة . ومعنى قوله : « له وجوه وألوان » أنه موضع شبهة وتأويل ، فمن قائل يقول : أصاب علىّ ، ومن قائل يقول : أخطأ ، وكذلك القول فى تصويب محاربه من أهل الجمل وصيفين والنهران وتخطيئتهم ، فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعبت وتفرقت جدا .

ومعنى قوله : « الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكّرت » أن الشبهة قد استولت على العقول والقلوب ، وجعل أكثر الناس محجّة الحق أين هى ، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفتى فيكم بشريعته وأحكامه خيراً لكم منى أميراً محجوراً عليه

(١) سائطة من أ .

مدبراً بتدبيركم ، فإنى أعلم أنه لا قُدرة لى أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله
فى أصحابه مستقلاً بالتدبير ، لفساد أحوالكم ، وتعذر صلاحكم .

وقد حمل بعضهم كلامه على محمل آخر ، فقال : هذا كلام مُستزید^(١) شاك من أصحابه ،
يقول لهم : دعونى والتمسوا غيرى ، على طريق الضَّجَر^(٢) منهم ، والتبرم بهم والتسخط
لأفعالهم ، لأنهم كانوا عَدَلُوا عنه من قَبْل ، واختاروا عليه ، فلما طلبوه بعدُ أجابهم
جوابَ المتسخط العاتب .

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر ، فقالوا : إنه أخرجه مخرج التهكم والسخرية ،
أى أنا لکم وزیراً خيراً منى لکم أميراً فيما نعتقدونه ، كما قال سبحانه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(٣) أى تزعم لنفسك ذلك وتعتقده .

واعلم أن ما ذكره ليس ببعيد أن يحمل الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك ،
فأما إذا لم يدلّ عليه دليل ، فلا يجوز صَرَفُ اللفظ عن ظاهره ، ونحن نتمسك بالظاهر
إلا أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدنا عن حمل اللفظ عن ظاهره ، ولو جاز أن تصرف
الألفاظ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصدّ عنها ، لم يبق وثوق بكلام الله عز وجل
وبكلام رسوله عليه السلام ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التى كانت بعد قتل عثمان ،
والهيمّة العلوية كيف وقعت .

[فصل فيما كان من أمر طلحة والزبير عند قسم المال]

ونحن نذكر هاهنا فى هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافى^(٤) فى كتابه

(١) مستزید ، أى شاك عائب ، وفى الأساس : « فلان يستزید فلاناً ، يستقصره ويشكوه ؛ وهو
مستزید . » (٢) د : « المضجر » . (٣) سورة الدخان ٩٩

(٤) هو محمد بن عبد الله ، أبو جعفر المعروف بالإسكافى ؛ أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين . قال
الخطيب فى تاريخه (٥ : ٤١٦) : « له تصانيف معروفة ؛ وكان الحسين بن على السكرابيسى يتسكلم معه
وينظره ، وبلغنى أنه مات فى سنة أربعين ومائتين » .

الذى نقض فيه كتاب " العثمانية " ، لشيخنا أبي عثمان ، فإن الذى ذكره لم نوردّه نحن فيما تقدم .

قال أبو جعفر : لما اجتمعت الصحابةُ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة ، أشار^(١) أبو الهيثم بن التّيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصارى وعمار بن ياسر بعلى عليه السلام ، وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته ، فأجابهم الناسُ إليه ، فقام كل واحد منهم خطيباً يذكر فضل على عليه السلام ، فمنهم من فضله على أهل عصره خاصة ، ومنهم من فضله على المسلمين كلّهم كافة . ثم بويح وصعد المنبر في اليوم الثانى من يوم البّيعة ، وهو يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمداً فصلى عليه ، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام ، ثم ذكر الدنيا ، فزهدهم فيها ، وذكر الآخرة فرغبهم إليها ، ثم قال : أما بعد ؛ فإنه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فعمل بطريقه ، ثم جعلها شورى بين ستة ، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان ، فعمل ما أنكرتم وعرفتم^(٢) ، ثم حُصر وقتل ، ثم جثتموني طائعين فطلبتم إلى ؛ وإنما أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم ، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، ولا يحيلُ هذا الأمر إلا أهل الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمور ، وإني حاملكم على منهج نبيكم صلى الله عليه وآله ، ومنفذ فيكم ما أمرت به ؛ إن استقمتم لى . وبالله المستعان . ألا إن موضعى من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كوضعى منه أيام حياته ، فامضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه ، ولا تمجلوا فى أمر حتى نبيته لكم ؛ فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذراً . ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها للولاية على أمة محمد ؛ حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أَيْمًا وَالِ وَلِيّ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي ، أَقِيمْ عَلَى حَدِّ الصَّرَاطِ ،

(١) أشاروا بفضله ؛ أى عرفوا الناس به .

(٢) كذا فى د .

ونشرت الملائكة صحيفته ؛ فإن كان عادلاً أنجاه الله بعده ، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تنزِيل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار ؛ فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحرّ وجهه » ، ولكني لما اجتمع رأيكم لم يسمي ترككم .

ثم التفت عليه السلام يمينا وشمالا ، فقال : ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمّرتهم الدنيا فاتخذوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارحة ، واتخذوا الوصائف الروقة^(١) ؛ فصار ذلك عليهم عارا وشنارا ؛ إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرّهم إلى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرّمنا ابن أبي طالب حقوقنا ! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن الفضل الذي غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيّما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملّتنا ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ؛ وللمتقين عند الله غدا أحسنُ الجزاء ، وأفضل الثواب ؛ لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً ، وما عند الله خير للأبرار . وإذا كان غدا إن شاء الله فاغدوا علينا ؛ فإن عندنا مالا نقسمه فيكم ، ولا يتخلّفن أحدٌ منكم ؛ عربي ولا عجمي ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ؛ إلا حَضَر ؛ إذا كان مسلماً حراً . أقولُ قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . ثم نزل .

قال شيخنا أبو جعفر : وكان^(٢) هذا أول ما أنكروه من كلامه عليه السلام ، وأورثهم الضغن عليه ؛ وكرهوا إعطائه وقسمه بالسوية . فلما كان من الغد ، غدا وغدا الناس لعقب الممال ؛ فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه : ابدأ بالمهاجرين فنأدبهم ، وأعطي كل

(١) الروقة : الحسان .

(٢) د : « فسكران » .

رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ثم نُنَّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك ؛ ومن يحضر من الناس كلهم ؛ الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك .

فقال سهل بن حنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامى بالأمس ؛ وقد أعتقته اليوم ؛ فقال : نعطيه كما نعطيك ، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ؛ ولم يفضل أحداً على أحد ؛ وتخلَّف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ؛ ورجال من قريش وغيرها .

قال : وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبد الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد : ما خفى علينا أمس من كلام على ما يريد ؛ فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت : إياك أعنى واسمعى يا جارة ؛ فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله ابن الزبير : إن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لِّلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (١) .

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخبر علياً عليه السلام بذلك ، فقال : والله إن بقيت وسليت لهم لأقيمهم على الحجّة البيضاء ، والطريق الواضح ، قاتل الله ابن العاص ! لقد عرّف من كلامى ونظرى إليه أمس أنى أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هلك .

قال : فبينما الناس فى المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة ، فجلسا ناحية عن على عليه السلام ، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير ؛ فجلسوا إليهما ، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم ، فتحدثوا نجياً ساعة ؛ ثم قام الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، فجاء إلى على عليه السلام ؛ فقال : يا أبا الحسن ؛ إنك قد وترتنا جميعاً ؛ أما أنا فقتلت أبى يوم بدر صبراً ، وخذلت أخى يوم الدار بالأمس ؛ وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر فى الحرب - وكان ثور قريش - وأما مروان فسحققت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه ؛ ونحن إخوتك

(١) سورة الزخرف ٤٣ .

ونظرواؤك من بنى عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عَنَّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان ، وأن تقتل قتلتَه ؛ وإنا إن خفناك تركناك ؛ فالتحقنا بالشام .

فقال : أمانا ذكرتم من وتري إياكم فالحق وتركم ، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم ، وأما قتلي قتلة عثمان فلو أزي مني قتلتهم اليوم لقتلتهم أمس ؛ ولكن لكم على أن خفتُموني أن أوْمنَكم وإن خفْتُكم أن أسيركم .

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم ، واقتروا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف ؛ فلما ظهر ذلك من أمرهم ، قال عمار بن ياسر لأصحابه : قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأيانهم ما نكره من الخلاف ، والطعن على إمامهم ؛ وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق - - يعني طلحة .

فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم ، فدخلوا على علي عليه السلام ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، انظر في أمرِك ، وعاتب قومك ، هذا الحى من قريش فإنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، وقد دعونا في السر إلى رفضك ، هداك الله لرشدك ؛ وذلك لأنهم كرهوا الأسوة ، وفقدوا الأثرة ، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنسكروا واستشاروا عدوك وعظموه ، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة ، وتآلفاً لأهل الضلالة . فرأيك !

فخرج علي عليه السلام ، فدخل المسجد ، وصعد المنبر مرتدياً بطاق ، مؤتزراً ببرذ قَطْرِي ، متقلدا سيفاً ، متوكئاً على قوس ، فقال :

أما بعد ، فإننا نحمد الله ربنا وإلهنا وولينا ، وولى النعم علينا ، الذى أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة ، امتناناً منه بغير حول منا ولا قوة ، ليبلونا أن نشكر أم نكفر ؛ فمن شكر زاده ومن كفر عذبه ؛ فأفضل الناس عند الله منزلة ، وأقربهم من الله وسيلة ، أطوعهم لأمره ،

وأعمالهم بطاعته ؛ وأتبعهم بسنة رسوله ، وأحياءهم لكتابته ؛ ليس لأحد عندنا فضلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول . هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وعهد رسول الله وسيرته فينا ، لا يجهل ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحق منكراً ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) . ثم صاح بأعلى صوته : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليستم فإن الله لا يحب الكافرين .

ثم قال : يا معشر المهاجرين والأنصار : أتمتوني على الله ورسوله بإسلامكم ، بل الله يئن عليكم أن هذا كم للإيمان إن كنتم صادقين .

ثم قال : أنا أبو الحسن - وكان يقولها إذا غضب - ثم قال : ألا إن هذه الدنيا التي أصبحت تَمْتَوْنَهَا وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ؛ فلا تغربكم فقد حذرتموها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله ، والذل لحكمه جل ثناؤه ، فأما هذا الذي فليس لأحدٍ على أحدٍ فيه أثره ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسامون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهدُ نبينا بين أظهرنا ، فمن لم يرض به فليمتول كيف شاء ، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه .

ثم نزل عن المنبر ، فصلى ركعتين ، ثم بعث بعمار بن ياسر ، وعبد الرحمن بن حنبل القرشي إلى طلحة والزبير ، وهما في ناحية المسجد ، فأتياهما فدعواهما ، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام ، فقال لهما : نشدتكما الله ، هل جئتماني طائعين للبيعة ، ودعوتاني إليها ، وأنا كارهٌ لها أقالا : نعم ، فقال : غير مجبرين ولا متسورين ، فأسلمتاني بيعة كما أعطيتاني عهداً !

قالا : نعم ، قال : فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيناك بَيْعَتَنَا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا ؛ وأن تستشيرنا في كلِّ أمر ولا تستبدَّ بذلك علينا ، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت ؛ فإنت تقسم القسم وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا .

فقال : لقد نَعَمْتما يسيرا ؛ وأرجأتما كثيرا ؛ فاستغفرا الله يغفر لكما . ألا تخبراني ، أدفعكما عن حقٍّ وجب لكما فظلمتكما إياه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسى بشيء ؟ قالا : معاذ الله ! قال : أفوقع حكمكم أو حقَّ لأحد من المسلمين فجعلته أضعفت عنه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافى ؟ قالا : خلافك عمر بن الخطاب فى القسم ؛ أنك جعلتَ حقنا فى القسم كحق غيرنا ، وسويتَ بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيا فافناورما حنا ، وأوجفنا^(١) عليه بخيلا ورجلا ، وظهرت عليه دعوتنا ، وأخذناه قسرا قهرا ، بمن لا يرى الإسلام إلا كرها . فقال : فأما ما ذكرتمناه من الاستشارة بكم أفوالله ما كانت لى فى الولاية رغبة ؛ ولكنكم دعوتونى إليها ، وجعلتمونى عليها ؛ نخفت أن أردكم فتختلف الأمة ، فلما أفضت إلى نظرتُ فى كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلانى عليه وأتبعته ، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ؛ ولا رأى غيركما ، ولو وقع حكمٌ ليس فى كتاب الله ببيانه ولا فى السنة برهانه ، واحتجج إلى المشاورة فيه لشاررتكما فيه ؛ وأما القسم والأسوة ؛ فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء ! قد وجدتُ أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وأما قولكما : جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا ، سواء بيننا وبين غيرنا ، فقد سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وآله فى القسم ، ولا آثرهم بالسبق ، والله

(١) ما أوجفنا : ما أعملنا .

سبحانه موفٍ السابق والجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

قال شيخنا أبو جعفر: وقد روى أنهما قالاه وقت البيعة: نُبأيك على أنا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنكما شريكاي في الفء، لا استأثر عليكما ولا على عبد حبشي مجدّع بدرهم فما دونه، لا أنا ولا ولداي هذان، فإن أبيتما إلا لفظ الشركة، فأنتما عونان لي عند العجز والفاقة، لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشتراطا مالا يجوز في عقد الأمانة، وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدين والشريعة.

قال رحمه الله تعالى: وقد روى أيضاً أن الزبير قال في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من عليّ اقنأنا له في أمر عثمان حتى قُتِل، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا من كُفّا فوقه.

وقال طلحة: ما اللوم إلا علينا، كنفأمنه أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا - يعني سعدا - وبايعناه، فأعطيناه مافي أبدينا، ومتعنا مافي يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم مارجونا أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم.

فإن قلت: فإنّ أبا بكر قَسَمَ بالسواء، كما قَسَمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يفكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قَسَمَ محتذياً لقَسَمِ^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وليَ عمر الخلافة، وفضّل قوماً على قوم ألغوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر،

(١) د: « محتذياً بالقسم رسول الله ».

وأشربت قلوبهم حُبَّ المال ، وكثرة العطاء . وأما الذين اهتَضَمُوا فقتلوا ومَرَنُوا على القنعة ، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أن هذه الحال تنقض أو تتغير بوجهٍ ما ، فلما وليَ عثمان أجرة الأمر على ما كان عمر يُجْريه ، فازداد وثوقُ القوم بذلك ، ومن ألفَ امرأً أشقَّ عليه فراقه ، وتغيير العادة فيه ، فلما وليَ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردَّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر ، وقد نسي ذلك ورفض وتخلَّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة ، فشق ذلك عليهم ، وأنكروه وأكبروه ، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة ، ومفارقة الطاعة ، والله أمر هو بالغه !

(٩٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدَ خَدِّ اللَّهِ ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَيْتِي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَّ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا ، وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا .

فَأَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ فِتْنَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ^(١) بِنَاقِعِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاجٍ رِكَابِهَا ، وَتَحْطُّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا ، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا .

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِيهِ الْأُمُورِ ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ ، لَا طَرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْتَعُولِينَ ؛ وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَرُّ بُكُمْ ، وَشَمَرَتْ عَنْ سَاقٍ ؛ وَكَانَتْ اللَّهُ نِيًّا عَلَيْكُمْ ضَيْقًا ، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ .

إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَهَتْ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَهَتْ ؛ يُنْكَرُنَ مُقْبِلَاتٍ ، وَيُعْرَفُنَ مُدْبِرَاتٍ ، يَحْمُنُ حَوْمَ الرِّيَاحِ بَصِينَ بَلَدًا ، وَيُخْطِئُنَ بَلَدًا .

أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمِيَّةٌ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطُوتُهَا ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا .

وَأَنِّمُ اللَّهُ لَتَجِدُنَ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ ، تَعْدِمُ

(١) مخطوطة النهج : « نبأكم » .

بِفِيهَا ، وَتَخْبِطُ بِيَدَيْهَا ، وَتَزِينُ بِرِجَالِهَا ، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا ، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَبْزُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعًا لَهُمْ ؛ أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ .
وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ أَنْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا مِنْ أَنْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحَبِهِ ، تَرُدُّ عَلَيْكُمْ فِتْنَتَهُمْ شَوْهَا خَشِيشَةً ، وَقِطْعًا جَاهِلِيَّةً ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى ، وَلَا عِلْمُ يُرَى ، نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِنَجَاةٍ ، وَاسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ ، يَمْنُ بِسَوْمِهِمْ خَسْفًا ، وَيَسْوَ قُهُمْ عُنْفًا ، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ ، فَمِنْ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنِي مَقَامًا وَاحِدًا ، وَلَوْ قَدَرُ جَزِيرٍ جَزُورٍ ؛ لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلَبُ الْيَوْمَ بَعْضُهُ فَلَا يُعْطُونَنِيهِ .

الْبُشْرُخُ

فَقَاتُ عَيْنَهُ ، أَمَى بِحَقَّتْهَا ، وَتَفَقَّاتِ السَّحَابَةِ عَنْ مَائِهَا : تَشَقَّقَتْ ، وَتَفَقَّاتِ الدَّمَلُ وَالْقُرْحُ ، وَمَعْنَى فَقَتْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، إِقْدَامُهُ عَلَيْهَا حَتَّى أَطْفَأَ نَارَهَا ، كَأَنَّهُ جَعَلَ لِلْفِتْنَةِ عَيْنًا مُحَدِّقَةً يَهَابُهَا النَّاسُ ، فَأَقْدَمَ هُوَ عَلَيْهَا ، فَفَقَّاتُ عَيْنَهَا ، فَسَكَنْتْ بَعْدَ حَرَكَتِهَا وَهِيَ جَاهِلِيَّةٌ .
وَهَذَا مِنْ بَابِ الاسْتِعَارَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : « وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئُ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي » ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا يَهَابُونَ قِتَالَ أَهْلِ الْقُبْلَةِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ كَيْفَ يِقَاتِلُونَهُمْ ، هَلْ يَتَّبِعُونَ مَوْلَاهُمْ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يُجْهِزُونَ عَلَى جَرِيحِهِمْ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يَقْسَمُونَ فِيهِمْ أَمْ لَا ؟ وَكَانُوا يَسْتَظْمُونَ قِتَالَ مَنْ يُوَدِّنُ كَذَا نَا ، وَيَصَلِّي كَصَلَاتِنَا ، وَاسْتَظْمُوا أَيْضًا حَرْبَ عَائِشَةَ وَحَرْبَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ، لِمَسَاكِنِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَوَقَّفَ جَمَاعَتُهُمْ عَنِ الدَّخُولِ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ ، كَالْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ وَغَيْرِهِ ، فَلَوْلَا أَنَّ عَلِيًّا اجْتَرَأَ عَلَى سَلِّ السَّيْفِ فِيهَا مَا أَقْدَمَ أَحَدٌ عَلَيْهَا ، حَتَّى

الحسن عليه السلام ابنه ، أشار عليه ألا يبرح عَرَصَة المدينة ، ونهاه عن المسير إلى البصرة ، حتى قال له منكرا عليه إنكاره : ولا تزال تَحْنِ خَنِين الأُمّة ! وقد روى ابنُ هلال صاحب كتاب ” الفارات “ ، أنه كَلَّمَ أباه في قتال أهل البصرة بكلام أغضبه ، فرماه ببَيْضَة جديد عَقَرَتْ ساقه ، فعولج منها شهرين .

والغيب : الظلمة ، والجمع غياهب . وإنما قال : « بعد ما ماج غيبها » ، لأنه أراد : بعد ما عَمَّ ضلالُها فشمَل ، فكسَى عن الضلال بالغيب ، وكسَى عن العُموم والشمول بالتموّج ، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أما كن كثيرة غير الأما كن التي تشملها لو كانت ساكنة . واشتدَّ كَلْبُها ، أى شرّها وأذاها . ويقال للقطط الشديد : كَلَب ، وكذلك للقرّ الشديد .

ثم قال عليه السلام : « سَلُونِي قبل أن تفقدوني » ، روى صاحب كتاب ” الاستيعاب “ ، وهو أبو عمر محمد بن عبد البر عَنْ جماعة من الرواة والمحدثين ، قالوا : لم يقلْ أحدٌ من الصحابة رضى الله عنهم : « سَلُونِي » إلا على بن أبي طالب . وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتاب ” نقض العثمانية “ ، عن علي بن الجعد ، عن ابن شُبْرمة ، قال : ليس لأحد من الناس أن يقول كَلَى المقبر : « سَلُونِي » إلا على بن أبي طالب عليه السلام . والفئة : الطائفة ؛ والهاء عوض من « الياء » التي نقصت من وسطه ، وأصله « في »

مثال « فيع » لأنه من فاء ، ويجمع على فئات ؛ مثل شيات وهبات ولِدَات . وناعقها : الداعي إليها ، من نَعَق الراعى بغممه ، وهو صوته نَعَق ينعق بالكسر نعيقا ونُعاقا ، أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فَانْعَقْ بِضَانِكَ ياجـرير فإِنَّمَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخِلَاءِ ضَلَالاً (١)

فأما الغراب ، فيقال : نَعَقَ ، بالغين المعجمة يَفْعُق بالكسر أيضا ، وحكى ابن كيسان « نَعَقَ الغراب » أيضا بعين غير معجمة .

والركاب : الإبل ، واحداً منها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، وجمعها رُكَبٌ ، مثل كتاب وكتب . ويقال : زَيْتَ رَكابِي ، لأنه يحمل من الشام عليها .

والمناخ ، بضم الميم ، وتَحَطَّ بفتحها ، يجوز أن يكونا مصدرين ، وأن يكونا مكانين ، أما كونُ المناخ مصدراً ، فلا أنه كالمقام الذى بمعنى الإقامة ، وأما كون المَحَطَّ مصدراً فلا أنه كالمرد فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾^(١) ، وأما كونهما موضعين فلا أن المناخ من أنحمت الجبل ، لا من ناخ الجبل ، لأنه لم يأت ، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتى مضموم الميم ، لأنه مشبه ببغات الأربعة ، نحو دحرج ، وهذا مُدَحرجنا ، ومن قال : هذا مُقام بنى فلان ، أى موضع مقامهم جعله كما جعلناه نحن ، من أقام يقيم ، لا من قام يقوم ، وأما الحطّ ، فإنه كالمقتل موضع القتل ، يقال : مقتل الرجل بين فسيكه ، ويقال للأعضاء التى إذا أصيب الإنسان فيها هلك : مقاتل ، ووجه المماثلة كونهما مضمومى العين .

[فصل فى ذكر أمور غيبية : أخبر بها الإمام ثم تحققت]

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده ، أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلا أخبرهم به ، وأنه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدى بهامائة وتضلّ بها مائة ، إلا هو مخبرٌ لهم - إن سألوه - برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخليوها ، ومن يقتل منها قتلاً ، ومن يموت منها موتاً ، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادعاء الربوبية ، ولا ادعاء النبوة ، وإن كان يقول : إن رسول الله صلى

الله عليه وآله أخبره بذلك ، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، وإخباره عن الضربة يُضرب بها في رأسه فتخضب لحيته ، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام ، وما قاله في كربلاء حيث مرت بها ، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده ، وإخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمر ، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان ، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم ، وصَلَبَ مَنْ يُصَلَّب ، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شَخَّص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها ، وإخباره عن عبد الله بن الزبير ، وقوله فيه : « خبّ ضبّ » ، يروم أمراً ولا يدركه ، ينصبُ حباله الدين لاصطياد الدنيا ، وهو بعد مصلوب قریش . وإخباره عن هلاك البصرة بالغرق ، وهلاكها تارة أخرى بالزنج ، وهو الذي صحفّه قوم فقالوا : بالريح ، وإخباره عن ظهور الرايات السوداء من خراسان ، وتخصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق - بتقديم المهمة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم ، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية ، وإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان ، كالناصر والداعي وغيرهما ، في قوله عليه السلام : « وإن لآل محمد بالطالقان لكثر أسيرهم الله إذا شاء دعاؤه حتى يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله » ، وإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة ، وقوله : « إنه يقتل عند أحجار الزيت » ، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة : « يقتل بعد أن يظهر ويُقهر بعد أن يقهر » ، وقوله فيه أيضا : « يأتيهم سهم غرب ^(١) يكون فيه منيته فياؤسألارحمي ! شلت يده ، وهن عضده » ، وإخباره عن قتلى وَّجّ ، وقوله فيهم : « هم خير أهل الأرض » . وإخباره عن المملكة العلوية بالغرب ، وتصريحه بذكر كتامة ، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الدّاعي المعلم . وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي : وهو أولهم ثم يظهر

(١) سهم غرب ؛ أي لا يدري راميّه .

صاحب القيروان الغضّ البَضّ ، ذوالنسب الحَضّ ، الممتَجَب من سلالة ذى البداء ، المسجّى بالرداء ، وكان عبيد الله المهدي أبيض^(١) مترفاً مشرباً بحُمرة ، رخص البدن ، تاراً^(٢) الأطراف . وذوالبداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام ، وهو المسجّى بالرداء ، لأن أباه أبا عبد الله جعفرًا سجّاه بردائه لما مات ، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ، ليعلموا موته ، وتزول عنهم الشبهة في أمره .

وكاخباره عن بنى بويه وقوله فيهم : « ويخرج من ديلمان بنو الصياد » ، إشارة إليهم . وكان أبوم صياد السمك بصيداً منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بشمه ، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة ، ونشر ذريّتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم . وكقوله عليه السلام فيهم : « ثم يستشري أمرهم حتى يملكو الزوراء ، ويخلعوا الخلفاء » فقال له قائل : فكم مدّتهم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « مائة أو تزيد قليلاً » . وكقوله فيهم : « والمترف ابن الأجدم ، يقتله ابن عمّه على دجلة » ، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين ، وكان معزّ الدولة أقطع اليد ، قطعت يده للتكوص في الحرب ، وكان ابنه عزّ الدول بختيار مترفاً ، صاحب لهو وشرب ، وقتله عضد الدولة فناخسرو ، ابن عمه بقصر الجُحص على دجلة في الحرب ، وسلبه ملكه . فأما خلعهم للخلفاء فإنّ معزّ الدولة خلع المستكفي ، ورتّب عوضه للطبيع ، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتّب عوضه القادر ، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام .

وكاخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده ، فإنّ علي بن عبد الله لما ولد ، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام ، فأخذه وتفلّ في فيه

(١) ساقطة من ب .

(٢) النار : المثلّء جسمه وعظمه ريباً .

وحَنَّكَ بتمرة قد لا كها، ودفعه إليه، وقال : خذ إليك أبا الأملاك . هكذا الرواية الصحيحة، وهى التى ذكرها أبو العباس المبرد فى كتاب " الكامل "،^(١)، وليست الرواية التى يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه .

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا الجرى، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كرايس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة .

فإن قلت : لماذا غلّا الناس فى أمير المؤمنين عليه السلام، فادّعوا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التى شاهدوا صدقها عيانا، ولم يَنلوا فى رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلهية، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوا وعلموها يقيناً، وهو كان أولى بذلك، لأنه الأصلُ المقبوع، ومعجزاته أعظم، وأخباره عن الغيوب أكثر؟

قلت : إن الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله، وشاهدوا معجزاته، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عيانا، كانوا أشدّ آراء، وأعظم أحلاما، وأوفر عقولا من تلك الطائفة الضعيفة العقول، السخيفة الأحلام، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام فى آخر أيامه، كعبد الله بن سبأ وأصحابه، فإنهم كانوا من ركة البصائر وضعفها على حال مشهورة، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفهم المعجزات، فيعتقدوا فى صاحبها أن الجواهر الإلهية قد حلّت، لاعتقدهم أنه لا يصحّ من البشر هذا إلا بالحلول، وقد قيل : إن جماعة من هؤلاء كانوا من نسل النصارى واليهود، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول فى أنبيائهم ورؤسائهم، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك . ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم ملحدّين أرادوا إدخال الإلحاد فى دين الإسلام، فذهبوا إلى ذلك، ولو كانوا فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة، إضللا لأهل

الإسلام ، وقصداً لإيقاع الشبهة في قلوبهم ، ولم يكن في الصحابة^(١) مثل هؤلاء ، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة ، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة .

ومما ينفردُ لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أن هؤلاء من العراق وسوا كنى الكوفة ، وطيفة العراق مازالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بصيرة وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة في المذاهب ، وقد كان منهم في أيام الأكرسة مثل ماني وديسان ومزدك وغيرهم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان ، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفة وخشونة الطبع ، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ، ولا موقع شبهة ، ولا مبتدع نحلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة وناشئة من حيث سكن على عليه السلام بالعراق والكوفة ، لافي أيام مقامه بالمدينة ، وهي أكثر عمره .

فهذا ملاح لي من الفرق بين الرجلين في المعنى المقدم ذكره .

فإن قلت : لماذا قال عن فئة تهدي مائة ؟ وما فائدة التقييم بهذا العدد ؟
قلت : لأنّ مادون المائة حقير تافه لا يمتدّ به ليذكر ويخبر عنه ، فكأنه قال :
مائة فصاعداً .

قوله عليه السلام : « كرائه الأمور » جمع كرية وهي الشدة في الحرب . وحوازب الخطوب : جمع حازب ، وحزبه الأمر ، أي دهمه .

(١) كذا في ١ ، ب ، ج ، وفي د « أصحابه » .

وفشل : جبن ؛ فإن قلت : أما فشل المسئول فمعلوم ، فما الوجه في إطراق السائل ؟
قلت : لشدة الأمر وصعوبته ، حتى إن السائل ليبهت ويذهش فيطرق ،
ولا يستطيع السؤال .

قوله عليه السلام : « إِذَا قَلَصْتَ حَرْبَكُمْ » يروى بالتشديد وبالتخفيف ، ويروى : « عن حربكم » ، فنرواه مشدداً أراد انضمت واجتمعت ، وذلك لأنه يكون أشد لها وأصعب من أن تتفرق في مواطن متباعدة ، ألا ترى أن الجيوش إذا اجتمعت كلها واصطدم الفيلقان ، كان الأمر أصعب وأفظع من أن تكون كل كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى في بلاد متفرقة متباعدة أو ذلك لأن اصطدام الفيلقين بأجمعهما هو الاستئصال الذي لا شوى^(١) له ولا بقاء بعده . ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتزايدت ، من قولهم : قَلَصَتِ البئر ، أي ارتفع ماؤها إلى رأسها أو دونه ، وهو ماء قَالِصٌ وقَلِصَ ، ومن روى : « إِذَا قَلَصْتَ عَنْ حَرْبِكُمْ » أراد إذا قلصت كرائه الأمور وحواذب الخطوب عن حربكم ، أي انكشفت عنها ، والمضارع من قَلَصَ يَقْلِصُ ، بالكسر .

قوله : « وشمرت عن ساق » ، استعارة وكفاية ، يقال للجناد في أمره : قد شمر عن ساق ، وذلك لأن سبوغ الذيل مَعْتَرَةٌ . ويمكن أن يجرى اللفظ على حقيقة ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾^(٢) ففسروه فقالوا : الساق : الشدة ، فيكون قد أراد بقوله : « وشمرت عن ساق » ، أي كشفت عن شدة ومشقة .

ثم قال : « تستطيون أيام البلاء » ، وذلك لأن أيام البؤس طويلة ، قال الشاعر :

(١) لا شوى له ؛ أي لا إبقاء له ؛ قال الكمي :

أَجِيبُوا رُقَى الْآسِي النَّطَاسِيَّ وَأَحْذَرُوا مَطْفِئَةَ الرِّضْفِ الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

(٢) سورة القلم ٤٢ .

فَأَيَّامُ الْهَمُومِ مَقْصَصَاتٌ وَأَيَّامُ السُّرُورِ تَطِيرُ طَيْرًا
وقال أبو تمام :

ثُمَّ انْتَبَرَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ أَرْدَفَتْ بِجَوَى أَسَى فَكَانَهَا أَعْوَامٌ^(١)

قوله عليه السلام : « إِنْ الْفِتْنُ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ » ، معناه أَنَّ الْفِتْنَ عِنْدَ اقْبَالِهَا وَابْتِدَاءِ حَدُوثِهَا ، يَلْتَبَسُ أَمْرُهَا وَلَا يُعْلَمُ الْحَقُّ مِنْهَا مِنَ الْبَاطِلِ ، إِلَى أَنْ تَنْقُضَى وَتُدِيرَ ، فَخَيْثُذْ يَنْكَشِفُ حَالُهَا ، وَيَعْلَمُ مَا كَانَ مُشْتَبَهَا مِنْهَا . ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ : « يَنْكُرُنْ مَقْبَلَاتٍ ، وَيَعْرِفُنْ مَدْبِرَاتٍ » ، وَمِثَالُ ذَلِكَ فَتْنَةُ الْجَلِّ ، وَفِتْنَةُ الْخَوَارِجِ ، كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِيهَا فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ مُتَوَقِّعِينَ ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مَوْضِعَ الْحَقِّ إِلَى أَنْ انْقَضَتِ الْفِتْنَةُ ، وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، وَبَانَ لَهُمْ صَاحِبُ الضَّلَالَةِ مِنَ صَاحِبِ الْهُدَايَةِ .

ثُمَّ وَصَفَ الْفِتْنَ ، فَقَالَ : إِنَّهَا تَحُومُ حَوْمَ الرِّيحِ ، يَصْبِنُ بِلَدًا ، وَيَخْطُنُ بِلَدًا . حَامِ الطَّائِرِ وَغَيْرُهُ حَوْلَ الشَّيْءِ ، يَحُومُ حَوْمًا وَحَوْمَانًا ، أَيْ دَارَ .
ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ أَخَوْفَ مَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ فَتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ « عَمَّتْ خَطْبَتُهَا ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا » ، أَنَّهَا عَمَّتِ النَّاسَ كَافَّةً مِنْ حَيْثُ كَانَتْ رِيَاسَةً شَامِلَةً لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ حَظَّ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَشِيعَتُهُمْ مِنْ بَلِيَّتِهَا أَعْظَمَ ، وَنَصِيْبُهُمْ فِيهَا أَوْفَرَ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : « وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمَى عَنْهَا » ، أَنَّ الْعَالَمَ بَارَتْكَاهِمُ الْمُنْكَرُ مَا تُؤْمِمْ إِذْ لَمْ يَنْكُرْ ، وَالْجَاهِلُ بِذَلِكَ لَا يُؤْمِمْ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْمُنْكَرَ مُنْكَرًا لَا يَلْزِمُهُ إِنْكَارُهُ ، وَلَا يَعْنِي بِالْمُنْكَرِ هَاهُنَا

(١) ديوانه ٣ : ١٥٢ .

ما كان منكرا من الاعتقادات ، ولا ما يتعلق بالأمانة ، بل الزنا وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة .

فإن قلت : أى فرق بين الأمرين ؟

قلت : لأن تلك ياحق الإيمان من لا يعلمها إذا كان متمكنا من العلم بها ، وهذه لا يجب إنكارها إلا مع العلم بها ، ومن لا يعلمها لا ياحقه الإيمان إذا كان متمكنا من العلم بها ، فافترق الموضوعان .

ثم أقسم عليه السلام فقال : « وايم الله » ، وأصله : وايمن الله ، واختلف النحويون في هذه الكلمة فعند أكثرين منهم أن ألفها ألف وصل ، وأن « ايمن » اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل ، وبضم الميم والذون ، قالوا : ولم يأت في الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها ، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء ، فتقول : ليمن الله فتذهب الألف ؛ قال الشاعر :

فقال فريق القوم لما نشدتهم نعم ، وفريق ليمن الله ماندرى^(١)

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف ، والتقدير ليمن الله قسمي ؛ فإذا خاطبت قلت « ليمنك » ؛ وفي حديث عروة بن الزبير : « أيمنك لئن كنت ابتليت ، لقد عافيت ، ولئن كنت أخذت لقد أقيت »^(٢) . وتحذف نونه فيصير « ايم الله » بألف وصل مفتوحة وقد تسكر ، وربما حذفوا الياء ، فقالوا : « ام الله » ؛ وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة ، فقالوا : « م الله » ، وقد يكسرونها لما صارت حرفا شبهوها بالباء ؛ وربما قالوا « من الله » بضم الميم والذون : « ومن الله » بكسرهما : « ومن الله » بفتحهما ، وذهب أبو عبيد وابن كيسان وابن درستويه إلى أن « ايمن » جمع يمين ، والألف همزة قطع ، وإنما خففت

(١) اللسان ٧ : ٣٥٤ ؛ ونسبه إلى نصيب ص ١٧٨ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٦٨ .

وطرحت في الوصل لكثرة الاستعمال ، قالوا : وكانت العرب تحلف باليمين فتقول : يمين الله لا أفعل ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدَانِ وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(١)

قالوا : واليمين تجمع على « أيمن » ، قال زهير :

فَتُجْمَعُ أَيْمُنٌ مِنَّا وَمِنْكُمْ بِمَقَسَةٍ تَمُورُ بِهَا الدِّمَاءُ^(٢)

ثم حلفوا به ، فقالوا : أيمن الله ؛ ثم كثرت في كلامهم وخفّت على ألسنتهم ؛ حتى حذفوا منه النون كما حذفوا في قوله « لم يكن » فقالوا « لم يك » . فأقسم عليه السلام لأصحابه أنهم سيجدون بني أمية بعده لهم أرباب سوء ، وصدق صلوات الله عليه فيما قال ، فإيهم ساموهم سوء العذاب قتلاً وصلباً ، وحبساً وتشريداً في البلاد .

ثم شبه بني أمية بالناب الضروس ، والناب : الناقة المسنة ، والجمع نيب ؛ تقول : لا أفعله ما حنت النيب ، والضروس : السيئة الخلق تعضّ حالها .

وتعزم بفيها : تسكدم ، والعزم : الأكل بجفاء ، وفرس عذوم : يعضّ بأسفانه . والزّين : الدفع ؛ زينت الناقة تزين ، إذا ضربت بشفّاتها عند الحلب ، تدفع الحالب عنها . والدّر : اللبن ، وفي المثل : « لادرّ درّه » الأصل « لبنه » ، ثم قيل لكل خير ، وناقة درور ، أي كثيرة اللبن .

ثم قال : لا يزالون بكم قتلاً وإفناء لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه ، أولاً يضرهم ولا ينفعهم ، قال : حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبد من مولاه ، أي لا انتصار لكم منهم ، لأنّ العبد لا ينتصر من مولاه أبداً . وقد جاء في كلامه عليه

(١) ديوانه ٣٢ .

(٢) ديوانه ٧٨ مقسمة : موضع الحلف عند الأصنام ؛ وقال بعضهم : مكة ؛ لأنها تنحز بها البدن وتمور بها الدماء . وتمور : تسيل (من شرح الديوان) .

السلام في غير هذا الموضع تتمتع هذا المعنى : « إن حضر أطاعه ، وإن غاب سبّعه » ، أي ثلّبه وشتمه ، وهذه أمانة الدّلّ ، كما قال أبو الطيّب :

أَبْدُوْا فَيَسْجِدُ مَنْ بِالشُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانَا^(١)
وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني إِنَّ النِّفِيسَ نَفِيسٌ إِنَّمَا كَانَا

قال عليه السلام : « والصاحب من مستصحبه » ، أي . والتابع من متبوعه .

والشُّوء : جمع شَوْهَاء ، وهي القبيحة الوجه ، شامت الوجوه تشوه شَوْهًا^(٢) ، قُبِحت ، وشَوْهه الله فهو مشوّه ، وهي شوهاء ، ولا يقال للذكر : أشوه . ومُخَشَّية : مخوفة .

وقطعا جاهلية ، شبهها بقطع السحاب لتراكنها على الناس ، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ، ويروي : « شوهاء » و « قطعاء » ، أي نسكراء ، كالقطوبة اليد .

قوله : « نحن أهل البيت منها بمنجاة » ، أي بمنزل ، والنجاة والنجوة : المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاك ، ولا يعلوه السيل . ولسنا فيها بدعاة ، أي لسنا من أنصار تلك الدّعوة . و « أهل البيت » منصوب على الاختصاص ، كقولهم : نحن معشر العرب نفعل كذا ، ونحن آل فلان كرماء .

قوله : « كتفريج الأديم » : الأديم الجلد ، وجمعه أدُم مثل أفيق وأفق ؛ ويجمع أيضا على « آدمة » ، كزغيف وأرغفه ، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عما تحته ، فوعدهم عليه السلام بأن الله تعالى يكشف تلك الغماء كأنكشاف الجلد عن اللحم ، بمن يسومهم خسفا ، ويوليهم ذلا .

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٣ .

(٢) ساقطة من ب .

والعُنف ، بالضم : ضد الرفق . وكأُس مصبّرة ممزوجة بالصبر لهذا المرء ؛ ويجوز أن يكون « مصبّرة » مملوءة إلى أصبارها ؛ وهى جوانبها ، وفى المثل : « أخذها بأصبارها » أى تامة ، الواحد صبر ، بالضم .
ويُحلبسهم : يلبسهم ، أحلست البعير ألبسته الحلبس ؛ وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة ، يقال : له حلبس وحلبس ؛ مثل شبه وشبه .
والجزور من الإبل : يقع على الذكور والأنثى ، وجزرها : ذبحها .

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوّد ، وانقراض ملك بنى أمية . ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه ؛ حتى لقد صدق قوله : « لقد تودّ قریش ... » الكلام إلى آخره ، فإن أرباب السير كلهم نقلوا أن مروان بن محمد قال يوم الزّاب لما شاهد عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس بإزائه فى صفت خراسان : لوددت أن عليّ بن أبى طالب تحت هذه الراية بدلا من هذا الفتى ؛ والقصة طويلة وهى مشهورة^(١) .

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وهى متداولة منقولة مستفيضة ، خطب بها عليّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النّهروان ، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضى رحمه الله ، من ذلك قوله عليه السلام : « ولم يكن ليحتزى عليها غيرى ، ولو لم أكن فيكم ما قوتل أصحاب الجبل والنهران . وإيم الله لولا أن تتسكلوا فتدعوا العمل لحدثتكم بما قضى الله عز وجلّ على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله : لمن قاتلهم مبصرأ لضلاتهم ، عارفا للهدى الذى نحن عليه ، سلونى قبل أن تفقدونى ، فإنى ميت عن قريب أو مقتول ، بل قتلا ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم » . وضرب بيده إلى لحية .

(١) تفصيل حوادثها فى السّكامل لابن الأثير ٤ : ٣٢٧ - ٣٣٤ .

ومنها في ذكر بني أمية : « يظهر أهل باطلها على أهل حقها ، حتى تُمَلَأ الأرض عدوانا وظلما ويدعَا إلى أن يضع الله عز وجل جبروتها ، ويسكر عَمَدَها ، وينزع أوتادها . ألا وإنكم مدركوها فانصروا قومًا كانوا أصحاب رايات بدر وخُنين ؛ توجروا ، ولا تمالثوا عليهم عدوهم ، فتصرعكم البليَّة ، وتحلّ بكم النقمة » .

ومنها : « ألا مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه ، وإن توارى عنه شتمه . وإيمُ الله لو فرّقوكم تحت كل حجر ؛ لجمعكم الله لشرِّ يوم لهم » .

ومنها : « فانظروا أهل بيت نبيكم ، فإن لَبَدُوا فالبدوا ، وإن استنصروكم فانصروهم ، فليفرجنَّ الله الفتنة برجل منّا أهل البيت ، بأبي ابن خيرة الإمام ؛ لا بمطيهم إلا السيف ، هرَجًا هرَجًا ، موضوعا على عاتقه ثمانية أشهر ؛ حتى تقول قريش : لو كان هذا من ولده فاطمة لرحمنا ، يغريه الله ببني أمية حتى يجعلهم حُطاما ورفاتا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله في الذين خلّوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فإن قيل : لماذا قال : « ولو لم أك فيكم لما قوتل أهل الجبل وأهل النهران » ؛ ولم يذكر صيغتين ؟ قيل : لأنَّ الشبهة كانت في أهل الجبل وأهل النهران ظاهرة الالتباس ، لأنَّ الزبير وطلحة مَوْعُودان بالجنة ، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله في الآخرة ؛ كما هي زوجته في الدنيا ، وحال طلحة والزبير في السُّبُق والجهاد والهجرة معلومة ، وحال عائشة في محبة الرسول صلى الله عليه وآله لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة ؛ وأما أهل النهران فكانوا أهل قرآن وعبادة واجتهاد ؛ وعُزُوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة ، وهم كانوا قراء أهل العراق وزهادهم ؛ وأما معاوية فكان فاسقا ، مشهورا بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام ؛ وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمرو بن العاص ؛ ومن اتبَعَهُما من طغام أهل الشام وأجلافهم وجهّاء الأغراب ، فلم يكن أمرهم خافيا في جواز محاربتهم واستحلال قتالهم ؛ بخلاف حال من تقدّم ذكره .

فإن قيل : ومنَ هذا الرجل الموعود به الذى قال عليه السلام عنه : « بأبى ابن خيرة الإمام » ؟ قيل : أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثانى عشر ، وأنه ابن أمة اسمها نرجس ، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمى يولد فى مستقبل الزمان ، لأم ولد ، وليس بموجود الآن .

فإن قيل : فن يكون من بنى أمية فى ذلك الوقت موجوداً ، حتى يقول عليه السلام فى أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم ، حتى يودّوا لو أنّ علياً عليه السلام ، كان المتولّى لأمرهم عوضاً عنه ؟

قيل : أما الإمامية فيقولون بالرجعة ، يزعمون أنه سيعاد قوم بأعيانهم من بنى أمية وغيرهم ، إذا ظهر إمامهم المنتظر ، وأنه يقطع أيدي أقوام وأرجلهم ، ويسمل عيون بعضهم ، ويصلب قوما آخرين ، وينتقم من أعداء آل محمد عليه السلام المتقدمين والمتأخرين . وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى فى آخر الزمان رجلاً من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجوداً الآن ، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وينتقم من الظالمين وينكّل بهم أشدّ النكال ، وأنه لأم ولد ، كما قد ورد فى هذا الأثر وفى غيره من الآثار ، وأن اسمه محمد ، كاسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه إنما يظهر بمد أن يستولى على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بنى أمية ، وهو السفينانى الموعود به فى الخبر الصحيح ، من ولد أبى سفیان بن حرب بن أمية ، وأنّ الإمام الفاطمى يقتله ويقتل أشياعه من بنى أمية وغيرهم ، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء ، وتبدو أشرط الساعة ، وتظهر دابة الأرض ، ويبطل التكليف ، ويتحقق قيام الأجساد عند نفخ الصور ، كما نطق به الكتاب العزيز .

فإن قيل : فإنكم قلتم فيما تقدّم : إن الوعد إنما هو بالسفّاح وبعمة عبد الله بن عليّ ،
والمسوّد ، وما قلتموه الآن مخالف لذلك !

قيل : إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضى رحمه الله تعالى من كلام
أمير المؤمنين عليه السلام في ” نهج البلاغة “ وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التي لم
يذكرها الرضى ، وهي قوله بأبي ابن خيرة الإمام . وقوله : « لو كان هذا من ولد فاطمة
لرحمنا » ، فلا مناقضة بين التفسيرين .

(٩٣)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بَعْدُ الْهَمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ ؛ الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقُضِي .

البُخ :

البركة : كثرة الخير وزيادته ، وتبارك الله منه ، وبركت ، أى دعوت بالبركة ، وطعام بريك أى مبارك . ويقال : بارك الله لزيد وفى زيد وعلى زيد ؛ وبارك الله زيدا ، يتمدى بنفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾^(٢) . ويحتمل «تبارك الله» معنيين : أحدهما أن يُراد : تبارك خيره وزادت نعمته وإحسانه ، وهذا دواء . وثانيهما أن يُراد^(١) به : تزايد وتعالٍ فى ذاته وصفاته عن أن يُقاس به غيره ، وهذا تمجيد .

قوله عليه السلام : « لا يبلغه بعدُ الهمم » أى بعد الأفكار والأنظار ، عبر عنها بالهمم لمشابتها إياها . وحَدَسُ الْفِطَنِ : ظنّها وتخمينها ، حَدَسْتُ أَحَدِسَ ، بالكسر .

ويُسأل عن قوله : « لا غاية له فينتهى » ، ولا آخر له فينقضي ، فيقال : إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثانى غير الأول ، وكقولهم : ماتا تينا فتحدثنا ، وليس الثانى هاهنا غير الأول ، لأن الانقضاء هو الآخريه بعينها ، فسكانه قال : لا آخر له ، فيكون له آخر ، وهذا لغو ، وكذلك القول اللفظة فى الأولى .

وينبغى أن يقال فى الجواب : إن المراد : لا آخر له بالإمكان والقوة فينقضى بالفعل فيما

(٢) ساقط من ب .

(١) سورة النمل ٢٧

لا يزال : ولا هو أيضا ممكن الوجود فيما مضى ، فيلزم أن يكون وجوده مسبقا بالعدم ، وهو معنى قوله : « فينتهى » بل هو واجب الوجود في حالين : فيما مضى وفي المستقبل ، وهذان مفهومان متغايران ، وهما العدم وإمكان العدم ، فاندفع الإشكال .

منها :

الأصل :

فَأَسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدِعٍ ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ ؛ كَلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بَدِيلٌ لِلَّهِ خَلَفٌ ، حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنِيذِيمًا ، وَأَعَزَّ الْأَرْوَاحَ مَغْرِيصًا ؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ ؛ وَأَنْتَجَبَ مِنْهَا أَمْثَاءُهُ ، عَثَرَتْهُ خَيْرُ الْعَثَرِ ، وَأَسْرَتْهُ خَيْرُ الْأَسْرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرِيمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرِيمٍ ؛ لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ ، وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ ؛ فَهُوَ إِمَامٌ مِنَ اتَّقَى ، وَبَصِيرَةٌ مِنَ أَهْتَدَى .

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ؛ سِيرَتُهُ الْقَصْدُ ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ ، وَكَلَامُهُ الْفَصْلُ ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينٍ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ؛ وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَمِ .

الشيخ :

تناسختهم ، أى تناقلتهم ، والتناسخ فى الميراث : أن يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث

قائم لم يقسم ، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر ، ومنه : نسخت الكتاب وانسخته واستنسخته ، أى نقلت ما فيه . ويروى : « تناسلتهم » .

والسلف : المتقدمون ، والخلف : الباقون ، ويقال : خلف صدق بالبحر يك ، وخلف سوء بالتسكين .

وأفضت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه ، أى انتهت . والأرومات : جمع أرومة وهى الأصل ، ويقال أروم بغير هاء : وصدع : شق ، وانتجب : اصطفى . والأمره : رهط الرجل .

وقوله : « نبتت فى حرم » يجوز أن يعنى به مكّة ، ويجوز أن يعنى به المنعة والعزّ . وبسقت : طالت . ومعنى قوله : « وثمر لا ينال » ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به ، لأن ذلك ليس بمدح بل يريد به أن ثمرها لا ينال قهرا ، ولا يحى غضبا . ويجوز أن يريد بثمرها نفسه عليه السلام ، ومن يجرى مجراه من أهل البيت عليهم السلام ، لأنهم ثمرة تلك الشجرة .

ولا ينال ، أى لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد ، وقد روى فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله فى فضل قريش وبنى هاشم الكثير المستفيض ، نحو قوله عليه السلام : « قدّموا قريشا ولا تقدّموها » ، وقوله : « الأئمة من قريش » ، وقوله : « إن الله اصطفى من العرب معدّا ، واصطفى من معدّ بنى النضر بن كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفانى من بنى هاشم » ، وقوله : « إن جبرائيل عليه السلام قال لى : يا محمد قد طفت الأرض شرقا وغربا فلم أجد فيها أكرم منك ، ولا بيتا أكرم من بنى هاشم » ، وقوله : « نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية » ، وقوله عليه السلام : « إن الله تعالى لم يمسننى بسفاح فى أرومتى منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبدالله

ابن عبد المطلب » ، وقوله صلى الله عليه وآله : « سادة أهل محشر ، سادة أهل الدنيا : أنا وعلى وحسن وحسين وحزمة وجعفر » ، وقوله وقد سمع رجلاً ينشد :
يا أيها الرجلُ الحوّلُ رحلَهُ هَلَّا نزلتَ بآلِ عبدِ الدارِ ؟
أهكذا قال يا أبا بكر؟ منكرًا لما سمع ، فقال أبو بكر : لا يارسول الله ، إنه لم يقل
هكذا ولكنه قال :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْحَوَّلُ رَحْلَهُ هَلَّا نزلتَ بآلِ عبدِ منافٍ (١) ؟
عَمَرُوا الْعَالَا هَاشِمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالَ مَكَّةَ مُسَدِّتُونَ عِجَافُ
فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك ، وقوله : « أذلّ الله من أذلّ قريشا » ، قالها ثلاثا ،
وكقوله : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وكقوله : « الفاس تبع لقريش ،
ترّم لهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم » ، وكقوله : « أنا ابن الأكرمين » ، وقوله لبني هاشم :
« والله لا يُبْفِضُكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَكَبَّه الله على منخريه في النار » ، وقوله : « ما بال رجال
يزعمون أن قرابتى غير نافعة ! بلى إنها لنافعة ، وإنه لا يُبْفِضُ أَحَدٌ أَهْلِي إِلَّا حَرَمَهُ
الله الجنة » .

والأخبار الواردة في فضائل قريش وبني هاشم وشرفهم كثيرة جدا ، ولا يرى الإطالة
ها هنا باستقصائها .

وسطع الصبح بسطوعا ، أى ارتفع ، والسّطوع : الصبح . والزّند : العود تقدح
به النار ، وهو الأعلى ، والزّندة : السفلى فيها ثقب ، وهى الأنثى ، فإذا اجتمعما قيل : زندان
ولم يقل : « زندان » ، تغليباً للتذكير ، والجمع زناد وأزند وأزناد .
والقصد : الاعتدال . وكلامه الفصل ، أى الفاصل ، والفارق بين الحق والباطل وهو
مصدر بمعنى الفاعل ، كقولك : رجل عدل ، أى عادل .
والهفوة : الزّلة ، هنا يهفون . والغبوة : الجهل وقلة الفطنة ، يقال : غبيت عن الشيء وغبيت

(١) الطارود بن كعب الخزاعي أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٨

الشيء أيضاً، أغبي غباوة إذالم يظن له ، وغبي على الشيء كذلك ، إذالم تعرفه ، وفلان غبي على « فعمل » ، أى قليل الفطنة .

الأصل :

اَعْمَلُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - عَلَى أَعْلَامٍ بَيِّنَةٍ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ ؛ وَالصُّحُفُ مَنشُورَةٌ ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ ، وَالْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ .

النهج :

الطريق : يذكر ويؤنث ، يقال : هذا الطريق الأعظم ، وهذه الطريق العظمى ، والجمع أطراف وطرق .

وأعلام بيّنة ، أى منار واضح . ونهج ، أى واضح . ودار السلام : الجنة ، ويروى : « والطريق نهج » بالواو ، واو الحال .

وأنتم فى دار مستعتب ، أى فى دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه ، واستعتابه . ثم شرح ذلك فقال : أنتم مملون متفرغون ، وصحف أعمالكم لم تطو بعد ، وأقلام الحفظة عليكم لم تجف بعد ، وأبدانكم صحيحة ، وألسنتكم ما اعتقلت كما تعقل السنة الحاضرة عند الموت ، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة ، لأنكم فى دار التكليف لم تخرجوا منها .

(٩٤)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ
وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبَرِيَاءُ ، وَاسْتَخَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ ،
وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي النَّصِيحَةِ ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا
إِلَى الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَعْظِمْ الْحَسَنَةَ ^(١) .

السنخ :

حاطبون في فتنة : جمع حاطب ؛ وهو الذي يجمع الخطب ، ويقال لمن يجمع بين
الصواب والخطأ ، أو يتكلم بالغث والسمين : حاطب ليل ، لأنه لا يبصر ما يجمع في حبله .
وروى : « خابطون » .

واستهوتهم الأهواء : دعاهم إلى نفسها .

واستزلتهم الكبرياء : جعلتهم ذوى زلل وخطأ . واستخففتهم الجاهلية : جعلتهم ذوى
خفة وطيش وخرق .

والزلازل ، بالفتح : الاسم ، وبالكسر : المصدر ، والزلازل : الشدائد ، ومثله في
الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر « القتلال »

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٩٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرِ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَالظَّاهِرِ فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَالْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ .

الشرح

تقدير الكلام : والظاهر فلا شيء أجلى منه ، والباطن فلا شيء أخفى منه ؛ فلما كان الجلاء يستلزم العلوّ والفوقية ، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتية ، عبّر عنهما بما يلازمهما ، وقد تقدم الكلام في معنى الأول والآخر والظاهر والباطن .

وذهب أكثر المتكلمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء العالم ثم يعيدها ؛ وذهب قوم منهم إلى أن الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير .

واحتج الأولون بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ^(١) ، قالوا : لما كان أولا بمعنى أنه الموجود ولا موجود معه ، وجب أن يكون آخراً بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كل شيء إلا ذاته تعالى ، كما كان أولا ، والبحث المسقّص في هذا الباب مشروح في كتبنا الكلامية .

الأصل :

ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله :

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسْتَقَرٍّ ، وَمَنْبُتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ؛ فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ ، وَتَمَاهِيدِ
السَّلَامَةِ ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْنِدَةُ الْأَبْرَارِ ، وَتُنْبِتُ إِلَيْهِ أَرْزَةُ الْأَبْصَارِ ؛ دَفَنَ اللَّهُ بِهِ
الضَّغَائِنَ ، وَأَطْفَأَ بِهِ النُّوَارِ ؛ أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا ، وَأَعَزَّ بِهِ الدُّلَّةَ ،
وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ ؛ كَلَامُهُ بَيَانٌ ، وَصَمِيمُهُ لِسَانٌ .

البُزْجُ

المهاد : الفراش ، ولما قال : « في معادن » ، وهى جمع معدن ، قال بحكم القرينة
والازدواج : « وتماهد » وإن لم يكن الواحد منها « تمهداً » ، كما قالوا : الغدايا والعشايا .
ومأجورات ومأزوات ، ونحو ذلك . ويعنى بالسلامة هاهنا البراءة من العيوب ، أى فى
نسب طاهر غير مأفون ولا معيب .

ثم قال : « قد صُرِفَتْ نَحْوُهُ » ، أى نحو الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يقل مَنْ صرِفَهَا ،
بل جعله فعلاً لم يُسَمَّ فاعله ، فإن شئت قلت : الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبر كما يقوله
الأشعرية ، بل بالتوفيق واللفظ ، كما يقوله أصحابنا ، وإن شئت قلت : صرِفَهَا أَرَبَاهُهَا .

والضغائن : جمع ضغينة ، وهى الحقد . ضَغِنْتُ عَلَى فُلَانٍ بِالْكَسْرِ ضِغْنًا وَالضَّغْنِ
الاسم ، كالضغينة ، وقد تضاعفوا واضطغنوا : انطَوَوْا عَلَى الْأَحْقَادِ . ودَفَنَهَا : أَكْنَهَا وَأَخْفَاهَا .
وَأَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا ، لأنَّ الإسلام قد أَلَفَ بَيْنَ الْمُتَبَاعِدِينَ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْمُتَقَارِبِينَ ، وَقَالَ

تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ ^(١) ، قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما ،
وآلف بين عليّ عليه السلام وعتار مع تباعدهما .
قوله عليه السلام : « وَصَمَّتْهُ لِسَان » ، لا يعنى باللسان هاهنا الجارحة نفسها ، بل الكلام
الصادر عنها ، كقول الأعشى ^(٢) :

* إِنِّي أَتَنَّى لِسَانًا لَا أُسَرِّبُهَا *

قالوا في تفسيره : أراد الكلمة ، وجمعه على هذا السن ، لأنه مؤنث ، كقولك : ذراع وأذرع ،
فأما جمع لسان للجارحة فالسنة ، لأنه مذكر ، كقولك : حمار وأحمرة ، يقول عليه السلام :
إِنْ كَلَامَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَيَانٌ ، وَالْبَيَانُ إِخْرَاجُ الشَّيْءِ مِنْ حَيْزِ الْخَفَاءِ
إِلَى حَيْزِ الْوُضُوحِ ، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد ، أى أن صمته لا يخلو
من فائدة ، فكأنه كلام ، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة ، كقولهم : يده بحر ،
ووجهه بدر .

(١) سورة آل عمران ١٠٣

(٢) هو أعشى باهلة ؛ وبقية :

* مِنْ عَلَوٍ لَا كَذِبَ فِيهَا وَلَا سَخَرُ *

(٩٦)

ومن كلام له عليه السلام :

الأفضل :

وَلَيْتَ أَمْنَلَ اللَّهُ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، عَلَى تَجَارِطِ بَقَعِهِ ،
وَبِمَوْضِعِ ^(١) الشَّجَا مِنْ مَسَاغِرِ رِيْقِهِ .

أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَيُظْهِرَنَّ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ عَلَيْكُمْ ؛ لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى
بِالْحَقِّ مِنْكُمْ ؛ وَلَسَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِهِمْ ^(٢) ، وَإِطَاعَتِكُمْ عَنْ حَقِّي ، وَلَقَدْ أَصْبَحَتْ
الْأَلَمُ تَخَافُ ظِلْمَ رُعَاتِيهَا ، وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظِلْمَ رَعِيَّتِي .

اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا ، وَأَتَمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا
فَلَمْ تَسْتَجِبُوا ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا .

شُهُودٌ ^(٣) كَغُفَيَّابٍ ، وَعَبِيدٌ كَأَزَابٍ . أَتَلَوْ عَلَيْكُمْ الْحِكْمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا ،
وَأَعْظُمْتُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا ، وَأَحْشُكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَى
عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي سَبَا . تَرَجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ ، وَتَتَخَادَعُونَ
عَنْ مَوَاعِظِكُمْ . أَفَوَيْكُمْ غُدُوَّةٌ وَتَرَجِعُونَ إِلَى عَشِيَّةٍ ؛ كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوِّمُ
وَأَعْضَلَ الْمُقَوِّمُ .

أَيُّهَا الْقَوْمُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ؛ الُمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، الُمُتَبَتِّلِي يَسْمِ
أَمْرَاؤُهُمْ ؛ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ
وَهُمْ يُطِيعُونَهُ الْوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَارَ فَنِي بِكُمْ صَرَفَ الدِّينَارِ بِالْذَّرِّهِمْ ؛ فَأَخَذَ
مَعِيَ عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ ١

(٢) مخطوطة النهج : « باطل صاحبهم » .

(١) مخطوطة النهج : « وموضع » .

(٣) مخطوطة النهج : « أشهود » .

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثِ وَأُثْنَتَيْنِ : صُمُّ ذُووِ أَصْمَاعٍ ، وَبُكْمُ
ذُووِ كَلَامٍ ، وَعُمَى ذُووِ أَبْصَارٍ ؛ لَا أَخْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ نِقَةِ
عِنْدَ الْبَلَاءِ .

تَرَبَّتْ أَيْدِيكُمْ يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رِعَاتُهَا أَكَلَمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ
مِنْ آخَرٍ .

وَاللَّهِ لَسَكَاةً فِيكُمْ فِيمَا إِخَالَكُمْ أَنْ لَوْ حَسَّ الْوَعَى ، وَحَمَى الضَّرَابُ ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ
عَنْ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبْلِهَا . وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي ؛ وَمِنْهَاجٍ
مِنْ نَبِيِّ ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبُ لَقُطًا .

الشَّنَجُ

أَمَلُهُ : آخَرُهُ ، وَأَخَذَهُ فَاعِلٌ ، وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : « فُلُنُ يَفُوتُهُ » . وَالْمُرْصَادُ ^(١) :
الطَّرِيقُ ، وَهِيَ مِنْ أَلْفَاظِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ .

وَمَجَازُ طَرِيقِهِ : مَسْلَكَهُ وَمَوْضِعُ جَوَازِهِ . وَالشَّنَجُ : مَا يَنْشَبُ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظْمٍ
أَوْ غَيْرِهِ ، وَمَوْضِعُ الشَّنَجِ : هُوَ الْخَلْقُ نَفْسُهُ . وَمَسَاغُ رِيقِهِ : مَوْضِعُ الْإِسَاغَةِ ، أَسْفَتْ
الشَّرَابِ : أَوْ صَلَّتُهُ إِلَى الْمَعْدَةِ . وَيَجُوزُ : سَفَتْ الشَّرَابَ أَسْوَغَهُ وَأَسِيفَهُ ، وَسَاغَ الشَّرَابُ
نَفْسُهُ يَسُوغُ سَوَغًا ، أَيْ سَهْلًا مَدْخُلُهُ فِي الْخَلْقِ ، يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى . وَهَذَا الْكَلَامُ مِنْ
بَابِ التَّوَسُّعِ وَالْجَازِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحَصُولُ فِي الْجِهَاتِ ، وَلَكِنَّهُ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ ^(٢) . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
الْوَرِيدِ ﴾ ^(٣) .

(١) وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفَجْرِ ٨٩ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ﴾ .

(٢) سُورَةُ ق ١٦ .

(٣) سُورَةُ الْحَدِيدِ ٤ .

ثم أقسم عليه السلام أن أهل الشام لابد أن يظهروا على أهل العراق ، وأن ذلك ليس لأنهم على الحق وأهل العراق على الباطل ، بل لأنهم أطوعُ الأُميرهم ، ومدار النصر في الحرب إنما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره ، لا على اعتقاد الحق ، فإنه ليس يُغني في الحرب أن يكون الجيش محققاً في العقيدة إذا كان مختلف الآراء ، غير مطيع لأمر المدبر له ، ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً ما ينتصرون على أهل التوحيد..

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة في هذا المعنى ، فقال : العادة أن الرعية تخاف ظلم الوالي ، وأنا أخاف ظلم رعيتي ، ومن تأمل أحواله عليه السلام في خلافته ، علم أنه كان كالحجور عليه ، لا يتمكن من بلوغ مافي نفسه ، وذلك لأن العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين ، وكان السواد الأعظم ، لا يمتقدون فيه الأمر الذي يجب اعتقاده فيه ، ويرون تفضيل من تقدمه من الخلفاء عليه ، ويظنون أن الأفضلية إنما هي للخلافة ، ويقعد أخلافهم أسلافهم ، ويقولون : لولا أن الأوائل علموا فضل المتقدمين عليه لما قدموهم ، ولا يرونه إلا بعين التبعية لمن سبقه ، وأنه كان رعية لهم ، وأكثرهم إنما يحارب معه بالحمية وبذخوة العربية لا بالدين والعقيدة ، وكان عليه السلام مدفوعاً إلى مداراتهم ومقاربتهم ؛ ولم يكن قادراً على إظهار ما عنده ، ألا ترى إلى كتابه إلى قضاته في الأمصار . وقوله : « فاقضوا كما كنتم تقضون ، حتى تكون للناس جماعة ، وأموت كما مات أصحابي » ؛ وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير ، ومعناه واضح ، وهو أنه قال لهم : أتبعوا عادتكم الآن بعاجل الحال في الأحكام والقضايا التي كنتم تقضون بها إلى أن يكون للناس جماعة ؛ أي إلى أن تسفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة ، وحينئذ أعرفكم ما عندي في هذه القضايا والأحكام التي قد استمررتم عليها .

ثم قال : « أو أموت كما مات أصحابي » ، فمن قائل يقول : عني بأصحابه الخلفاء المتقدمين

ومن قائل يقول: عني بأصحابه شيعته كسلمان، وأبي ذر، والمقداد، وعمار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله علي المنبر في أتهات الأولاد: «كان رأيي ورأيي عمر ألا يُبْعَن، وأنا أرى الآن بيعهن»؛ فقام عليه عبدة الساماني فقال له: رأيك مع الجماعة أحب إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حرقاً، فهل يدل هذا على القوة والقهر، أم على الضعف في السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضي في ذلك الوقت غير السكوت والإمساك! ألا ترى أنه كان يقرأ في صلاة الصبح وخلفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضا قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنْ أُلْحِمْ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضَى بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾. فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضا له على البديهة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾^(١). وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بين، وبهذا نحوه استدلال أصحابنا المتكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره، لأن من مني بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، المتمرد عليه، ثم كثر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلمين، من أصحابنا: إن سياسة علي عليه السلام إذا تأملها المنتصف متدبرا لها بالإضافة إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، جرت تجرَى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً وتتولاه وتبرأ من أعدائه، والأخرى - وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس - يعتقدون أن عثمان قُتل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم من يصرح بتسكفيره، وكل من هاتين الفرقتين يزعم أن عليا عليه السلام موافق لها على رأيها، وتطالبه في كل وقت بأن يبدى مذهبه في عثمان، وتسأله أن يجيب بحجوب واضح في أمره، وكان عليه السلام،

(١). سورة الروم ٦٠، وهذه قراءة علي، وقراءة المصحف: ﴿يَقْضَى بِالْحَقِّ﴾، وانظر تفسير

يعلم أنه متى وافق إحدى الطائفتين بآبنته الأخرى ، وأسلمته وتولت عنه وخذلتة ، فأخذ عليه السلام يعتمد في جوابه ويستعمل في كلامه ما تظنّ به كلّ واحدة من الفرقين أنه يوافق رأيها ويمائل اعتقادها، فتارة يقول : الله قتله وأنا معه ، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنه أراد أن الله أمانته وسيميتني كما أمانته ؛ وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضا، وكذلك قوله تارة أخرى : « ما أمرت به ولا نهيت عنه » ، وقوله : « لو أمرت به لكانت قاتلا ، ولو نهيت عنه لكانت ناصرا » ، وأشياء من هذا الجنس المذكورة مروية عنه ، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قبض عليه السلام ، وكلّ من الطائفتين موالية له معتقدة أن رأيها في عثمان كرايها ، فلو لم يكن له من السياسة إلا هذا القدر - مع كثرة خوض الناس حينئذ في أمر عثمان والحاجة إلى ذكره في كل مقام - لكان في الدلالة على أنه أعرفُ الناس بها ، وأحقّهم فيها ، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام ، وتدبير أخول الرجال .

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : « ونصحت لكم » ، هو الأوضح ، وعليه ، ورد لفظ القرآن ^(١) ، وقول العامة : « نصحتك » ليس بالأوضح .

قوله : « وَعَبِيدٌ كَارِبَابٍ » يصفهم بالكبر والتَّيْبَةِ .

فإن قلت : كيف قال عنهم إنهم عبيد وكانوا عَرَبًا صليبية ؟ قلت : يريد أن أخلاقهم كأخلاق العبيد ؛ من الغدر والخلاف ودناءة الأنفس ؛ وفيهم مع ذلك كبر السادات والأرباب وتيهمهم ؛ فقد جمعوا خصال الشؤ كلها .

وَأَيَادِي سَبَأَ ؛ مثل يضرب للمتفرقين، وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ : ﴿ وَمَزَقْنَاهُمْ

(١) من قوله تعالى في سورة الأعراف ٧٩ : ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ .

كُلُّ مُمَزَّقٍ ^(١) وسبأ مهموز ؛ وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ؛ ويقال : ذهبوا أيدي سبا وأيادي سبا ، الياء ساكنة ؛ وكذلك الألف ؛ وهكذا نقل المثل ، أي ذهبوا متفترقين ، وهما اسمان جملا واحدا ؛ مثل معدى كرب .

قوله : « تتخادعون عن مواعظكم » ، أن تمسكون عن الاتعاض والانزجار ، وتقلعون عن ذلك ؛ من قولهم : كان فلان يعطى ثم خدع ، أي أمسك وأقلع . ويجوز أن يريد : تتلونون وتختلفون في قبول الموعدة ؛ من قولهم : خلق فلان خلق خادع ، أي متلون ، وسوق خادعة أي مختلفة متلونة ، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها ؛ لأنه إنما يقال : فلان يتخادع لفلان ؛ إذا كان يُرِيه أنه منخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة ؛ وهذا لا يطابق معنى الكلام .

والحنية : القوس . وقوله : « كظهر الحنية » ، يريد اعوجاجهم ؛ كما أن ظهر القوس معوج . وأعضل المقوم ، أي أعضل داؤه ، أي أعيا . ويروى : « أيها الشاهدة أبدانهم » بحذف الموصوف .

ثم أقسم أنه يود أن معاوية صارفه بهم ، فأعطاه من أهل الشام واحدا ، وأخذ منه عشرة ، صرّف الدينار بالدراهم ؛ أخذ هذا اللفظ عبد الله بن الزبير لما وفد إليه أهل البصرة ، وفيهم الأحنف ، فتكلم منهم أبو حاضر الأسدي ، وكان خطيبا جميلا ، فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت ؛ فوالله لو ددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق واحدا من أهل الشام صرّف الدينار بالدراهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لنا ولك مثلا ، أفأذن في ذكره ؟ قال : نعم . قال : مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى :

عَلَّقَهَا عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي ، وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ ^(٢)

(٢) هو أعشى قيس ، ديوانه ١٣ .

(١) سورة سبا ١٩ .

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَأَحَبُّبَتُ أَهْلُ الشَّامِ وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ فَمَا تَصْنَعُ ؟
ثم ذكر عليه السلام أَنَّهُ مَنِي ، أَيْ بُلِيٍّ مِنْهُمْ بِنِثْلٍ وَائِثْنَيْنِ ، إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ بِخُمْسٍ ، لِأَنَّ
الثَّلَاثَ إِيجَابِيَّةٌ وَالْإِثْنَيْنِ سَلْبِيَّةٌ ، فَأَحَبُّ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ .
ويروى : « لَا أَحْرَارَ صَدُقَ عِنْدَ الْلِقَاءِ » جَمْعُ صَادِقٍ . وَلَا إِخْوَانَ ثَقَاةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ ،
أَيْ مُوْتَوِقٍ بِهِمْ .

تَرَبَّتْ أَيْدِيكُمْ ، كَلِمَةٌ يَدْعُو عَلَى الْإِنْسَانِ بِهَا ، أَيْ لَا أَصْبَيْتُمْ خَيْرًا ، وَأَصْلُ « تَرَبَّ »
أَصَابَهُ التَّرَابُ ، فَكَأَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِ بِأَنْ يَفْتَقِرَ حَتَّى يَلْتَصِقَ بِالتَّرَابِ .
قوله : « فَمَا إِخَالَكُم » أَيْ فَمَا أَظُنُّكُمْ ؛ وَالْأَفْصَحُ كَسْرُ الْأَلْفِ وَهُوَ السَّمَاعُ ؛
وَبَنُو أَسَدٍ يَفْتَحُونَهَا وَهُوَ الْقِيَاسُ .

قوله : « أَلَوْ » أَصْلُهُ « أَنْ لَوْ » ثُمَّ أُدْغِمَتْ الدَّوْنُ فِي الْأَلْفِ فَصَارَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً .
وَحَمْسُ الْوُغَى ، بِكَسْرِ الْمِيمِ : اشْتَدَّ وَعَظُمَ ، فَهُوَ حَمْسٌ وَأَحْمَسُ ؛ بَيْنَ الْحَمْسِ وَالْحَمَاسَةِ .
وَالْوُغَى فِي الْأَصْلِ : الْأَصْوَاتُ وَالْجَلْبَابَةُ ، وَسَمِيَتْ الْحَرْبُ نَفْسَهَا وَغَى لَمَّا فِيهَا مِنْ ذَلِكَ .
وقوله : « انْفِرَاجُ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا » ، أَيْ وَقْتُ الْوِلَادَةِ .

قوله : « أَقْطَعُ لَقَطًا » يَرِيدُ أَنَّ الضَّلَالَةَ غَالِبَةً عَلَى الْهُدَى ؛ فَأَنَا التَّقَطُّ طَرِيقُ الْهُدَى
مِنْ بَيْنِ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ لَقَطًا مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا كَمَا يَسْلُكُ الْإِنْسَانُ طَرِيقًا دَقِيقَةً ، قَدْ
اكتَنَفَهَا الشُّوْكَ وَالْعَوْسَجُ مِنْ جَانِبَيْهِمَا كَلَيْهِمَا ، فَهُوَ بِلَتَقَطِ السَّهَجِ التَّقَاطَا .

الْأَصْلُ :

أَنْظَرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَنَمَتَهُمْ ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
هُدًى ، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى ، فَإِنْ لَبَدُوا فَلَبَدُوا ، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا ، وَلَا
تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشِيرُهُمْ مِنْكُمْ ، لَقَدْ
كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْمًا غُبْرًا ؛ وَقَدْ بَاتُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا ، يُرَاحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ ،
وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكْبَ الْمَغْزَى ، مِنْ
طُولِ سُجُودِهِمْ ؛ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبْلُ جُيُوبَهُمْ ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ
الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ ، خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ ، وَرَجَاءَ لِلثَّوَابِ .

الْبَرْخُ

السَّمْتُ : الطريق ، وَلَبَدُ الشَّيْءِ بِالْأَرْضِ ، يَلْبُدُ بِالضَّمِّ لُبُودًا : انْصَقَ بِهَا . وَيُصْبِحُونَ
شُعْمًا غُبْرًا ، مِنْ قَشَفِ الْعِبَادَةِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَصُومِ النَّهَارِ وَهَجْرِ الْمَلَاذِّ ، فَيُرَاحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ
وَخُدُودِهِمْ ، تَارَةً يُسْجِدُونَ عَلَى الْجِبَاهِ ، وَتَارَةً يَضَعُونَ خُدُودَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ؛ تَذَلُّلًا
وَخُضُوعًا . وَالْمَرَاوِحَةُ بَيْنَ الْعَمَلِ : أَنْ يَعْمَلَ هَذَامَرَةً وَهَذَا مَرَّةً ، وَيُرَاحُ بَيْنَ رَجْلَيْهِ ؛ إِذَا قَامَ
عَلَى هَذِهِ تَارَةً وَعَلَى هَذِهِ أُخْرَى .

وَيُقَالُ مَغْزَى لِهَذَا الْجِنْسِ مِنَ الْغَنَمِ وَمَعِيزٌ وَمَعِيزٌ وَأَمْعُوزٌ وَمَغْزٌ ، بِالتَّسْكِينِ ، وَوَاحِدُ
الْمَغْزَى مَاعِزٌ ، كَصَخْبٍ وَصَاحِبٍ ، وَالْأُنْثَى مَاعِزَةٌ وَالْجَمْعُ مَوَاعِزُ .
وَهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ : سَالَتْ ، تَهْمَلُ وَتَهْمِلُ .

وَيُرْوَى « حَتَّى تَبْلُ جِبَاهَهُمْ » ، أَيْ يَبْلُ مَوْضِعَ السُّجُودِ فَتَبْلُ الْجِبَاهَةَ بِمَلَاقَاتِهِ . وَمَادُوا :
تَحَرَّكُوا وَاضْطَرَبُوا ، إِمَّا خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ كَمَا يَتَحَرَّكُ الرَّجُلُ وَيَضْطَرِبُ ، أَوْ رَجَاءً لِلثَّوَابِ
كَمَا يَتَحَرَّكُ النَّشْوَانُ مِنَ الطَّرْبِ ، وَكَمَا يَتَحَرَّكُ الْجَذَلُ الْمَسْرُورُ مِنَ الْفَرَحِ .

(٩٧)

الأفضل

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللّٰهُ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدْعُوَ لِلّٰهِ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحْلَوْهُ ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَّوْهُ ،
وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ ، وَنَبَأَ بِهِ سُوءَ رِعْيِهِمْ^(١) ، وَحَتَّى
يَقُومَ الْبَاكِيانُ يَبْكِيانَ : بَاكِ يَبْكِي لِذِيْنِهِ ، وَبَاكِ يَبْكِي لِذُنْيَاهُ ، وَحَتَّى تَكُونَ
نُصْرَةٌ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ ، وَإِذَا غَابَ
أَغْتَابَهُ ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمُكُمْ فِيْهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللّٰهِ ظَنًّا ، فَإِنْ أَتَاكُمْ اللّٰهُ
بِعَاقِبَةٍ فَاقْبَلُوهَا ، وَإِنْ أَبْتَلَيْتُمْ فَاصْبِرُوا ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

الشرح

تقدير الكلام : لا يزالون ظالمين ؛ فحذف الخبر وهو مراد ، وسدت « حتى »
وما بعدها مسد الخبر ؛ ولا يصح ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن « زال » بمعنى تحرك
وانتقل ؛ فلا تكون محتاجة إلى خبر ، بل تكون تامة في نفسها ، لأن تلك مستقلة بها يزول
بالواو ، وهما بالالف لا يزالون ؛ فهي الناقصة التي لم تأت تامة قط ؛ ومثلها في أنها لا تزال
ناقصة : ظل وما فتئ وليس .

والمحرم : ما لا يحل انتهاكه وكذلك الحرمة بفتح الراء وضمها .
وبيوت المَدَر : هي البيوت المبنية في القرى ، وبيوت الوبر : ما يتخذ في البادية من وبر
الإبل والوبر لها كالصوف للضأن ، وكالشعر المعز .

(١) زاد في مخطوطة النهج بعدها : « ونزل به غيهم » . (٢) مخطوطة النهج : « فإذا » .

وقد وَبِرَ البعيرُ بالكسر ، فهو وَبِرٌ ، وأوبر ، إذا كثر وبرُّه . ونبا به منزله : إذا
ضربه ولم يوافقه ، وكذلك نبا به فراشه ، فالفعل لازم ، فإذا أردت تعديته بالهمزة قلت : قد أنبى
فلان على منزلى ، أى جعله نائياً ، وإن عديته بحرف الجر قلت : قد نبا بمنزلى فلان ، أى
أنباه على ، وهو فى هذا الموضع معدى بحرف الجر .

وسوء رِعَيتهم أى سوء ورعهم ، أى تقواهم . والورع بكسر الراء : الرَّجُلُ التَّقِيُّ ، ورع
يرع بالكسر فيهما ورعا ورعة ، ويروى : « سوء رِعَيتهم » ، أى سوء سياستهم وإمرتهم .
ونصرة أحدكم من أحدكم ؛ أى انتصاره منه وانتقامه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ؛ وقد تقدم
شرح هذا المعنى ؛ وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نصرة العبد
وتقدير الكلام : حتى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيد العبد السيئ
الطريقة إياه ، « ومن » فى الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره من جانب أحدكم ومن
جانب سيده ؛ وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله : « إذا شهد أطاعه » ؛
وهو الكلام الذى إذا استمر المعنى جعل حالا من العبد بقوله : « من سيده » . والضمير فى
قوله : « فيها » يرجع إلى غير مذكور لفظاً ؛ ولكنه كالمذكور ؛ يعنى الفتنة ، أى حتى
يكون أعظمكم فى الفتنة غناء .

ويروى برفع : « أعظمكم » ونصب « أحسنكم » والأول أليق ؛ وهذا الكلام
كله إشارة إلى بنى أمية .

(٩٨)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ ، وَنَسْأَلُهُ الْعَافَاةَ فِي الْأَذْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ .

أَوْصِيَكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا ، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفَرٍ سَلَكَوا سَبِيلًا فَسَكَّاهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمُّوا عَلَمًا فَسَكَّاهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ ؛ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرَى إِلَى الْعَابَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاةً مِنْ لَهْ يَوْمٍ لَا يَعُدُّهُ ، وَطَالِبٌ حَيْثُ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ ، وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا !

فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا ، وَلَا تَعْجَبُوا بِزَيْدَتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ ، وَزَيْدَتِهَا وَنَعِيمِهَا إِلَى زَوَالٍ ، وَضَرَّاءُهَا وَبُؤْسُهَا إِلَى نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ . أَوْ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ ، وَفِي آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ تَبَصُّرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ !

أَوْ لَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، وَإِلَى الْخَلْفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ ! أَوْ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى ؛ فَمَيْتٌ يُبْكِي ، وَآخَرٌ يُعْزِي ، وَصَرِيحٌ مُبْتَلًى ، وَعَائِدٌ يَعُودُ ، وَآخَرٌ يَنْفُسُهُ يَجُودُ ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا

وَالْمَوْتُ يُطْلَبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ ؛ وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي !
أَلَا فَادْكُرُوا هَازِمَ اللَّذَاتِ ، وَمُنْغَصَّ الشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعَ الْأُمْنِيَّاتِ ، عِنْدَ
الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَاسْتَعِينُوا اللَّهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ
أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

التَّيْنِخُ :

لما كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه ؛ لأنّ المجهول لا يحمّد عليه ؛ ولما كان المستقبل
غير معلوم جعل الاستعانة بإزائه ؛ لأنّ الماضي لا يُستعان عليه ، ولقد ظُرف وأبدع عليه
السلام في قوله : « ونسأله المعافاة في الأديان ، كما نسأله المعافاة في الأبدان » ، وذلك أنّ
للأديان سُقماً وطباً وشفاء ؛ كما أنّ للأبدان سُقماً وطباً وشفاء ، قال محمود الوراق :
وإذا مرضتَ من الذُّنُوبِ فداوِها بالذِّكْرِ إنَّ الذِّكْرَ خيرُ دواءٍ
والسُّقْمُ في الأبدانِ ليسَ بضائرٍ والسُّقْمُ في الأديانِ شرٌّ بلاءٍ
وقيل لأعرابي : ما تشكي ؟ قال : ذنوبي ، قيل : فما تشتهي ؟ قال : الجنة ، قيل :
أفلا ندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني .

سمعتُ عفيفة بنت الوليد البَصْرِيَّةَ العابدة رجلاً يقول : ما أشدَّ العمى على من كان
بصيراً ! فقالت : عبد الله ! غَفَلْتُ عن مرض الذنوب ، واهتممت بمرض الأجساد ؛ عمى
القلوب عن الله أشدَّ من عمى العين عن الدنيا ، ودِدْتُ أن الله وهب لي كُنْهَ حُبِّهِ ، ولم يُبقِ
منى جارحة إلا تبكها ^(١) .

قيل لحسان بن أبي سنان في مرضه : ما مرضك ؟ قال : مرض لا يفهمه الأطباء ؛ قيل :

(١) تبكها : أسقمها .

وما هو ؟ قال : مرض الذنوب ؛ فقيل : كيف تجدك الآن ؟ قال : بخير إن نجوتُ من النار ، قيل : فما تشتهي ؟ قال : ليلة طويلةٌ بعيدةٌ ما بين الطرفين أحبيها بذكر الله .
ابن شبرمة : عجبتُ ممن يحتِمى من الطعام مخافة البلاء ، كيف لا يحتِمى من الذنوب مخافة النار !

قوله عليه السلام : « الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها » معنى حسن ؛ ومنه قول أبي الطيب :

كلّ دَمْعٍ يسيلُ منها عليها وبفكّ اليدين عنها تُخَلِّي^(١)
والرفض : التّرك ؛ وإبل رَفُضٌ : متروكة ترعى حيث شاءت ، وقوم سَفَرٌ ، أى مسافرون . وأمّوا : قصدوا ، والعلم : الجبل أو المنار فى الطريق يهتدى به .
وكأنّ فى هذه المواضع كفى فى قوله : « كأنك بالدنيا لم تسكن » ، وكأنك بالآخرة لم تزل ، ما أقرب ذلك وأسرع ، وتقدير الكلام هاهنا : كأنهم فى حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له ، وكأنهم فى حال كونهم غير بالغين له بالغون له ، لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شَبَّهوا وهم فى الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية .
قوله عليه السلام : « وكم عسى الجري » أجزى فلان فرسه إلى الغاية ، إذا أرسلها ؛ ثم نقل ذلك إلى كل مَنْ يقصد بكلامه معنى أو بفعله غرضاً ، فقيل : فلان يجرى بقوله إلى كذا ، أو يجرى بحركته الغلانية إلى كذا ، أى يقصد وينتهى بإرادته وأغراضه ولا يعمده ولا يتجاوزها .

والحيث : السريع . ويحدوه : يسوقه . والمنافسة : المحاسدة ، ونفست عليه بكذا ، أى ضننت . والبؤس : الشدة . والنفاذ : الفناء .

(١) ديوانه ٣ : ١٣١ .

وما في قوله : « على أثر الماضي ما يمضي الباقي » إِمَّا زائدة أو مصدرية ، وقد أخذ هذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مَسْلَمَة بن عبد الملك ؛ قيل : لما مات مسلمة بن عبد الملك ، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جنازته ، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشْوَانٌ تَمِيلُ يَجْرُ مُطْرَفَ خَزٍّ ؛ وهو يندب مسلمة ومواليه حوله ، فوقف على هشام ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ عُقِبَ مَنْ بَقِيَ لِحُوقِ مَنْ مَضَى ؛ وقد أفقر بعد مسلمة الصَّيْدُ لِمَنْ رَمَى ، واختلَّ الثغر فوهى ، وارتجَّ الطود فهوى ؛ وعلى أثر مَنْ سلف ما يمضي من خَلَفَ ، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى .

قوله عليه السلام : « عند مساورة الأعمال القبيحة » العامل في « عند » قوله : « اذكروا » أى ليسكن ذكركم الموت وقت مساورتكم ، والمساورة : الموائمة ، وسار إليه يَسُور سَوْرًا : وثب ، قال الأخطل يصف خمرآة له :

لَمَّا أَتَوْهَا بِمَصْبَاحٍ وَمِيزَانِهِمْ سَارَتْ إِلَيْهِمْ سُورُورُ الْأَبْجَلِ الضَّارِ (١)
أى كوئوب العرق الذى قد فُصِدَ أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه ؛ ويقال : إِنْ لَغَضِيهِ
لَسَوْرَة ، وهو سَوَار ، أى وثاب مُعَرِّد .

(١) ديوانه ١١٨ . المنزل : الثقب في جانب الحايية تجرى منه الحجر صافية . والأبجل : عرق يكون في الدواب . وانظر اللسان (سور) .

(٩٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

الْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ . نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ
أُمُورِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا ، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا ، فَأَدَّى أَمِينًا ، وَمَضَى رَشِيدًا ،
وَخَلَفَ فِيْنَا رَايَةَ الْخَلْقِ ؛ مَنْ تَقَدَّمَ مَرَقَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ .
دَلِيلُهَا مَكِثُ الْكَلَامِ ، بَطْنُهَا الْقِيَامُ ، سَرِيعُهَا إِذَا قَامَ ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ ،
وَأَشْرَيْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ؛ جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ ؛ فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ؛ حَتَّى
يُطْلِعَ اللَّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ ، وَلَا تَيْتَسُّوا
مِنْ مُذِيرٍ ، فَإِنَّ الْمُدِيرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ ، وَتَذْهَبَ الْأُخْرَى فَتَرْجِعَا
حَتَّى تَلْبُثَا جَمِيعًا .

أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ ؛ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ
نَجْمٌ ؛ فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّفَائِعُ ، وَأَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمَلُونَ .

الشرح :

يده هاهنا : نعمته ؛ يقال : لفلان عندي يد ؛ أى نعمة وإحسان ، قال الشاعر :

فإن ترجع الأيام بيني وبينها فإن لما عندي يدا لا أضيئها

وصادعا ، أى مظهرا ومجاهرا للمشركين ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (١) .
وراية الحق : الثَّقَلَانِ الخَلَفَانِ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهما الكتاب
والعِترَة .

ومَرَق : خرج ، أى فارق الحق ، يوزق السهم عن الرمية : خرج من جانبها الآخر ؛
وبه سُمِّيت الخوارق مارقة .

وزَهَقَتْ نفسه ، بالفتح زُهوقا ، أى خرجت ، قال تعالى : ﴿ وَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴾ (٢) . وزَهَقَتْ الناقة ؛ إذا سبقت وتقدّمت أمام الرّكّاب ، وزهق الباطل :
اضمحلّ ، يقول عليه السلام : مَنْ خالفها متقدّما لها أو متأخرا عنها فقد خرج عن الحق ،
ومن لازمها فقد أصاب الحق .

ثم قال : « دليلها مَكِيث الكلام » ، يعنى نفسه عليه السلام ، لأنه المشار إليه من
العِترَة ، وأعلمُ الناس بالكتاب . وَمَكِيث الكلام : بطيئه ، ورجل مَكِيث ؛ أى رزين ،
والمَكْث : اللَّبْث والانتظار ، مَكْثَ ومَكْثَ بالفتح والضم ، والاسم المَكْث والمَكْثَة
بالضم وكسرهما ، يعنى أنه ذو أناة وتؤدة ، ثم أكّد ذلك بقوله : « بلى القيام » .

ثم قال : « سريع إذا قام » ، أى هو متأنّ متثبت فى أحواله ؛ فإذا نهض جدّ وبالغ ؛
وهذا المعنى كثير جدا ؛ قال أبو الطيب :

وما قلتُ للبدرِ أنتَ اللّجَيْنُ ولا قلتُ للشمسِ أنتِ الذهبُ (٣)
فَيَقْلَقُ مِنْهُ البعيدُ الأنامُ وَيَنْضَبُ مِنْهُ البُطْءُ الغضبُ

يعنى سيف الدولة .

(١) سورة الحجر ٩٤ .

(٢) سورة التوبة ٨٥ .

(٣) ديوانه ١ : ٩٧ .

[أقوال مأثورة في مدح الأناة وذم العجلة]

ومن أمثالهم : « يريك الهوينى والأمور تطير » ؛ يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون ؛ ويقولون لمن هو كذلك : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾^(١) .

ووقع ذو الرياستين إلى عامل له : إنَّ أسرع النار التهاباً أسرعها خموداً ، فتأنَّ في أمرك . ويقال : إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال : كلَّ عملٍ تريدون أن تعملوه فتوقّفوا فيه ساعة ، فإنّي لو توقفت لم يصبني ما أصابني .

بعض الأعراب يوصى ولده : إياكم والعجلة ، فإن أبي كان يكتنيتها : أمّ الندم . وكان يقال : من ورد عَجِلاً صدر خِجَلًا . وقال ابن هاني المغربي :

وكلُّ أناة في المواطن سُودٌ ولا كُناة من قديرٍ مُحْكَمٌ^(٢)
ومن يتبين أن للصنع موضعاً من السيف يصفّح عن كثيرٍ ويحلمُ
وما الرأى إلا بعد طول تثبّتٍ ولا الحزمُ إلا بعد طول تلوّمٍ^(٣)

وقوله عليه السلام : « بطيء القيام ، سريع إذا قام » فيه شبهة من قول الشنفرى :
مسبل في الحى أخوى رِفْلٍ وإذا يغزو فسمعَ أزلُّ
ومن أمثالهم في مدح الأناة وذم العجلة : أخطأ مستعجل أو كاد ، وأصاب متثبّت أو كاد .

(١) سورة النمل ٨٨ .

(٢) ديوانه ٦٧٠ .

(٣) تلوّم في الأمر : تمسكت فيه وانتظر .

ومنها :

* وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلُّ^(١) *

ومنها : ربّ عجلة تهب ربّنا^(٢) :

وقال البحتري :

حَايِمٌ إِذَا الْقَوْمُ اسْتَخَفَّتْ حُلُومُهُمْ وَقُورٌ إِذَا مَا حَادَثُ الدَّهْرِ أَجْلَبَا^(٣)
قال الأحنف لرجل سبه فأفرط : يا هذا، إنك منذ اليوم تحذو بحمل ثقال .

وقال الشاعر :

أَحْلَامُنَا تَزِينُ الْجِبَالَ رَجَاحَةً وَتَخَالِفُنَا جِنًّا إِذَا مَا تَجَهَّلُ

[فصل في مدح قلة الكلام وذم كثرتة]

فأما قوله عليه السلام : « مكثُ الكلام » ، فإن قلة الكلام من صفات المدح وكثرتة من صفات الذم . قالت جارية ابن السماك له : ما أحسن كلامك لولا أنك تكرّر ترداده ! فقال : أردّدّه حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : فإلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه .

بعث عبد العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفة حمراء ، وكتب إليه : أما بعد ، فقد بعثت إليك بقطيفة حمراء ، حمراء ؛ فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد وصلت القطيفة ، وأنت ياعم أحق ، أحق ، أحق .

(١) لافطامى وصدره :

* قَدْ يُدْرِكُ الْمُقَاتِلُ بَعْضَ حَاجَتِهِ *

وبعده :

وَرُبَّمَا فَاتَ قَوْمًا جَلَّ أَمْرُهُمْ إِذَا تَوَانَوْا وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا

وانظر جهرة أشعار العرب ٣١٣ (المطبعة الرحمانية) .

(٢) أول من قاله مالك بن عوف الشيباني . مجمع الأمثال ١ : ٢٩٤ .

(٣) ديوانه ١ : ٥٥ .

وقال المعتضد لأحمد بن الطيب المرخسي: طول لسانك دليل على قصر عقلك .
 قيل للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا خلصة
 ولا استعانة فهو بليغ . قيل له: ما الاستعانة؟ قال: ألا ترى الرجل إذا حدث قال:
 يا هناه، واستمع إلى، وأفهم، وألست تفهم؟ . . هذا كله عي وفساد .

دخل على المأمون جماعة من بني العباس؛ فاستنطقهم فوجدهم لُكْنًا، مع بسارٍ وهيئة،
 ومن تكلم منهم أكثر وهذر، فكانت حاله أخش من حال الساكتين، فقال:
 ما أبين الخلة في هؤلاء! لا خلة الأيدي بل خلة الألسنة والأحلام .

وسئل على عليه السلام عن اللسان فقال: معيار أطاشه الجهل، وأرجحه العقل .
 سمع خالد بن صفوان مكثراً يقول، فقال له: يا هذا، ليست البلاغة بخفة اللسان،
 ولا بكثرة الهذيان، وليكنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة .

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزبير: مالك لا تسهب في شعرك؟ قال:
 حسبك من الشعر غرة لأتمة، أو وصمة فاضحة .

وفي خطبة كتاب «البيان والتبيين»^(١): «لشيخنا أبي عثمان: «ونعوذ بك من شرّ
 السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر»، قال أحيحة بن الجلاح:

والصمت أجملُ بالفتى ما لم يكن عيٌ يشينه
 والقول ذو خطلٍ إذا ما لم يكن لبٌ يعينه

وقال الشاعر يرثي رجلاً:

لقد وارى المقابر من شريك كثير تحلم وقليل عاب^(٢)

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٦ ، ونسبهما إلى عرز بن علقمة .

صموتا في المجلس غير عيّر جديراً حين ينطق بالصواب

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكره التشاؤق والإطالة والهدر ، وقال : « إياك والـ ماذق » ، وقال صلى الله عليه وآله : « أبفضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » .
 روى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى ، عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنا معاشر الأـ بكلامون قليلو الكلام » ، رجل بكى على « فعمل » ..

قال : وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .
 يقلل للخليل ، وقد اجتمع بابن المقفع : كيف رأيته ؟ فقال : لسانه أرجح من عقله ،
 وقبـ لابن المقفع : كيف رأيته الخليل ؟ قال : عقله أرجح من لسانه . فكان عاقبتهم ما
 أنـ اش الخليل مصوناً مكرماً ، وقيل ابن المقفع تلك القتلة .

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عبيد عن البلاغة ؛ فقال : ما بلغك الجنة ، وباعدك
 عن النار ، وبصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيـك . قال : ليس عن هذا أسأل ، فقال :
 كما ا يخافون من فتنة القول ، ومن سقطات الكلام ، ولا يخافون من فتنة السكوت
 وسطات الصمت .

قال أبو عثمان الجاحظ : وكان عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى : لا يكاد يتكلم ،
 فإذا تكلم لم يكديطيل ، وكان يقول : لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شـهده
 دو ، نفسه ، وإذا أطال المتكلم الكلام عرضت له أسباب التشكـف ، ولا خير في
 شـم ، يأتيك بالتكـف .

وقال بعض الشعراء :

وما خطبت على الرجال فلا تكن خطـ الكلام تقوله مختالا

واعلم بأن من السكوت إبانة ومن التكلف ما يكون خبالاً^(١)
 وكان يقال : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفنكر ، فإن كان له قال ،
 وإن كان عليه سكت ، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه ، فإن همّ بالكلام تكلم به .
 وقال سعد بن أبي وقاص لعمر و ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم ، وقد كان غضب
 عليه ، فكلّموه في الرضا عنه : هذا الذي أغضبني عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
 يقول : « يكون قوم يأكلون الدنيا بأنسنتهم كما تلحس الأرض البقرُ بأنسنتها » .
 وقال معاوية لعمر و بن العاص في أبي موسى : قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللسان قصير
 الرأي فأجِدِ الحزَّ ، وطبِّقِ المفصل ، ولا تلقه برأيك كله .
 وكان يقال : لو كان الكلامُ من فضة لكان السكوت من ذهب .
 وكان يقال : مقتل الرجل بين فكّيه ، وقيل : بين لحيميه .
 وكان يقال : ماشيء بأحقّ بسجنٍ من لسان .
 وقالوا : اللسان سبع عقور .
 وأخذ أبو بكر بطرف لسانه ، وقال : هذا الذي أوردني الموارد .
 لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة ، أوصاها حين أخرجها إليه فقال :
 أمسيكي عليك ألفَ ضلّتين ، قالت : وما هما ؟ قال : فضل العُلْمة ، وفضل الكلام .
 وسئل أعرابيٌّ كان يجالس الشعبيّ عن طول صمته ، فقال : أسمع فأعلم ، وأسكت
 فأسلم .
 وقال النبي صلى الله عليه وآله : « وهل يُكَبّ الناسُ في النار على مناخرهم إلا حصائدُ
 ألسنتهم ! »^(٢) .

(١) البيان والتبيين ١ : ١٣٥ ، ونسبهما إلى بعض السكّيين .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٣٣ ؛ قال في شرحه : « أي ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه ،
 واحداً حصيداً ، تشبيهاً بما يحصد من الزرع ، وتشبيهاً باللسان وما يقتطعه بحد المنجل الذي يحصد به » .

تسكّم رجل في مجلس النّبي صلى الله عليه وآله فخطب في كلامه ، فقال عليه السلام :
« ما أعطى العبد شراً من ذلاقة لسان »

قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة خالد بن عبد الله القسريّ ، وقد أنشده متمثلاً :
وإذا الدرّ زانَ حُسنَ نُحورٍ كان للدرّ حسنَ نحرٍ زيناً
إن صاحبكم أعطى مَقُولاً ، وحُرِمَ معقولاً .

وقيل لإياس بن عمر : ادعُ لنا ، فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ، فقالوا : زدنا
يا أبا الرحمن ، فقال : أعوذ بالله من الإسهاب .

وكان القُبَاع - وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة الخزوميّ - مسهباً ،
سريع الحديث كثيره ، فقال فيه أبو الأسود الدؤليّ :

أميرَ المؤمنين جُزيتَ خيراً أرحمنا من قُبَاعِ بنِ المغيرة^(١)
بلوناهُ ولمنّاهُ فأعْيَا علينا مايمرّ لنا صريرةُ
على أن الفتى نِكحَ أكوْلَ ومسهب ، مذهبُه كثيرةُ
وقال أبو العتاهية :

كلّ امرئٍ في نفسه أعلَى وأشرفُ من قرينه^(٢)
والصنّتُ أجملُ بالفتى من منطقي في غير حينه
وقال الشاعر :

وإيّاك إيّاك المراء فبإنه إلى الشرّ دَعَا وللشرّ جالب
وكان يقال : العجلة قيّد الكلام .

(١) ملحق ديوانه ٤٧ .

(٢) ديوانه ٢٨٢ .

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فزبره ، قال : ليس حُسْنُ الخطابة على حَسَبِ طاقة الخطاب ؛ ولكن على حسب طاقة السامع .

محمد الباقر عليه السلام : إني لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل فاضلا على مقدار علمه ؛ كما أكره أن يكون مقدارُ علمه فاضلا على مقدار عقله .

أطال ربعة الرأي الكلام ، وعنده أعرابي ، فلما فرغ من كلامه ، قال للأعرابي : ماتعدون العى والنهامة فيكم ؟ قال : ما كنت فيه . أصلحك الله منذ اليوم !

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام : إذا تمَّ العقلُ نقص الكلام .
واصل بن عطاء : لأن يقولَ الله لي يوم القيامة : هَلَّا قلتُ . أحبُّ إلى ، من أن يقول لي : لم قلت ؟ لئني إذا قلتُ طالبنى بالبرهان ؛ وإذا سكتَ لم يطالبنى بشيء .

نزل النعمان بن المنذر برابية ، فقال له رجل من أصحابه : أبيت اللعن ! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية ، إلى أين . كان يبلغ دمه ؟ فقال النعمان : المذبوب . والله أنت ، ولأنظرن إلى أين يبلغ دمك ! فذبحه . فقال رجل : ربّ كلمة تقول : دغى .

أعرابي : رب منطقٍ صدّلعَ جمعا ، ورب سكوتٍ شَعَبَ صدعا .
قالت امرأة لبعلمها : مالك إذا خرجت تطلّقت وتحدّثت ، وإذا دخلت قعدت

وسكت ؟ قال : لأنى أدقّ عن جليلك ، وتجلّين عن دقيقتي .
التخمي : كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلمون الكلام .

على بن هشام :

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلّم
إذا لم يكن صمت الفنى من بلادِ وعى ، فإن الصمت أهدى وأسلم
وهيب بن الورد : إن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، والعاشرة العزلة عن الناس .

مكث الربيع بن خثيم عشرين سنة لا يتكلم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام ، فمعت منه كلمة واحدة ، قال لما بلغه ذلك : أوقد فعلوها ! ثم قال : « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . ثم عاد إلى السكوت حتى مات .

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

زعم ابن سلمي أن حلي ضربي ما ضرَّ قبلي أهله الحليم
إننا أناس من سجيبتهم صدق الحديث ورأيهم حتم
لبسوا الحياء فإن نظرت حسبهم سقموا ولم يمسسهم سقم
إني وجدت العدم أكبره عدم العقول وذلك العدم
والمرء أكثر عيبه ضرراً خطل اللسان وصمته حكم
جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم المؤمن صموتا فادنوا » ، فإنه يلقى الحكمة .

سفيان بن عيينة : من حرم العلم فليصمت ، فإن حرمها فالموت خير له .
وكان يقال : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك .

واعلم أن هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة الثالثة من خلافته ، ركني فيها عن حال نفسه ، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه ، ملائمتهم له ؛ وهكذا وقع الأمر ، فإنه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشدَّ اجتماعاً عليه من الشهر الذي قُتل فيه عليه السلام .

وجاء في الأخبار أنه عقد للحسن ابنه عليه السلام على عشرة آلاف ، ولأبي أيوب

الأنصارى على عشرة آلاف ، ولفلان ولفلان ؛ حتى اجتمع له مائة ألف سيف ، وأخرج مقدمته أمامه يريد الشام فضربه الاعمين ابن ملجم ؛ وكان من أمره ما كان ، وانفضت تلك الجموع ، وكانت كالغيم فقد راعها .

ومعنى قوله : « ألتئم له رقابكم » أطعتموه ؛ ومعنى « أشرتُم إليه بأصابعكم » أعظمتُموه وأجلتُموه ، كالملك الذى يشار إليه بالإصبع ، ولا يخاطب باللسان . ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله ؛ ولم يحدد ذلك بوقت معين ؛ ثم يطلع الله لهم من يجمعهم وبضمتهم ، يعنى من أهل البيت عليه السلام ؛ وهذا إشارة إلى المهدي الذى يظهر فى آخر الوقت . وعند أصحابنا أنه غير موجود الآن وسيوجد ، وعند الإمامية أنه موجود الآن .

قوله عليه السلام : « فلا تطمعوا فى غير مقبل ، ولا تياسوا من مدبر » ؛ ظاهر هذا الكلام متناقض ؛ وتأويله أنه نهاهم عن أن يطمعوا فى صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرئاسة ؛ وهو معنى مقبل ، أى قادم ؛ تقول : سوف أفعل كذا فى الشهر المقبل ، وفى السنة المقبلة ، أى القادمة ؛ يقول : كلّ الرياضات التى تشاهدونها فلا تطمعوا فى صلاح أموركم بشيء منها ، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم ، مستأنف الرئاسة حامل الذكر ، ليس أبوه بخليفة ، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة ، بل يتبع ويعلم أمره ؛ ولم يكن قبل معروفًا هو ولا أهله الأدنون ، وهذه صفة المهدي الموعود به .

ومعنى قوله : « ولا تياسوا من مدبر » ، أى وإذا مات هذا المهدي وخلفه بنوه بعده ، فاضطرب أمر أحدهم فلا تياسوا وتشككوا وتقولوا : لعننا أخطأنا فى اتباع هؤلاء ؛ فإن المضطرب الأمر منّا ستنبت دعائمه وتنظم أموره ، وإذا زلت إحدى رجليه ثبتت

لآخرى فتثبتت الأولى أيضا . ويروى : « فلا تطعنوا في عين مقبل » ، أى لا تحاربوا
 حدا منا ولا تياسوا من إقبال من يدبر أمره منا .
 ثم ذكر عليه السلام أنهم كنجوم السماء ، كلما خوى نجم طلع نجم . خوى :
 ال للمغيب .

ثم وعدم بقرب الفرج ، فقال : إن تكامل صنائع الله عنكم ، ورؤية ما تأملونه
 سر قد قُرب وقته ، وكأنكم به وقد حضر وكان ، وهذا على نمط المواعيد الإلهية بقيام
 ساعة ، فإن السكتب المنزلة كلها صرحت بقربها ، وإن كانت بعيدة عندنا ، لأن البعيد
 ، معلوم الله قريب ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ .

(١٠٠)

الأفضل:

ومن خطبة له عليه السلام ، وهى من الخطب التى تشتمل على ذكر الملاحم
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَالْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ
أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ .

السُّنْخُ :

يقول : البارئ تعالى موجود قبل كل شيء ، يشير العقل إليه ويفرضه أول
الموجودات ؛ وكذلك هو موجود بعد كل شيء ، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى
من جميع الموجودات ؛ فإن البارئ سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولا قبل كل
ما يفرض أولا ، وبالاعتبار الثانى يكون آخر ما يفرض آخر .

فأما قوله : « بأوليّيه وجب أن لا أول له . . . » ، إلى آخر الكلام ، فيمكن أن

يفسر على وجهين :

أحدهما أنه تعالى لما فرضناه أولا مطلقا ، تبع هذا الفرض أن يكون قديما أزليا ،
وهو المعنى بقوله : « وجب أن لا أول » وإنما تبعه ذلك ، لأنه لو لم يكن أزليا لكان محدثا
فكان له محدث ؛ والحديث متقدم على الحديث ؛ لكننا فرضناه أولا مطلقا ، أى لا يتقدم
عليه شيء ، فيلزم الحال والخلف . وهكذا القول فى آخريّته ، لأننا إذا فرضناه آخر مطلقا ؛
تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم ، وهو المعنى بقوله : « وجب أن لا آخر له »

وإنما تبعه ذلك ؛ لأنه لو لم يستحلّ عدمه لصح عدمه ؛ لكن كلّ صحيح
ويمكن فليفرض وقوعه ، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال ، مع فرضنا إياه صحيحا
وممكننا ؛ لكن فرضُ تحقق عدمه محال ، لأنه لو عدم لما عدم بعد استمرار الوجوديّة إلا
بضدّه ، لكن الضدّ المعدوم يبقى بعد تحقق عدم الضدّ المعدوم لاستحالة أن يعدمه ، ويعدم
معه في وقت واحد ؛ لأنه لو كان وقت عدم الطارئ هو وقت عدم الضدّ المطرود عليه ،
لا تمتنع عدم الضدّ المطرود عليه ؛ لأن حال عدمه الذي هو الأثر المتجدّد تكون العلة الموجبة
للأثر معدومة ، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثرا ألبتة ؛ فنبت أن الضدّ الطارئ لأبد
أن يبقى بعد عدم المطرود عليه ولو وقتا واحدا ، لكن بقاءه بعده ولو وقتا واحدا يناقض
فرضنا كون المطرود عليه آخر مطلقا ، لأن الضدّ الطارئ قد بقي بعده ، فيلزم من الخلف
والحال ما لزم في المسألة الأولى .

والتفسير الثاني : ألا تكون الضمائر الأربع راجعة إلى الباري سبحانه ، بل يكون
منها ضميران راجعين إلى غيره ، ويكون تقدير الكلام بأوليّة الأول الذي فرضنا كون
البارئ سابقا عليه ، علمنا أن الباري لا أول له ، وبآخريّة الآخر الذي فرضنا أن الباري
متأخر عنه ؛ علمنا أن الباري لا آخر له ، وإتّما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولا لأول
الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل ، وإثبات محدّثين ومحدّثين إلى غير نهاية ،
وهذا محال .

ولو كان سبحانه آخر لأخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل ، وإثبات
أضداد تعدم ويعدمها غيرها إلى غير نهاية ، وهذا أيضا محال .

الأصل :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانُ ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانَ .

(٧ - نهج - ٧)

أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلَا يَسْتَهْوِ بِنَّكُمْ عِصْيَانِي ، وَلَا تَتَرَامَوْا
بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي ؛ فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِنْ الَّذِي
أَنْبِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ^(١) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَاللَّهِ ^(٢) مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ، وَلَا جَهْلُ
السَّامِعِ .

كَتَبْتُ إِلَى أَنْظُرُ إِلَى ضَلِيلٍ قَدْ نَعَى بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَأْيَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانِ ،
فَإِذَا فَعَرَّتْ فَأَغْرَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ ، وَثَقَلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، عَصَّتِ الْفِتْنَةُ
أَبْنَاءَهَا بِأَنْبِيَائِهَا ، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا ، وَبَدَأَ مِنَ الْأَيَّامِ كُلُّوْحُهَا ، وَمِنْ اللَّيَالِي
كُدُوحُهَا ، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ ^(٣) ، وَهَدَرَتْ شَقَاقِيهِ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ،
عُقِدَتْ رَأْيَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ .

هَذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ ، وَيَمْرُ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ ؛ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُ
الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ ؛

الْبَيْزُجُ :

في الكلام محذوف ، وتقديره : « لا يجر منكم شقائي على أن تكذبوني » ، والمفعول
فضلة وحذفه كثير ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ^(٤) ،
فحذف العائد إلى الموصول ؛ ومنها قوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ
رَحِمَ ﴾ ^(٥) ، أي مَنْ رَحِمَهُ ، ولا بد من تقدير العائد إلى الموصول ؛ وقد قرئ قوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُهُ
أَيْدِيهِمْ ﴾ ، و ﴿ مَا عَلَّمْتُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٦) بحذف المفعول .

لا يجر منكم : لا يحملنكم ، وقيل : لا يكسبنكم . وهو من الألفاظ القرآنية ^(٧) .

(١) في مخطوطة النهج بعد هذه الكلمة « القرشي » (٢) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٣) مخطوطة النهج : « ساقه » (٤) سورة النكبات ٦٢ .

(٥) سورة هود ٤٣ . (٦) سورة يس ٣٥ .

(٧) من قوله تعالى في سورة هود ٨٩ : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ
مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ... ﴾

ولا يستهويتمكم ، أى لا يستهيمتمكم يجعلكم هائمين .
ولا تتراموا بالأبصار ، أى لا يلحظُ بعضكم بعضاً ؛ فعل المنكير المكذب .
ثم أقسم بالذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، فلق الحبة من البر ، أى شقها وأخرج منها
الورق الأخضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَبِّ وَالنَّوَى ﴾ (١) .
وبرأ النسمة ؛ أى خلق الإنسان ، وهذا القسم لا يزال أمير المؤمنين يُقسم به ، وهو من
مبتكراته ومبتدعانه .

والمبلّغ والسامع هو نفسه عليه السلام ، يقول : ما كذبتُ على الرسول تعمداً ،
ولا جهات ما قاله فأنقل عنه غلطاً .

والضَّليل : الكثير الضلال ، كالشَّريب والفَسِيق ونحوهما .

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان ، لأنّ هذه الصفات والأمارات فيه أنمّ
منها فى غيره ، لأنه قام بالشام حين دعا إلى نفسه ، وهو معنى نعيقه ، وفحصت
راياته بالكوفة ، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق ، وقتل مُصعباً ، وتارة لما استخلف
الأمراء على الكوفة كبشر بن مروان أخيه وغيره ، حتى انتهى الأمر إلى الحجاج ، وهو
زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثقل وطأته ، وحينئذ صعب الأمر جدّاً ، وتفاقت
الفتن مع الخوارج وعبدالرحمن بن الأشعث ، فلما كمل أمر عبد الملك - وهو معنى « أبلغ
زرعه » هلك ، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده ، كحروب أولاده مع بني المهلب ،
وكحروبهم مع زيد بن عليّ عليه السلام ، وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر
وخلد القسرى وعمر بن هُبيرة وغيرهم ، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال ،
وذهاب النفوس .

وقد قيل : إنه كُنِيَ عن معاوية وما حَدَّثَ في أيامه من الفتن ، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيد الله بن زياد ، وواقعة الحسين عليه السلام ، والأوّل أرجح ، لأنّ معاوية في أيام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد نَعَقَ بالشام ، ودعاهم إلى نفسه ، والكلام يدلّ على إنسان ينقع فيما بعد ، ألا تراه يقولُ : لسكّانِي أنظر إلى ضئيل قد نَعَقَ بالشام !

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب .

النعيق : صوت الراعي بغنمه . وفحص برأياته . من قولهم : ماله مفتحص قطاة ، أى يحتملها ، كأنهم جعلوا ضواحي الكوفة مفتحصاً وبحمّا لراياتهم .

وكوفان : اسم الكوفة ، والكوفة في الأصل اسم الرملة الحمراء ؛ وبها سميت الكوفة . وضواحيها : نواحيها القريبة منها البارزة عنها ؛ يريد رُسُتاقها .

وفغرت فاغرته : فتح فاه ، وهذا من باب الاستعارة ، أى إذا فتك فتح فاه وقتل ؛ كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيف للفتنة .

والشكيمة في الأصل : حديدة معترضة في اللجم في فم الدابة ، ثم قالوا : فلان شديدُ الشكيمة ، إذا كان شديدَ المراس شديد النفس عسير الانقياد .

وثقلت وطأته : عظم جَوْرُه وظلمه . وكلوح الأيام : عبوسها ؛ والكدوح : الآثار من الجراحات .

والقروح ، الواحد الكدح ، أى الخلدش .

والمراد من قوله : « من الأيام » ، ثم قال : « ومن الليالي » أن هذه الفتنة مستمرة الزمان كلّها ؛ لأن الزمان ليس إلا النهار والليل .

وأينع الزرع : أدرك ونضج ؛ وهو لينع والينع ، بالفتح والضم ؛ مثل النضج والنضج ؛

ويجوز بنع الزرع بنع همز ، بنع بنوعا ، ولم تسقط الياء في المضارع لأنها تقوت بأختها ،
وزرع ينعم ويانع ؛ مثل اضيح وناضح . وقد روى أيضا هذا الموضع بحذف الهمز .
وقوله عليه السلام : « وقام على بنعمه » الأحسن أن يكون « ينعم » هاهنا جمع يانع كصاحب
وصاحب ، ذكر ذلك ابن كيسان ؛ ويجوز أن يكون أراد المصدر ، أى وقام على صفة وحالته
هى اضحجه وإدراكه .

وهدرت شقاشقه ، قد مرّ تفسيره في الشقاشقية وبرقت بوارقه : سيوفه ورماحه .
والمعضلة : المسرة العلاج داء معضل .

ويخرق السكوفة : يعطمها . والقاصف : الريح القوية تكسير كل ما تمر عليه وتقصفه .
ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى ، فقال : « وعن قليل تلتف القرون بالقرون » ؛
وهذا كناية عن الدولة العباسية التي ظهرت على دولة بنى أمية . والقرون : الأجيال من
الناس ، واحدها قرن ، بالفتح .

ويحصّد القاسم ، ويحطّم الحصود : كناية عن قتل الأمراء من بنى أمية في الحرب ،
ثم قتل المأسورين منهم صبرا ، فحصد القاسم قتل المحاربة ، وحطّم الحصيد : القتل صبرا ؛ وهكذا
وقعت الحال مع عبد الله بن عليّ ، وأبي العباس السفاح .

(١٠١)

ومن خطبة له عليه السلام تجرى هذا الجرى :

الأصل :

وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ ،
خُضُوعًا قِيَامًا قَدْ أَجْلَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ ، فَأَحْسَنَهُمْ حَالًا مَنْ وَكَّدَ
لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعًا ، وَلِنَفْسِهِ مُتَسَعًا .

الشرح :

هذا شرح حال يوم القيامة ؛ والنقاش : مصدر ناقش ؛ أى استقصى فى الحساب ؛
وفى الحديث : « من نوقش الحساب عذب » .

وأجلمهم العرق : سأل منهم حتى بلغ إلى موضع اللجام من الدابة ؛ وهو الفم .
ورجفت بهم : تحركت واضطربت ، رجف يرجف بالضم ؛ والرجفة : الزلزلة
والرجاف من أسماء البحر ؛ سمي بذلك لاضطرابه .

ثم وصف الزحام الشديد الذى يكون هناك ، فقال : أحسنُ الناس حالاً هناك مَنْ
وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعًا ، وَمَنْ وَجَدَ مَكَانًا يَسَعُهُ .

الأصل :

ومنها :

فَتَنٌ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ ، تَأْتِيكُمْ
مَرْمُومَةً مَرْحُومَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا ، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا ؛ أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَذِبُهُمْ ، قَلِيلٌ

سَأْتِيَهُمْ ، يُهَادِدُهُمْ فِي اللَّهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْعَظِيمِينَ ، فِي الْأَرْضِ يَجْهَرُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ
مَعْرُوفُونَ ، فَوَيْلٌ لَكَ يَا بَعْرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نَقَمِ اللَّهِ إِلَّا رَهَجَ لَهُ وَلَا حِصْنٌ ،
وَسَيُجَنَّبُكَ أَهْلُكَ بِالْمَوْتِ الْأَنْحَرِ ، وَالْجُلُوعِ الْأَغْبَرِ .

البَرْخُ

قطع الليل : جمع قِطْع ؛ وهو الظلمة ، قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ
الَّيْلِ ﴾ ^(١) .

قوله : « لا تقوم لها قائمة » ، أى لا تنهض بحربها فئة ناهضة ، أو لا تقوم لتلك الفتنة
قائمة من قوائم الخيل ؛ بمعنى لا سبيل إلى قتال أهلها ، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنية قائمة
بل تهدم .

قوله : « ولا يرد لها راية » ؛ أى لا تنهزم ولا تفرّ ، لأنها إذا فرت فقد رُدّت
على أعقابها .

قوله : « مزمومة مرحولة » ، أى تامة الأدوات كاملة الآلات ، كاللناقة التى عليها
رَحَامُها ، ومما قد استعدت لأن تُركب .

يَعْفَرُهَا : يبدفها . ويجهدها : يحمل عابها فى السَّيْرِ فوق طاقتها ؛ جهدت دابتي ؛
بالفتح ، وينوز : أجهدت ؛ والمراد أن أرباب تلك الفتن يجهدون ويحدون بإضرار
ناريها ، رَجُلًا ورسولًا ، فالرجل كفى عنهم بالفتنة ، والفرسان كفى عنهم بالراكب .
والسَّكَب : الشدة من البرد وغيره ، ومثله السَّكَلْبَةُ ؛ وقد كَلَبَ الشتاء ، وكَلَبَ
القمح ، وكَلَبَ العدو ، والسَّكَبُ أيضًا : الشَّرّ ، دفعت عنك كَلَبَ فلان ، أى
شره وأذاه .

وقوله : « قليل سَلَبُهُم » ، أى همَّهم القتل لا السلب ، كما قال أبو تمام .
 إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ ^(١)
 ثم ذكر عليه السلام أن هؤلاء أرباب الفتن يجاهدكم قوم أذلة ، كما قال الله تعالى :
 ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) ، وذلك من صفات المؤمنين .
 ثم قال : هم يجولون عند أهل الأرض لمحولهم قبل هذا الجهاد ؛ ولكنهم معروفون
 عند أهل السماء ، وهذا إنذار بملحمة تجرى في آخر الزمان ؛ وقد أخبر النبي صلى الله عليه
 وآله بنحو ذلك ، وقد فسّر هذا الفصل قوم وقالوا إنه أشار به إلى الملائكة لأنهم يجولون
 في الأرض ، معروفون في السماء ، واعتذروا عن لفظة « قوم » ، فقالوا : يجوز أن يقال في الملائكة
 قوم كما قيل في الجن قوم ؛ قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ^(٣) ؛
 إلا أن لفظ « أذلة عند المتكبرين » يبعد هذا التفسير .

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نقيم الله لارهج له ولا حس ، الرهج : الغبار ، وكفى
 بهذا الجيش عن جذب وطاعون يصيب أهلها حتى يبيداهم . والموت الآخر ، كفاية عن
 الوباء والجوع .

الأغرب : كفاية عن المحل ، وسمى الموت الآخر لشدة ؛ ومنه الحديث : « كنا إذا احمرّ
 البأس اتقينا برسول الله » ووصف الجوع بأنه أغبر ، لأن الجائع يرى الآفاق كأن عليها
 غبرة وظلاما ؛ وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج ؛ وهو بعيد ، لأن جيشه كان
 ذا حسن ورهج ، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن ؛ ألا تراه قال :
 « فويل لك يا بصرة عند ذلك » ، ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على
 الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

(١) ديوانه ١ : ٧١ .

(٢) سورة المائدة ٥٤ .

(٣) سورة الأحقاف ٢٩ .

(١٠٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَنْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا ؛ الصَّادِقِينَ عَنْهَا ؛ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ عَمَّا قَلِيلٍ
تَزِيلُ الثَّانَوِي السَّاكِنَ ؛ وَتَفْجَعُ الْمُتَرَفِّعَ الْآمِنَ ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَذْبَرَ ،
وَلَا بُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ .

سُرُورَهَا مَشُوبٌ بِالْحُزَنِ ، وَجِلْدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ؛ فَلَا يَغُرُّكُمْ
كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا .

رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا تَفَكَّرَ فَأَعْتَبَرَ ، وَأَعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا
عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ؛ وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ
مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ .

الشرح :

الصادقين عنها ، أى المرضيين ، وامرأة صدوف : التى تعرض وجهها عليك ثم
تصدف عنك .

وعما قليل : عن قليل ، ومازائدة .

والثاوى : المقيم ، ثوى يشوى ثواءً وثويًا ، مثل مضى يمضى مضاءً ومضيًا ؛ ويجوز :
ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة ، وجاء « أثويتُ بالمكان » ، لغة فى « ثويت ،
قال الأعشى :

أَثَوَى وَقَصَّرَ لَيْلَهُ لِيَزِيدَا فَمَصَّتْ وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةٍ مَوْعِدًا^(١)
 والمترَف : الذى قد أترفته النعمة ، أى أطففته ؛ يقول عليه السلام : لا يعود على الناس
 ما أدبر وتولَّى عنهم من أحوالهم الماضية ، كالشباب والقوَّة ، ولا يعلم حال المستقبل من صحَّة
 أو مرض ، أو حياة أو موت لينتظر ، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر :
 وَأَضْيَعَ العَمْرَ ، لا الماضى انتفعتُ بِهِ ولا حَصَلْتُ على علمٍ من الباقى
 ومشوب : مخلوط ، شبهته أشوبه فهو مشوب ، وجاء « مشيب » فى قول الشاعر :
 * وماء قدورٍ فى القِصاعِ مشيب *
 فبناه على « شيب » لم يسمَ فاعله ، وفى المثل : « هو يشوب ويروب » ، يضرب لمن
 يخلط فى القول أو العمل .

والجلد : الصلابة والقوَّة . والوهن : الضعف نفسه ، وإنما عطف للتأكيده ، كقوله تعالى :
 ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا
 فِيهَا كُفٌّ ﴾^(٣) .

ثم نهى عن الاغترار بكثرة العُجْب من الدنيا ، وعَلَّ حسنَ هذا النهى ، وقبح
 الاغترار بما نشاهده عياناً من قِلَّة ما يصحب مفارقتها منها . وقال الشاعر :
 فَمَا تَزَوَّدَ مَا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَنُوطًا غَدَاةَ الْبَيْنِ فِي خِرْقٍ
 وغدير نفحة أعوادٍ شبين له وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطقٍ
 ثم جعل التذكُّر علة الاعتبار ، وجعل الاعتبار علة الإبصار ؛ وهذا حق ، لأنَّ
 الفكر يوجب الاتعاظ ، والاتعاظ يوجب الكشف ، والمشاهدة بالبصيرة التى نورها الاتعاظ .

(١) ديوانه ١٥٠ ، وروايته : « ومضى » .

(٢) سورة المائدة ٤٨ .

(٣) سورة فاطر ٣٥ .

ثم ذكر أن ماهوكائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل - أى بعد زمان قصير - معدوماً، والزمان القصير هاهنا : انقضاء الأجل وحضور الموت .

ثم قال : إن الذى هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل - أى بعد زمان قصير أيضاً - كأنه لم يزل ؛ والزمان القصير هاهنا هو حضور القيامة ؛ وهى وإن كانت تأتى بعد زمان طويل ، إلا أن الميت لا يحس بطوله ، ولا فرقى بين ألف سنة عنده إذا عاد حياً ، وبين يوم واحد ، لأن الشعور بالبطء فى الزمان مشروط بالعلم بالحركة ، ويدل على ذلك حال النائم . ثم قال : كل معدود منقضى ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري على أن الدنيا زائلة ومنصرفة ، وقد استدلل المتكلمون بهذا على أن حركات الفلك يستحيل ألا يكون لها أول ، فقالوا لأنها داخلية تحت العدد ، وكل معدود يستحيل أن يكون غير متناهٍ ، والكلام فى هذا مذكور فى كتبنا العقلية .

ثم ذكر أن كل ما يتوقع لا بد أن يأتى ، وكل ماسياتى فهو قريب وكأنه قد أتى ، وهذا مثل قول قس بن ساعدة الإيادى : ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ! أقسم قس قسماً ، إن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ؛ سقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . اسمعوا أيها الناس وعوا ! من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

الأصل :

ومنها :

أَلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ ؛ وَإِنْ مِنْ أُنْقَاصِ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَعَبْدًا وَكَذَلِكَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ جَائِرًا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، سَائِرًا بِغَيْرِ

دَلِيلٌ ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الْآخِرَةِ كَسَلَ ؛
كَانَ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ .

الْبُخ

قوله عليه السلام : « العالم مَنْ عرف قدره » ، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام ،
وقد قال الناس بعده في ذلك فأكثرُوا ، نحو قولهم : إذا جهلت قدر نفسك فأنت تقدر غيرك
أجهل . ونحو قولهم : مَنْ لم يعرف قَدْرَ نفسه ، فالناس أعْدَرُ منه إذ لم يعرفوه ، ونحو قول
الشاعر أبي الطيب :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى^(١)

ثم عُبِّرَ عن هذا المعنى بعبارة أخرى ، فصارت مثلاً أيضاً ، وهى قوله : « كفى بالمرء
جهلاً ألا يعرف قدره » ، ومن الكلام المروى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام
مرفوعاً : « ما هلك امرؤ عرف قدره » ، رواه أبو العباس المبرد عنه في الكامل .
قال : ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : وما إخالُ رجلاً يرفع نفسه فوق قدرها
إلا من خلل في عقله .

وروى صاحب " الكامل " ، أيضاً عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : لما
حضرت الوفاة على بن الحسين عليه السلام أبي ضَمَنِي إلى صدره ، ثم قال : يا بني أوصيك
بما أوصاني به أبي يوم قُتِلَ ، وبما ذكر لي أن أباه علياً عليه السلام أوصاه به : يا بني
عليك بِبَذْلِ نَفْسِكَ ، فإنه لا يسرَ أباك بِبَذْلِ نفسه حمر النعم .
وكان يقال : مَنْ عرف قدره استراح .

وفي الحديث المرفوع : « مارفع امرؤ نفسه في الدنيا درجة إلا حطه الله تعالى في الآخرة درجات » .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّخَطُونَ عَلَيْهِ . ثم ذكر عليه السلام أَنَّ مَنْ أَبْغَضَ الْبَشَرَ إِلَى اللَّهِ عِبْدًا وَكَوَلَّهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ، أَيْ لَمْ يَمْدَحْهُ بِمَعُونَتِهِ وَأَلْطَافِهِ ، لَعَلَّهُ أَنَّهُ لَا يَنْجِعُ ذَلِكَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجَذِبُ إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ ، وَلَا يُوَثِّرُ شَيْءٌ مِثْلَ تَحْرِيكِ دَوَاعِيهِ إِلَيْهَا ، فَيَمِيلُهُ اللَّهُ حِينَئِذٍ إِلَى نَفْسِهِ .

والجائر : العادل عن السُّمْتِ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الشَّقِّ خَاطِبًا فِيمَا يَعْتَقِدُهُ وَيَذْهَبُ إِلَيْهِ مُسْتَفْتِدًا إِلَى الْجَهْلِ وَفَسَادِ النَّظَرِ جَعَلَهُ كَالسَّائِرِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

والحرث هاهنا : كلَّ مَا يَفْعَلُ لِيُثْمِرَ فَائِدَةً ، فَحَرَثَ الدُّنْيَا كَالْتِجَارَةِ وَالزَّرْعَةِ ، وَحَرَثَ الْآخِرَةَ فَعَلَ الطَّاعَاتِ وَاجْتَنَابَ الْمَقْبَحَاتِ وَالْمَعَاصِيَ ، وَسَمَّى حَرْثًا عَلَى جِهَةِ الْمَجَازِ ، تَشْبِيْهُهَا بِحَرْثِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْقِرَائِيَّةِ .

وَكَسَلَ الرَّجُلُ بِكَسْرِ السِّينِ ، يَكْسَلُ ، أَيْ يَتَنَاقَلُ عَنِ الْأُمُورِ ، فَهُوَ كَسْلَانٌ ، وَقَوْمٌ كَسَالَى وَكَسَالَى بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ .

قال عليه السلام : حَتَّى كَأَنَّ مَا عَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ ، لِحَرْصِهِ وَجَدَّهِ فِيهِ ، وَكَأَنَّ مَا وُثِنَ عَنْهُ - أَيْ فُتِرَ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ - سَاقَطَ عَنْهُ ، وَغَيْرُ وَاجِبٍ عَلَيْهِ لِإِهْمَالِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِيهِ .

الْأَصْلُ :

ومنها :

وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كَلُّ مُؤْمِنٍ نُوْمَةٍ ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يَعْرِفْ ، وَإِنْ غَابَ

لَمْ يُفْتَقَدْ؛ أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَأَعْلَامُ السَّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَابِيحِ وَلَا الْمَذَابِيحِ
الْبُذُرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضُرَاءَ نِقْمَتِهِ .
أَيُّهَا النَّاسُ ؛ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ
بِمَا فِيهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَادَ كُمْ مِنْ أَنْ يَحْجُورَ عَلَيْكُمْ ؛ وَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ مِنْ أَنْ
يَبْتَلِيَكُمْ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (١) .

قال الرضى رحمه الله تعالى :

أَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُومَةٌ» فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الذَّكَرَ الْقَلِيلَ
الشرِّ ، وَالْمَسَابِيحُ : جَمْعُ مَسْبَاحٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَسِيحُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْفِسَادِ وَالنَّامِ ،
وَالْمَذَابِيحُ : جَمْعُ مَذْبَاحٍ ، وَهُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعَ لَغِيرِهِ بِفَاحِشَةٍ أَدَاعَهَا ، وَنَوَّهَ بِهَا .
وَالْبُذُرُ : جَمْعُ بَذُورٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقُهُ .

الْبَيْتُ :

شهد : حضر ، وكفأت الإناء أى قلبته وكببته . وقال ابن الأعرابي : يجوز أ كفاتة
أيضا ، والْبُذُرُ : جمع بَذُورٍ مثل صَبُورٍ وَصُبُرٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَذِيعُ الْأَسْرَارَ ؛ وَلَيْسَ كَمَا قَالَ
الرضى رحمه الله تعالى ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ بَذُورًا وَإِنْ لَمْ يَكْثُرْ سَفَهُهُ وَلَمْ يَلْغُ مَنْطِقُهُ ؛ بَأَن
يَكُونُ عُلْمُهُ مَذْيَاعًا مِنْ غَيْرِ سَفَهٍ وَلَا لَغْوٍ . وَالضَّرَاءُ : الشَّدَّةُ ، وَمِثْلُهَا الْبَأْسَاءُ ؛ وَهِيَ إِسْمَانُ مَوْثِقَانِ
مِنْ غَيْرِ تَذَكِيرٍ ، وَأَجَازُ الْفَرَاءِ أَنْ يَجْمَعَ عَلَى أَضْرٍ وَأَبْؤُسَ ، كَمَا يُجْمَعُ النِّعْمَاءُ عَلَى أَنْعَمَ .

واعلم أنه قد جاء في التواضع وهضم النفس شيء كثير ؛ ومن ذلك الحديث المرفوع :
« مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومن تسكبر على الله وضعه » .

ويقال : إن الله تعالى قال لموسى : إِنَّمَا كَلَّمْتُكَ لِأَنَّ فِي أَخْلَاقِكَ خُلُقًا أَحَبَّهُ
الله ، وهو التواضع .

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشى الخليلاء ، فناده فقال : ويلك ! أتمشى هذه المشية ،
وأبوك أبوك ، وأمك أمك ! أما أمك فأمة ، ابتغىها بائتي درهم ؛ وأما أبوك فلا كثر الله
في الناس مثله .

ومثل قوله عليه السلام : « كل مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد » ،
قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم
على الله لأبره قسمه » .

وقال عمر لابنه عبد الله : التمس الرقة بالتواضع والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو
عن الناس ، وإياك والخيلاء فتضع من نفسك ، ولا تحقرن أحداً فإنك لا تدري لعل
من تزدريه عيناك أقرب إلى الله وسيلة منك .

وقال الأحنف : عجبت لمن جرى في تجرى البول مرتين ، من قرّجين ، كيف يتكبر !
وقد جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه
السلام هذا : « إن الله يحب الأتقياء الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا
حضرُوا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ؛ يخرجون من كل غبراء مظلمة » .

وأما إفشاء السر وإذاعته ، فقد ورد فيه أيضاً ما يكثر ، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه :
{ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَالٍ مَعِينٍ * هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ } ^(١) لكفى .

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ أَكَلَ بِأَخِيهِ أَكَلَهُ اللَّهُ مِثْلَهَا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ »
 قيل فى تفسيره : هو أن يسعى بأخيه ويحرق نفعاً بسعايته .
 الجفند : ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظفنت .

عبد الرحمن بن عوف : من سمع بفاحشة فأفشأها فهو كالذى أتأها .
 قال رجل لعمر بن عُبيد : إن عليا الأسوارى لم يزل منذ اليوم يذكر بك بسوء
 ويقول : الضال . فقال عمرو : يا هذا ، ما رعت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا
 حديثه ، ولأوفيتنى حتى حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ! اعلم أن الموت يعمما ، والبعث
 بمشرونا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا .
 وكان يقال : مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ .

وقالوا فى السعاة : يكفئك أن الصدق محمود إلا منهم ، وإن أصدقهم أخبثهم .
 وشى واش رجل إلى الإسكندر ، فقال له : أحب أن أقبل منك ما قلت فيه ،
 على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال : فكف عن الشر يكف عذك .
 قال رجل لفيلاسوف : عابك فلان بكذا ، قال : لقيتني لقيحتك بما لم يلقي
 به لحيائه .

عاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شيء بلغه عنه ، فأنكره ، فقال : أخبرني بذلك
 الثقة ، فقال : كتلا أيها الأمير ، إن الثقة لا يسم .

عرض بعض عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع فى طى كتاب كتبه إليه ، فوقع
 الفضل : قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من
 دل على قبيح كمن أجازه وعمل به ، فاطر هذا الساعى عن عملك ، وأقصيه عن بابك ،
 فإنه لو لم يكن فى سعايته كاذبا لكان فى صدقه لثما ، إذ لم يرع الحرمة ، ولم يستر
 العورة ، والسلام .

صالح بن عبد القدوس :

مَنْ يَخْبِرُكَ بِشَيْءٍ عَنْ أَخِي فَهُوَ الشَّاتِمُ ، لَأَمِنْ شَقَمِكَ
ذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يَوَاجِهْكَ بِهِ إِنَّمَا اللُّومُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَكَ
كَيْفَ لَمْ يَنْصُرْكَ إِنْ كَانَ أَخَا ذَا حِفَاطٍ عِنْدَ مَنْ قَدْ ظَلَمَكَ
طَرِيحُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الثَّقَفِيُّ^(١) :

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يَخْفُوهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَذَاعُوا ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا
وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَإِنْ غَابَ لَمْ يَفْتَقِدْ » ، أَيْ لَا يُقَالُ : مَا صَنَعَ فُلَانٌ ، وَلَا أَيْنَ
هُوَ ؟ أَيْ هُوَ خَامِلٌ لَا يَعْرِفُ .

وقوله : « أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِمْ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ ، وَيَكْشِفُ بِهِمْ ضُرَاءَ النِّقْمَةِ » ؛ وَرَوَى :
« أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَيَكْشِفُ بِهِمْ ضُرَاءَ نِقْمَتِهِ » ، أَيْ بِبَرَكَاتِهِمْ يَكُونُ
الْخَيْرُ وَيَنْدَفِعُ الشَّرُّ .

ثُمَّ ذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَنْفَلِبُ فِيهِ الْأُمُورُ الدِّينِيَّةُ إِلَى
أَضْدَادِهَا وَنِقَائِضِهَا ، وَقَدْ شَهِدْنَا ذَلِكَ عَيَانًا .

ثُمَّ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَجُورُ عَلَى الْعِبَادِ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى عَادِلٌ^(٢) وَلَا يَظْلَمُ وَلَكِنَّهُ
يَبْتَلِي عِبَادَهُ أَيْ يَخْتَبِرُهُمْ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا
كُمُتِّلِينَ ﴾^(٣) ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى ، إِذَا فَسَدَ النَّاسُ لَا يُلْجِئُهُمْ إِلَى الصَّلَاحِ ؛ لَكِنْ يَتْرَكُهُمْ
وَإِخْتِيَارَهُمْ امْتَحَانًا لَهُمْ ، فَمَنْ أَحْسَنَ أَثِيبَ ، وَمَنْ أَسَاءَ عَوِقِبَ .

(٢) ب : « عَال » .

(١) ساقطة من ب

(٣) سورة « الْمُؤْمِنُونَ » ٣٠

(١٠٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ
الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا ، وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْيًا ؛ فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ عَصَاهُ ؛ يَسُوقُهُمْ
إِلَى مَنْجَاتِهِمْ ؛ وَيُبَادِرُ يَوْمَ السَّاعَةِ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ ؛ يَحْسِرُ الْخَسِيرُ ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ ؛
فَيَقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايِقُهُ ؛ إِلَّا هَالِكًا لَا خَيْرَ فِيهِ . حَتَّى أَرَاهُمْ مَنْجَاتِهِمْ ،
وَبَوَّاهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، فَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ ، وَاسْتَقَامَتْ قِنَائُهُمْ . وَإِنَّمُ اللَّهُ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ
سَاقِيهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَائِفِهَا ، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي فَيَادِيهَا ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَلَا
خُفْتُ وَلَا وَهَنْتُ . وَإِنَّمُ اللَّهُ لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ .

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وقد تقدّم مختار هذه الخطبة ؛ إلا أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ماسبق من
زيادة ونقصان ؛ فأوجب الحال إثباتها ثانية .

الشَّيْخُ :

لقائل أن يقول : ألم يكن في العرب نبي قبل محمد ؛ وهو خالد بن (١) سنان العبسى ؟
وأيضاً فقد كان فيها هود وصالح وشعيب .

(١) هو خالد بن سنان بن غيث العبسى ، ذكره الرسول عليه السلام ؛ وقال : « ذلك نبي أضاعه قومه » .
وانظر أخباره في مروج الذهب ١ : ١٣١ (طبع أوروبا) .

ونجيب هذا القائل بأن مراده عليه السلام أنه لم يكن في زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه من ادعى النبوة ، فأما هود وصالح وشعيب ، فكانوا في دهرٍ قديم جدا ، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتابا ، ولا يدعى شريعة وإنما كانت نبوة مشابهة لنبوة جماعة من أنبياء بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع ، وإنما ينهون عن الشرك ، ويأمرون ^(١) بالتوحيد .

ومنجاتهم : نجاتهم ، نجوت من كذا نجا ، ممدود ، ونجا مقصور . ومنجاة على « مفعلة » ، ومنه قولهم : « الصديق منجاة » .

قوله عليه السلام : « ويبادر بهم الساعة » ، كأنه كان يخاف أن تسبقه القيامة ، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم ، وهم على ضلالهم .

والحسير : المعيا ، حَسَرَ البعير بالفتح ، يحسِر بالكسر حُسورا ، واستحسر مثله ، وحسرتة أنا ، يتعدى ولا يتعدى ؛ حَسَرَافُو حسير ، ويجوز أحسرتة ، بالهمزة ، والجمع حَسَرَى ، مثل قتيل وقتل ، ومنه حَسَرَ البصر ، أى كَبَلَ ، يحسِر ، قال تعالى : ﴿ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ ^(٢) . وهذا الكلام من باب الاستعارة والمجاز ، يقول عليه السلام : كان النبي صلى الله عليه وآله لحِرْصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ، ورأفته بهم ، يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده ، أو عرضت له شبهة ، أو حدث عنده ريب ، ولا يزال يوضح له ويرشده حتى يزيل ما خامر سرّه من وساوس الشيطان ، ويلحقه بالخلصين من المؤمنين ، ولم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلفين في هذا المعنى إلا من كان يعلم أنه لا خير فيه أصلا ، لعناده وإصراره على الباطل ، ومكابرته للحق .

ومعنى قوله : « حتى يابحجه غايته » ، حتى يوصله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف ، يعني اعتقاد الحق وسكون النفس إلى الإسلام ، وهو أيضا معنى قوله : « وبوأهم محلاتهم » .

(١) ساقطة من ب .

(٢) سورة الملك ٤ .

ومعنى قوله : « فاستدارت رحاها » ، انتظم أمرهم ، لأن الرّحا إمّا تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها ، وهو أيضا معنى قوله : « واستقامت قنّاتهم » ، وكلّ هذا من باب الاستعارة .

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقتها ، الساقّة : جمع سائق ، كقادة جمع قائد ، وحاكّة جمع حائك ، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظا ، والمراد الجاهلية ، كأنه جعلها مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام ، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه ، حتى فرّت وأدبرت ، واتبعها يسوقها سوقا وهي مولىة بين يديه .
حتى أدبرت بحذافيرها ، أى كلمها عن آخرها .

ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظا ، وهو قوله : « واستوسقت في قيادها » ، بمعنى الملة الإسلامية أو الدعوة ، أو ما يجري هذا الجرى . واستوسقت : اجتمعت ، يقول : لما ولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه في قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها . ويجوز أن يعود هذا الضمير الثانى إلى المذكور الأول وهو الجاهلية ، أى ولّت بحذافيرها واجتمعت كلّها تحت ذلّ المقادة .

ثم أقسم أنه ماضعف يومئذ ولا وهن ولا جبن ولا خان ، وليبقرن الباطل الآن حتى يخرج الحق من خاصرته ، كأنه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالبا عليه ، ومحيطا به ، فإذا بقر ظهر الحق السكّامن ^(١) فيه ، وقد تقدم منا شرح ذلك .

(١) ب : « السكّائن » .

(١٠٤)

الافضل:

ومن خطبة له عليه السلام :

حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ شَهِيدًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ خَلْقًا ،
وَأَنْجَبَهَا كَنَلًا ، وَأَطَهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شَيْعَةً ، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمَطَّرِينَ دِيْمَةً ، فَمَا أَحْلَوْلَتْ
لَكُمْ الدُّنْيَا فِي لَذَائِهَا ^(١) ، وَلَا تَمَسَّكُمْ مِنْ رَضَائِعِ أَخْلَافِهَا ، إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ . صَادَقْتُمُوهَا
جَائِلًا خِطَامُهَا ، قَلِقًا وَضِيئُهَا ؛ قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السُّدْرِ الْمَخْضُودِ ،
وَحَلَالُهَا بَعِيدًا غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصَادَقْتُمُوهَا وَاللَّهُ ظَلًا مَمْدُودًا إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ .

فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ،
وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دِيْمٍ ثَائِرًا ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِبًا ، وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْخَاكِمِ فِي
حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ ؛ وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ
يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ ، وَفِي دَارِ عَذَابِكُمْ .

الشرح :

معنى كون النبي صلى الله عليه وآله شهيدا، أنه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان.
أنجبتها : أكرمها ، ورجل نجيب : أى كريم بين النجابة ، والنجبة مثل الهرة ؛

(١) مخطوطة النهج : « لذاتها » .

ويقال : هو نُجْبَة القوم ؛ أى النجيب منهم ، وأنجب الرجل ، أى ولد ولدانجيبا ، وامرأته منجبة ومنجاب ، تلد النُجَبَاء ، ونسوة مناجيب .

والشيمة : الخلق . والديمة : مطر يدوم . والمستمطرون : المستعجذون والمستماحون . واحلوت : حلت ، وقد عداه حميد بن ثور في قوله ^(١) :

فَلَمَّا أَتَى عَامَانَ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْ الضَّرْعِ ، وَاحْلَوَى دِمَائًا يَرُودَهَا ^(٢)
ولم يجيئ « افعول » متعديا إلا هذا الحرف وحرف آخر ، وهو اعروريت الفرس .
وهو الرضاع ، بفتح الراء : رَضِعَ الصبي أمه ، بكسر الضاد يرضعها رضاعا ، مثل سمع يسمع سماعا ؛ وأهل نجد يقولون : رَضِعَ بالفتح يرضع بالكسر ، مثل ضَرَبَ يضرب ضربا .
وقال الأصمعي : أخبرني عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُشَدُّ هذا البيت :

وَدَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضِعُونَهَا أَفَأَوَيْقَ حَتَّى مَا يَدْرَ لَهَا تُعَلُّ ^(٣)

بكسر الضاد . والأخلاف للناقة بمنزلة الأطباء للكلبة ، واحدها خِلْف بالكسر ، وهو حَلَمَةُ الضَّرْع . والخطام : زمام الناقة ، خطمت البعير : زمامه ، وناقة مخطومة ، ونوق مخطمة .

والوَضِين للهودج ؛ بمنزلة البطان للقتب ، والتصدير للرجل ، والحزام للسرّج ؛ وهو سُيُور تنسج مضاعفة بعضها على بعض ، يشدّ بها الهودج منه إلى بطن البعير ، والجمع وُضُن .
والخضود : الذي خُضِدَ شوكة ، أى قطع .

وشاغرة : خالية ، شَغَرَ المسكان ، أى خلا ، وبلدة ^(٤) شاغرة . إذا لم تتمتع من غارة أحد . والثائر : طالب الثأر ، لا يبقى على شيء حتى يدرك ثأره .

(١) ديوانه ٧٠٣ .

(٢) احلوى : استحل واستمرأ ، والدماء : جمع دم ؛ وهو السهل اللين الكثير النبات من الأرض ، ويرودها : يأتيها للرعى .

(٣) اللسان ٩ : ٤٨٤ ، ونسبه إلى ابن همام السلولى .

(٤) ساقطة من ب .

يقول عليه السلام مخاطباً لمن في عصره من بقايا الصحابة وغيرهم من التابعين ، الذين لم يدركوا عصر رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله بعث محمداً ، وهو أكرم الناس شيمه ، وأندام يدا ، وخيرهم طفلاً ، وأنجبههم كهنلاً ، فصانه الله تعالى في أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا ، وأكرمه عن ذلك فلم تفتح عليكم البلاد ، ولا درت عليكم الأموال ، ولا أقبلت الدنيا نحوكم ، وما دالت الدولة لكم إلا بعده ، فتمكنتم من أكلها والتمتع بها ، كما يتمكن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها ، وحلت لذاتها لكم ، واستطعتم العيشة ، ووجدتموها حُلوة خضرة .

ثم ذكر أنهم صادفوها - يعني الدنيا - وقد صعبت على من يليها ولاية حق ، كما تستصعبُ الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخطام ، ليس زمامها بممكن راكبها من نفسه ، قلقسة الوضين ، لا يثبت هودجها تحت الركاب ، حرامها سهل التناول على من يريد ، كالسدر الذي خُصِد عنه شوكه ، فصار ناعماً أملس ، وحلاها غير موجود لقلبة الحرام عليه ، وكونه صار مغموراً مستهلكاً بالنسبة إليه ، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائماً من استبدال الخلفاء قبله دونه بالأمر ، وأنه كان الأولى والأحق .

فإن قلت : إذا كانت الدنيا قلقلة الوضين ، جائلة الخطام ، فهي صعبة الركوب ، وهذا ضد قوله : « حرامها بمنزلة السدر المحضود » ، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة ! قلت : فحوى كلامه أن الدنيا جمعت به عليه السلام ، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكباً لها أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبها ، وأنها صارت بعده كالناقة التي خلعت زمامها ، أو أجالته فلا يتمكن راكبها من قبضه ، واسترخى وضيئها لشدة ما كان صدر عنها من النفار والتقحم ، حتى أذرت راكبها ، فصارت على حال لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعي ، لأنه ركب مالا ينبغي أن يركب ، فالذين ولّوا أمرها ولّوه

على غير الوجه ، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه ، ولهذا لم يقل : « فصار حرامها بمنزلة السدر المحضود » بل قال « عند أقوام » ، فخصّص .
وهذا الكلام كله محمول عند أصحابنا على التألم من كون المتقدمين تركوا الأفضل ، كما قدمناه في أول الكتاب .

ثم ذكر عليه السلام أن الدنيا فانية ، وأنها ظلٌّ ممدود إلى أجل معدود . ثم ذكر أن الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية من معنى ، كما قال الشاعر :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ ، لَا بَلْ مَا أَقَلَّهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدًا ^(١)
إِنِّي لَأَفْتِيحُ عَيْنِي ثُمَّ أَغْمِضُهَا عَلَى كَثِيرٍ ، وَاسْكَنْ لَا أَرَى أَحَدًا

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال : أيديكم في الدنيا مبهسوبة ، وأيدي مستحقّي الرئاسة ومستوجبي الأمر مكفوفة ، وسيوفكم مسلّطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء ، وسيوفهم مقبوضة عنكم ، وكأنّه كان يرمز إلى ماسيقع من قتل الحسين عليه السلام وأهله ، وكأنّه يشاهد ذلك عياناً ، ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذي سنّح له ، والأمر الذي كان أخبر به ، ثم قال : إنّ لكل دمٍ ثأراً يطلب القود ، والثأر بدمائنا ليس إلا الله وحده ، الذي لا يُعجزه مطلوب ، ولا يفوته هارب .

ومعنى قوله عليه السلام : « كالحاكم في حق نفسه » ، أنّه تعالى لا يقصّر في طلب دمانا كالحاكم الذي يحكم لنفسه ، فيكون هو القاضى وهو الخصم ، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جداً في استيفاء حقوقه .

ثم أقسم وخاطب بنى أمية ، وصرّح بذكرهم أنّهم ليعرفنّ الدنيا عن قليل في أيدي غيرهم وفي دورهم ، وأنّ الملك سينتزعه منهم أعداؤهم ، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه

(١) البيهقي لأدب ، ديوانه ٥٧ ، وهما أيضاً في العقد لابن عبد ربه ٢ : ٢٩٥ .

السلام ، فإن الأمر بقي في أيدي بني أمية قريبا من تسعين سنة ؛ ثم عاد إلى البيت الهاشمي ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدي أشد الناس عداوة لهم .

[هزيمة مروان بن محمد في موقعة الزاب ، ثم مقتله بعد ذلك]

سار عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمد ابن مروان ، وهو آخر خلفاء الأمويين ، فالتقيا بالزاب^(١) من أرض الموصل ، ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة ، فهزم مروان ، واستولى عبد الله بن علي على عسكره ، وقتل من أصحابه خلقا عظيما ، وفر مروان هاربا حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه ، فصار إلى مصر ، فاتبعه عبد الله بجنوده ، فقتله بهوصير الأشمونين من صعيد مصر ، وقتل خواصه وبطانته كلها ، وقد كان عبد الله قتل من بني أمية على نهر أبي فطرس^(٢) من بلاد فلسطين قريبا من ثمانين رجلا ، قتلهم مثلثة^(٣) واحتذى أخوه داود بن علي بالحجاز فعلة ، فقتل منهم قريبا من هذه العدة بأنواع المثل .

وكان مع مروان حين قُتل ابنه عبد الله وعبيد الله - وكانا وليي عهده - فهربا في خواصهما إلى أسوان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جهد شديد وضّر عظيم ، فهلك عبد الله بن مروان في جماعة ممن كان معه قتلا وعطشا وضرا ، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب المسكاره ، ووقع عبيد الله في عدة ممن نجا معه في أرض البجّة^(٤) وقطعوا البحر إلى ساحل جدّة ، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه في البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سؤفة بعد أن كانوا ملوكا ، فظفر بعبد الله أيام السفاح ، فحبس

(١) هو الزاب الأعلى ، بين الموصل ولابل .

(٢) فطرس ، ضبطه صاحب مرصد الاطلاع بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة ؛ وقال :

موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

(٣) يقال : مثل فلان بالقتيل مثلثة ومثلا ، أي جده وظهرت آثار فعله عليه .

(٤) انظر تاريخ الطبري ٣ : ١٤٢٨ (طبع أوروبا) .

فلم يزل في السجن بقية أيام السَّفَاح ، وأيام المنصور ، وأيام المهدي ، وأيام الهادي وبعض أيام الرشيد ، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضريع ، فسأله عَنْ خبره ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حُبِسْتُ غَلَامًا بِصِيرًا ، وَأُخْرِجْتُ شَيْخًا ضَرِيرًا ! فقيل : إِنَّهُ هَلَكَ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، وَقِيلَ : عَاشَ إِلَى أَنْ أَدْرَكَ خِلَافَةَ الْأَمِينِ .

شهد يوم الزَّاب مع مَرْوَانَ فِي إِحْدَى الرَّوَائِثِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلُوعِ ، الَّذِي خُطِبَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقُتِلَ فِيمَنْ قُتِلَ . وَفِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَتَلَهُ مَرْوَانُ الْحَمَارِ قَبْلَ ذَلِكَ .

لَمَّا انْهَزَمَ مَرْوَانُ يَوْمَ الزَّابِ مَضَى نَحْوَ الْمَوْصِلِ ، فَدَعَا أَهْلَهَا مِنَ الدَّخُولِ ؛ فَأَتَى حَرَّانَ ، وَكَانَتْ دَارُهُ وَمَقَامُهُ ، وَكَانَ أَهْلُ حَرَّانَ حِينَ أَزِيلَ لِعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَغَابِرِ فِي أَيَّامِ الْجَمْعِ امْتَنَعُوا مِنْ إِزَالَتِهِ ، وَقَالُوا : لَا صَلَاةَ إِلَّا بِلَعْنِ أَبِي تَرَابٍ ، فَاتَّبَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِمَجْنُودِهِ ، فَلَمَّا شَارَفَهُ خَرَجَ مَرْوَانُ عَنْ حَرَّانَ هَارِبًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَبْرَ الْفَرَاتِ ، وَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى حَرَّانَ ، فَهَدَمَ قَصْرَ مَرْوَانَ بِهَا ، وَكَانَ قَدْ أَنْفَقَ عَلَى بَنَائِهِ عَشْرَةَ آلَافِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، وَاحْتَوَى عَلَى خَزَائِنِ مَرْوَانَ وَأَمْوَالِهِ ، فَسَارَ مَرْوَانُ بِأَهْلِهِ وَعِثْرَتِهِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَخَوَاصِهِ ، حَتَّى نَزَلَ نَهْرَ أَبِي فُطُرْسَ ، وَسَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ حَتَّى نَزَلَ دِمَشْقَ ، فَحَاصَرَهَا وَعَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ مَرْوَانَ الْوَلِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خَمْسِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ ، فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمُ الْعَصْبِيَّةَ فِي فَضْلِ نَزَارٍ عَلَى الْيَمِينِ ، وَفَضْلِ الْيَمِينِ عَلَى نَزَارٍ ، فَقُتِلَ الْوَلِيدُ - وَقِيلَ بَلْ قُتِلَ فِي حَرْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ - وَمَلَكَ عَبْدُ اللَّهِ دِمَشْقَ ، فَأَتَى يَزِيدَ ابْنَ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَعَبْدَ الْجَبَّارِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَحَمَلَهُمَا مَأْسُورِينَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ ، فَتَتْلَاهُمَا وَصَلَبَهُمَا بِالْحَيْرَةِ ، وَقَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِدِمَشْقَ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِ مَرْوَانَ وَمَوَالِيِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى نَهْرِ

أبى فطرس ، فقتل من بنى أمية هناك بضعا وثمانين رجلا ، وذلك فى ذى القعدة من سنة ثنتين وثلاثين ومائة .

[شعر عبد الله بن عمرو العبلى فى رثاء قومه]

وفى قتلى نهر أبى فطرس وقتلى الزاب يقول أبو عدى عبد الله بن عمرو العبلى ،
وكان أموى رأى :

تقول أمانة لما رأته	نشوزى عن المضجع الأملس ^(١)
وقلة نومي على مضجعي	لدى هجعة الأعين النعس :
أبى ، ما عراك ؟ فقلت : الهموم	عرين أباك فلا تبلسي ^(٢)
عرين أباك فخبسته	من الدل فى شر ما محبس
لفقد الأحيية إذ نالها	سهام من الحدث المبيس ^(٣)
رمتها المنون بلا نكسل	ولا طائشات ولا نكس
بأسهمها المتلفات النفو	س متى ما نصب مهجة نخس
فصر عنهم بنواحي البلا	د فلقى بأرض ولم ير مس ^(٤)
نقى أصيب وأثوابه	من العيب والعار لم تدنس ^(٥)
وآخر قد رُس فى حفرة	وآخر طار فلم يحس ^(٦)
أفاض اللداع قتلى كدى	وقتلى بكثرة لم تر مس ^(٧)
وقتلى بوج وبالأبتى	ن من يثرب خير ما أنفس ^(٨)

- (١) الأغاني ٤ : ٣٤٠ (طبعة الدار) ؛ وروايته : « المضجع الأنفس » .
 (٢) لا تبلسى : لا تحزن .
 (٣) فى الأصل « الملبس » وأثبت رواية الأغاني .
 (٤) الأغاني : « ولم ير مس » ، والرس والرمس : الدفن .
 (٥) الأغاني : « نقى » .
 (٦) الأغاني : « قد دس » .
 (٧) كدى : موضع بالطائف ، وكثرة : موضع بعينه .
 (٨) وج : اسم واد بالطائف .

وبالزائدين نفوسٌ مَوْتٌ وَقَتْلَى بَنَهْرٍ أَبِي فُطْرُسٍ ^(١)
 أولئك قومي أناخت بهم نواذبُ من زمن مُتَمَسِّ
 إذا ركبوا زينتوا الموكبَ بَيْنَ وَإِنْ جَلَسُوا زِينَةُ الْمَجْلِسِ ^(٢)
 وإنَّ عَنْ ذِكْرُهُمْ لَمْ يَنْمِ أَبُوكَ ، وَأَوْحَشَ فِي الْمَأْنَسِ
 فذاك الذي غالني فاعلمي ولا تسألي بامري مُتَمَسِّ
 همُ أضرعوني لريب الزما ن وهم الصقوا الخلد بالمعطسِ ^(٣)

[أنفة ابن مسلمة بن عبد الملك]

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ، قال : نظر عبد الله بن علي في الحرب
 إلى فتى عليه أبهة الشرف ، وهو يحارب مستقلاً ^(٤) ، فناداه : يا فتى ، لك الأمان ،
 ولو كنت مروان بن محمد اقال : إلا أكنه فلست بدونه ! فقال : ولك الأمان ، ولو كنت
 من كنت ، فاطرق ، ثم أنشد :

أذل الحياة وكُرُهُ الما ^(٥) تِ وكلاً أراه طعاماً وبيلاً ^(٦)
 وإن لم يكن غيرَ إحداهما فسيراً إلى الموت سيراً جميلاً
 ثم قاتل حتى قتل ، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك ^(٧) .

(١) الزابيان : ثنية زاب ، وهو الزاب الأعلى والزاب الأسفل ؛ ويريد به الأعلى ؛ وبه كانت الموقعة
 (٢) الأغاني : « الزين في المجلس » . (٣) رواية الأغاني :

همُ أضرعوني لريب الزما ن وهم الصقوا الرغم بالمعطس
 (٤) الأغاني : « مستقلاً » ؛ وهو الخارج من الصف المتقدم على أصحابه .
 (٥) الأغاني : « أذل الحياة » . (٦) إحدى روايتي الأغاني :

* وكلاً أرى لك شراً وبيلاً *

(٧) الأغاني ٤ : ٣٤٣ ، ٣٤٤ (طبعة الدار) .

[مما قيل من الشعر في التحريض على قتل بنى أمية]

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن محمد بن خلف وكيع ، قال : دخل سديف مولى آل أبي^(١) لهب على أبي العباس بالخيرة ، وأبو العباس جالس على سريره ، وبنو هاشم دونه على السكراسى وبنو أمية حوله على وسائل قد ثبّتت لهم ، وكانوا في أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة^(٢) منهم على الأسرة ، ويجلس بنو هاشم على السكراسى ، فدخل الحاجب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بالباب رجل حجازي أسود راكب على نجيب مثلم ، يستأذن ولا يخبر باسمه ، ويحلف لا يحسر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين ! فقال : هذا سديف مولانا ، أدخله ؛ فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه ، ثم أنشد :

أصبح الملك ثابت الأساسِ بالبهاليل من بنى العباس^(٣)
بالصدور المقدّمين قديماً والبحور القماقم الرؤاسِ
يا إمام المطهرين من الدّم ويارأس منتهى كلّ راسِ
أنت مهدى هاشم وفتاها^(٤) كم أناس رجوك بعد أناس^(٥)
لا تقيان عبد شمس عثاراً واقطعن كل رقلة وغراس

(١) الأغاني : « وهو مولى لآل أبي لهب » .

(٢) الأغاني : « والخلفاء » .

(٣) قال في السكامل : الأساس : جمع أس ؛ وتقديرها « فعل » (يضم العين وسكون اللام) ، و « إفعال » ؛ وقد يقال للواحد أساس ، وجمعه أسس . والبهلول : الضحاك . وقال المرصني : الأجود تفسيره بالعزير الجامع لكل خير .

(٤) الأغاني : « وهداها » .

(٥) الأغاني : « بعد إياس » .

أَنْزَلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ بِدَارِ الْهَوَافِ وَالْإِنْعَاسِ
خَوْفُهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزْنِ الْمُوَاسِي^(١)
أَفْصَحَهُمْ أَيْهَا الْخَلِيفَةُ وَاحْسِمِ عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَأْفَةَ الْأَرْجَاسِ
وَإِذَا كَرَنْ مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدِ وَقْتِيهِ لَاحِظًا بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ^(٢)
وَالْقَتِيلِ الَّذِي بِحِرَانِ أُمْسَى ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ^(٣)
فَلَقَدْ سَاءَ لِي وَسَاءَ سَوَائِي قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَائِي^(٤)
نَعِمَ كَلْبُ الْإِبْرَاشِ مَوْلَاكَ شَيْبَلٌ لَوْ نَجَا مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ

قال : فتغبر لونُ أبي العباس ، وأخذه زَمَعٌ^(٥) ورعدة ، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن
عبد الملك إلى آخر فيهم كان إلى جانبه ، فقال : قَتَلْنَا وَاللَّهِ الْعَبْدَ ! فَأَقْبَلَ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَيْهِمْ ،
فَقَالَ : يَا بَنِي الزَّوَانِي^(٦) ؛ لَا أَرَى قَتْلَكُمْ مِنْ أَهْلِي قَدْ سَلَفُوا وَأَنْتُمْ أَحْيَاءُ تَتَلَذَّذُونَ فِي
الدَّفَا ، خَذُومُكُمْ فَأَخَذْتَهُمُ الْخُرَاسَانِيَّةُ بِالْكَافِرِ كُوبَاتٍ فَأُتِمْدُوا ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ
ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَإِنَّهُ اسْتَجَارَ بِدَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَقَالَ : إِنْ أَبِي لَمْ يَكُنْ كَأَبَائِهِمْ ،

(١) رواية الأغاني :

خَوْفُهُمْ أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهُمْ وَبِهِمْ مِنْكُمْ كَحَزْنِ الْمُوَاسِي

(٢) ذكر المبرد في شرح هذا البيت قوله : « مصرع الحسين وزيد » ، يعني زيد بن علي بن الحسين ؛
كان خرج علي هشام بن عبد الملك ، وقتله يوسف بن عمر الثقفي ؛ وصلبه بالكناسة هو وجماعة
من أصحابه . . . ولما نسب قتل حزة إلى بني أمية ؛ لأن أباسفيان بن حرب كان فائد الناس يوم أحد .
(٣) القتيل الذي بحران هو إبراهيم بن محمد بن علي ؛ وهو الذي يقال له الإمام ، وفي رواية الأغاني :
« والإمام الذي » .

(٤) سوائى سوائى ، والنمارق : واحدها نمرقة ؛ وهى الوسائد .

(٥) الزمع : شدة الرعدة .

(٦) الأغاني : « يا بني الفواعل » .

وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له : قد علمت صنيع أبيه إليفا ؛ فوهبه له ، وقال : لا يربني وجهه ، وليكن بحيث نأمنه ، وكتب إلى عماله في الآفاق بقتل بني أمية ^(١) .

فأما أبو العباس المتبرد ، فإنه روى في السكامل ^(٢) هذا الشعر على غير هذا الوجه ؛ ولم ينسبه إلى سديف ، بل إلى شبيل مولى بني هاشم .
قال أبو العباس : دخل شبيل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد أجلس ثمانين من بني أمية على سبط الطعام ، فأنشده :

أصبحَ الملكُ ثابتَ الأساسِ يالِها ليلٍ من بني العباسِ
طلُّبُوا وتَرِ هاشمَ وشَفَّوْها بَعْدَ مَيْلٍ مِنَ الزَّمانِ وَياسِ ^(٣)
لَا تُقِيمَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عِشاراً واقطَعَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَواسِ ^(٤)
ذَلِها أَظْهَرَ التَّوَدُّدِ مِنْها وَها مِنْكُمْ كَحَزَّ المَواسِ ^(٥)
وَلَقَدْ غَاظَنِي وَغَاظَ سَوارِي قُرْبُها مِنْ نِمارِ قِ وَكَراسِ
أَنزَلُها بِحَيْثُ أُنزَلِها اللهُ بِدارِ الهِوانِ والإِنعاسِ
واذْكَرُها مَضْرَعَ الحَسَنِ وَزَيدِ وَقَتْلًا بِجانبِ المَهراسِ
والقَتيلَ الَّذِي بِجَرَانٍ أَضْحَى ثاويًا بَينَ غُربَةٍ وَتَناسِ
نعمَ شَبيلُ الهِراشِ مَولايَ شَبيلُ لَوِ نَجَا مِنْ حِبالِ الإِفلاسِ

فأمر بهم عبد الله فشُدَّخوا بالعمد ، وبسطت البُسُط عليهم ، وجلس عليها ، ودعا

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٤ - ٣٤٦

(٢) السكامل ٨ : ١٣٤ ، ١٣٥ بشرح المصنف .

(٣) قال أبو العباس : يقال : « في فيك ميل علينا (يسكون الياء) ، وفي الحائط ميل بفتحها » .

(٤) قال أبو العباس : الأواسى : ياؤه مشددة في الأصل ، وتخفيفها يجوز ، ولو لم يجوز في الكلام

لجاز في الشعر » .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٢٦١ وما بعدها ، مع تصرف في الرواية .

بالطعام ، وإنه ليسمعُ أنبنَ بعضهم حتى ماتوا جميعا . وقال لِسُبُل : لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغفمتك أموالهم ، ولمقدتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .
قال أبو العباس : الرقلة : النخلة الطويلة ، والأواسى : جمع آسية ؛ وهى أصل البناء كالأساس . وقتيل المِهراس : حمزة عليه السلام ، والمِهراس : ماء بأحد . وقتيل حرّان : إبراهيم الإمام .

قال أبو العباس : فأما سَدِيف ، فإنه لم يَقم هذا المقام ، وإنما قام مقامه آخر ، دخل على أبى العباس السقّاح ؛ وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ؛ وقد أعطاهُ يده فقبّلها وأدناه ، فأقبل على السقّاح ، وقال له :

لَا يَذُرُّكَ مَا تَرَى مِنْ رِجَالٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَضَعَ السَّيْفُ وَارْفَعَ السُّوْطَ حَتَّى لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُومًا

فقال سليمان : مالى ولك أيها الشيخ ! قتلتني قتلك الله ! فقام أبو العباس ، فدخل وإذا المندبل قد ألقى فى عنق سليمان ، ثم جرّ فقتل .
فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فقتل بالبلقاء ، وحمل رأسه إلى عبد الله ابن على .

[أخبار متفرقة فى انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس]

وذكر صاحب مروج الذهب أنه أرسلَ عبد الله أخاه صالح بن علىّ ومعه عامر بن إسماعيل أحد الشيعة الخراسانية إلى مصر ، فلاحقوا مروان ببوصير ، فقتلوه وقتلوا كلَّ مَنْ كان معه من أهله وبطانته ، وهجموا على الكنييسة التى فيها بناته ونساؤه ، فوجدوا خادما بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول ، فأخذوه وسألوه عن أمره ، فقال : إن

أمير المؤمنين أمرني إن هو قُتِلَ أن أقتل بناته ونساء كلهن ، قبل أن تصلوا إليهن ، فأرادوا قتله ، فقال : لا تقتلوني ، فإنكم إن قتلتموني فقد تم ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : وما هو ؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثبانٍ من الرمل ، فقال : اكشفوا هاهنا ، فإذا البردة والقضيب وقعب^(١) مخضب قد دفنها مروان صفًا بها أن تصيرَ إلى بني هاشم . فوجه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن علي ، فوجه به صالح إلى أخيه عبد الله ، فوجه به عبد الله إلى أبي العباس ، وتداوله خلفاء بني العباس من بعد .

وَادْخَلَ بنات مروان وحرمة ونساؤه على صالح بن علي ، فتكلمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، وأسعدك في أحوالك كلنّها ، وعمك بخواص نعمه ، وشيأك بالعافية في الدنيا والآخرة . نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسمعنا من عدائكم ما وسعنا من جوركم . قال : إذا لاستبقي منكم أحدا ، لأنكم قد قتلتم إبراهيم الإمام ، وزيد بن علي ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن عقيل ؛ وقتلتم خير أهل الأرض : حسينًا وإخوته وبنيه وأهل بيته ، وسقتم نساءه سبايلًا كما يُساق ذراريّ الروم — على الأقتاب إلى الشام . فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، فليستعافوكم إذا . قال : أما هذا فنعم ؛ وإن أحببت زوجتك من ابني الفضل بن صالح ، قالت : يا عم أمير المؤمنين ، وأمي ساعة عرس ترى ! بل تلحقنا بحران ، فحملهن إلى حران^(٢) .

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مسleme الفهرى ، عامل إفريقية لمروان ، فلما حدثت الحادثة ، هرب عبد الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه ، فاعتصما به نخاف

(١) مروج الذهب : « ومخضر » .

(٢) الخبر في مروج الذهب ٣ : ٢٦١ - ٢٦٣ مع اختصار وتصرف ، وفي آخره : « فقلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعلن بالصياح والتعجب ؛ حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان » .

على نفسه منهما ، ورأى مَيْلَ الناس إليهما فقتلتهما ؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك يريد أن يقصده ويلتجئ إليه ، فلما علم ماجرى لابني الوليد بن يزيد ، خاف منه ، فقطع الحجاز بين إفريقية والأندلس ، وركب البحرَ حتى حصل بالأندلس ؛ فالأمراء الذين وُثِّقوا كانوا من ولده .

ثم زال أمرهم ودوتهم على أيدي بني هاشم أيضا ، وهم بنو حمود الحسينيون ، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام .

* * *

لما قتل عامر بن إسماعيل مروان ببوصير ، واحتوى على عسكره ، دخل إلى الكديسة التي كان فيها ، ففقد على فراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى . وتعرف بأم مروان . : يا عامر ، إن دهرنا أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها ، تأكل من طعامه ليلة قتله ، محتويا على أمره ، حاكما في ملكه وحرمه وأهله ، لقادر أن يغير ذلك . فأنهت هذا الكلام إلى أبي العباس السفاح ، فاستهجن ما فعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه : أما كان لك في أدب الله ما ينجرك أن تقعد في مثل تلك الساعة على مهادر مروان ، وتأكل من طعامه ! أما والله لو لا أن أمير المؤمنين أنزل ما فعلته على غير اعتقاد منك [لذلك] ^(١) ولا أنهم ^(٢) على طعام ، لمسك من غضبه وأليم أدبه ، ما يكون لك زاجرا ، ولغيرك واعظا . فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين : فتقرَّب إلى الله بصدقة تطفئ بها غضبه ، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة له ، وصم ثلاثة أيام ، وتب إلى الله من جميع ما يخطئه وينضبه ، ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك .

ولما أتى أبو العباس برأس مروان ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه ، وقال : الحمد لله الذي

(٢) في مروج الذهب : ولا شهوة .

(١) من مروج الذهب

لم يبق ثأرنا قبلك وقيل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرنا بك ، وأظهرنا عليك . ما أبالى متى
طرقنى الموت ، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بنى أمية ، وأحرقت شلوة هشام بابن
عقبة زيد بن على ، كما أحرقوا شلوة ، وتمثل^(١) :

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِي لَمْ يَرَوْا شَارِبَهُمْ وَلَا دِمَاؤُهُمْ جَمْعًا تَرَوْنِي
نَم حَوْلَ وَجْهِهِ إِلَى الْقَبْلَةِ فَسَجَدَ ثَانِيَةً ثُمَّ جَلَسَ ، فتمثل :

أَبَى قَوْمُنَا أَنْ يُنْصِفُونَا فَأَنْصَفْتُ قَوَاطِعُ فِي أَيْمَانِنَا تَقْطُرُ الدَّمَ^(٢)
إِذَا خَالَطَ هَامَ الرِّجَالِ تَرْكُهَا كَبِيضُ نَعَامٍ فِي الثَّرَى قَدْ تَحَطَّمَا
نَم قَالَ : أَمَّا مَرْوَانُ فَقَتَلَنَاهُ بِأَخِي إِبْرَاهِيمَ ، وَقَتَلْنَا سَائِرَ بَنِي أُمِيَّةَ بِحُسَيْنَ ، وَمَنْ قَتَلَ
مَعَهُ وَبَعْدَهُ مِنْ بَنِي عَمْنَانَ أَبِي طَالِبٍ^(٣) .

وروى المسمودي في كتاب "مروج الذهب" ، عن الهيثم بن عدي ، قال : حدثني
عمرو بن هانيء الطائفي ، قال : خرجت مع عبد الله بن عليّ لنفش قبور بنى أمية في أيام أبي
العباس السفاح ، فانتبهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحاً ، ما فقدنا منه
إلا عَرْنِينَ أَنْفِهِ ؛ فَضْرَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ ثَمَانِينَ سَوْطاً ثُمَّ أَحْرَقَهُ ، وَاسْتَخْرَجْنَا سُلَيْمَانَ بْنَ
عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ أَرْضٍ دَائِقٍ فَلَمْ نَجِدْ مِنْهُ شَيْئاً إِلَّا صُلْبَهُ وَرَأْسَهُ وَأَضْلَاعَهُ فَأَحْرَقْنَاهُ ، وَفَعَلْنَا
مِثْلَ ذَلِكَ بِغَيْرِهِمَا مِنْ بَنِي أُمِيَّةَ ، وَكَانَتْ قُبُورُهُمْ بِقَنْسَرِينَ ، ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى دِمَشْقَ ، فَاسْتَخْرَجْنَا
الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِي قَبْرِهِ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، وَاحْتَفَرْنَا عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ فَمَا وَجَدْنَا
إِلَّا شَتُونَ^(٤) رَأْسَهُ ، ثُمَّ احْتَفَرْنَا عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ فَلَمْ نَجِدْ مِنْهُ إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا ، وَوَجَدْنَا

(١) في مروج الذهب : « فتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له . . .

(٢) بعده في مروج الذهب :

تُورَثُنَ مِنْ أَشْيَاحٍ صَدَقَ تَقَرُّبُوا بِهِنَ إِلَى يَوْمِ الْوَعَى فَتَعْدَمَا

(٣) مروج الذهب ٣ : ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) الشتون : موصل قبائل الرأس ، مفردة شأن .

من موضع نحره إلى قدمه خطأ واحداً أسود ، كأنما خطّ بالرماد في طول لحده ، وتنبّهنا
قبورهم في جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

قلت : قرأت هذا الخبر على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلوى بن عبد الله
في سنة خمس وستائة ، وقلت له : أما إحراق هشام بإحراق زيد فمفهوم ، فما معنى جلده
ثمانين سوطاً ؟ فقال رحمه الله تعالى : أظنّ عهد الله بن عليّ ذهب في ذلك إلى حدّ القذف ،
لأنه يقال : إنه قال لزيد : يا بن الزانية ، لما سب أخاه محمداً الباقر عليه السلام ، فسبّه زيد ،
وقال له : سماء رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميته أنت البقرة ! لشدة ما اختلفتما
وابتخالفتما في الآخرة كما خالفتما في الدنيا فيرد الجفنة وترد النار .
وهذا استنباط لطيف .

قال مروان لكتابه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى
أن تصير مع عدوّى وتظهر الغدر بي ! فإنّ إعجابهم ببلاغتك ، وحاجتهم إلى كتابتك ،
تدعوهم إلى اصطفاك وتقريبك ، فإن استطعت أن تسعى لتنفعني في حياتي ، وإلا فإن
تعجز عن حفظ حرّمي بعد وفاتي . فقال عبد الحميد : إنّ الذي أشرت به هو أنفع
الأمرين لي ، وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر معك حتى يفتح الله لك أو أقتل بين
يديك ، ثم أنشد :

أسيرّ وفاءً ثم أظهر غدره فنّ لي بمذير يوسّع الناس ظاهره !
فثبت على حاله ، ولم يصّر إلى بني هاشم حتى قتل مروان ، ثم قتل هو بعده
صبراً^(١) .

وقال إسماعيل بن عبد الله القسريّ: دعاني مروان ، وقد انتهت به الهزيمة إلى حرّان ، فقال : يا أبا هاشم - وما كان يكتنّيني قبلها : قد ترى ما جاء من الأمر ، وأنت الموثوق به ، ولا عِطَرَ بعد عروس ؛ ما الرأيُ عندك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، علامَ أجمعت ؟ قال : أرتحل بمواليّ ومن تبعني حتى آتَى الدرب^(١) ، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزله ، وأكتب ملك الروم وأستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عاراً على الملوك ، فلا يزال يأتييني من الأصحاب الخائفُ والمهارب والطامع فيكثر من معي ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري ، وينصرفني على عدوّي ، فلما رأيتُ ما أجمع عليه من ذلك ، وكان الرأي ، ورأيت آثاره في قومه من نزار وعصبية على قومي من قحطان ، غششته ، فقلت : أغيدك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ؛ أن تحكّم أهل الشرّك في بناتك وحرملك اوم الروم لا وفاء لهم ، ولا يُدْرَى ما تأتي به الأيام ، وإن حَدَّثَ عليك حَدَثٌ من أرض النصرانية - ولا يحدّث الله عليك إلا خيراً - ضاع من بعدك ؛ ولكن أقطع الفرات ، واستنفر الشام جنداً جنداً ، فإنك في كنفٍ وعدّة ، ولك في كلّ جند صفائح وأصحاب ، إلى أن تأتي مصر ، فهي أكثر أرض الله مالا وخيلاً ورجالا ، والشام أمامك ، وإفريقية خلفك ، فإن رأيتَ ما تحبّ انصرف إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية ، فقال : صدقت وأستخير الله . فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن حديد السلمي - وكان أخاه من الرضاعة - والكوثر بن الأسود السنويّ ، وغدربه سائر النزارية مع تعصبه لهم ؛ فلما اجتاز ببلاد قيّسرين وخفاصرة ، أوقعوا بساقته ، ووثب به أهلُ شخص ، وصار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشيّ ثم العقيليّ ، ثم أتى الأردنّ فوثب به هاشم بن عمرو التميميّ ، ثم مرّ بفلسطين ، فوثب به أهلها ، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشه في الرأي ، ولم يمحّضه النصيحة ، وأنه فرط في مشورته إياه

(١) يطلق الدرب على ما بين طرطوس وبلاد الروم .

إذ شاور رجلا من قحطان موتورا شائتاً له ، وإنّ الرأى كان أول الذى همّ به من قطع الدّرب والنزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملسكها . والله أمر هو بالغه ^(١) !

لما نزل مروان بالزّاب ، جرّد من رجاله يمين اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس ، على مائة ألف قارح ، ثم نظر إليهم ، وقال : إنّها لعدّة ولا تنفع المدة ، إذا انقضت المدة ^(٢) .

لما أشرف عبدالله بن على يوم الزّاب فى المسوّدة ، وفى أوائلهم البنود السود ، تحملها الرجال على الجبال البُخت ^(٣) ، وقد جعل لها بدلا من القنّ خشب الصفصاف والغرب ^(٤) قال مروان لمن قرب منه : أما ترونّ رماحهم كأنها النخل غلظا ! أما ترونّ أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السود ! فبينما هو ينظرها ويعجب ، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود ، فنزلت على أول عسكر عبدالله بن على ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومروان ينظر ، فازداد تعجبه ، وقال : أما ترونّ إلى السواد قد اتصل بالسواد ؛ حتى صار الكل كالسحب السود المتسكّانة ! ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال : ألا ترونّ فنى من صاحب جيشهم ؟ فقال : عبد الله بن على بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب . قال : ويحك ! من ولد العباس هو ؟ قال : نعم ، قال : والله لو ددت أن على بن أبى طالب عليه السلام مكانه فى هذا الصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا لعلى مع شجاعته التى ملأ الدنيا ذكرها ! قال : ويحك ! إنّ عليا مع شجاعته صاحب دين ، وإنّ الدين غير الملك ، وإنّا نروى عن قديمنا أنّه لا شىء لعلى ولا لولده فى هذا . ثم قال : من هو من ولد العباس ،

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢) مروج الذهب ٣ : ٢٦٥ مع اختصار وتصرف .
(٣) البخت : الإبل الخراسانية (٤) الغرب : شجرة حجازية ضخمة شاكّة .

فإني لا أثبت شخصه ؟ قال : هو الرجل الذي كان يخاصمُ بين يديك ؛ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر . فقال أذكّرني صورته وحليته ، قال : هو الرجل الأقنى الحديد العضل ، المعروف الوجه ، الخفيف اللحية ، الفصيح اللسان ، الذي قلت لمّا سمعت كلامه يومئذ : يرزق الله البيان مَنْ يشاء ، فقال : وإنه لهو ! قال : نعم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أنعم لم صيّرتُ الأمرَ بعدى لولدى عبد الله ، وابنى محمد أكبر سفا منه ؟ قال : لا ، قال : إن آباءنا أخبرونا أنّ الأمر صائر بعدى إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه .

ثم بعث مروان بعد أن حدّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبد الله بن عليّ سرّاً ، فقال : يا بن عمّ ، إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فاتق الله واحفظني في حرّمي ، فبعث إليه عبد الله : إنّ الحق لنا في دمك ، وإنّ الحق علينا في حرّمك ^(١) .

قلت : إن مروان ظنّ أن الخلافة تكون لعبد الله بن عليّ ، لأن اسمه عبد الله ، ولم يعلم أنّها تكون لآخر اسمه عبد الله ، وهو أبو العباس السفاح .

كان العلاء بن رافع سيّط ذى الكلاع الجبّري مؤنساً لسلیمان بن هشام بن عبد الملك لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المسودة بخراسان قد ظهر ودنوا من العراق ، واشتدّ إرجافُ الناس ، ونطق العدو بما أحبّ في بنى أمية وأوليائهم .

قال العلاء : فإني لمع سليمان وهو يشرب تجاه رُصافة أبيه ، وذلك في آخر أيام يزيد الباقي ، وعنده الحكم الوادي ^(٢) ، وهو يغنيّه بشعر العرجي ^(٣) :

إنّ الحبيبَ تروّحتُ أجمالهُ أضلّاً ، فدمعك دائمٌ إسبألهُ ^(٤)
فاتقنِ الحياءَ فقد بكيتَ بعولتهُ لو كان ينفع باكياً إعوألهُ ^(٥)

(١) مروج الذهب : ٣ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) في الأصول : « الأودي ، تصحيف ، وصوابه في مروج الذهب .

(٣) في الأصول : « البرجي » تصحيف (٤) ديوانه ٦٩

(٥) اقلن الحياء : احفظه .

يَا حَبِذَا تِلْكَ الْجَمُولُ وَحَبِذَا شَخْصٌ هُنَاكَ ، وَحَبِذَا أَمْثَالُهُ !
فَأَجَادَ مَا شَاءَ ، وَشَرِبَ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ بِالرَّطْلِ ، وَشَرِبْنَا مَعَهُ حَتَّى تَوَسَّدْنَا أَيْدِينَا ،
فَلَمْ أَنْتَبِهْ إِلَّا بِتَحْرِيكِ سُلَيْمَانَ إِيَّايَ ، فَقَعْتُ مَسْرِعًا ، وَقُلْتُ : مَا شَأْنُ الْأَمِيرِ ؟ فَقَالَ : عَلَى
رِسْلِكَ ، رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ ، وَكَأَنَّ رَجُلًا عَلَى يَدِهِ حَبَجَرٌ ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ ، أَرَى
بَصِيصَ مَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ ، وَهُوَ رَافِعُ صَوْتِهِ بِهَذَا الشَّعْرِ :

أَبْنَى أُمِّيَّةٌ قَدْ دَنَا تَشْتِيَتُكُمْ وَذَهَابَ مَلِكُكُمْ وَلَيْسَ بِرَاجِعٍ
وَيُنَالُ صَفْوَتَهُ عَدُوٌّ ظَالِمٌ كَأَسَا لَكُمْ بِسَامٍ مَوْتٌ نَاقِعٌ
فَقُلْتُ : أَعْيِذُ الْأَمِيرَ بِاللَّهِ وَسَاوَسَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ ! هَذَا مِنْ أَضْفَاثِ الْأَحْلَامِ ،
وَمَا يَقْتَضِيهِ وَيَجْلِبُهُ الْفَكْرُ ، وَسَمَاعُ الْأَرَاخِيفِ . فَقَالَ : الْأَمْرُ كَمَا قُلْتُ لَكَ ، ثُمَّ وَجَّهَ
سَاعَةً ، وَقَالَ : يَا حَبْرِي ، بَعِيدٌ مَا يَأْتِي بِهِ الزَّمَانُ قَرِيبٌ !
قَالَ الْعَلَاءُ : فَوَاللَّهِ مَا اجْتَمَعْنَا عَلَى شَرَابٍ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ^(١) .

سُئِلَ بَعْضُ شَمِيوخِ بَنِي أُمِّيَّةٍ عَنِ زَوَالِ الْمَلِكِ عَنْهُمْ : مَا كَانَ سَبَبُ زَوَالِ مَلِكِكُمْ ؟
فَقَالَ : جَارُ عَمَلَانَا عَلَى رَعِيَّتِنَا ، فَتَمَنَّوْا الرَّاحَةَ مَعَنَا ، وَتَحَمَّلُوا عَلَى أَهْلِ خِرَاجِنَا فُجُلُوا عَنَّا ،
وَخَرِبَتْ ضِيَاعُنَا نَخَلَتْ بَيْوتُ أَمْوَالِنَا ، وَوَثَقْنَا بِوُزْرَانِنَا ، فَأَثَرُوا مِرَافِقَهُمْ عَلَى مَنَافِعِنَا ،
وَأَمْسَوْا أُمُورًا دُونِنَا ، أَخْفَوْا عَلَمَهَا عَنَّا ، وَتَأَخَّرَ عَطَاءُ جُنْدِنَا ، فَزَالَتْ طَاعَتُهُمْ لَنَا ، وَاسْتَدْعَاهُمْ
عَدُوُّنَا ؛ فَظَافَرُوهُ عَلَى حَرِّ بَنَانَا ، وَطَلَبْنَا أَعْدَاءَنَا فَعَجَزْنَا عَنْهُمْ لِقَلَّةِ أَنْصَارِنَا ، وَكَانَ اسْتِنَارُ الْأَخْبَارِ
عَنَّا مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِ زَوَالِ مُلْكِنَا .

كَانَ سَعِيدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَعْدَةَ بْنِ هَبِيرَةَ الْخَزُومِيِّ ، أَحَدُ وَزَرَاءِ مَرْوَانَ وَسَمَّارَهُ ، فَلَمَّا ظَهَرَ

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٣٩ ، ٢٤٠

أمر أبي العباس السفاح ، انحاز إلى بني هاشم ، ومثّل إليهم بأُمّ هانيّ بنت أبي طالب ، وكانت تحت هُبيرة بن أبي وهب ، فأثّرت منه بجمعة ، فصار من خواصّ السفاح وبطانته ، فجلس السفّاح يوما ، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ ؛ ثم قال للحاضرين : أيّكم يعرف هذا ؟ فقال سعيد : أنا أعرفه ، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس ، رحمه الله تعالى ! قال سعيد : فحدّثت إلى الشيعة ، ورميتني بأبصارها ، فقال لي أبو العباس : في أيّ سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغَيَّرَ لونه غضبا علىّ ، وتفرّق الناس من المجلس ، وتحدّثوا به ، فقلت : زلّة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبدا ! فأثّرت منزلي ، فلم أزل باقي يومى أعهد وأوصى ، فلما كان الليل اغتسلتُ وتهيّأت للصلاة - وكان أبو العباس إذا همّ بأمر بعث فيه ليلا - فلم أزل ساهرا حتى أصبحتُ وركبت بغلتي ، وأفكرت فيمن أقصد في أمرى ، فلم أجِد أحداً أولى من سليمان بن مجالد مولى بني زهرة ، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة ، وكان من شيعة القوم ، فأثّرتُه ، فقلت له : أذكّرني أمير المؤمنين البارحة ؟ قال : نعم ، جرى ذكرك ، فقال : هو ابن أختنا ، وفيّ لصاحبه ، ونحن لو أولّيناه خيرا لكان لنا أشكر . فشكرت لسليمان بن مجالد ما أخبرني به ، وجزيته خيرا ، وانصرفت . فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه ، لا أرى منه إلا خيرا .

ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن عليّ وإلى أبي جعفر المنصور ، فأما عبد الله بن عليّ فكتب إلى أبي العباس يُغريه بي ، ويعاتبه على الإمساك عني ، ويقول له : إنه ليس مثل هذا مما يحتمل ، وكتب إليه أبو جعفر يُعذّر لي ، وضرب الدهر ضربةً ، فأثّرت ذات يوم عند أبي العباس ، فنهض ونهضت ، فقال لي : كلّ رسلك يا بن هُبيرة ! فجلس ، ورفع السّتر ، ودخل وثبت في مجلسه قليلا ، ثم خرج في ثوبي وشي ورداء وجبة ، فما رأيت والله أحسنَ منه ولا ممّا عليه قطّ ، فقال لي : يا بن هُبيرة ، إني ذا كرتُ لك أمرا ، فلا

يخزُجنّ من رأسك إلى أحد من الناس . قلت : نعم ، قال : قد علمتَ ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان ، وإنما قتله عمّي عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتديبره ، وأنا شديد الفسك في أمر أخى أبي جعفر ، في فضله وعلمه وسنّه وإيثاره لهذا الأمر ، كيف أخرجه عنه ! فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنّي أحدثك حديثاً تعتبر به ، وتستغنى بسماحه عن مشاورتي ، قال : هاته ، فقالت : كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية ، إذ وردَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز بنعى سليمان ، ومصير الأمر إليه ، فدخلت إليه ، فرمى الكتاب إلى فقراته ، واسترجعت ، واندفع يبكي وأطال ، فقلت : أصلح الله الأمير وأطال بقاءه ! إن البكاء على الأمر الفأث عجز ، والموت منهل لا بدّ من ورده ، فقال : ويحك ! إنّي لست أبكي على أخى ، لكنّي أبكي لخروج الأمر عن ولد أبي إلى ولد عمّي ! فقال أبو العباس : حسبك ، فقد فهمت عنك ، ثم قال : إذا شئت فانهض ، فلما نهضت لم أمض بعيداً حتى قال لي : يا بن هبيرة ! فالتفت إليه ، فقال : أما إنك قد كافأت أحدهما ، وأخذت بدارك من الآخر ، قال سعيد : فوالله ما أدري من أىّ الأمرين أعجب ! من فطنته أم من ذكره ^(١) .

لما سائرَ عبدُ الله بن عليّ في آخر أيام بنى أمية عبدَ الله بن حسن بن حسن ؛ ومعهما داود بن عليّ ، فقال داود لعبد الله بن الحسن : لم لا تأمرُ ابنك بالظهور ؟ فقال عبد الله بن حسن : لم يأنِ لهما بعد ؛ فالتفتَ إليه عبد الله بن عليّ ، فقال : أظنك ترى أن ابنك قاتلاً مروان ! فقال عبد الله بن حسن : إنه ذلك ، قال : هيهات ! ثم تمثّل :

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٢ - ٢٧٤

سيكفيك الجعالة مستميت^١ خفيف الحاذ من فتيان جرّم
أنا والله أقتل مروان ، وأسلمه ملكه ؛ لا أنت ولا ولدك^(١) !

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني رواية أخرى في سبب قتل السفاح
لن كان أمته من بني أمية ، قال : حدث الزبير بن سكر ، عن عمه ، أن السفاح أنشد
يوما قصيدة مدح بها ، وعنده قوم من بني أمية كان آمنهم على أنفسهم ، فأقبل على
بعضهم ، فقال : أين هذا مما مدحتم به ! فقال : هيات ! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول
ابن قيس الرقيات فينا :

ما نَمَوا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غَضِبُوا^(٢)
وأثم معدين الملوكة فما تصلح إلا عليهم العرب

فقال له : يا ماص كذا من أمه ! وإن الخلافة لفي نفسك بعد ! خذوهم .
فأخذوا وقتلوا^(٣) .

وروى أبو الفرج أيضا أن أبا العباس دعا بالقداء حين قتلوا ، وأمر ببساط فبسط
عليهم ، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ ، قال : ما أعلم أني أكلت
أكلة قط كانت أطيب ولا أهنأ في نفسي من هذه^(٤) . فلما فرغ من الأكل قال : جرؤهم
بأرجلهم ، وأقوم في الطريق ؛ ليلعنهم الناس أمواتا كما لعنهم أحياء .

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤

(٣) الأغاني ٤ : ٣٤٦ (طبعة الدار) .

(٤) الأغاني : « منها » .

قال : فُلَقْد رأينا السُّكَّابَ يجرُّهم بأرجلهم ، وعليهم سراويلات الوشَّى حتى أنْتَنَوْا ،
ثم حَفَرَتْ لهم بئر فألقُوا فيها^(١) .

قال أبو الفرج : وروى عمر بن شَبَّه ، قال : حدَّثني محمد بن معن الغِفَارِيُّ ، عن
معبد الأنباري ، عن أبيه ، قال : لما أقبل داود بن عليٍّ من مكة ، أقبل معه بنو حُسنٍ
جميعاً ، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن ، وأخوه حسن بن الحسن ، ومعه محمد بن
عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان — وهو أخو عبد الله بن الحسن لأُمِّه — فعمل داود
مجالساً ببعض الطريق ، جلس فيه هو والهاشميُّون كلَّهم ، وجلس الأمويُّون تحتهم ، فجاء
ابن هرْمَة فأنشده قصيدة يقول فيها :

فَلَا عَفَاَ اللَّهُ عَنْ مَرْوَانَ مَظْلَمَةً وَلَا أُمِّيَّةً ، بئسَ المجلسُ القَادِي
كَانُوا كَعَادٍ فَأَمْسَى اللَّهُ أَهْلَكِهِمْ بِمَثَلِ مَا أَهْلَكَ الْغَاوِينَ مِنْ عَادٍ
فَلَنْ يَكْذِبَنِي مِنْ هَاشِمٍ أَحَدٌ فِيمَا أَقُولُ ، وَلَوْ أَكْثَرُ تَعْدَادِي

قال : فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضَحْكَةً
كالكِشْرَةِ ، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن : أما رأيت
ضحك^(٢) داود إلى ابن عنبسة الحمد الله الذي صَرَفَهَا عن أخي — يعني العُمَانيَّ —
قال : فما هو إلَّا أن قدم المدينة ، حتى قُتِلَ ابن عنبسة^(٣) .

قال أبو الفرج : وحدَّثني محمد بن معن ، قال : حدَّثني محمد بن عبد الله بن عمرو

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٧ (طبعة الدار) .

(٢) الأغاني : « ضحكته إلى ابن عنبسة » .

(٣) الأغاني ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .

ابن عثمان ، قال : استخلف أخى عبد الله بن الحسن داود بن علي - وقد حبج معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة - بطلاق امرأته مَلَيْكَةَ بنت داود بن الحسن ، ألا يقتل أخويه محمدا والقاسم ابني عبد الله بن عمرو بن عثمان ، قال : فكنت أختلِف إليه آمنا ، وهو يقتل بني أمية ، وكان يكره أن يرانى أهل خراسان ، ولا يستطيع إلى سبيلا ليمينه ، فاستدنانى يوما ، فدَنوت منه ، فقال : ما أكثر العَفَلَةَ ، وأقلّ الحَزَمَةَ ! فأخبرت بها أخى عبد الله بن الحسن ، فقال : يا بن أمّ ، تغيّب عن الرجل ، وأقِلّ عنه ، فتغيّب حتى مات ^(١) .

قلت : إلا أن ذلك الدِّين الذى لم يقضه داود ، قضاه أبو جعفر المنصور .

وروى أبو الفرج فى الكتاب المذكور أن سُديفا أنشد أبا العباس ، وعنده رجال من بني أمية ، فقال :

يا بن عمّ النبي أنت ضيّالٌ استبنا بك اليقينَ الجليّا
[فلما بلغ قوله] ^(٢) :

جرّد السيفَ وارفع العفو حتّى لا ترى فوق ظهرها أمويّا ^(٣)
قطنَ البغضُ فى القديم وأضحى ^(٤) ثابتًا فى قلوبهم مطويّا

وهى طويلة ، فقال أبو العباس : يا سُديف ، خُلِقَ الإنسان من عجل ! ثم أنشد أبو العباس متمثلا :

أحيا الضغائنَ آباءَ لنا سلَفُوا فلن تبديد وللآباءِ أبنـاء

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .

(٢) من الأغاني .

(٣) ذكر بدمه فى الأغاني :

لا يفرّئك ما ترى من رجالٍ إن تحت الضلوع داءٌ دويّا

(٤) فى الأغاني : « بطن البغض » .

ثم أمر بمن عنده فقتلوا^(١).

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، عن أبيه ، عن عمومته ، أنهم حضروا سليمان بن علي بالبصرة ، وقد حضر جماعة من بني أمية عنده ، عليهم الثياب الموشاة^(٢) المرتفعة - قال أحد الرواة المذكورين : فكأنني أنظر إلى أحدهم وقد اسودّ شيب في عارضيه من الغالية^(٣) - فأمر بهم فقتلوا وجُروا بأرجلهم ، فألقوا على الطريق ، وإن عليهم لسراويلات الوشي والكلاب تجرّهم بأرجلهم^(٤).

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك ، عن أبيه ، قال : جاءني رسول عمرو ابن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ، قال : يقول لك [عمرو]^(٥) : قد جاءت هذه الدولة ، وأنا حديث السن ، كثير العيال ، منقشر الأموال ؛ فما أكون في قبيلة إلا شهر أمري وعرفت . وقد عزمت على أن أخرج من الاستقار ، وأفدي حُرّمي بنفسي ، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن علي ، فصرّ إلي . فوافيته فإذا عليه طيلسان أبيض مطبق ، وسراويل وشي مسدول ، فقلت : ياسبحان الله ! مانصنع الحداثة بأهلها ! أبهذا اللباس تلقى هؤلاء القوم لِمَا تريد لقاءهم [فيه]^(٦) أقال : لا والله ، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر ممّا ترى . فأعطيته طيلساني وأخذت طيلسانه ، ولويت سراويله إلى ركبتيه . فدخل إلى سليمان ، ثم خرج مسروراً فقلت له : حدثني ما جرى بينك وبين الأمير ، قال : دخلت عليه ولم يرني^(٦) قط ، فقلت : أصالح الله الأمير ! لفظتني البلاد إليك ودلّني فضلك

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٨ ، ٣٤٩ (طبعة الدار) .

(٢) الأغاني : « الموشية » .

(٣) الغالية : ضرب من الطيب . (٤) الأغاني ٤ : ٣٤٩ .

(٥) من الأغاني .

(٦) الأغاني : « ولم نراء » .

عليك ؛ إِمَّا قَتَلْتَنِي [غَانِمًا] ^(١) وَإِمَّا أَمْتَنَنِي [سَالِمًا] ^(٢) ، فقال : وَمَنْ أَنْتَ حَتَّى أَعْرِفَكَ ؟
فَانْتَسَبْتَ لَهُ ، فقال : مَرْحَبًا بِكَ ! اقْعِدْ فَتَكَلِّمْ سَالِمًا أَمِنًا ، ثُمَّ أَقْبِلْ عَلَيَّ فَقَالَ : حَاجَتُكَ يَا بَنَ
أَخِي ؟ فَقُلْتُ : إِنْ الْحُرَمَ الْوَاتِي أَنْتَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ مَعْنًا ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِي بَعْدَنَا ، قَدْ
خَفَنْ لُخُوفَنَا ، وَمَنْ خَافَ خِيفَ عَلَيْهِ . فَوَاللَّهِ مَا أَجَابَنِي إِلَّا بِدُمُوعِهِ عَلَى خَدَّيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
يَا بَنَ أَخِي ، يَحِقُّ لِلَّهِ دَمُكَ ، وَيَحْفَظُكَ فِي حُرْمِكَ ، وَبَوَقَّرَ عَلَيْكَ مَالًا ؛ فَوَاللَّهِ
لَوْ أَمَكَّنَنِي ذَلِكَ فِي جَمِيعِ قَوْمِكَ لَفَعَلْتُ ، فَكُنْ مَتَوَارِبًا كَظَاهِرٍ ، وَآمِنًا كَخَائِفٍ ، وَلَقَاتِنِي .
رَقَاعُكَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ لَقَدْ كَفْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ كَمَا يَكْتُبُ الرَّجُلُ إِلَى أَبِيهِ وَعَمِّهِ . قَالَ : فَلَمَّا
فَرَّغَ مِنَ الْحَدِيثِ ، رَدَدَتْ عَلَيْهِ طِيلَسَانُهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا ، فَإِنْ ثِيَابَنَا إِذَا فَارَقْتَنَا لَمْ تَرْجِعْ
إِلَيْنَا ^(٣) .

وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَوْهَرِيُّ ، عَنْ عَمْرِ بْنِ
شَبَّهٍ ، قَالَ : قَالَ سُدَيْفٌ لِأَبْنَى الْعَبَّاسِ يَحْضُهُ عَلَى بَنِي أُمِيَّةَ ، وَيَذْكُرُ مِنْ قَتْلِ مَرْوَانَ وَبَنُو
أُمِيَّةَ مِنْ أَهْلِهِ :

كَيْفَ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَقَدِيمًا قَتَلُوكُمْ وَهَتَّكُوا الْحُرْمَاتِ
أَيْنَ زَيْدٌ وَأَيْنَ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ ! يَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ وَتِرَاتٍ !
وَالْإِمَامَ الَّذِي أَصِيبَ بِحَرٍّ نَ إِمَامَ الْهَدْيِ وَرَأْسَ الثَّقَاتِ
قَتَلُوا آلَ أَحْمَدَ لَا عَفَا الذَّنْبَ لِمَرْوَانَ غَافِرُ الْأَسِيَّاتِ

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَأَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَخْفَشُ ، قَالَ : أَنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرِّدُ
لِرَجُلٍ مِنْ شِيعَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، يَحْضُهُمْ عَلَى بَنِي أُمِيَّةَ :

(١) مِنَ الْأَغَانِي .

(٢) مِنَ الْأَغَانِي ، وَرَوَاتُهُ : « وَلَمَّا رَدَدْتَنِي سَالِمًا » .

(٣) الْأَغَانِي ٤ : ٣٤٩ ، ٣٥٠ (طَبْعَةُ الدَّارِ) .

إياكم أن تلبينوا لاعتذارهم فليس ذلك إلا الخوف والطمع
لو أنهم أمِنُوا أبدوأ عداوتهم لسكرتهم قَمِعُوا بالذلّ فأنقمعوا
أليس في ألف شهر قد مضت لهم سقيم جُرْعاً من بعدها جُرْع
حتى إذا ما انقضت أيام مدتهم مثبوا إليكم بالأرحام التي قطعوا
هيئات لا بد أن يسقوا بكأسهم ربّا وأن يحضدوا الزرع الذي زرعوا
إنّا وإخواننا الأنصار شيعتكم إذا تفرقت الأهواء والشيع^(١)

قال أبو الفرج : وروى ابن المعتز في قصة سُديف مثل ما ذكرناه من قبل ؛ إلا أنه
قال فيها : فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغمّر سليمان بن هشام ، فقال : يا ماصّ بظرامه ،
أَتَجِبُهُنَا بِمِثْلِ هَذَا وَنَحْنُ سَرَواتِ الناس ! فمَضِب أبو العباس - وكان سليمان بن هشام
صديقه قديماً وحديداً ، يقضى حوائجه في أيامهم وَيَبْرُهُ - فلم يلتفت إلى ذلك ، وصاح ، بالخراسانية :
[خذوهم] ^(٢) ! فقتلهم جميعاً إلا سليمان بن هشام ، فأقبل عليه أبو العباس ، فقال : يا أبا
الغمّر : ما أرى لك في الحياة بعدهؤلاء خيراً . قال : لا والله ، قال : فاقتلوه ، وكان إلى جنبه
فقتل وصلبوا في بستانه ؛ حتى تأذى جلساؤه بريحتهم ، فكلموه في ذلك ، فقال : والله
إن ريحهم عندي لألذ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظاً عليهم [وحققاً] ^(٣) .

قال أبو الفرج : وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليتهم يعدّ في موالى عثمان بن عفان
واسم أبي سعيد إبراهيم ؛ وهو من شعرائهم الذين رثوهم ، وبكوا على دولتهم وأيامهم ؛
فن شعره بعد زوال أمرهم :

(١) بعده في الأغاني ٤ : ٣٥١ :

إيتاكم أن يقول الناس إنهم قد ملكوا ثم ماضوا ولا نفعا

(٢) من الأغاني ٤ : ٣٥١ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩ ، ٤٠ :

بكيتُ وماذا يرد البكا ءِ وَقَلَّ الْبُكَاءُ لِقَتَلَى كَدَاءِ
أصيَّبوا معاً فتولَّوا معاً كذلك كانوا معاً في رِخَاءِ
بكت لهم الأَرْضُ من بعدهمُ وناحت عليهمُ نِجْمُ السَّمَاءِ
وكانوا ضياءً فلما انقضى الزَّمانُ بقوى تولى الضياءُ
ومن شعره فيهم :

أثر الدَّهْرِ في رجالٍ فَقَلَّوا بعد جَمْعِ فراح عَظَمَى مَهِيضاً
ما تَذَكَّرُهمُ فتملك عيني فيضَ دمعٍ، وحقَّ لي أن تَقِيضاً
ومن شعره فيهم :

أولئك قومي بعد عِزٍّ وثُرْوَةٍ تداءوا فإِلا تَذَرِفُ العينُ أَكْمَدَ
كأنهمُ لاناَسُ للموتِ غَيْرُهُمُ وإن كان فيهم منصفاً غير مُعْتَدٍ^(١)

* * *

وقال أبو الفرج : ركب المأمون بدمشق يتصيد ؛ حتى بلغ جبل الثلج ، فوقف في
بعض الطريق على بركة عظيمة ، في جوانبها أربع سرَّوات^(٢) ، لم يرَ أحسن منها ، فنزل
هناك ؛ وجعل ينظر إلى آثار بني أمية وَيَعْجَبُ منها ، ويذكركم . ثم دعا بطبقٍ عليه
طعام ، فأكل ، وأمر علويه فغنى :

أولئك قومي بعد عِزٍّ ومنعة تَفَانَوْا فإِلا تَذَرِفُ العينُ أَكْمَدَ
وكان علويه من موالى بني أمية ، ففضب المأمون . وقال : يابن الفاعلة ، ألم يكن لك
وقت تبكي فيه على قومك إلا هذا الوقت ! قال : كيف لأبكي عليهم ومولاً كم زرياب ،
كان في أيام دولتهم يركب معهم في مائة غلام ، وأنا مولاهم معكم أموت جوعاً ! فقام المأمون

(١) الأغاني ٤ : ٣٥٣ (طبعة الدار) .

(٢) السرو : شجر حسن الهيئة قويم الساق ، واحده سروة .

فركب وانصرف الناس ، وغضب على علويه عشرين يوماً ، وكلم فيه فرضى عنه ، ووصله بعشرين ألف درهم^(١) .

لما ضرب عبد الله بن عليّ أعناق بني أمية ، قال له قائل من أصحابه : هذا والله جهد البلاء ، فقال عبد الله : كلاً ، ما هذا وشريطة^(٢) حجام لاسواء ، إنما جهد البلاء فقر مدقع ، بعد غنى موسم^(٣) .

خطب سليمان بن عليّ لما قتل بني أمية بالبصرة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾^(٤) قضاء فصل ، وقول مبرم ، فالحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ؛ وبعداً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والدين هزواً ، والنيء مارثاً ، والقرآن عِصِينَ ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وكأئن ترى لهم من بائر معطلة وقصر مشيد ، ذلك بما قدمت أيديهم ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ أمهلهم حتى اضطهدوا العترة ، ونهذوا السنة ؛ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا !

ضرب الوليد بن عبد الملك عليّ بن عبد الله بن العباس بالسياط ، وشهره بين الناس يُدار به على بعير ، ووجهه مما يلي ذنب البعير ، وصائح يصيح أمامه : هذا عليّ بن عبد الله الكذاب ، فقال له قائل ، وهو على تلك الحال : ما الذي نسبوك إليه من الكذب يا أبا محمد ؟ قال : بلغهم قولي : إن هذا الأمر سيكون في ولدي ؛ والله ليكون فيهم

(٢) الشرط : بزغ الحجام بالشرط .

(١) الأغاني ١٤ : ٣٥٣ ، ٣٥٤

(٣) الخبر في اللسان (٩ : ٢٥) ، مع اختلاف في الرواية (٤) سورة الأنبياء : •

حتى يَمْلِكَهُ عبيدهم الصغار العيون ، العراض الوجوه ، الذين كَان وجوههم
الجان المطرقة .

وروى أن عليّ بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه : الخليفةتان أبو العباس
وأبو جعفر ، فكلّمه فيما أراد ، ثم ولى فقال هشام : إن هذا الشيخ قد خرف وأهتر ؛
يقول : إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده ! فسمع عليّ بن عبد الله كلامه ، فالتفت إليه ،
وقال : إى والله ليكوننّ ذلك ، وليلكنّ هذان .

وقد روى أبو العباس المبرّد في كتاب ” السكامل ” ، هذا الحديث ، فقال : دخل
عليّ بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخى ،
ومعه ابنا ابنه الخليفةتان بمد : أبو العباس وأبو جعفر ، فأوسع له على سريرته وبرّه ، وسأله
عن حاجته ، فقال : ثلاثون ألف درهم على دين ، فأمر بقضائها ، قال : واستوص بابنّى
هذين خيرا ، ففعل ، فشكره عليّ بن عبد الله ، وقال : وصلتكَ رَحِم ، فلما ولى قال
سليمان لأصحابه : إن هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخَلَط ، وصار يقول : إن هذا الأمر
سينتقل إلى ولده . فسمع ذلك عليّ بن عبد الله ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكوننّ
ذلك ، وليلكنّ هذان^(١) .

قال أبو العباس المبرّد : وفي هذه الرواية غلط ، لأنّ الخليفة في ذلك الوقت لم يكن
سليمان ، وإنما ينبغى أن يكون دخل على هشام ؛ لأنّ محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس
كان يحاول التزويج في بنى الحارث بن كعب ، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له ، فلما
قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال : إئتى أردت أن أتزوج ابنة خالى من بنى الحارث

(١) السكامل ٢ : ٢١٨ مع اختلاف في الرواية .

ابن كعب ، فتأذن لي ! فقال عمر بن عبد العزيز : تزوج رحمك الله من أحببت . فتزوجها فأولدها أبا العباس السفاح ، وعمر بن عبد العزيز بعد سليمان ، وأبو العباس ينبغي ألا يكون تهيأاً لمثله أن يدخل على خليفة حتى يتراجع ، ولا يتم مثل هذا إلا في أيام هشام ابن عبد الملك .

قال أبو العباس المبرد : وقد جاءت الرواية أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما وُلِدَ لعبد الله بن العباس مولود فقدته وقت صلاة الظهر ، فقال : مبال ابن العباس لم يحضر ! قالوا : وُلِدَ له ولد ذكر ، يا أمير المؤمنين . قال : فامضوا بنا إليه ، فأتاه فقال له : شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب ! ماسميتَه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أو يجوز لي أن أسميه حتى تسميه ! فقال : أخرجه إليّ ، فأخرجه ، فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده إليه ؛ وقال : خذ إليك أبا الأملاك ، قد سميتُه عليا ، وكفيتُه أبا الحسن . قال : فلما قدم معاوية خليفة ، قال لعبد الله بن العباس : لا أجمع لك بين الاسم والكنية ، قد كفيتُه أبا محمد ، فحرت عليه^(١) .

قلت : سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى ، فقلت له : من أي طريق عرف بنو أمية أن الأمر سينقل عنهم ، وأنه سيليه بنو هاشم ، وأول من يلي منهم يكون اسمه عبد الله ؟ ولم منعوهم عن مناقحة بني الحارث بن كعب لعلمهم أن أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمه حارثية ؟ وبأي طريق عرف بنو هاشم أن الأمر سيصير إليهم ، ويملكه عبيد أولادهم ؛ حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه ، كما قد جاء في هذا الخبر !

(١) الكامل ٣٦٠ (طبع أوروبا) .

فقال : أصلُ هذا كَلَمَه محمد بن الحنفية ، ثم ابنه عبد الله المسكتي أبا هاشم .
قلت له : أفكان محمد بن الحنفية مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم
يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام ؟ قال : لا ، ولكنهما كتما وأذاع .
ثم قال : قد صحت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث ، أنّ علياً
عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام ، فقال لهما : أعطياي
ميراثي من أبي ، فقالا له : قد علمت أنّ أباك لم يترك صَفراء ولا بيضاء ، فقال : قد علمت
ذلك ؛ وليس ميراث المال أطلب ؛ إنما أطلب ميراث العلم .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : فروى أبان بن عثمان تَمَن يَروى له ذلك ، عن جعفر بن
محمد عليه السلام ، قال : فدفعنا إليه صحيفة ، لو أطلعاه على أكثر منها هلك ، فيها ذكر
دولة بني العباس .

قال أبو جعفر : وقد رَوَى أبو الحسن عليّ بن محمد النوفليّ ، قال : حدثني عيسى
ابن عليّ بن عبد الله بن العباس ، قال : لما أردنا الهرب من مروان بن محمد ، لما قبض على
إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي
ابن عبد الله بن العباس ، وهي التي كان آباؤنا يسمونها صحيفة الدولة ، في صندوق من
نحاس صغير ، ثم دفناه تحت زيتونات بالشّراء^(١) لم يسكن بالشّراء من الزيتون
غيرهنّ ، فلما أفضى السلطان إلينا ، وملكنّا الأمر ، أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحُفِر ،
فلم يوجد فيه شيء ، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع ؛ حتى بلغ الحفر الماء
ولم نجد شيئاً .

قال أبو جعفر : وقد كان محمد بن الحنفية صرّح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرفه
تفصيله ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصل لعبد الله بن العباس الأمر ، وإنما أخبره به
(١) الشّراء : صقع بالشام بين المدينة ودمشق ، ومن بعض نواحي القرية المعروفة بالحريمة ، كان يسكنها
ولد علي بن عبد الله بن عباس في أيام بني مروان . ياقوت .

مجملاً ، كقولہ فی هذا الخبر : « خذ إليك أبا الأملاك » ، ونحو ذلك مما كمال يعرض له به ؛
ولكن الذى كشف القناع ، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفية .

وكذلك أيضاً ما وصل إلى بنى أمية من علم هذا الأمر ، فإنه وصل من جهة محمد
ابن الحنفية ، وأطلعهم على السر الذى علمه ، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبنى العباس ،
فإن كشفه الأمر لبنى العباس كان أكمل .

قال أبو جعفر : فأما أبو هاشم ، فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن عليّ بن عبد الله
ابن العباس وأطلعهم عليه ، وأوضحه له ، فلما حضرته الوفاة عقيب انصرافه من عند الوليد
ابن عبد الملك مرّ بالشرأة ؛ وهو مريض ومحمد بن عليّ بها ، فدفع إليه كتبه ، وجعله
وصيه ، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه .

قال أبو جعفر : وحضر وفاة أبي هاشم ثلاثة نفر من بنى هاشم : محمد بن عليّ
هذا ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل
ابن الحارث بن عبد المطلب ؛ فلما مات خرج محمد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر من عنده ،
وكل واحد منهما يدعى وصايته ، فأما عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئاً .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وصدق محمد بن عليّ ، أنه إليه أوصى أبو هاشم ، وإليه
دفع كتاب الدولة ، وكذب معاوية بن عبد الله بن جعفر ، لكنّه قرأ الكتاب ، فوجد لهم
فيه ذكرّاً يسيراً ، فادّعى الوصية بذلك ، فمات وخرج ابنه عبد الله بن معاوية يدعى وصاية
أبيه ، ويدعى لأبيه وصاية أبي هاشم ، ويظهر الإنكار على بنى أمية ، وكان له فى ذلك
شيعة يقولون بإمامته سرّاً حتى قتل .

دخلت إحدى نساء بنى أمية على سليمان بن عليّ ؛ وهو يقتل بنى أمية بالبصرة ،

فَقَالَتْ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ الْعَدْلَ لَيُكَمَّلُ مِنَ الْإِكْثَارِ مِنْهُ ، وَالْإِسْرَافُ فِيهِ ، فَكَيْفَ لَا تَمَلُّ^١
أَنْتَ مِنَ الْجَوْرِ وَقُطِيعَةِ الرَّحْمِ ! فَأُطْرُقُ نَحْمَ قَالَ لَهَا :
سَنَنْتُمْ عَلَيْنَا الْقَتْلَ لَا تَنْكِرُونَهُ فَذُوقُوا كَمَا ذُقْنَا عَلَى سَالِفِ الدَّهْرِ
ثُمَّ قَالَ : يَا أُمَّةَ اللَّهِ

* وَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةَ مَنْ يَسِيرُهَا ^(١) *

أَلَمْ تَحَارِبُوا عَلِيًّا وَتَدْفَعُوا حَقَّهُ ؟ أَلَمْ تَسْعَوْا حَسَنًا وَتَنْقُضُوا شَرْطَهُ ؟ أَلَمْ تَقْتُلُوا حَسِينًا
وَتَسِيرُوا رَأْسَهُ ؟ أَلَمْ تَقْتُلُوا زَيْدًا وَتَصْلِبُوا جَسَدَهُ ؟ أَلَمْ تَقْتُلُوا يَحْيَى وَتَمَثَّلُوا بِهِ ؟ أَلَمْ تَلْعَنُوا عَلِيًّا
عَلَى مَنَابِرِكُمْ ؟ أَلَمْ تَضْرِبُوا أَبَانَا عَلَى بَنِ عَبْدِ اللَّهِ بِسِيَاطِكُمْ ؟ أَلَمْ تَخْفَعُوا الْإِمَامَ بِجَرَابِ النُّورَةِ
فِي حَبْسِكُمْ ؟ ثُمَّ قَالَ : أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَتْ : قَبْضُ عُمَالِكَ أُمُوَالِي ، فَأَمْرُ بَرْدِ
أُمُوَالِهَا عَلَيْهَا .

لَمَّا سَارَ مَرْوَانُ إِلَى الزَّابِ ، حَفَرَ خَنْدَقًا ، فَسَارَ إِلَيْهِ أَبُو عَوْنٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْأَزْدِيُّ ،
وَكَانَ قَحْطَبَةُ بْنُ شَبِيبٍ قَدْ وَجَّهَهُ وَأَمَدَّ أَبُو سَالِمَةَ الْخُلَّالَ بِأَمْدَادٍ كَثِيرَةٍ ، فَكَانَ بِإِزَاءِ
مَرْوَانَ . ثُمَّ إِنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ السَّفَاحَ قَالَ لِأَهْلِهِ وَهُوَ بِالْكُوفَةِ حِينَئِذٍ : مَنْ يَسِيرُ إِلَى مَرْوَانَ
مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَلَهُ وَلَايَةُ الْمَهْدِ إِنْ قَتَلَهُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ عَمَّهُ : أَنَا ، قَالَ : سِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ،
فَسَارَ فَقَدَّمَ عَلَى أَبِي عَوْنٍ ، فَتَحَوَّلَ لَهُ أَبُو عَوْنٍ عَنْ سُرَادِقِهِ وَخَلَّاهُ لَهُ بِمَا فِيهِ . ثُمَّ سَأَلَ
عَبْدُ اللَّهِ عَنْ مَخَاضَةٍ فِي الزَّابِ ، فَدَلَّ عَلَيْهَا ، فَأَمَرَ قَائِدًا مِنْ قَوَّادِهِ فَعَبَّرَهَا فِي خَمْسَةِ آلَافٍ ،
فَانْتَهَى إِلَى عَسْكَرِ مَرْوَانَ فَقَاتَلَهُمْ ؛ حَتَّى أَمْسَوْا وَتَحَاجَزُوا ، وَرَجَعَ الْقَائِدُ بِأَصْحَابِهِ ، فَعَبَّرَ
الْمَخَاضَةَ إِلَى عَسْكَرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَصْبَحَ مَرْوَانَ ، فَعَقَدَ جَسْرًا ، وَعَبَّرَ بِالْجَيْشِ كُلَّهُ إِلَى

(١) مِنْ بَيْتِ الْأَبِيِّ ذُؤَيْبِ الْهَذَلِيِّ ؛ دِيْوَانُ الْهَذَلِيِّينَ ١ : ١٥٦ وَالْبَيْتُ بِتَمَامِهِ :

فَلَا تَجْزُ عَنْ مَنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا وَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةَ مَنْ يَسِيرُهَا

عبدالله بن عليّ ، فكان ابنه عبد الله بن مروان في مقدمته ، وعلى الميمنة الوليد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان ، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، وعبّا عبدالله بن علي جيشه ، وتراءى الجمعان ، فقال مروان لعبد العزيز ابن عمر : انظر ، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم ؛ وإن قاتلونا قبل الزوال ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ! ثم أرسل إلى عبدالله ابن علي يسأله السكف عن القتال نهـار ذلك اليوم ، فقال عبدالله : كذب ابن زربي إنما يريد المدافعة إلى الزوال ؛ لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله . ثم حرك أصحابه للقتال ، فنادى مروان في أهل الشام : لاتبدءوهم بالحرب ، فلم يسمع الوليد ابن معاوية منه ، وحمل على ميسرة عبدالله بن عليّ ، فغضب مروان وشتمه ، فلم يسمع له واضطربت الحرب ، فأمر عبدالله الرماة أن ينزلوا ، ونادى : الأرض الأرض ! فنزل الناس ، ورمت الرماة ، وأشرعت الرماح وجثّوا على الركب ، فاشتد القتال ، فقال مروان لقضاة : انزلوا ، قالوا : حتى تنزل كِنْدَة ، فقال لكِنْدَة : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل السَّكاسك ، فقال لِبْنِي سَلِيم : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل عامر ، فقال لَتِيم : احملا ، فقالوا : حتى تحمِلَ بنو أسد ، فقال لهوازن : احملا ، قالوا : حتّى تحمل غَطَفَان ، فقال لصاحب شرطته : احمِل ويليكَ ! قال : ما كنت لأجمل نفسي غَرَضًا ، قال : أما والله لأسوأكَ ، قال : وددت أن أمير المؤمنين يقدر على ذلك ! فانهزم عسكر مروان وانهزم مروان معهم ، وقطع الجسر ، فكان من هلك غرقاً أكثر ممن هلك تحت السيف ، واحتوى عبدالله بن عليّ على عسكر مروان بما فيه ، وكتب إلى أبي العباس يخبره الواقعة .

* * *

كان مروان شديد الرأي ، ميمون النقيية ، حازماً ، فلما ظهرت للسودّة ، ولقيهم كان

ما يدبر أمرا إلا كان فيه خلل ، ولقد وقف يوم الزّاب ، وأمر بالأموال فأخرجت ، وقال للناس : اصبروا وقاتلوا ، وهذه الأموال لكم ، فجعل ناسٌ يصيبون من ذلك المال ويشغلون به عن الحرب ، فقال لابنه عبد الله : سِرْ في أصحابك فامنع مَنْ يتعرض لأخذ المال ، قال عبد الله بראيته ، ومعه أصحابه ، فتنادى الناسُ : الهزيمة ! الهزيمة ! فانهمزوا ، وركب أصحابُ عبد الله بن عليٍّ أكتافهم .

لما قتل مروان ببوصير ، قال الحسن بن قحطبة : أخرجوا إلى إحدى بنات مروان ، فأخرجوها إليه وهي تُرعد ، قال : لا بأس عليك ! قالت : وأى بأس أعظم من إخراجك إياي حاسرة ، ولم أر رجلا قبلك قطّ أفأجلسها ، ووضع رأس مروان في حِجْرها ، فصرخت واضطربت فقيل له : ما أردت بهذا ؟ قال : فعلتُ بهم فعلهم يزيد بن عليٍّ لما قتلوه ، جعلوا رأسه في حِجْر زينب بنت عليٍّ بن الحسين عليه السلام .

دخلت زوجة مروان بن محمد ، وهي عجوز كبيرة ، على الخيزران في خلافة المهديّ ، وعندها زينب بنت سليمان بن عليٍّ ، فقالت لها زينب : الحمد لله الذي أزال نعمتك ، وصيرك عبّرة ! أتذكرين يا عدوة الله ، حين أتاك نساؤنا يسأَلُكِ أن تكلمي صاحبكِ في أمر إبراهيم بن محمد ، فلقيتهم ذلك اللقاء ، وأخرجتهم ذلك الإخراج ! فضحكت ، وقالت : أئى بنت عمّى ! وأئى شيء أعجبك من حُسن صنيع الله بي عقيب ذلك ؛ حتى أردت أن تنأسي بي فيه ! ثم ولّت خارجة .

بويح أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خَلَوْنَ من شهر ربيع

الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فصعد المنبر بالكوفة فخطب ، فقال : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه ، وكرمه وشرّفه وعظّمه ، واختارَهُ لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه ، وحضنه والقوام به ، والذّابّين عنه ، والناصرين له ؛ وخصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته ، وأنزل بذلك كتاباً يتلى ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(١) ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قام بالأمر أصحابه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٢) فمدلوا ، وخرجوا خِصاصاً ^(٣) ، ثم وثب بنو حَرْب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً ؛ فلما آسفوه ^(٤) انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقّنا ، فأبنا السّفاحُ المبيحُ ، والنّائر المبير ^(٥) .

وكان موضعوكا فاشتدت عليه الوجعة ، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عنه داود بن عليّ وكان بين يديه ، فقال :
يا أهل العراق ، إنا والله ما خرجنا لنجفّر نهرًا ، ولا لنكنز جنيًا ولا عقيانا ؛ وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزاز الظالمين حقّا ؛ ولقد كانت أموركم تتصل بنا فترمضنا ونحن على فرشنا ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة العباس ؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فيكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله . واعلموا أن هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسليه إلى عيسى بن مريم .

(١) سورة الشورى ٢٣

(٢) سورة الشورى ٣٨

(٣) خصاصاً : جياًعاً .

(٤) آسفوه : أغضبوه .

(٥) المبير : المهلك .

يا أهل الكوفة ؛ إنه لم يخطب على منبركم هذا خليفة حق إلا على بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا ، فاحمد الله الذي رد إليكم أموركم . ثم نزل .
وقد روى حديث خطبة داود بن علي برواية أخرى ؛ وهي الأشهر ، قالوا : لما صعد أبو العباس منبر الكوفة ، حُصر فلم يتكلم ، فقام داود بن علي ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بمرقاة ، فاستقبل الناس ، وقال :
أيها الناس ، إن أمير المؤمنين يكرمه أن يتقدم قوله فعله ، ولأنه الفاعل أجدي عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله تمثلاً فيكم ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله خليفة عليكم ؛ أقسم بالله قسماً بَرّاً ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحق به من علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمس هامسكم ، ولينطق ناطقكم . ثم نزل .

ومن خطب داود التي خطب بها بعد قتل مروان :
شكراً شُكراً ! أظنّ عدوّ الله أن لن يُظفر به ، أرخى له في زمامه ، حتى عثري فضل خطامه ؛ فالآن عاد الحق إلى نصابه ، وطلعت الشمس من مظلمها ؛ وأخذ القوس باريها ؛ وصار الأمر إلى النزعة ^(١) ، ورجع الحق إلى مستقرّه ؛ أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة .

وخطب عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مروان ، فقال : الحمد لله الذي لا يفوته من طلب ، ولا يُعجزه من هرب ، خدعت والله الأشقر نفسه ، إذ ظنّ أن الله ممهله ، وبأبي الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ؛ فحتى متى ؟ وإلى متى !

(١) النزعة : جمع نازع ؛ وهو الراي يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم ؛ يريد : رجع الحق إلى أهله .

أما والله لقد كَرِهَتْهُمْ الْعِيدَانُ^(١) التي افْتَرَعَوْهَا ، وأمسكت السماء دَرَهَا^(٢) ، والأرض رَيْعَهَا^(٣) وقَحْل^(٤) الضَّرْع ، وجَفَزَ الْفَنِيْقُ^(٥) ، وَأَسْمَلُ^(٦) جَلِبَابِ الدِّينِ ، وَأَبْطَلَتِ الْخُدُودَ ، وَأَهْدَرَتِ الدَّمَاءَ ؛ وكان رَبُّكَ بِالْمُرْصَادِ ، فَدُمْدَمَ^(٧) عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ؛ وَمَلَّسْنَا اللَّهَ أَمْرَكُمْ ؛ عِبَادَ اللَّهِ لِيُنْظَرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَالشُّكْرُ الشُّكْرُ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ دَوَاعِي الْمَزِيدِ ؛ أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْأَهْوَاءِ ، وَبَقَاتِ الْفِتَنِ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

لَمَّا أَمْعَنَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي قَتْلِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْحِجَازِ قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا بَنَ عَمِي ، إِذَا أَفْرَطْتَ فِي قَتْلِ أَكْفَائِكَ فَمَنْ تُبَاهِي بِسُلْطَانِكَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ مِنْهُمْ أَنْ يَرُوكَ غَادِيَا وَرَأْحًا فِيمَا يَسْرُكُ وَيَسُوءُهُمْ أ

كَانَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ يُمَثِّلُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ يَسْمُلُ الْعَمِيُونَ ، وَيَبْقَرُ الْبَطُونُ ، وَيَجْدَعُ الْأَنْوَفَ وَيَصْطَلِمُ الْأَذَانَ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ يَنْهَرُ أَبِي فُطْرُسَ يَصْلُبُهُمْ مِنْكَسِّينَ ، وَيَسْقِيهِمُ النَّوْرَةَ وَالصَّبْرَ ، وَالرَّمَادَ وَالْخَلَّ ، وَيَقْطَعُ الْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ . وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ بِالْبَصْرَةِ يَضْرِبُ الْأَعْفَاقَ .

خطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة فقال :

(١) العيدان ، يريد أعواد النابر ، وافترعوها : اعتلوهما .

(٢) درها ، أى مطرها .

(٣) الرّيع : النماء .

(٤) قحْل : يابس جلده على لحمه .

(٥) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى أكرامته ، والجفز : السرعة في المشي .

(٦) أسمل : خلق وبلى .

(٧) دمدّم عليهم ، طعنهم فأهلكهم .

يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ؛ والله لا أعدكم شيئا ولا أتوعدكم إلا وقيت بالوعد والوعيد ، ولأعلمنّ الذين حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأغمدنّ السيف إلا في إقامة حدّ ، أو بلوغ حقّ ، ولأعطيكم حتى أرى العطية ضياعا . إن أهل بيت اللعنة والشجرة الملعونة في القرآن ، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشدّ منها ، ولا يلي عليكم منهم والٍ إلا تمنيتهم من كان قبله ، وإن كان لا خير في جميعهم ؛ منعوكم الصلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المذبر بالمقبيل ، والجار بالجار ، وسلطوا شراركم على خياركم ، فقد محق الله جورهم ، وأزهق باطلهم بأهل بيت نبيكم ؛ فما تؤخر لكم عطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقا ، ولا نجهزكم في بعث ، ولا نخاطر بكم في قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ؛ والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة .

ثم نزل .

كان يقال : لو ذهبت دولة بني أمية على يد غير مروان بن محمد ، لقيل : لو كان لها مروان لما ذهبت .

كان يقال : إن دولة بني أمية آخرها خليفة أمه أمة ، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بني الإمام منهم ، ولو عهدوا إلى ابن أمة لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها ؛ وكان انقراض أمرهم على يد مروان وأمّه أمة ، كانت لمصعب بن الزبير ، وهبها من إبراهيم بن الأشتر ، فأصابها محمد بن مروان يوم قتل ابن الأشتر ، فأخذها من ثقله ، فقيل : إنها كانت حاملا بمروان ، فولدته على فراش محمد بن مروان ؛ ولذلك كان أهل خراسان ينادونه في الحرب : يابن الأشتر .

قيل أيضا : إنها كانت حاملا به من مصعب بن الزبير ، وإنه لم تطل مدتها عند

إبراهيم بن الأشتر ؛ حتى قَتِلَ فوضعت سَحلها على فراش محمد بن مروان ، ولذلك كانت
المسودة نصيح به في الحرب : يا بن مصعب ! ثم يقولون : يا بن الأشتر ! فيقول : ما بأبلى أئمة
الفحلين غلب على !

لما بُويع أبو العباس جاءه ابنُ عياش المنتوف ، فقبَّل يده وبايعه ، وقال : الحمد لله
الذي أبدلنا بحِمَار الجزيرة ، وابن أمة النخع ، ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وابن عبد المطلب .

لما صعد السَّمّاح منبر الكوفة يوم بيعته ، وخطب الناس ، قام إليه السيّد الحميري ،
فأنشده :

دُونَكُمْوَهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ	فَجِدُّوْا مِنْ آيِهَا الطَّامِسَا ^(١)
دُونَكُمْوَهَا لَا عِلَاكَ بِمَنْ	أَمْسَى عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِسَا
دُونَكُمْوَهَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا	لَا تَعْدُمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَا يَسَا
خِلَافَةُ اللَّهِ وَسُلْطَانُهُ	وَعُصْرُهُ كَانَ لَكُمْ دَارِسَا
قَدْ سَاسَهَا مِنْ قَبْلِكُمْ سَاسَةً	لَمْ يَتْرَكُوا رَظْبًا وَلَا يَابِسَا
لَوْ خَيْرَ الْمَنْبَرِ فِرْسَانُهُ	مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا
وَالْمُلْكُ لَوْ شُورَ فِي سَائِسٍ	لَمَا ارْتَضَى غَيْرَكُمْ سَائِسَا
لَمْ يُبْقِ عَبْدُ اللَّهِ بِالشَّامِ مِنْ	آلِ أَبِي الْعَاصِ امْرَأً عَاطِسَا
فَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوَهَا إِلَى	هُبُوطِ عَيْسَى مِنْكُمْ آيَسَا

قال داود بن عليّ لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قَتْلِهِ مَنْ قَتَلَ مِنْ بَنِي

(١) الآيات في الأغاني ٧ : ٢٤٠ (طبع الدار) مع اختلاف في الرواية .

أمية : هل علمت ما فعلتُ بأصحابك ؟ قال : نعم ، كانوا يداً فقطعتها ، وعَضْداً ففقت^(١) فيها ، ومِرَّةً^(٢) ففقتُها ، وجنأها فخصصتها^(٣) ؛ قال : إني لخليق أن ألحقك فيهم ، قال : إني إذا لسعيد !

لما استوثق الأمر لأبي العباس السفاح ، وفد إليه عشرة من أمراء الشام ، خلفوا له بالله وبإطلاق نسائهم ، وبأيمان البيعة بأنهم لا يعلمون - إلى أن قُتل مروان - أن لرسول صلى الله عليه وآله أهلاً ولا قرابة إلا بني أمية .

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : حدثني رجلٌ قال : كنت بالشام ، فجعلت لا أسمع أحداً يسمي أحداً أو يفاديه : يا عليّ أو يا حسن ، أو يا حسين ؛ وإنما أسمع : معاوية ، والوليد ، ويزيد ، حتى مررت برجل ، فاستسقيته ماء ، فجعل يفادي : يا عليّ ، يا حسن ، يا حسين ، فقلت : يا هذا ، إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء ! قال : صدقت ، إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء ، فإذا لعن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن اسمَ بعد الخلفاء ، وأنا سُميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمت أحدهم أو لعنته ، فإنما ألعن أعداء الله .

كانت أم إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس أموية من ولد عثمان بن عفان .

قال إبراهيم : فدخلت على جدّي عيسى بن موسى مع أبي موسى ، فقال لي جدّي : أتحبّ بني أمية ؟ فقال له موسى أبي : نعم ، إنهم أخواله ، فقال : والله لو رأيت جدّك

(١) فت في عضده ؛ أي كسر قوته وفرق عنه أهوانه .

(٢) المرة في الأصل : طاقة الجبل . (٣) يقال : حمس الجناح ؛ أي قطعه .

على بن عبد الله بن العباس يُضرب بالسياط ما أحببتهم ؛ ولو رأيت إبراهيم بن محمد يُكرِّه على إدخال رأسه في جراب النُّورة^(١) لما أحببتهم ، وسأحدثك حديثاً إن شاء الله أن ينفعك به نفعك : لما وجّه سليمان بن عبد الملك ابنته أيوب بن سليمان إلى الطائف وجّه معه جماعة ، فكنت أنا ومحمد بن عليّ بن عبد الله جدّي معهم ، وأنا حينئذ حديث السنّ ، وكان مع أيوب مؤدّب له يؤدّبه ، فدخلنا عليه يوماً أنا وجدّي ، وذلك المؤدّب يضربه ، فلما رأنا الغلام أقبل على مؤدّبه فضربه فنظره بعضنا إلى بعض وقلنا : ماله قاتله الله ! حين رأنا كرهه أن نشمت به ، ثم التفت أيوب إلينا ، فقال : ألا أخبركم يا بني هاشم بأعقابكم وأعقلنا ، أعقلنا من نشأ منّا يبغيضكم ، وأعقابكم من نشأ منكم يبغيضنا ؛ وعلامة ذلك أنكم لم تسموا بمروان ، ولا الوليد ، ولا عبد الملك ، ولم نسمّ نحن بعليّ ولا بحسن ولا بحسين .

لما انتهى عامر بن إسماعيل - وكان صالح بن عليّ قد أنفذه لطلب مروان - إلى بوصير مضّر ، هرب مروان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابه ؛ ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد ، فأنهوا في غبش الصُّبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق ، ليس للخييل عبور إلا على تلك القنطرة ، وعامر بن إسماعيل من ورائهم ، فصادف مروان على تلك القنطرة بغلاً قد استقبلته تعبر القنطرة ، وعليها زقاق عسل ، فحبسته عن العبور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهقه ، فلوى مروان دابته إليهم ؛ وحارب فقتل ، فلما بلغ صالح بن عليّ ذلك ، قال : إن الله جنوداً من عسل .

لما نقف رأس مروان ونفض مخه ، قطع لسانه وألقى مع لحم عنقه ، فجاء كلب فأخذ اللسان ، فقال قائل :

إِنَّ مِنْ عِبَرِ الدُّنْيَا أَنْ رَأَيْنَا لِسَانَ مِرْوَانَ فِي فَمِ كَلْبٍ .

خطب أبو مسلم بالمدينة في السَّنة التي حَجَّ فيها في خلافة السَّقَاح ، فقال : الحمد لله الذي حَمَدَ نَفْسَهُ ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وبيته من بيوتهم ؛ ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾^(١) ، ثم جعل الحق بعد محمد عليه السلام في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه على اللأواء والشدة ، وأغضى على الاستبداد والأثرة . ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه ، جاهدوا على ملّة نبيّه وسنّته بعد عصر الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهرائي قوم آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ؛ إن رُتق جورٌ ففتقوه ، أوفتق حق رتقوه ؛ أهل خور وماخور ، وطناير^(٢) ومزامير ، إن ذكروا لم يذكروا ، أو قدّموا إلى الحق أدبروا ، وجعلوا الصدقات في الشبهات ، والمغانم في المحارم ؛ والنيء في الغنى ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم . وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلم يَـبَـمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوي القرابة ، الشركاء في النسب ، والورثة في السلب^(٣) مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الجذب جائعكم ! والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ؛ وما زلتم بعد نبيّه تخارون تيميّامرة ، وعدويّامرة ، وأمويّامرة ، وأسديّامرة ، وسُفْيانيّامرة ، ومرّوانيّامرة

(١) سورة الأحزاب ٣٣

(٢) الماخور : بيت الريبة . والطناير : جمع طنبور ، وهو آلة من آلات الطرب : ذو عنق طويل

وسنة أوتار من نحاس

(٣) السلب : ما يسلب .

(١١ - نهج البلاغة - ٧)

حتى جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمه ولا بيته ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنوة وأنتم صاغرون . ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، ومنارُ سبيل التَّقَى ، القادة الذادة السادة ؛ بنوعم رسول الله ، ومنزل جبريل بالتنزيل ؛ كَمْ قَصَمَ اللهُ بِهِمْ ^(١) من جَبَّار طاغ ، وفاسق باغ ، شَيْدَ اللهِ بِهِمْ الهدى ، وجلا بِهِم العمى ؛ لم يُسْمَعْ بمثل العباس ! وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حقّ الحرمة ! أبو رسول الله بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجلدة بين عينيهِ . أميئته يوم العقبة وناصره بمكة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميهِ يوم حُنين ، عند ملتقى الفئتين ؛ لا يخالف له رسماً ، ولا يعضى له حكماً ؛ الشافع يوم رَنيق ^(٢) العُقَاب ، إلى رسول الله في الأحزاب . هالان في هذا أيّها الناس لعبرة لأولى الأبصار ^(٣) !

قلت : الأسدىّ عبد الله بن الزبير . وَمَنْ لا يعرفون اسمه ولا بيته ، يعنى نفسه ، لأنه لم يكن معلوم النسب ؛ وقد اختلف فيه هل هو مولى أم عربى .
ويوم العقبة : يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله بمكة . ويوم نيق العُقَاب يوم فتح مكة ، شفع العباس ذلك اليوم في أبى سفيان وفى أهل مكة ، فعفا النبيّ صلى الله عليه وآله عنهم .

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس ابن محمد وغيرهما ؛ فتذاكروا خلفاء بنى أميّة ، والسبب الذى به سلبوا عزّهم ، فقال المنصور : كان عبد الملك جَبَّاراً لا يبالى ما صنع ؛ وكان الوليد لِحْناً مجنوناً ، وكان سليمان همته بطنه . وفرجه ، وكان عمر أعور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم ، ولم يزل بنو أميّة ضابطين لما مهدّ لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه ، ويحرصون ما وهب الله لهم منه ، مع تسلّمهم معالى الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مترفين من أبنائهم ، فغمطوا النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية ، فابتدأت النعمة منهم ،

(٢) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة .

(١) ساقطة من ب

(٣) د : الألباب .

باستدراج الله إياهم آمنين مكره . مطّرحين صيانة الخلافة ، مستخفين بحقّ الرئاسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزّة ، وألبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة .

سأل المنصور ليلةً عن عبد الله بن مروان بن محمد ، فقال له الربيع : إنّه في سجن أمير مؤمنين حيّاً ، فقال المنصور : قد كان بلغني كلامٌ خاطبه به ملكُ الثوبة ؛ لما قدم دياره ، وأنا أحبّ أن أسمع من فيه ، فليؤمّر بإحضاره . فأحضره ، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة ، فأمره المنصور ، بالجلوس ، فجلس ولقيد في رجله خشخشة . قال : أحبّ أن تسمعي كلاماً قاله لك ملك الثوبة حيث غشيت بلاده ، قال : نعم ، قدمت إلى بلد الثوبة ، فأقمت أياماً ، فأصل خبرنا بالملك ، فأرسل إلينا فرسا وبسطاً وطعاماً كثيراً ، وأفرد لنا منازل واسعة ، ثم جاءني ومعه خمسون من أصحابه ، بأيديهم الحراب ، فقامت إليهم فاستقبلته ، وتنحّيت له عن صدر المجلس ، فلم يجلس فيه ، وقعد على الأرض ، فقلت له : ما منعك من القعود على الفرش ؟ قال : إني ملك ، وحقّ الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجدّدة عنده ، ولما رأيت تجدد نعمة الله عندي بقصدكم بلادي ، واستجارتكم بي ، بعد عزّكم وملككم ، قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع . ثم سكت وسكت ، فلبثنا ماشاء الله ؛ لا يتكلّم ولا أتكلّم ، وأصحابه قيامٌ بالحراب على رأسه . ثم قال لي : لماذا شربتم الخمر وهي محرّمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم ، قال : فلم وطيئتم الزروع بدوابكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم ودينكم^(١) ؟ قلت : فعّل ذلك أتباعنا وعمّالنا جهلاً منهم ، قل : فلم لبستم الحرير والديباغ والذهب ، وهو محرّم عليكم في كتابكم ودينكم ؟ قلت : استعنا في أعمالنا بقوم من

(١) ساقطة من ب

أبناء العجم كتاب ، دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتباعاً لسنة سلفهم ، على كُرهٍ منا . فأتوا طريقاً مليئاً إلى الأرض يقلب يده ، وينسكت الأرض . ثم قال : عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتّابنا ! ما الأمر كما ذكرت ، ولست بكم قوم استحللتم ما حرّم الله عليكم ، وركبتم ما عنه نهيتهم ، وظلمتم فيما ملّسكم ، فسلبكم الله العزّ ، وألبسكم الذلّ ؛ وإن له سبحانه فيكم لفظة لم تبلغ غايتها بعد ، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بأرضي فينا إلى معكم ؛ والضيافة ثلاث ، فاطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عن أرضي . فأخذنا منه ما تزودنا به ، وارتحلنا عن بلده . فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلى الحبس .

وقد جاءنا في بعض الروايات أنّ السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضموا إليه من بنى أمة جلس يوماً على سرير بهاشمية الكوفة^(١) وجاء بنو أمية وغيرهم من بنى هاشم ، والقواد والكتاب ، فأجلسهم في دار تفصل بداره ، ويديه وبينهم ستر مسدول ، ثم أخرج إليهم أبا الجهم بن عطية ، وبيده كتاب ملصق ، فنادى بحيث يسمعون : أين رسول الحسين ابن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؟ فلم يتكلم أحد ، فدخل ثم خرج ثانية ، فنادى : أين رسول زيد بن عليّ بن الحسين ؟ فلم يجبه أحد ، فدخل ثم خرج ثالثة ، فنادى : أين رسول يحيى بن زيد بن عليّ ؟ فلم يردّ أحد عليه ، فدخل ثم خرج رابعة ، فنادى : أين رسول إبراهيم بن محمد الإمام ؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنوا بالشرّ ، ثم دخل وخرج ، فقال لهم : إنّ أمير المؤمنين يقول لكم : هؤلاء أهلي ولحي ، فماذا صنعتُم بهم ؟ ردّوهم إلىّ أو فأقيدوني من أنفسكم . فلم ينطقوا بحرف ، وخرجت الخراسانية بالأعمدة فشدّ خومهم عن آخرهم .

(١) هاشمية الكوفة ، مدينة بناها السفاح .

قلت : وهذا المعنى مأخوذ من قول الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن عليّ عليه السلام في سنة اثنتين وعشرين ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك ؛ وذلك أن هشام كتب إلى عامله بالبصرة - وهو القاسم ابن محمد الثقفي - أن يشخص كلّ من بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفاً من خروجهم ؛ وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوماً منهم ، وأن يعرضهم في كلّ أسبوع مرة ، ويقيم لهم الكفلاء ؛ على ألا يخرجوا منها ، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة :

كَلَمَّا حُدِّثُوا بِأَرْضٍ نَقِيحًا	ضَمَنُونَا السَّجُونَ أَوْ سَيِّرُونَا
أَشْخَصُونَا إِلَى الْمَدِينَةِ أَسْرَى	لَا كِفَاهُمْ رَبِّي الَّذِي يَحْذَرُونَا
خَلَفُوا أَحْمَدَ الْمُطَهَّرَ فِيمَا	بِالَّذِي لَا يَحِبُّ ، وَاسْتَضَعَفُونَا
قَتَلُونَا بِغَيْرِ ذَنْبٍ إِلَيْهِمْ	قَاتَلَ اللَّهُ أُمَّةً قَتَلُونَا !
مَارَعَوْا حَقَّنَا وَلَا حَفِظُوا فِيهِ	مَنَا وَصَاةَ الْإِلَهِ بِالْأَفْرِيدِنَا
جَعَلُونَا أَدْنَى عَدُوِّ إِلَيْهِمْ	فَهَمُّ فِي دِمَائِنَا يَسْبَحُونَا
أَنْكَرُوا حَقَّنَا وَجَارُوا عَلَيْنَا	وَعَلَى غَيْرِ إِحْنَةٍ أَبْغَضُونَا
غَيْرَ أَنَّ النَّبِيَّ مِنَّا وَأَنَا	لَمْ نَزَلْ فِي صَلَاتِهِمْ رَاغِبِينَ
إِنْ دَعَوْنَا إِلَى الْهُدَى لَمْ يَجِيبُوا	نَا ، وَكَانُوا عَنِ الْهُدَى نَا كَبِينَا
أَوْ أَمَرْنَا بِالْعُرْفِ لَمْ يَسْمَعُوا مِنَّا	وَرَدَّوْنَا نَصِيحَةَ الْفَاسِحِينَ
وَلَقَدْ مَا مَرَدُّ نَصَحِ دَوَى الرَّأْيِ	يَ فَلَمْ يَتَّبِعْهُمْ الْجَاهِلُونَا
فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُدِيلَ أَنَا	مِنْ أَنَا فِي صَبْحِ ظَاهِرِنَا
فَتَقَرَّ الْعَمِيونَ مِنْ قَوْمِ سَوِيٍّ	قَدْ أَخَافُوا وَقَتَّلُوا الْمُؤْمِنِينَ

لِمَتِ شَعْرِي هَلْ تُوجِفَنَّ بِي الْخِيَالُ عَلَيْهَا الْكِمَاةُ ^(١) مُسْتَلِيمِينَ
 مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَمَنْ كُلَّ حَيٍّ يَنْصُرُونَ الْإِسْلَامَ مُسْتَنْصِرِينَ
 فِي أَنْاسٍ آبَاؤُهُمْ نَصَرُوا الدِّيْنَ ، وَكَانُوا لِرَبِّهِمْ نَاصِرِينَ
 تَحْكُمُ الْمَرْهَفَاتُ فِي الْهَامِ مِنْهُمْ بِأَكْفِ الْمَعَاشِرِ الثَّانِيَيْنَا ^(٢)
 أَيْنَ قَتَلْتَنِي مِنْهَا بَغَيْتُمْ عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظَالِمِينَ
 ارْجِعُوا هَاشِمًا وَرُدُّوا أَبَا الْيَتِّ ظَانٍ وَأَبْنَ الْبَدَلِ فِي آخِرِنَا
 وَارْجِعُوا ذَا الشَّهَادَتَيْنِ وَقَتَلْتَنِي أَنْتُمْ فِي قَتْلِهِمْ فَاجِرُونَ
 ثُمَّ رُدُّوا حُجْرًا وَأَصْحَابَ حُجْرٍ يَوْمَ أَنْتُمْ فِي قَتْلِهِمْ مَعْتَدُونَ
 ثُمَّ رُدُّوا أَبَا صَحِيرٍ وَرُدُّوا لِي رَشِيدًا وَمِيمًا وَالَّذِينَ :
 قُتِلُوا بِالطُّغُوفِ يَوْمَ حُسَيْنٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، وَرُدُّوا حُسَيْنًا
 أَيْنَ عَمَرُوا ؟ وَأَيْنَ بَشَرْتَنِي وَقَتَلْتَنِي مَعَهُمْ بِالْعِرَاءِ مَا يَدْفَنُونَا !
 ارْجِعُوا عَامِرًا وَرُدُّوا زُهَيْرًا ثُمَّ عَثْمَانَ ، فَارْجِعُوا عَازِمِينَ
 وَارْجِعُوا الْحَرَّ وَأَبْنَ قَيْنٍ وَقَوْمًا قُتِلُوا حِينَ جَاوَزُوا صِفِّينَا
 وَارْجِعُوا هَانِئًا وَرُدُّوا إِلَيْنَا مُسْلِمًا وَالرَّوَاعِ فِي آخِرِنَا
 ثُمَّ رَدُّوا زَيْدًا إِلَيْنَا وَرَدُّوا كُلَّ مَنْ قَدْ قَتَلْتُمْ أَجْمَعِينَ
 لَنْ تَرُدُّوهُمْ إِلَيْنَا وَلَسْنَا مِنْكُمْ غَيْرَ ذَلِكَ قَابِلِينَ

* * *

(١) الكِمَاة : الشَّجَمَان : والمستَلِيم : لابس اللّامة ، وهى الدرع فى الحرب .

(٢) المرهفات : السيوف والهام ، الرعوس .

الأفضل :

أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى
التَّدْ كَبِيرَ وَقِيلَهُ !

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاعْظِمِ مُتَعَطِّ ، وَأَمْتَا حُوا مِنْ صَفِي عَيْنٍ
قَدْ رُوِّقَتْ مِنْ أَلْكَدَرِ .

عِبَادَ اللَّهِ ، لَا تَرَكُوا إِلَى جَهَائِكُمْ ، وَلَا تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ
بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرْفٍ هَارٍ ؛ يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ،
لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ !
فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ
أُبْرَمَ لَكُمْ .

إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حَلَّ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ : الْإِبْلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَالْإِجْتِهَادُ
فِي النَّصِيحَةِ ، وَالْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحَقِّهَا ، وَإِصْدَارُ السُّهُمَانِ
عَلَى أَهْلِهَا .

فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَضَوُّيهِ تَبَتُّهُ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْفَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَفَارِ
الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ، فَإِنَّمَا أَمْرُكُمْ بِالنَّهْيِ
بَعْدَ التَّنَاهِي !

الشرح :

هَارَ الجرف يهور هوراً وهثوراً فهو هائر ؛ وقالوا : « هار » ، خفضوه في موضع
الرفع ، كقاضٍ ، وأرادوا « هائر » ؛ وهو مقلوب من الثلاثي إلى الرباعي ؛ كما قلبوا « شائك
السلاح » إلى « شاكى السلاح » . وهوترته ، قهور وانهار ؛ أى انهدم .

وأشكيت زيدا : أزلت شكايته . والشجو : الهم والحزن .

وصوح النبت ، أى جفّ أعلاه ، قال :

ولكنّ البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعىّ الشسيم^(١)
يقول عليه السلام : أشدّ العيون إدراكاً ما نفذ طرفها في الخير ، وأشدّ الأسماع إدراكاً
ما حفظ الموعدة وقيلها .

ثم أمر الناس أن يستصيحوا ، أى يسرجوا مصابيحهم من شعلة سراج . متعظ
في نفسه واعظ لغيره ؛ وروى بالإضافة من « شعلة مصباح واعظ » بإضافة « مصباح »
إلى « واعظ » ؛ وإنما جعله متعظاً واعظاً ، لأن مَنْ لم يتعظ في نفسه فبعيد أن يتعظ
به غيره ؛ وذلك لأن القبول لا يحصل منه ، والأنفس تكون نافرة عنه ، ويكون داخلا
في حيز قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٢) ، وفي قول الشاعر :
* لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ^(٣) *

وعنى بهذا المصباح نفسه عليه السلام .

ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافية قد انتفى عنها الكدر ، كما يروق الشراب بالراوق
فيزول عنه كدره ؛ والامتياح : نزول البئر وملء الدلاء منها ، ويكنى بهذا أيضاً عن نفسه
عليه السلام .

(١) لأبي على البصير ، وقيل :

أَعْمَرُ أَبْيَكَ مَا نُسِبَ الْمَلَىٰ إِلَىٰ كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ

أماي القالي ٢ : ٢٨٧

(٢) سورة البقرة ٤٤

(٣) لأبي الأسود الدؤلي ، وبقيته :

* عَارَ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ *

وابت من شواهد المغنى ، وانفار شرح شواهد المغنى للسيوطي ٢٦٤ .

ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهاتهم ، وقال : إن من يكون كذلك ، فإنه على جانب جرُفٍ متهدّم ؛ ولفظة « هارِ » من الألفاظ القرآنية^(١).

ثم قال : ومن يكون كذلك ، فهو أيضا ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع ؛ ليُحدِث رأيا فاسدا بعد رأى فاسد ، أى هو سارع في ضلال يروم أن يحتجّ لما لا سبيل إلى إثباته ، وينصر مذهبا لا انتصار له .

ثم نهاهم وحذّروهم أن يشكّوا إلى من لا يزيل شكائهم ومن لا رأى له في الدين ولا بصيرة . لينقض ماقد أبرمه الشيطان في صدورهم لإغوائهم . ويروى : « إلى من لا يشكى شجوّكم ، ومن ينقض برأيه ماقد أبرم لكم » ؛ وهذه الرواية أليق ، أى لا تشكّوا إلى من لا يدفع عنكم ما تشكون منه ؛ وإنما ينقض برأيه الفاسد ماقد أبرمه الحق والشرع لكم .

ثم ذكر أنّه ليس على الإمام إلا ماقد أوضحه من الأمور الخمسة .

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله - يعنى نفسه عليه السلام - قبل أن يموت ، فيذهب العلم . وتصويح النّبّت ، كناية عن ذلك .

ثم قال : وقبل أن تشغلّوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استئثار العلم من معدنه واستنباطه من قرارته .

ثم أمرهم بالنهى عن المفكر ، وأن يتناهو عنه قبل ينهوا عنه ؛ وقال : إنما النهى بعد التناهى .

(١) من قوله تعالى في سورة التوبة ١٠٩ ﴿ أَمِنْ أَشْسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارٍ بِهِ

فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ۚ ۞ .

وفي هذا الموضع إشكال ، وذلك أن لقائل أن يقول : النهى عن المنكر واجب على العدل والفاسق ، فكيف قال : « إنما أمرتم بالنهي بعد التفاهى » ؛ وقد روى أن الحسن البصري قال للشَّعْبِيَّ : هَلَّا نَهَيْتَ عَنْ كَذَا ؟ فقال : يَا أَبَا سَعِيدَ ، إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ . قال الحسن : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ! وَإِنَّا يَقُولُ مَا يَفْعَلُ ! وَدَّ الشَّيْطَانُ لَوْ ظَفِرَ مِنْكُمْ بِهَذِهِ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ !

والجواب أنه عليه السلام لم يرد أن وجود النهى عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك التفاهى عن المنكر ؛ وإنما أراد : أني لم آمركم بالنهي عن المنكر إلا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر ؛ فالترتيب إنما هو في أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين ؛ لا في نهيهما وتذليلهما .

فإن قلت : فلماذا قدم أمرهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي ؟

قلت : لأن إصلاح المرء نفسه أهم من الاعتناء بإصلاحه لغيره .

(١٠٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ . وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ ؛ فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَسَكَّلَ بِهِ ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ ، وَنُورًا لِمَنْ اسْتَضَاءَ بِهِ ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّعَ ، وَتَبْصِيرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبرَةً لِمَنْ انْعَطَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجَنَّةً لِمَنْ صَبَرَ .

فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلَايِجِ ؛ مُشْرِفُ الْمَنَارِ ، مُشْرِقُ الْجَوَادِ ، مُضِيُّ الْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ الْمَضَامِرِ ، رَفِيعُ الْغَايَةِ ، جَامِعُ الْخَلْقَةِ ، مُتَنَافِسُ السُّبُقَةِ ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ .

التَّصَدِّيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ ، وَالْأَلَدُ نِيَا مِضْمَارُهُ ، وَالْقِيَامَةُ حَالَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبُقَتُهُ .

الْمُنْجِي :

هذا باب من الخطابة شريف ؛ وذلك لأنه ناط بكل واحد من اللفظات لفظة تداسبها وتلائمها لو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرت في قرارها ؛ ألا تراه قال : « أَمَّا مَنْ عَلِقَهُ » ! فالأمن مرتب على الاعتلاق ؛ وكذلك في سائر الفقر كالسلم المرتب على الدخول، والبرهان المرتب على الكلام؛ والشاهد المرتب على الخصام، والنور المرتب

على الاستضاءة . . . إلى آخرها ؛ ألا ترى أنه لو قال : « وبرهاننا لمن دخله ، ونورا لمن خاصم عنه ، وشاهدا لمن استضاء به » ، لكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها ، فـ لكان قد خرج عن قانون الخطابة ، ودخل في عيب ظاهر !

وتوسم : تفرس . والولأج : جمع وليجة ، وهو المدخل إلى الوادى وغيره .

والجنة : الترس . وأبلج المناهج : معروف الطريق .

والحلبة : الخيل المجموعة للمسابقة .

والضمار : موضع تضمير الخيل ، وزمان تضميرها . والغاية : الراية المنصوبة ، وهو هاهنا خريقة تجعل على قصبته وتنصب في آخر المدى الذى تنتهى إليه المسابقة ؛ كأنه عليه السلام جعل الإسلام كنخيل السباق التى مضارها كريم ، وغايتها رفيعة عالية ؛ وحلبتها جامعة حاوية ، وسبقته متنافس فيها ، وفرساتها أشرف .

ثم وصفه بصفات أخرى ، فقال : التصديق طريقه ، والصالحات أعلامه ، والموت غايته ؛ أى أن الدنيا سجن المؤمن ، وبالموت يخلص من ذلك السجن ؛ ويحظى بالسعادة الأبدية .

قال : والدنيا مضماره ، كأن الإنسان يجرى إلى غاية هى الموت ؛ وإنما جعلها مضمار الإسلام ، لأن المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته ، فالدنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعينة .

قال : والقيامه حلبته ، أى ذات حلبته فحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى ذوو درجات .

ثم قال : والجنة سبقتة ، أى جزاء سبقتة ، فحذف أيضاً .

الأفضل :

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

حَتَّى أَوْزَى قَبَسًا لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عِلْمًا لِحَابِسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَشَهِيدُكَ
يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيْثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً .
اللَّهُمَّ أَقْسِمُ لَكَ مَقْسَمًا مِنْ عَذْلِكَ ، وَأَجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ
وَأَعْلَى عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرَمَ لَدَيْكَ نَزْلَهُ ، وَشَرَفَ عِنْدَكَ مَنَرَهُ ، وَآتِهِ
الْوَسِيلَةَ ، وَأَعْظَمَ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَأَحْمَرَنَا فِي زُمْرَتِهِ ؛ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ ،
وَلَا نَاكِهِينَ ، وَلَا نَاكِثِينَ ، وَلَا ضَالِّينَ ، وَلَا مُضِلِّينَ ، وَلَا مَقْتُونِينَ !

قال الرضیّ رحمه الله تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، إِلَّا أَنَّنَا كَرَّرْنَاهُ هَاهُنَا لِمَا فِي الرِّوَايَتَيْنِ
مِنَ الْاِخْتِلَافِ .

البشرح :

قبسا ، منصوب بالمفعولية ، أى أوزى رسول الله صلى الله عليه وآله قبسا ، والقابس :
شعلة من النار ، والقابس : طالب الاستصباح منها . والكلام مجاز ، والمراد الهداية
في الدين .

وعلمًا ، منصوب أيضا بالمفعولية ، أى وأنا رسول الله صلى الله عليه وآله علمًا .
لحابس ، أى نصب لمن قد حبس ناقته - ضللا ، فهو يخط لا يدرى كيف يهتدى
إلى المنهج - علمًا يهتدى به .

فإن قلت : فهل يجوز أن ينصب « قبسا » و « علما » على أن يكون كل واحد منهما حالا ، أى حتى أورى رسول الله في حال كونه قبساً وأثار في حال كونه علماً ؟
 قلت : لم أسمع « أورى الزند » وإنما المسموع « ورى » و « ورى » ولم يجرى « أورى » إلا متعدياً ، أورى زيد زنده ، فإن حمل هاهنا على المتعدى احتيج إلى حذف المفعول ، ويصير تقديره : حتى أورى رسول الله الزند حال كونه قبساً ، فيكون فيه نوع تكلف واستهجان .

والبعث : المبعوث . ومقسماً : نصيباً ، وإن جعلته مصدراً جاز .
 والنزول : طعام الضيف . والوسيلة : ما يتقرب به ، وقد فسر قولهم في دعاء الأذان : « اللهم آتِه الوسيلة » ، بأنها درجة رفيعة في الجنة . والثناء بالمد : الشرف . وزمرته : جماعته .

وخزاي : جمع خزيان ، وهو الخليل المستحي ، مثل سكران وسكارى ، وحيران وحيارى ، وغيران وغيارى .
 وناكبين ، أى عادلين عن الطريق . وناكبين ، أى ناقضين للعهد .

قلت : سألتُ النقيب أبا جعفر رحمه الله - وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضوع - فقلت له : قد وقفت على كلام الصحابة وخُطبهم فلم أرفيها من يعظم رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيم هذا الرجل ، ولا يدعو كدعائه ؛ فإننا قد وقفنا من "نهج البلاغة" ، ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل ، تدلّ على إجلال عظيم ، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله . فقال : ومن أين لغيره من الصحابة كلام مدون يتعلم منه كيفية ذكركم للنبي صلى الله عليه وآله ؟ وهل وجد لهم إلا كلمات مبتدرة ، لا طائل تحتها اثم قال : إن علياً عليه السلام كان قوى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له ، ثابت اليقين ؛ قاطعاً بالأمر ، متحققاً له ، وكان

مع ذلك يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه منه ، وتريقته له ، واختصاصه به من دون أصحابه . وبعد ؛ فشرّفه له ، لأنهما نفس واحدة في جسمين : الأب واحد ، والدار واحدة ، والأخلاق متناسبة ؛ فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه ، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه ، ولقد كان يودّ أن تطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأن جمال ذلك لاحق به ، وعائد عليه ، فكيف لا يعظّمه ويبتجله ويجهّد في إعلاء كلمته !

فقلت له : قد كنت اليوم أنا وجعفر بن مكّي الشاعر نتجاذب هذا الحديث ، فقال جعفر : لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله أحدٌ نصرته أبي طالب وبنوه له ، أما أبو طالب فكفّله وربّاه ، ثم حمّاه من قريش عند إظهار الدعوة ، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله ، وأما ابنه جعفر فهجر جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فزّشر دعوته بها ، وأما عليّ فإنه أقام عماد الملة بالمدينة ؛ ثم لم يَمُنْ أحدٌ من القتل والهوان والتشريد بما مَنَى به بنو أبي طالب ؛ أما جعفر فقتل يوم مؤتة ، وأما عليّ فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل ، وتَمَنَّى الموت ، ولو تأخر قتل ابن ملجم له لمات أسفا وكدا ، ثم قُتِلَ ابنه بالنّسم والسيف ، وقتل بنوه الباقون مع أخيههم بالطف ، وُحِلَّت نساؤهم على الأقتاب سبأيا إلى الشام ، ولقيت ذريتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصّلب والتشريد في البلاد والهوان والحبس والضرب مالا يحيط الوصف بكنهه ، فأى خير أصاب هذا البيت من نصرته ، ومحبة وتعظيمه بالقول والفعل !

فقال رحمه الله - وأصاب فيما قال - : ﴿ يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُفْرُ الْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) . ثم قال : وهلا قلت له : فقد نصرته الأنصار ، وبذلت مَهَجَهَا دونه ، وقتلت بين يديه في

(١) سورة آل عمران ١٦٣

في مواطن كثيرة ، وخصوصا يوم أُخذتم اهتَضِمُوا بعده ، واستؤثر عليهم ، ولقوا من المشاقِّ والشدائد ما يطول شرحه ؛ ولو لم يكن إلا يوم الحرّة ، فإنه اليوم الذي لم يكن في العرب مثله ، ولا أصيب قوم قطّ بمثل ما أصيب به الأنصار ذلك اليوم !
ثم قال : إن الله تعالى زوى الدنيا عن صالحى عباده وأهل الإخلاص له ؛ لأنه لم يرها ثمنا لعبادتهم ، ولا كفوا لإخلاصهم ، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار ؛ في مثلها يتنافسون المتنافسون !

الأفضل :

منها في خطاب أصحابه :

وَقَدْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنَزِلَةً تُكْرِمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ ، وَتُوصِلُ بِهَا جِيرانَكُمْ ، وَيُعْظَمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ ، وَبِهَا بُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةً .
وَقَدْ تَرَوْنَ عُهودَ اللَّهِ مَنقُوضَةً فَلَا تَعْضُبُونَ ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمِّهِ آبَائِكُمْ تَأْنِفُونَ ، وَكَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُّ ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّالِمَةَ مِنْ مَنَزِلَتِكُمْ ، وَالْقَيْنَتُمْ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَأَسَلْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ . وَإِنَّمَا اللَّهُ تَوْفَرُّكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ ، بِجَمْعِكُمْ
اللَّهُ لِيَشْرَّ يَوْمَ لَهُمْ !

البيان :

هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية ؛ التي كان

يُغَيِّرُ بِهَا عَلَى أَطْرَافِ أَعْمَالٍ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالْأَنْبَارِ وَغَيْرِهَا ؛ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَالِهِ ؛ قَالَ لَهُمُ :
إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَكُمْ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ مَجُوسًا أَوْ عَبَادَ أَصْنَامٍ ، وَبَلَّغْتُمْ مِنْ كِرَامَتِهِ إِيَّاكُمْ
بِالْإِسْلَامِ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً ؛ أَكْرَمَ بِهَا إِمَاؤَكُمْ وَعَبِيدَكُمْ ؛ وَمَنْ كَانَ مَظِنَّةَ الْمُنْهِنَةِ وَالْمَذَلَّةِ .

وَوَصَلَ بِهَا جَبَرَانُكُمْ ، أَيْ مَنْ التَّجَأَ إِلَيْكُمْ مِنْ مُعَاهِدٍ أَوْ ذِيٍّ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَفِظَ
لَهُمْ ذِمَامَ الْجَاوِرَةِ لَكُمْ ؛ حَتَّى عَصَمَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَصَرَّتْ إِلَى حَالٍ يَعْظُمُكُمْ بِهَا مَنْ
لَا فُضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا نِعْمَةَ لَكُمْ عِنْدَهُ ؛ كَالرُّومِ وَالْحَبْشَةِ ، فَإِنَّهُمْ عَظَّمُوا مَسَامِي الْعَرَبِ
لِقَمَتِهِمْ لِبَاسِ الْإِسْلَامِ وَالِدِينِ ، وَلَزَوْهُمْ نَامُوسُهُ ، وَإِظْهَارُهُمْ شَعَارَهُ .

وَبِهَا بَكُمُ مِنَ الْيَخَافِ لَكُمْ سَطْوَةٍ ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِسْرَةٍ ؛ كَالْمُلُوكِ الَّذِينَ فِي أَقَاصِي الْبِلَادِ ؛
نَحْوَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَأَمْثَالِهَا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ هَابُوا دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَخَافُوا سَطْوَةَ سَيْفِهَا ؛
لَأَنَّهُ شَاعَ وَذَاعَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ ؛ إِذَا دَعَا اللَّهُ اسْتَجَابَ لَهُمْ ؛ وَأَنَّهُمْ يَقْهَرُونَ الْأُمَمَ بِالنَّصْرِ
السَّمَاوِيِّ وَالْمَلَأْنِكَةِ ؛ لَا بِسُيُوفِهِمْ وَلَا بِأَيْدِيهِمْ . قِيلَ : إِنَّ الْعَرَبَ لَمَّا عَبَرَتْ دِجْلَةَ إِلَى
الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ الشَّرْقِيِّ بِالْمَدَائِنِ عَبَرَتْهَا فِي أَيَّامِ مَدَّهَا ، وَهِيَ كَالْبَحْرِ الزَّاخِرِ عَلَى خِيُولِهَا
وَبِأَيْدِيهَا رِمَاحِهَا ، وَلَا دُرُوعَ عَلَيْهَا وَلَا بَيْضَ ؛ فَهَرَبَتِ الْفَرَسُ بَعْدَ رَمَى شَدِيدٍ مِنْهَا لِلْعَرَبِ
بِالسَّهَامِ ؛ وَهُمْ يَقْدُمُونَ وَيَحْمِلُونَ ؛ وَلَا تَهْوُلُهُمُ السَّهَامُ ؛ فَقَالَ فُلَاحُ نَبَطِي ، بِيَدِهِ مَسْحَاتُهُ
وَهُوَ يَفْتَحُ الْمَاءَ إِلَى زَرْعِهِ لِأَسْوَارٍ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ مَعْرُوفٍ بِالْبَاسِ وَجُودَةِ الرَّمَايَةِ : وَيَلِكُمْ !
أَمِثْلُكُمْ فِي سِلَاحِكُمْ يَهْرَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْخَاسِرِينَ ؛ وَلِذَلِكَ بِاللَّوْمِ وَالتَّعْنِيفِ . فَقَالَ لَهُ :
أَقِمْ مَسْحَاتَكَ ، فَأَقَامَهَا فَرَمَاهَا ، نَفَرَ الْحَدِيدُ حَتَّى عَبَرَ النَّصْلَ إِلَى جَانِبِهَا الْآخَرِ ، ثُمَّ قَالَ :
انْظُرْ الْآنَ ، ثُمَّ رَمَى بَعْضَ الْعَرَبِ الْمَارِّينَ عَلَيْهِ عَشْرِينَ سَهْمًا لَمْ يُصِبْهُ وَلَا فَرَسُهُ مِنْهَا بِسَهْمٍ
وَاحِدٍ ؛ وَإِنَّهُ لَقَرِيبٌ مِنْهُ غَيْرُ بَعِيدٍ . وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّهَامِ يَسْقُطُ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسْوَارِ ،
فَقَالَ لَهُ بِالْفَارْسِيَّةِ : أَعْلَمْتُ أَنَّ الْقَوْمَ مَصْنُوعٌ لَهُمْ أَقَالَ : نَعَمْ .

ثم قال عليه السلام : مالكم لاتفضيبن ، وأنتم ترون عهود الله منقوضة ! وإن من
العجب أن يفضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه ، ولا يفضب ولا يأنف لنقض
عهود إلهه وخالقه !

ثم قال لهم : كانت الأحكام الشرعية إليكم ترد متى ومن تعلیمی إياكم ، وتشقي
لكم ، ثم تصدُر عنكم إلى مَنْ تعلمونه إياها من أتباعكم وتلامذتكم ، ثم يرجع إليكم
بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة ؛ ففررت من الزحف لما أغارت
جيوش الشام عليكم ، وأسلمت منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ، ومكثتم الظلمة
من منزلتكم ؛ حتى حكموا في دين الله بأهوائهم ، وعملوا بالشبهة لابلحجة ، واتسموا
في شهواتهم ومآرب أنفسهم .

ثم أقسم بالله : إن أهل الشام لو فرقوكم تحت كل كوكب ليجمعنكم الله ليوم ،
وهو شر يوم لهم ؛ وكفى بذلك عن ظهور المسودة وانتقامها من أهل الشام وبنى أمية ،
وكانت المسودة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية .

(١٠٦)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صفيين :

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوَلْتَكُمْ ، وَأَنْحِيَا زَكَمَ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمْ الْجَفَاءُ الطَّعَامُ ،
وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ ، وَيَا فَيْخُ الشَّرَفِ ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ ،
وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ .

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرَةٍ ، تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُواكُمْ ،
وَتَزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ بِحَسَا بِالنَّصَالِ ، وَشَجَرًا بِالرَّمَا حِ ؛ تَرْكَبُ أَوْلَاهُمْ
أَخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ إِلَيْهِمُ الْمَطْرُودَةِ ؛ تَرْمِي عَنْ حِيَاضِهَا ؛ وَتَذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا !

الشنخ :

جولتكم : هزمتكم . فأجل في اللفظ ، وكفى عن اللفظ المنفّر ، عادلاً عنه إلى لفظ
لا تنغير فيه ، كما قال تعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾^(١) ، قالوا : هو كناية عن إتيان
الغائط ، وإجمال في اللفظ .

وكذلك قوله : « وَأَنْحِيَا زَكَمَ عَنْ صُفُوفِكُمْ » كناية عن الهرب أيضا ؛ وهو من قوله
تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾^(٢) .

(١) سورة الفرقان ٧

(٢) سورة الأنفال ١٦

وهذا باب من أبواب البيان لطيف ؛ وهو حُسن التوصل بإيراد كلام غير مزعج ؛
هوضا عن لفظ يتضمّن جَبْهًا وتقريبا .

وتحورّكم : تعدل بكم عن مراكم . والجفأة : جمع جافٍ ؛ وهو الفَدَم الغايظ .
والطّعام : الأوغاد . واللّهاميم : جمع لهوم وهو الجواد من الناس والخيّل ، قال الشاعر :
لا تحسبنّ بياضاً في منقصةٍ إنّ اللّهاميم في أقرابها بَلَقُ^(١)
والياثيخ : جمع يافوخ وهو معظم الشيء ، تقول : قد ذهب يافوخ الليل ، أى أكثره ،
ويحورّ أن يريد به اليافوخ ، وهو أعلى الرأس ، وجمعه ياثيخ أيضا . وأفختُ الرجلُ : ضربت
يافوخه ، وهذا الّيق ، لأنه ذكر بعده الأنف والسنام ، فحُمِل اليافوخ على العضو
إذا أشبهه .

والوحاح : الحرق والحزازات ولقيته بأخرة على « فَعَلَة » أى أخيرا .
والحسّ القتل ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾^(٢) .
وشجرت زيدا بالرمح : طمته ، والتأنيث في « أولاهم » و « وأخراهم » للكتائب .
والهيم : المطاش . وتزداد تصدّ وتمنع ، وقد روى : « الطغاة » عوض « الطعام » .
وروى « حشأ » بالهمز من حشأت الرجل أى أصبت حشاه .
وروى « بالفضال » بالاضاد المعجمة ، وهو المناضلة والمراماة .
وقد ذكرنا نحن هذا الكلام فيما افتصصناه من أخبار صِفّين فيما تقدّم من
هذا الكتاب .

(١) اللسان ١٦ : ٢٩ ، من غير نسبة .

(٢) سورة آل عمران ١٥٢

(١٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ، وهى من خطب الملاحم :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلَّى لِحَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ
غَيْرِ رَوِيَّةٍ ؛ إِذْ كَانَتْ الرُّوَبَاتُ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِذَوَى الضَّمَائِرِ ؛ وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي
نَفْسِهِ . خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّرَاتِ ، وَأَحَاطَ بِمُؤْضٍ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ .

الشرح :

الملاحم : جمع ملحمة ؛ وهى الوقعة العظيمة فى الحرب ؛ ولما كانت دلائل إثبات
الصانع ظاهرة ظهور الشمس ؛ وصفه عاينه السلام بكونه ظهر وتجلي لخلق ، ودلهم عاينه
بخلقهم إياهم وإيجاده لهم .

ثم أكد ذلك بقوله : « والظاهر لقلوبهم بحجته » ولم يقل « لعيونهم » لأنه غير
مرئى ؛ ولـكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عاينه .

ثم نفى عنه الروية والسكر والتمثيل بين خاطرين ؛ ليعمل على أحدهما ، لأن ذلك
إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولى النوازع المختلفة والبواطن المتضادة .

ثم وصفه بأن علمه محيط بالظاهر والباطن والماضى والمستقبل ، فقال : إن علمه خرق
باطن الغيوب المستورة ، وأحاط بالعامض من عقائد السرائر .

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ ، وَذُوَابَةِ الْعِلْمِيَاءِ ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ ،
وَمَصَابِيحِ الظُّلَمَةِ ، وَيَنَابِيْعِ الْحِكْمَةِ .

الْبَيْتُ

شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام ، لأن أكثر الأنبياء منهم : والمشكاة :
كوة غير نافذة ؛ يجعل فيها المصباح . والذوابة : طائفة من شعر الرأس ، وسرّة البطحاء :
وسطها ، وبنو كعب بن لؤي يفخرون على بني عامر بن أوى بأنهم سكنوا البطاح ،
وسكنت عامر بالجهال الحبيطة بمكة ، وسكن معها بنو فهر بن مالك ، رهط أبي عبيدة
ابن الجراح وغيره ، قال الشاعر :

فَحَلَلَتْ مِنْهَا بِالْبَطْحَاءِ ح وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالظَّوَاهِرِ
وقال طريح بن إسماعيل :

أَنْتَ ابْنُ مُسْلِمِطِخِ الْبَطَاحِ وَلَمْ تُطَرِّقْ عَلَيَّكَ الْخَلِيَّ وَالْوُلُجُ^(١)
وقال بعض الطائيين :

وَأَنَا ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبَطَاحِ إِذَا غَدَا غَيْرِي ، وَرَاحَ عَلَى مَتُونِ ظَوَاهِرِ

(١) قبل في الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من أخواله . الخي : ما انخفض من الأرض ، والولج :
ما اتسع من الأودية ؛ أي لم تكن بينهما فيختفي حسبك ، والبيت في معجم البلدان ٢ : ٢١٤ .

يفترّ عنيّ ركنها وحطيمها كالجنّ يفتح عن سواد الناظر
كجبالها شرفي، ومثل سهولها خلقي، ومثل طبائهنّ مجاوري

الأنفل :

ومنها :

طبيبٌ دَوَّارٌ بطيّبه ، قد أحكم مَراهمه ، وأنجى مَواسمه ؛ يَضَعُ ذَلِكَ سَئِثُ
الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ؛ مِنْ قُلُوبٍ عُنيَ ، وَأَذَانٍ صُمِيَ ، وَالسِّنَّةِ بُكِمَ ؛ مُتَتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ
الْغَفْلَةِ ، وَمَوَاطِنَ الْخَيْرَةِ .

الشَّخْخ :

إنّما قال : « دَوَّارٌ بطيّبة » ، لأنّ الطبيب الدَّوَّارُ أكثرُ تجربة ، أو يكون عنيّ به
أنّه بدور كلّ مَنْ يعالجه ؛ لأنّ الصالحين يدورون على مرضى القلوب ، فيعالجونهم
ويقال : إن المسيح رُئِيَ خارجاً من بيت مومسة ، فقيل له : ياسيدنا ، أمثلك يكون
هاهنا ! فقال : إنّما يأتي الطبيبُ المرضى .

والمرام : الأدوية المركّبة للجراحات والقروح . والمواسم : حداثيدُ يؤسّم بها
الخليل وغيرها .

ثم ذكر أنّه إنّما يعالج بذلك مَنْ يحتاج إليه ؛ وهم أولو القلوب العُنى ، والأذان
الصمّ ، والألسنة البكم ، أى الخرس . وهذا تقسيم صحيح حاصر ، لأن الضلال ومخالفة

الحقّ يكون بثلاثة أمور : إما بجهل القلب ، أو بعدم سماع المواعظ والحجج ، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر ، فهذه أصول الضلال ؛ وأما أفعال المعاصي ففروع عليها .

[فصل في التقسيم وما ورد فيه من الكلام]

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾^(١). وهذه قسمةٌ صحيحة ، لأن المكلفين : إما كافر ، أو مؤمن ، أو ذو المنزلة بين المنزلتين ، هكذا قسم أصحابنا الآية على مذهبيهم في الوعيد .

وغيرهم يقول : العباد إما عاص ظالم لنفسه ، أو مطيعٌ مبادرٌ إلى الخير ، أو مقتصد بينهما .

ومن التقسيم أيضا قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾^(٢) ومثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾^(٣) ، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع .

ووقف سائل على مجلس الحسن البصريّ ، فقال : رحم الله عبدا أعطى من سعة ، أو واسى من كفاف ، أو آثر من رقاة ! فقال الحسن : لم تترك لأحد عذرا .

(١) سورة فاطر ٣٢

(٢) سورة الواقعة ٧ - ١٠

(٣) سورة الرعد ١٢

ومن التقسيمات الفاسدة في الشعر قول البحتري :

ذَلِكَ وَادِي الْأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلًا مُقْصِرًا فِي مَلَامَةٍ أَوْ مُطِيلًا^(١) .

قِفْ مَشُوقًا ، أَوْ مُسْعِدًا ، أَوْ حَزِينًا أَوْ مِيعِنًا ، أَوْ عَازِرًا ، أَوْ عَذُولًا

فالتقسيم في البيت الأول صحيح ، وفي الثاني غير صحيح ، لأنَّ المشوق يكون حزينًا ، والمُسعد يكون مِيعِنًا ؛ فكذلك يكون عاذرًا ، ويكون مشوقًا ، ويكون حزينًا .
وقد وقع المتنبي في مثل ذلك ، فقال :

فَانْفِرْ ، فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ مُسْتَعِظٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ^(٢)

فإنَّ المستعظم يكون حاسدًا ، والحاسد يكون مستعظمًا .

ومن الأبيات التي ليس تقسيمها بصحيح ، ما ورد في شعر الحماسة :

وَأَنْتَ أَمْرٌ وَإِنَّمَا ائْتَمَنْتُكَ خَالِيًا نَفَخْتُ ، وَإِنَّمَا قُلْتُ قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ^(٣)

فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْخِيَانَةِ وَالْإِنِّمِ

وذلك لأنَّ الخيانة أخص من الإنِّم ، والإنِّم شامل لها ، لأنه أعم منها ، فقد دخل أحد القسمين في الآخر . ويمكن أن يعقذر له ، فيقال : عَنَى بِالْإِنِّمِ الْكَذِبَ نَفْسَهُ ، وكذلك هو المعنى أيضًا بقوله : « قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ » ، كأنه قال له : إِمَّا أَنْ أَكُونَ أَفْشَيْتَ سِرِّي إِلَيْكَ فَخَفَنْتَنِي ، أَوْ لَمْ أَفْشَ فَكَذَبْتَ عَلَيَّ ، فَأَنْتَ فِيمَا أَتَيْتَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ خَائِنًا أَوْ كَاذِبًا .

ومما جاء من ذلك في النثر قول بعضهم : « من جريحٍ مضرَّجٍ بدمه ، أو هاربٍ لايأمنه إلى ورائه » ، وذلك أنَّ الجريح قد يكون هاربًا ، والهابِ قد يكون جريحًا .

وقد أجاد البحتري لما قَسَمَ هذا المعنى ، وقال :

(١) ديوانه ٢ : ٢١٠

(٢) ديوانه ٣ : ٢٥٩

(٣) لعبد الله بن همام السلولي ، حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ٣ : ١١٣٩

غادرتهم أيدي المنية صبحاً
للقفا بين رگم وسجود
فهم فرقتان : بين قتيـل
قبضت نفسه بحد الحديد
أو أسير غدا له السجن الحد
فهو حي في حالة الملعود
فرقة للسيوف ينفذ فيها
حكم قسراً وفرقة للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب: انعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجى مسة قبله، ونعمة تأتي غير محسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه، وحق ظنك فيما ترجيه، وتفضل عليك بما لم تحسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية، وأيضاً فإن النعمة التي تأتي غير محسبة داخله في قسم النعمة المستقبلة.

وقد صيحت القسمة أبو تمام ، فقال :

جُجِعْتُ لِمَا فَرَّقَ الْأَمَانِي مِنْكُمْ
كَالْمُرْنِ مِنْ مَاضِي الرَّبَابِ وَمَقْبِلِ
فَصْنِيعَةٍ فِي يَوْمِهَا وَصْنِيعَةٍ
بَابِرٍ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ وَأَوْصِلِ^(١)
مُتَنَظِّرٍ وَخَيْمٍ مُتَهَلِّلِ
قَدْ أَحْوَلَتْ ، وَصْنِيعَةٌ لَمْ تَحْوَلِ

فإن قلت : فإن ما عنت به فساد التقسيم على البحثى والمنهى يلزمك مثله فيما شرحتّه ، لأنّ الأعمى القلب قد يكون أبكم اللسان ، أصمّ السمع .

قلت : إن الشاعرين ذكرا التقسيم : «أو» ، وأمير المؤمنين عليه السلام قسم بالواو والواو للجمع ، فذيرُ منكرٍ أن تجتمع الأقسام الواحد ، أو أن تعطى معنى الانفراد فقط ، فافترق الموضعان .

الأفضل :

لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ؛ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالضُّخُورِ الْفَاسِيَةِ ؛ قَدْ أَنْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ وَوَضَحَتِ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَاطِبِهَا ، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُعْتَوِّمِهَا .

مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحَ ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحَ ، وَنَسَاكَ بِلَا صَلَاحَ ، وَتَجَارًا بِلَا أَرْبَاحَ ، وَأَيْقَاطًا نُومًا ، وَشُهُودًا غُيْبًا ، وَنَاطِرَةً عَمِيَاءَ ، وَسَامِعَةً صَمَاءَ ، وَنَاطِقَةً بِكُمَاءَ !

الشرح :

انجابت : انكشفت . والمحجة : الطريق . والخابط : السائر على غير سبيل واضحة . وأسفرت الساعة : أضاءت وأشرقت ، وعن متعلقة بمحذوف ، وتقديره : كاشفة عن وجهها .

والمتوسم : المتفرس . أشباحا بلا أرواح ، أى أشخاصا لا أرواح لها ولا عقول ، وأرواحا بلا أشباح ؛ يمكن أن يريد به الخفة والطيش ، تشبيها بروح بلا جسد . ويمكن أن يعنى به نقصهم ، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعمال والتحرك اللذين كانا من فعلها حيث كانت تدبر الجسد .

ونساكا بلا صلاح : نسبهم إلى النفاق . وتجارا بلا أرباح : نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها .

ثم وصفهم بالأموال المتضادة ظاهرا ، وهى مجتمعة فى الحقيقة ، فقال : أيقاظا نوما ،

لأنهم أولو يقظة ؛ وهم غفول عن الحق كالنيام ، وكذلك باقيها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

الأبصار:

رَايَةُ ضَالَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعْبِهَا ، تَكْيَلُكُمْ بِصَاعِهَا ، وَتَخْطِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْعِلَّةِ ، قَائِمٌ عَلَى الضَّلَّةِ ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا نَفَالَةٌ كَشْفَالَةِ الْقَيْدِ ، أَوْ نَفَاضَةٌ كِنَفَاضَةِ الْعِصَمِ ، نَعَرُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دُوسَ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ أَسْخِلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْهَاطِيَةَ مِنَ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ .

البيان:

هذا كلام منقطع عما قبله ، لأن الشريف الرضى رحمه الله كان يلتقط الفصول التي في الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرها ، ويتخطى ما قبلها وما بعدها ، وهو عليه السلام يذكرها هنا ما يحدث في آخر الزمان من الفتن ، كظهور السفينائي وغيره .

والقطب في قوله عليه السلام : « قامت على قطبها » : الرئيس الذي عليه يدور أمر الجيش . والشعب : القبيلة العظيمة ، وليس التفرق الراية نفسها ، بل لنصارها وأصحابها ، لحذف المضاف ، ومعنى تفرقهم ، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة الخصوصية في بلاد متفرقة ، أى تفرق ذلك الجمع العظيم في الأنظار ، داعين إلى أمر واحد . ويروى « بشعبها » جمع شعبه .

وتقدير : « تكييلكم بصاعها » تكييلكم ، لحذف اللام ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوْ لِيُنْفِزَهُمْ مِنْهُ ﴾^(١) ، أى كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ؛ والمعنى تكميلكم على دينها ودعوتها ، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها . ويجوز أن يريد بقوله : « تكييلكم بصاعها » يقهركم أربابها على الدخول فى أمرهم ، ويتسلاعون بكم ، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كتيال البرّ به إذا كاله بصاعه .

وتحبطكم بباعها : تظلمكم وتمسفكم ، فائدها ليس على ملة الإسلام بل مقيم على الضلالة ، يقال : ضلّ لك ، وإنه ليولمنى ضلّة ، إذا لم يوفق المرشاد فى عدّله .

والنفالة : ما نفل فى القدر من الطيبخ . والنفاضة : ما سقط من الشيء المنفوض .

والعِكم : العِذل ، والعِكم أيضاً نمطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتها .

وعرّكت الشيء : دلّكته بقوة . والحصيد : الزرع المحصود .

ومعنى استخلاص الفتنة للمؤمن أنها تخصّه بنسكاتها وأذاها ؛ كما قيل : للمؤمن مُلقى والكافر موقى ، وفى الخبر المرفوع : « آفات الدنيا أسرع إلى المؤمن من النار فى يئس العرفج » .

الأصل :

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمْ أَلَمْذَاهِبُ ، وَتَنْبِيْهُ بِكُمْ أَلْغَيَاهِبُ ، وَتَحْدَعُكُمْ أَلْكَوَاذِبُ ؟
وَمِنْ أَيْنَ تَوْتَوْنُ ، وَأَيُّ تَوْفَكُونُ ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ .
فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيَّكُمْ ، وَأَخْضِرُوا قُلُوبَكُمْ ، وَأَسْتَنْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ .

وَلْيَصْذُقْ رَائِدَ أَهْلِهِ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُخْضِرْ ذِهْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمْ الْأَمْرَ فَلَقَ
الْخُرْزَةَ ، وَقَرَفَهُ قَرَفَ الصَّمَّةِ .

الشرح :

الغياهب : الظلمات ، الواحد غَيْب . وتنيه بكم : تجملكم تأهين ، عدى الفعل
اللازم بحرف الجر ، كما تقول في ذهب : ذهبت به . والثائه : المتحير .
والسكواذب هاهنا : الأمانى ، لحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله :
* إِلَّا بِكَفَى* كان من أرْمَى البشر *

أى بكفى غلام هذه صفتته .

وقوله : « والسكل أجل ككتاب » أظنه منقطعا أيضاً عن الأول مثل الفصل الذى
تقدم ؛ وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة . ويمكن على بعد أن يكون
متصلاً بما هو مذكور هاهنا .

وقوله « والسكل غيبة إياب » قد قاله عبيد بن الأبرص ، واستثنى من العموم
الموت ، فقال :

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبِ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ^(١)

وهو رأى زنادقة العرب ؛ فأما أمير المؤمنين ، وهو ثانى صاحب الشريعة التى جاءت
بعود الموتى ، فإنه لا يستثنى ، ويحقق عبيداً فى استثنائه .

والربانى : الذى أمرهم بالاستماع منه ؛ إنما يعنى به نفسه عليه السلام ، ويقال : رجل

ربانيّ أى مثاله عارف بالربّ سبحانه . وفى وصف الحسنّ لأُمير المؤمنين عليه السلام :
 « كان والله ربانيّ هذه الأمة وذافضلها ، وذاقرابتها ، وذاسابقتها » .
 ثم قال : وأحضره قلوبكم ، أى اجعلوا قلوبكم حاضرةً عنده ، أى لا تنغموا لأنفسكم
 بحضور الأجساد وغيبة القلوب ، فإنكم لا تلتفتون بذلك : وهتف بكم : صاح ، والرائد:
 الذى يتقدّم المنتجعين لينظر لهم الماء والسكران . وفى المثل : الرائد لا يكذب أهله .
 وقوله : « وليجمع شمله » أى وليجمع عزائم وأفسكاره لينظر ؛ فقد فارق هذا الربانيّ
 لكم الأمر ، أى شقّ ما كان مبهمًا ، وفتح ما كان مغلقًا ، كما تفلق الخرزة
 فيمرّف باطنها .
 وقرّفه ، أى قشره ، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة ، وتقلع .

الأفضل :

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَسَاحِدَهُ ، وَرَكِبَ الْجَنُّهُلُ مَرَاقِبَهُ ؛ وَعَظُمَتِ الطَّاعِيَةُ ،
 وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالِ السَّبْعِ الْعُقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيْقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ
 كُظُومٍ ، وَتَوَاحَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى
 الْكُذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظًا ؛ وَالْمَطَرُ قَيْظًا ،
 وَتَغْيِضُ اللَّثَامُ فَيْضًا ، وَتَغْيِضُ الْكِرَامُ غَيْضًا ، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِنَابًا ،
 وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعًا ، وَأَوْسَاطُهُ أَكَلًا ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَانًا ، وَغَارَ الصِّدْقُ ، وَفَاضَ
 الْكُذِبُ ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ الْفُسُوقُ
 نَسَبًا ، وَالْعَفَافُ عَجَبًا ، وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرَوِ مَقْلُوبًا .

الشَّيْخُ :

تقول : أخذ الباطل مأخذه ، كما تقول عمل عمله ؛ أى قوى سلطانه وقهره ؛ ومثله « ركب الجبل مراكبه » .

وعظمت الطاغية ، أى الطغيان ، فاعلة بمعنى المصدر ، كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ^(١) ، أى تكذيب ، ويجوز أن تكون الطاغية هاهنا صفة فاعل محذوف ، أى عظمت الفئة الطاغية . وقلت الداعية مثله ، أى الفرقة الداعية .

وصال : حمل ووثب ، صَوْلًا وَصَوْلَةً ، يقال : ربّ قول أشدّ من صَوْلٍ ، والصَّيَالُ والمصاولة هى المواثبة ، صايله صيالا وصيالة ، والفحلان يتصاولان ، أى يتواثبان . والفنيق : فحل الإبل . وهَدَرَ : ردّد صوته فى حَنْجَرَتِهِ ، وإبل هوادر ؛ وكذلك هَدَرَ بالتشديد تهديرا ، وفى المثل : « هو كالمهدر فى العنة » يضرب للرجل يصيح ويحلب وليس وراء ذلك شيء كالبعير الذى يُحْبَسُ فى العنة ؛ وهى الحظيرة ، ويمنع من الضراب ، وهو يهدر ، وقال الوايد بن عقبة لمعاوية :

قَطَمْتَ الدَّهْرَ كَالسَّكْمِ الْمَعْنَى تَهْدَرُ فى دمشقَ ولا تَرِيمُ ^(٢)
والسَّكْمُ : الإسكاف والسكوت ، كَطَمَ البعير يكطّم كظوما ، إذا أمسك الجيرة ؛ وهو كاظم ، وإبل كظوم لا تجترّ ، وقوم كظم ساكتون .
وتواخى الناس : صاروا إخوة ، والأصل تآخى الناس ، فأبدلت الهمزة واوا ، كآزرتة أى أعنته ، ووازرته .

يقول : اصطاحوا على الفجور ، وتهاجروا على الدين ، أى تعادوا وتقاطعوا .

فإن قلت : فإنّ من شعار الصالحين أن يهجروا فى الدين ويعادوا فيه ا

(١) سورة الواقعة ٢

(٢) اللسان ١٥ : ١٧٦ ، وقال : « السدم الذى يرغب عن لحنته ، فيحال بينه وبين ألفه ، ويقيد إذا هاج ، فبرعى حوالى الدار » .

قلت : لم يذهب أمير المؤمنين حيث ظننت ، وإنما أراد أن صاحب الدين مهجور عندهم ، لأن صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم يجري الأخ في الحنو عليه ؛ والحب له ، لأنه صاحب فجور .

ثم قال : « كان الولد غيظاً » ، أى لكثرة عقوق الأبناء للآباء ، « وصار المطر قيظاً » يقال إنه من علامات الساعة وأشراتها .

وأوساطه أكالاً ؛ أى طعاماً ، يقال : ما ذقتُ أكالاً ؛ وفى هذا الموضع إشكال ؛ لأنه لم يُنقل هذا الحرف إلا فى الجحد خاصة ، كقولهم : ما بها صافر ، فالأجود الرواية الأخرى ؛ وهى « آ كالاً » بمد الهمزة على « أفعال » جمع أكل ؛ وهو ما أكل ، كقفل وأقفل . وقد روى « أكالاً » بضم الهمزة على « فُعال » ؛ وقالوا : إنه جمع « أكل » للمأكول كعرق وعُراق ، وظئر وظُؤار ، إلا أنه شاذ عن القياس ، ووزن واحد ما مخالف لوزن واحد « أكال » لو كان جمعا ، يقول : صار أوساط الناس طُعمة للولاة وأصحاب السلاطين ، وكالفريسة للأسد . وغاز الماء : سفلى لنقصه ، وفاض : سأل .

وتشاجر الناس : تفازعوا وهى المشاجرة ، وشَجَرَ بين القوم ؛ إذا اختلف الأمر بينهم ، واشتجروا ؛ مثل تشاجروا .

وصار الفسوق نسباً يصير الفاسق صديق الفاسق ؛ حتى يكون ذلك كالنسب بينهم ؛ وحتى يعجب الناس من العفاف ؛ لقلته وعدمه .

ولبس الإسلام لبس الفرو ؛ وللعرب عادة بذلك ؛ وهى أن تجعل الخمل إلى الجسد ؛ وتظهر الجلد ؛ والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية فى ذلك الزمان .

(١٠٨)

الأفضل:

ومن خطبة له عليه السلام :

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ ؛ غَنَى كُلُّ فَقِيرٍ ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ ،
وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَمَنْزَعُ كُلِّ مَلُوفٍ .
مَنْ تَسَكَّلَ سَمِيعَ نُطْقِهِ ، وَمَنْ سَكَتَ عِلْمَ سِرِّهِ ، وَمَنْ عَاشَ فِعْلِيَّةَ رِزْقِهِ ،
وَمَنْ مَاتَ قِيَالِيَّةَ مُنْقَلَبِهِ .

لَمْ تَرَكَ الْعُمَيُّونَ فَتَخَيَّرَ عَنْكَ ؛ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ .
لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِيَوْحِشُهُ ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ ،
وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانُكَ مِنْ عَصَاكَ ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ
أَطَاعَكَ ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءُكَ ، وَلَا يَسْتَفْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ .
كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ .

أَنْتَ الْإِلَهُ فَلَا أَمَدَ لَكَ ، وَأَنْتَ الْمُنتَهَى فَلَا يَحِيصُ عَنْكَ ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مُنْجِيَ
مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ .

بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ .
سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنُكَ ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ أَوْ مَا أَصْفَرَ عَظِيمَةَ
فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا
مِنْ سُلْطَانِكَ ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا أَصْفَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ !

الشَّيْخُ :

قال : كلّ شيء خاضع لعظمة الله سبحانه ، وكلّ شيء قائم به ، وهذه هي صفته الخاصة ، أعني كونه غنيا عن كلّ شيء ، ولا شيء من الأشياء يغني عنه أصلا .

ثم قال : « غني كلّ فقير ، وعز كلّ ذليل ، وقوة كلّ ضعيف ، ومفزع كلّ ملهوف » . جاء في الأثر : من اعتزّ بغير الله ذلّ ، ومن تكبّر بغير الله قلّ ؛ وكان يقال : ليس فقيرا من استغنى بالله . وقال الحسن : وأعجبا للوط نبيّ الله ! قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ^(١) ، أترأه أراد ركنا أشدّ وأقوى من الله !

واستدلّ العلماء على ثبوت الصانع سبحانه بما دلّ عليه خوى قوله عليه السلام : « ومفزع كلّ ملهوف » ، وذلك أنّ النفوس ببدائها تفرزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها ، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج ، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطرابا لا اختيارا ، فدلّ ذلك على أنّ العلم به مركز في النفس ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ ^(٢) .

ثم قال عليه السلام : « من تكلم سمع نطقه ، ومن سكّ علم سرّه » ، يعني أنه يعلم ماظهر وما بطن .

ثم قال : « ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه مقلّبه » ، أي هو مدبّر الدنيا والآخرة ، والحاكم فيهما .

ثم انتقل عن الغيبة إلى الخطاب ، فقال « لم ترك العيون » .

(١) سورة هود ٨٠

(٢) سورة الإسراء ٦٧

[فصل فى الكلام على الالتفات]

واعلم أن باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبير من أبواب علم البيان، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلم بذلك المعنى المنقول إليه، كقوله سبحانه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * اِنَّ رَحْمَنَ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قالوا: لأن منزلة الحمد دون منزلة العبادة، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبد، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضر يخاطب بالكاف؛ لأن كاف الخطاب أشد نصريحا به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: ﴿ صرَّاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر، وقال فى الغضب: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، فأسنده إلى فاعل غير مسمى ولا معين، وهو أحسن من أن يكون قال: « لم تغضب عليهم »، وفى النعمة: « الذين أنعم عليهم ».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ فأخبر بـ « قالوا » عن غائبين، ثم قال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾^(١)، فأتى بلفظ الخطاب استعظاما للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ۖ .. ﴾^(٢) الآية.

(١) سورة مريم ٨٨، ٨٩

(٢) سورة يونس ٢٢

وفائدة ذلك أنه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنه يعدد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيرهم وعنادهم الحق، ويقبّح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا، فلما رحمناهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بغيرهم! وهذه الفائدة لو كانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة.

قال عليه السلام: مارأتك العيون فتخبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده؛ بل أنت أزلّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

فإن قلت: فأى منافاة بين هذين الأمرين، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأى عين! قلت: بل هاهنا منافاة ظاهرة، وذلك لأنه إذا كان قديماً لم يكن جسماً ولا عَرَضاً، وما ليس بجسم ولا عَرَض تستحيل رؤيته، فيستحيل أن يخبر عنه على سبيل المشاهدة. ثم ذكر عليه السلام أنه لم يخلق الخلق لاستيعابه وتفرده، ولا استعمالهم بالعبادة لنفسه؛ وقد تقدم شرح هذا.

ثم قال: لا تطلب أحداً فيسبّحك، أى يفوتك، ولا يفلتك من أخذته. فإن قلت: أى فائدة فى قوله: «ولا يفلتك من أخذته»، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنه قال: لا يفلتك من لم يفلتك! قلت: المراد أن مَنْ أخذت لا يستطيع أن يفلت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلتوا بحيلة من الحيل.

فإن قلت: أفلت فعل لازم، فما باله عدّاه؟

قلت: تقدير الكلام: «لا يفلت منك» حذف حرف الجر، كما قالوا: «استجببتك» أى استجبت لك، قال:

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب^(١) *

وقالوا : استغفرت الله الذنوب ، أى من الذنوب ، وقال الشاعر :

استغفرُ الله ذنباً لست محصيه ربُّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

قوله عليه السلام : « ولا يردّ أمرك من سخط قضاءك ، ولا يستغنى عنك من تولى عن أمرك » ، تحته سر عظيم ، وهو قول أصحابنا فى جواب قول المجبرة : لو وقع منا ما لا يريد لاقتضى ذلك نقصه : إنه لا نقص فى ذلك ، لأنه لا يريد الطاعات منا إرادة قهر وإجاء ، ولو أرادها إرادة قهر لوقعت غلبت إرادته إرادتنا ، ولكنه تعالى أراد منا أن نفعل نحن الطاعة اختياراً ، فلا يدلّ عدم وقوعها منا على نقصه وضعفه ، كما لا يدلّ بالاتفاق بيننا وبينكم عدم وقوع ما أمر به على ضعفه ونقصه .

ثم قال عليه السلام : « كل سرّ عندك علانية » ، أى لا يختلف الحال عليه فى الإحاطة بالجر والسر ، لأنه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الأمور واحدة .

ثم قال : « أنت الأبد فلا أمّ لك » ، هذا كلام علوى شريف ، لا يفهمه إلا الراسخون فى العلم ، وفيه سمة من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » ؛ وفى مناجاة الحكماء لمحّة منه أيضاً ، وهو قولهم : « أنت الأزل السرمد ، وأنت الأبد الذى لا ينفد » ، بل قولهم : « أنت الأبد الذى لا ينفد » ، هو قوله : « أنت الأبد فلا أمّ لك » ، بعينه ، ونحن نشرحه هاهنا على موضوع هذا الكتاب ، فإنه كتاب أدب لا كتاب نظر ، فنقول : إن له فى العربية محملين : أحدهما أن المراد به : أنت ذو الأبد ، كما قالوا : رجل خالٍ ، أى ذو خالٍ ؛ والخال الخيلاء ، ورجل داء ، أى به داء ، ورجل

(١) صدره :

* وداع دَعَا يَأْمَنُ بِجَيْبٍ إِلَى النَّدى *

أمالى الغالى ٢ : ١٥١ ، من قصيدة لأكعب بن سعد الغنوى يرثى بها أبا المغوار .

مال ، أى ذو مال . والحمل الثانى ، أنه لما كان الأزل والأبد لا ينفكَّان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام ، كأنه أحدهما بعينه ، كقولهم : أنتِ الطلاق ؛ لما أراد المبالغة فى البيئونة جعلها كأنها الطلاق نفسه ، ومثله قول الشاعر :

* فإِن المندى رِحْلَةٌ قَرُّ كُوب ^(١) *

وقال أبو الفتح فى " الدمشقيات " ، استدلَّ أبو على على صرف « مَنِى » للموضع الخصوص ، بأنه مصدر « منى مَنِى » ، قال : فقلت له : أتستدلُّ بهذا على أنه مذكر ، لأن المصدر إلى التذكير ! فقال : نعم ، فقلت : فما تنكر ألا يكون فيه دلالة عليه ، لأنه لا ينكر أن يكون مذكراً سُمى به البقرة المؤنثة ، فلا ينصرف ، كاسمِ سُميتُها بحجر وجبل وشعب ومعنى ، فقال : إنما ذهبت إلى ذلك ، لأنه جُعِلَ كأنه المصدر بعينه ، لكثرة ما يعانى فيه ذلك . فقلت : الآن نعم .

ومن هذا الباب قوله :

* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ ^(٢) *

وقوله :

* وَهَنٌ مِنَ الْإِخْلَافِ قَبْلَكَ وَالْمَطْلُ *

وقوله : « فلا منجى منك إلا إليك » قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية :

إليك فررتُ منك ومن زيادٍ ولم أحسب دَمِي لَكَمَّا حَلَّالًا ^(٣)

ثم استعظم واستهول خلقه الذى يراه ، وما كوته الذى يشاهده ، واستصغر واستحققر

(١) لعقمة وصدرة :

* تُرَادُّ عَلَى دِمَنِ الْخِيَاضِ فَإِنْ تَعَفَّ *

(٢) للخنساء ، ديوانها ٧٨ ، وصدرة :

* تَرْتَعُّ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا أَدَّكَرَتْ *

(٣) ديوانه ٢ : ٦٠٨ .

ذلك ، بالإضافة إلى قدرته تعالى ، وإلى ما غاب عنا من سلطانه . ثم تعجب من سُبُوغ نعمه تعالى في الدنيا ، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة ، وهذا حق لأنه لا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى .

الأصل :

منها :

مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْكَنَتْهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخَوْفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلَابَ، وَلَمْ يُضْمِنُوا الْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ الْمُنُونِ؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ؛ وَأَسْتَعْجِمَاعُ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ؛ وَكَثْرَةُ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةُ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ؛ لَوْ عَابَنُوا كُنْهَ مَاخِيفٍ عَلَيْهِمْ مِنْكَ؛ لَحَقَرُوا أَعْمَالَهُمْ؛ وَازَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنََّّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ .

سُبْحَانَكَ خَالِقًا وَمَعْبُودًا ! بِحُسْنِ بِلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَارًا، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَادَّةً، مَشْرَبًا وَمَطْعَمًا وَأَزْوَاجًا، وَخَدَمًا وَقُصُورًا، وَأَنْهَارًا وَزُرُوعًا وَثِمَارًا .

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا؛ وَلَا فِيهَا رَغَبَتْ رَغْبُوا، وَلَا إِلَى مَا شِئْتَ إِلَيْهِ أَشْتَأَوْا. أَقْبَلُوا عَلَى حَيَافَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَأَصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا؛ وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَغْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ؛ فَيُؤْ^(١) بِنَظَرٍ بَعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ؛ قَدْ خَرَقَتْ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتْ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلَّيَتْ عَنْهَا نَفْسَهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَتَّى مَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَتَّى مَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا؛ لَا يَنْزَجِرُ مِنْ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ؛ وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ

(١) ساقطة من ب

عَلَى الْغُرَّةِ، حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ؛ كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ
الْدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَعَبَّرَ مَوْصُوفٍ
مَا نَزَلَ بِهِمْ، أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ،
وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ أَزْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وَلُوجًا، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ؛
وَإِنَّهُ لَبَيْنُ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بَبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ،
يُفَكِّرُ فِيهِمْ أَفْنَى عُمْرِهِ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرُهُ ! وَيَنْذِرُ كَرُّ أَمْوَالٍ جَمَعَهَا أَغْمَصَ فِي
مَطْلَبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُسْتَدْبَهَايَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى
فِرَاقِهَا، تَبَقَّى لِمَنْ وَرَاءَهُ يُنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَسْكُونُ الْمَهْنَأُ لِعَظِيمِهِ، وَالْعَبْدُ
عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ بَعْضُ يَدِهِ نَدَامَةٌ عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ
الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَتَّى أَنْ الَّذِي كَانَ
يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَتَحَسَّدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ؛ حَتَّى
خَالَطَ سَمْعُهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ؛ وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرَفَهُ
بِالْظُّلْمِ فِي وُجُوهِهِمْ؛ بَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ أَزْدَادَ
الْمَوْتُ التَّيْيَاطَا بِهِ، فَقَبَضَ بَصَرَهُ كَمَا قَبَضَ سَمْعَهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ
حَقِيقَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحِشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسْعِدُ بَأَكْيَا،
وَلَا يُحْيِبُ دَاعِيَا، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى تَحْطِيطِ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى تَحْمِلِهِ، وَأَنْقَطَعُوا
عَنْ زَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَالْخَلْقُ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ،
وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءِ وَفَطَرَهَا، وَأَرْجَ الْأَرْضِ
وَأَرْجَمَهَا، وَقَلَعَ حَيَاتَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَ بَعْضَهَا بَعْضًا مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ، وَتَخَوَّفَ سَطَوَتِهِ،
وَأَخْرَجَ مِنْ فِيهَا جَدِّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفْرِقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ

مَسَاءَ لَيْلِهِمْ عَنِ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْتُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأَنْتُمْ مِّنْ هَؤُلَاءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَنْبَأَهُمْ بِجَوَارِهِ، وَخَلَدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النَّزَالُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمْ أَلْحَالُ، وَلَا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْقَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَائِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النَّيِّرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أَطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلْبٌ وَجَلْبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادِي أُسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنِي، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُفْقِضِي.

البَیِّنَاتُ :

هذا موضع المثل . « في كل شجرة نار، واستمجد المُرُخ والعفار »، الخطب الوعظية الحسان كثيرة ؛ ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث :

محاسن أصناف المغنين جمّةٌ وماقصباتُ السُّبُقِ إلالمعبد

من أراد أن يتعلّم الفصاحة والبلاغة ، ويعرف فضل الكلام بمضه على بعض ؛ فليتنامل هذه الخطبة ؛ فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام - عدا كلام الله ورسوله - نسبة السكواك المنيرة الفلسكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية ؛ ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء ، والجلالة والرواء ، والديباجة، وما تحدّثه من الروعة والرهبة ، والخافة والخشية ؛ حتى لو تأملت على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفى البعث والنشور لهدّت قواه ، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده ؛ فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل

ما جرى به وليا من أوليائه ! فما أبلغ نصرته له ! تارة بيده وسيفه ، وتارة بلسانه ونطقه ،
وتارة بقلبه وفكره ! إن قيل : جهاد وحرب فهو سيد المجاهدين والمحاربين ، وإن قيل :
وعظ وتذكير ؛ فهو أبلغ الواعظين والمذكّرين ، وإن قيل : فقه وتفسير فهو رئيس
الفقهاء والمفسرين ، وإن قيل : عدل وتوحيد ، فهو إمام أهل العدل والموحدين :

ليس على الله بمستنكر^(١) أن يجمع العالم في واحد

ثم نعود إلى الشرح ، فنقول : قوله عليه السلام : « أسكنتهم سمواتك » ، لا يقتضى
أن جميع الملائكة فى السموات ، فإنه قد ثبت أن الكرام الكاتبين فى الأرض ؛ وإنما
لم يقتض ذلك ؛ لأن قوله : « من ملائكة » ليس من صيغ العموم ؛ فإنه نكرة فى
سياق الإثبات : وقد قيل أيضا : إن ملائكة الأرض تعرج إلى السماء ومسكنها بها ،
ويتنابون على أهل الأرض .

قوله : « هم أعلم خلقك بك » ، ليس يعنى به أنهم يعلمون من ماهيته تعالى
ما لا يعلمه البشر ؛ أما على قول المتكلمين فلأن ذاته تعالى معلومة للبشر ، والعلم لا يقبل
الأشد والأضعف ، وأما على قول الحكماء ، فلأن ذاته تعالى غير معلومة للبشر
ولا للملائكة ؛ ويستحيل أن تكون معلومة لأحد منهم ؛ فلم يبق وجه يحتمل
عليه قوله عليه السلام : « هم أعلم خلقك بك » إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته
وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم ؛ كما يقال : وزير الملك أعلم بالملك من الرعية ، ليس المراد أنه
أعلم بذاته وماهيته ، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه .

قوله : « وأخوفهم لك » ؛ لأن قوى الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم ، وهما منبع

(١) لأبى نواس ، التمثيل والمحاضرة ٨٠

الشرّ ، وبهما يقع الطامع والإفدام على المعاصي . وأيضاً فإنّ منهم مَنْ يشاهد الجنّة والنار عياناً ، فيسكون أخوفَ لأنّه ليس الخبر كالعيان .

قوله : « وأقربهم منك » لا يريد القرب المسكانيّ لأنّه تعالى منزّه عن المسكان والجهة ؛ بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل ؛ وهذا يدلّ على صحة مذهب أصحابنا في أنّ الملائكة أفضلُ من الأنبياء .

ثمّ نبّه على مزية لهم تقتضي أفضليّة جنسهم على جنس البشر ؛ بمعنى الأشرفيّة ، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله « لم يسكنوا الأصلاب ، ولم يضمّنوا الأرحام ، ولم يخلقوا من ماء مهين ، ولم يتشعّبهم ريبُ المدون » ؛ وهذه خصائص أربع :

فالأولى أنّهم لم يسكنوا الأصلاب ، والبشر سكّنوا الأصلاب ، ولا شبهة أنّ ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحميّة والدمويّة أشرف مما خالطها ومازجها .

والثانية أنّهم لم يضمّنوا الأرحام ؛ ولا شبهة أنّ من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذر أشرف من خرج منه ؛ وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كماكو بن يزّد جرّد بن شهريار ؛ يفخر على أبناء الملوك بأنّه لم يخرج من بُضع امرأة ، لأنّ أمّه ماتت وهي حامل به ، فشقّ بطنها عنه وأخرج ؛ قال أبو الريحان البيرونيّ في كتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية " ، عن هذا الرجل : إنّ كان يتيه على الناس ، وإذا شتمّ أحداً ، قال : ابن البُضع ؛ قال أبو الريحان : وأوّل من اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم ، وهو أوّل من سمّي فيهم قيصر ، لأنّ تفسير « قيصر » بلفظهم ، شقّ عنه ، وأيامه تاريخ ، كما أنّ أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم .

والثالثة أنّهم لم يخلقوا من ماء مهين ، وقد نصّ القرآن العزيز على أنّه مهين ؛ وكفى ذلك في تحقيره وضّعته ؛ فهم لا محاله أشرف ممّن خلق منه ؛ لاسيّما وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته .

والرابعة أنهم لا يتشعّبهم المنية ، ولا ريب أن من لا تتطرق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت ، أشرف ممن هو في كلّ ساعة ولحظة معرض سقام ، وبصد موت وحام .

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان : إحداهما أن « أفضل » بمعنى كونهم أكثر ثوابا ، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف ؛ كما تقول : إنّ الفلك أفضل من الأرض ، أى أنّ الجوهر الذى منه جسيمة الفلك أشرف من الجوهر الذى منه جسيمة الأرض .

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثانى . قوله عليه السلام : « يتشعّبهم ريب المنون » ، أى يتقسمّمهم ، والشعب : التفريق ، ومنه قيل للمنية : شعوب ، لأنها تفرق الجماعات ، وريب المنون : حوادث الدهر ، وأصل الريب ماراب الإنسان ، أى جاءه بما يكره ، والمنون الدهر نفسه ، والمنون أيضا المنية ، لأنها تمتدّ المدة أى تقطعها ، والمن : القطع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ^(١) . وقال كبيد :

* غُبِسَ كواسِبُ لا يمينَ طعامها ^(٢) *

ثم ذكر أنهم كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عابوا كُفّه ماخفى عليهم من البارئ تعالى لحقروا أعمالهم . وزرّوا على أنفسهم ، أى عابوها : تقول زريت على فلان ، أى عبتة وأزريت بفلان أى قصرت به .

(١) سورة فصلت ٨

(٢) صدره :

* لمعقر قهّد تنازعَ شِلْوُهُ *

المعقر : الذى سحب في العفر ؛ وهو التراب . والقهّد : الأبيض . والمعبر : الذئب ، والمعبرة لون فيه شبيهة بالغيرة ، وكواسب : تكسب الصيد . وقوله : « ما يمين طعامها » ، أى ما ينقص . (المعلقات بشرح التبريزى ١٤٥) .

فإن قلت : ما هذا الكنه الذى خفى عن الملائكة ؛ حتى قال : « لو عابنوه لحقروا عبادتهم ، ولعلموا أنهم قد قصرُوا فيها » ؟

قلت : إن علوم الملائكة بالبارئ تعالى نظرية كعلوم البشر ، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية فى الجلاء والوضوح ، فأمر المؤمنين عليه السلام يقول : لو كانت علومهم بك وبصفاتك اثباتية والسلبية والإضافية ضرورية ، عوض علومهم هذه المتحققة الآن ؛ التى هى نظرية ولا تكشف لهم ما ليس الآن على حد ذلك الكشف والوضوح . ولا شبهة أن العبادة والخدمة على قدر المعرفة بالمعبود ، فكلمًا كان العابد به أعرف ، كانت عبادته له أعظم ، ولا شبهة أن العظيم عند الأعظم حقير .

فإن قلت : فما معنى قوله : « واستجاع أهوائهم فيك » ، وهل الملائكة هوى ؟ وهل تستعمل الأهواء إلا فى الباطل ؟

قلت : الهوى : الحب وميل النفس ، وقد يكون فى باطل وحق ، وإنما يحمل على أحدهما بالقرينة ، والأهواء تستعمل فيهما ، ومعنى استجاع أهوائهم فيه : أن دواعيهم إلى طاعته وخدمته لا تنافزها الصوارف ، وكانت مجتمعة مائلة إلى شق واحد .

فإن قلت : الباء فى قوله : « بحسن بلائك » بماذا تتعلق ؟

قلت : الباء هاهنا للتعليل بمعنى اللام ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ ﴾ ^(١) ، أى لأنهم ، فتكون متعلقة بمافى « سبحانه » من معنى الفعل ، أى أسبحك لحسن بلائك . ويجوز أن تتعلق بمعبود ، أى يعبد لذلك .

ثم قال : « خلقت دارا » يعنى الجنة . والمأدبة والمأذبة ، بفتح الدال وضمها : الطعام الذى يدعى الإنسان إليه ، أدب زيد القوم ، يأدبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدب الداعى إلى طعامه ، قال طرفة :

نَحْنُ فِي فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْآدِيبَ فِينَا يَنْتَقِرُ^(١)

وفي هذا الكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة ، وهو مذهب أكثر أصحابنا .

ومعنى قوله : « وزروعا » أى وغروساً من الشجر ، يقال : زرعت الشجر ، كما يقال : زرعت البرّ والشعير ، ويجوز أن يقال : الزروع : جمع زرع وهو الإنبات ، يقال : زرعه الله أى أنبته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ^(٢) . ولو قال قائل : إن فى الجنة زروعا من البرّ والقطنية^(٣) لم يبعد .

قوله : ثم أرسلت داعياً يعنى الأنبياء . وأقبلوا على جيفة ، يعنى الدنيا ، ومن كلام الحسن رضى الله عنه : إنما يتهارشون على جيفة .

وإلى قوله : « ومن عشق شيئاً أعشى بصره » نظر الشاعر فقال :

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِمَةٌ كَأَنَّ عَيْنَ السَّخَطِ تَبْدَى الْمَسَاوِيَا^(٤)

وقيل لحكيم : ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم ، كما يرون عيب غيرهم ؟ قال : إنّ الإنسان عاشق لنفسه ، والعاشق لا يرى عيوب المعشوق .

قد خرقت الشهوات عقله ، أى أفسدته كما تخرق الثوب فيفسد .

وإلى قوله : « فهو عبد لها ولن فى يديه شىء منها » نظر ابن دريد ، فقال :

عَبِيدُ ذِي الْمَالِ وَإِنْ لَمْ يَطْمَعُوا مِنْ مَا لَهُ فِي نَفْسِهِ تَشْفَى الصَّدَا

وَمِنْ أَمَلَى أَعْدَاءَ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيمَا أَفَادَ وَحَوَى

(١) ديوانه ٦٨ . المشتاة : يريد الشتاء والبرد ، والجفلى : أن يعم بدعوته إلى طعام ولا ينجس أحدا والانتقار ، أن يدعو النقرى ، وهى أن ينجسهم ولا يعمهم .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٣) القطنية : ما سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر . القاموس .

(٤) لعبد الله بن معاوية ، زهر الآداب ٨٥

وإلى قوله : « حينما زالت زال إليها ، وحينما أقبلت أقبلت عليها » نظر الشاعر ، فقال :

ما الناس إلَّا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

والغربة : الاغترار والعفلة ، والغار : الغافل ، وقد اغتررت بالرجل ، واغترته زيد ، أى
أثام على غربة منه ، ويجوز أن يعنى بقوله : « المأخوذون على الغربة » الحداثة والشبية ، يقول :
كان ذلك فى غرارتى وغرتى ، أى فى حدائتى وصباى .

قوله : « سكرة الموت وحسرة الفوت » ، أى الحسرة على ما فاتهم من الدنيا ولذتها ،
والحسرة على ما فاتهم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصى .

والولوج : الدخول ، ولَجَّ يَلِج .

قوله . « وبقاء من لبّه » أى لبّه باقى لم يعدم ، ويروى « ونقاء » بالنون ، والتقاء :
النظافة ، أى لبّه غير مغمور .

أغضض فى مطالبا ، أى تساهل فى دينه فى اكتسابه إياها ، أى كان يفنى نفسه
بتأويلات ضميقة فى استحلال تلك المطالب والمكاسب ، فذاك هو الإغماض ، قال تعالى :
﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ^(١) ، ويمكن أن يُحمَل على وجه آخر ، وهو
أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة فى تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها .

قوله عليه السلام : « وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها » ، أى من وجوه مباحة
وذوات شبهة ، وهذا يؤكد الحمل الأول فى « أغضض » .

والتبعات : الآثام ، الواحدة تبعة ومثلها التباعة ، قال :

(١) سورة البقرة ٢٦٧ .

لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ سُوءَ الْعَوَاقِبِ وَالتَّبَاعِ (١)

والمهنا : المصدر من هَنَى الطعام وَهَنُوْهُ بالكسر والضم ، مثل فَقِهَ وَفَقَّهَ ، فإن كسرت قلت : « يَهِنًا » ، وإن ضمنت قلت : « يَهْنُوْهُ » ، والمصدر « هِنَاءٌ » و « مَهْنًا » ، أى صار هينًا ، وهِنَانِي الطعام يَهْنُونِي « ويهينني - ولا نظير له في المهموز - هِنًا وَهْنًا ، وهنئت الطعام ، أى تهنأت به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوْهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (٢) .
والعبء : الحمل ، والجمع أعباء .

وَعَلِقَ الرَّهْنُ ، أى استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يُقْتَكَّكْ في الوقت المشروط ، قال زهير :

وَفَارَقْتِكَ بِرَهْنٍ لَا فَكَاكَ لَهُ يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا (٣)
فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « قَدْ غَلِقَتْ رَهْنُهُ بِهَا » في هذا الموضع ؟ قلت : لما كان قد شارف الرحيلَ وأشفى على الفراق ، وصارت تلك الأموال التي جمعها مستحقة لغيره ، ولم يبقَ له فيها نصرف ، أشبهت الرهن الذي عَلِقَ على صاحبه ، فخرج عن كونه مستحقًا له ، وصار مستحقًا لغيره وهو المرتهن .

وأصحح : انكشف ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء والبروز من المسكن .
رجع كلامهم : ما يتراجعونه بينهم (٤) من الكلام . ازداد الموت التباطؤ به ؛ أى التصاقا .
قد أوحشوا ، أى جعلوا مستوحشين ، والمستوحش : المهموم الفزع ؛ وبروى « أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ » ، أى خلوا منه وأقفروا ، تقول : قد أوحش المنزل من أهله ، أى أقفر .
وخلأ إلى محط في الأرض ، أى إلى خط ، سماه مخطًا أو خطًا لدِقَّتِهِ ؛ يعنى اللحد ؛

(١) اللسان ٩ : ٢٨٥ ، وقبلة :

أَكَلْتُ حَنِيفَةً رَبَّهَا زَمَنَ التَّقَحُّمِ وَالْمَجَاعَةِ

(٤) ساقطة من ب .

(٣) ديوانه ٣٣

(٢) سورة النساء ٤

(١٤ - نهج ٧)

، ويروى : « إلى محطّ » بالحاء المهملة ؛ وهو المنزل ، وحطّ القوم ، أى نزلوا .
والحق آخرُ الخلق بأوله ؛ أى تساوى الكلّ فى شمول الموت والفناء لهم ، فالتحق
الآخر بالأول .

أماد السماء : حرّتها ، ويروى : « أمار » ؛ والموران : الحركة . وفطرها : شقّها . وأرجّ
الأرض : زلزلها ، تقول : رجّت الأرضُ ، وأرجّها الله ، ويمجوز « رجّها » ، وقد روى « رجّ
الأرض » بغير همزة ؛ وهو الأصحّ ، وعليه ورد القرآن : ﴿ كَلَّا إِذَا رُجَّتِ لِلْأَرْضِ
رَجًّا ﴾ ^(١) .

أرجفها : جعلها راجفة أى مرتعدة متزلزلة ، رجفت الأرضُ ، ترجف ، والرجفان :
الاضطراب الشديد ؛ وسمى البحر رجّافا لاضطرابه ، قال الشاعر :
* حتى تغيب الشمسُ فى الرجّاف ^(٢) *

ونسفها : قلّعها من أصولها . ودكّ بعضها بعضا : صدمه ودقّه حتى يكسره ويسوّيه
بالأرض ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ^(٣) .
ميزم ، أى فصل بينهم ، فجعلهم فريقين : سعداء وأشقياء ، ومنه قوله تعالى :
﴿ وَأَمَّا تَرَاوَا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ^(٤) ، أى انفصلوا من أهل الطاعة .
يظعن : يرحل . تنوبهم الأفزاع : تعاودهم ، وتعرض لهم الأخطار : جمع خطر ، وهو
ما يشرف به على الهلكة .

(١) سورة الواقعة ٤

(٢) لمطروود بن كعب الجزاعى ، من أبيات يرثى فيها عبد المطلب ؛ أوردها صاحب اللسان ١١ : ٩٢
وابن هشام ١ : ١١٧ (على هامش الروض الأنف) وصدره :

* الْمُطْعِمُونَ اللَّحْمَ كُلَّ عَشِيَةٍ *

(٣) سورة الحاقة ١٤

(٤) سورة يس ٥٩ .

وَأَشْخَصَهُمُ الْأَسْفَارَ : تَحْرِجُهُمْ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ ، شَخَصَ الرَّجُلُ وَأَشْخَصَهُ غَيْرُهُ .
وَعَلَّ الْأَيْدَى : جَعَلَهَا فِي الْأَغْلَالِ ، جَمَعَ عُلَّ بِالضَّمِّ ؛ وَهُوَ الْقَيْدُ . وَالْقَطِرَانُ : الْهِنَاءُ ،
قَطَرَتْ الْبَعِيرُ أَيْ طَلَمِيَتْهُ بِالْقَطِرَانِ ، قَالَ :

* كَمَا قَطَرَ الْمَهْنُوءَةُ الرَّجُلُ الطَّالِي ^(١) *

وَبَعِيرٌ مَقْطُورٌ ؛ وَهَذَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الْقِرْآئِيَّةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَرَّأَ بِئِلَهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ
وَأَنفَسَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ^(٢) ؛ وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّارَ إِلَى الْقَطِرَانِ سَرِيعَةٌ جَدًّا .
وَمَقْطَعَاتُ النَّيِّرَانِ ، أَيْ ثِيَابُ مِنَ النَّيِّرَانِ ، قَدْ قَطَعَتْ وَفَصَلَتْ لَهُمْ ؛ وَقِيلَ : الْمَقْطَعَاتُ :
قَصَارُ الثِّيَابِ . وَالْكَلْبُ : الشَّدَّةُ . وَالْجَلَبُ وَاللَّجَبُ : الصَّوْتُ . وَالْقَصِيفُ :
الصَّوْتُ الشَّدِيدُ .

لَا يُقْصَمُ كِبُولُهَا : لَا يَكْسُرُ قِيُودُهَا ، الْوَاحِدُ كَبُلٌ .
ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ عَذَابَهُمْ سَرْمَدِيٌّ ، وَأَنَّهُ لَا نِهَآيَةَ لَهُ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ سَاعَةِ وَاحِدَةٍ ،
فَسَكِيفٌ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ !

[موازنة بين كلام الامام عليّ وخطب ابن نباتة]

وَنَحْنُ نَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فُصُولًا مِنْ خُطْبِ الْخَطِيبِ الْفَاضِلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ نُبَاتَةَ
رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ وَهُوَ الْفَائِزُ بِقَصَبَاتِ السَّبْقِ مِنَ الْخُطَبَاءِ ؛ وَلِلنَّاسِ غَرَامٌ عَظِيمٌ بِخُطْبِهِ وَكَلَامِهِ ؛
لِيَتَأَمَّلَ الْفَاضِلُ كَلَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُطْبِهِ وَمَوَاعِظِهِ ؛ وَكَلَامَ هَذَا الْخُطِيبِ الْمَتَأَخَّرِ

(١) لَامِرِيءُ الْفَيْسِ ، دِيَوَانُهُ ٣٣ ، وَصَدْرُهُ :

* أَأَيَقُنُنِي وَقَدْ شَفَعْتُ فُؤَادَهَا *

(٢) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ ٥٠

الذى قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها ، وأن مواعظه هى الغاية التى ليس بعدها غاية .
فإن ذلك قوله :

« أيها الناس؛ تجهّزوا فقد ضَرَبَ فيكم بُوقُ الرحيل ، وابرّزوا فقد قربت لكم نوق
التحويل ، ودَعُوا التمسكَ بِخَدَعِ الأباطيل ، والركون إلى التسويف والتعليل ؛ فقد سمعتم
ما كرّر الله عليكم من قصص أبناء القرى ، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَكَفَ من
الورى ؛ مما لا يعترض لدوى البصائر فيه شك ولا مِرًا ؛ وأنتم معرضون عنه لإعراضكم عما
يُخْتَلَقُ ويفتَرى ؛ حتى كأن ما تعلمون منه أضغاث أحلام الكرى ، وأيدى المفايا قد فصمت
من أعماركم أوثق العُرَا ، وهجمت بكم على هول مطلع كربه القرى ؛ فالتهم قرى رحكم الله
عن حبال العطب التهم قرى ! واقطعوا مفاوز الهلكات بمواصلة السرى ، وقفوا على
أحداث المنزلين من شفاخيب الذُرَا ، المنجلين بوازع أم حَبَو كرى ، المشغولين بما
عليهم من الموت جرى ، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى ، تجدوا ما بقى منها عبّرة
لمن يرى . فرحم الله امرأً رحم نفسه فبكأها ، وجعل منها إليها مشتكاها ! قبل أن تعلق به
خطاطيف المنون ، وتصدق فيه أراجيف الظنون ، وتشرّق عليه بمائها مُقل العيون ؛ ويلحق
بمن دَثِرَ من القرون ، قبل أن يبدؤ على المناكب محولا ، ويغدو إلى محلّ المصائب منقولا ،
ويكونَ عن الواجب مسئولا ، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولا . هباك يرفع الحجاب ،
ويوضع الكتاب ، وتقطع الأسباب ، وتذهب الأحساب ، ويمنع الإعتاب ، ويجمع من قَى
عليه العقاب ، ومَنْ وجب له الثواب ، فيضرب بينهم بسورٍ له باب ، باطنه فيه الرحمة
وظاهره من قبَله العذاب » .

فليُنظر المنصف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد؛ أولا بالنسبة إلى ذلك الكلام
العربى المحض ، ثم لينظر فيما عليه من الكسل والرخاوة ، والفتور والبلادة ، حتى كأن ذلك

الكلام لعامر بن الطفيل^(١) مستثماً شِكَّتَه^(٢) ، راكبا جواده ، وهذا الكلام للدلال
المديني^(٣) الخنث ، آخذا زمارته ، متأبطا دَفَه .

والمخ ما في « بوق الرحيل » من السفسفة واللفظ العامي الغث . واعلم أنهم كلهم
عابوا على أبي الطيب قوله :

فإن كان بعضُ الناس سيقاً لدولةٍ ففي الناس بُوقاتُ لها وطُبولُ^(٤)
وقالوا : لا تدخل لفظه « بوق » في كلام يفلح أبدا .

والمخ ما على قوله : « القهقري القهقري » متكررة من الهجعة ، وأهجن منها
« أم حَبَو كرى »^(٥) . وأين هذا اللفظ الحوشى الذى تفوح منه روائح الشَّيح
والقَيْصوم ؛ وكأنه من أعرابى قح قد قديم من نجد لا يفهم محاوراة أهل الحضر ، ولا أهل
الحضر يفهمون حوارَه ؛ من هذه الخطبة اللينة الألفاظ التى تسكد أن تتثنى من لينها ،
وتتساقط من ضعفها !

ثم المخ هذه الفِقَر والسَّجَعات ، التى أولها « القرى » ثم « المرا » ثم « بقرى » ثم
« السكرى » إلى قوله : « عبرة لمن يرى » ، هل ترى تحت هذا الكلام معنى لطيفا ،
أو مقصدا رشيقا ! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظا جَزْلاً فصيحاً ، أو عذبا معسولا ! وإنما هى
ألفاظ قد ضُمَّ بعضها إلى بعض ، والطائل تحتها قليل جدا . وتأمل لفظه « مرا » فإنها ممدودة
فى اللغة ، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة ، وإن أراد جمع « مَرِيَّة » فقد خرج

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، ابن عم لبيد ؛ أحد فرسان العرب
وفنا كهم . وانظر أخباره فى خزانة الأدب ١ : ٤٧٣ .

(٢) الشكة بالسكسر : السلاح .

(٣) الدلال المدينى ، واسمه ناقد ، وكنيته أبو زيد ، كان من أهل المدينة ، وأحد ظرفاء ثلاثة كانوا
بها : طويس ، والدلال ، وهنب ، كان هنب أقدمهم ، والدلال أصغرهم ؛ وانظر أخباره فى الأغاني ٤ :

٢٦٩ - ٣٠١ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٠٨ .

(٥) أم حبوكرى : من أسماء الداهية عندهم .

عن الصناعة ، لأنه يكون قد عَطَفَ الجمع المفرد ، فيصير مثل قول القائل : « ما أخذت منه دينارا ولا دراهم » ، في أنه ليس بالمستحسن في فن البيان .
ومن ذلك قوله :

« أيها الناس ، حصصَ الحقّ ، فما من الحقّ مناص ، وأشخصَ الخلق ؛ فما لأحد من الخلق خَلاص ، وأنتم على ما يباعدكم من الله حِرَاص ، ولكم على موارد المَلَكَةِ اغتصاص ؛ وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص ؛ كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص ، ولجوارح الموت في وَخْش نفوسكم اقتناص ؛ ليس بها عليها تأبٍ ولا اعتياص » .
فليتأمل أهلُ المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلامَ بعين الإنصاف ، يعلموا أن سطرّاً واحداً من كلام « نهج البلاغة » يساوي ألف سطر منه ، بل يزيد ويُربّي على ذلك ؛ فإنّ هذا الكلام ملزقٌ عليه آثارٌ كُلفَ وهُجِنَ ظاهرة ، يعرفها العاميّ فضلاً عن العالم .

ومن هذه الخطبة :

« فاهجروا رحمكم الله وثيرَ المراقِد ، وادّخروا طيبَ المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقِد ، واغتنموا فسحةَ الليل قبل انسداد المقاصِد ، واقتحموا سُبُل الآخرة على قِلّة المرافق والمساعد » .

فهل يجد متصفح الكلام لهذا الفصل عُذوبة ، أو معنى يُمدح الكلامُ لأجله ؟ وهل هوَ إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض ، ليس لها حاصل ؛ كما قيل في شعر ذى الرُّمّة : « برظباء ونقط عروس »^(١) !
ومن ذلك قوله :

« فياله من واقع في كَرْب الحشارج ، مصارع لسكرات الموت معالج ! حتى دَرَج على تلك المدارج ، وقدم بصحيفته على ذى المعارج » .

(١) من كلام جرير في وصف شعر ذى الرمة ، وانظر الموشح للربزباني ١٧١ .

وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلف .

ومن ذلك قوله :

« فكأنكم بمنادى الرحيل قد نادى في أهل الإقامة ، فاقنحموا بالصغار بحجة القيامة ، يتلو الأوائل منهم الأواخر ، ويتبع الأكاير منهم الأصاغر ، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر ، حتى تبتلع جميعهم الحفر والمقابر » .
فإن هذا الكلام ركيك جدا ، لوقاله خطيب من خطباء قرى السواد لم يستحسن منه ؛ بل ترك واسترذل .

ولعل عائباً يعيب علينا فيقول : شرعتم في المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وبين كلام ابن نُبّاتة ؛ وهل هذا إلا بمنزلة قول مَنْ يقول : السيف أمضى من العصا ؛ وفي هذه غضاضة على السيف !

فنقول : إنه قد اشتملت كتب المتكلمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر ، ليبينوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب ؛ نحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ^(١) وبين قول القائل : « القتل أنفى للقتل » ونحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٢) وبين قول الشاعر :

فإن عرضوا بالشر فاصفح تكرّما وإن كنتموا عنك الحديث فلا تسل

ونحو إيرادهم كلام مُسَيِّمة ، وأحمد بن سليمان المعري ، وعبد الله بن المقفع ، فصلاً ، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد ، وإيضاح أنه لا يبلغ ذلك إلى درجة

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) سورة الأعراف ١٩٩

القرآن العزيز ، ولا يقار بها ، فليس بمستغنى منا أن نذكر كلام ابن نُباتة في معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهر فضيلة كلامه عليه السلام ، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل ، الذي قد اتفق الناس على أنه أوحدُ عصره في فنّه .

واعلم أنا لانهـ ذكر فضل ابن نُباتة وحُسنَ أكثر خطبهِ ، ولكنّ قومًا من أهل العصبية والعناد ، يزعمون أنّ كلامه يساوى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ويمائله ، وقد ناظر بعضهم في ذلك ، فأحببت أن أبين للناس في هذا الكتاب أنه لانسبة كلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلم بالإضافة إلى زهير والنابغة .

واعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيـق والأرشق والحلو والأحلى ، والعالى والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ؛ ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه ؛ وهو بمنزلة جاريتين : إحداهما بيضاء مشربة حمرة دقيقة الشفتين ، نقيّة الثغر ، كحلأ العينين ، أسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها في هذه الصفات والحاسن ؛ لكنها أحلى في العيون والقلوب منها ، وأليق وأصلح ، ولا يدري لأى سبب كان ذلك ، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف ، ولا يمكن تعليله ، وهكذا الكلام ؛ نعم يبقى الفرق بين الموضوعين . أنّ حُسن الوجوه وملاحظتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كلّ من له عين صحيحة ، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق ، وليس كلّ من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وتمن يصلح لانتقاد الكلام ؛ وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم

بذلك دُرْبَةً ومِلْسَكَةً تامة ، فإلى أولئك ينبغي أن ترجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض ، إن كنت عادما لذلك من نفسك .

الأصل :

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا ، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَّاهَا عَنْهُ اخْتِياراً ، وَبَسَطَهَا لِعَبِيدِهِ اخْتِياراً ، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيَّبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ؛ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً ، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً . بَلَغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً ، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً ، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحْذِراً .

الشرح :

فَعَلَ ، مَشَدَّد ، لِلتَّكْثِيرِ ، « قَتَلْتُ » أَكْثَرُ مِنْ « قَتَلْتُ » ؛ فَيَقْتَضِي قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا » زِيَادَةَ تَحْقِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَهَا ، وَذَلِكَ أُبْلَغُ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَقْرِيطِهِ .

قَوْلُهُ : « وَصَغَّرَهَا » ، أَيْ وَصَغَّرَهَا عِنْدَ غَيْرِهِ ، لِيَكُونَ قَوْلُهُ : « وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا » مُطَابِقاً لَهُ ، أَيْ أَهْوَنَ هُوَ بِهَا وَهَوَّنَهَا عِنْدَ غَيْرِهِ .

وَزَوَّاهَا : قَبَضُهَا ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « زُوِّتْ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مِشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا » .

وقوله : « اخْتِياراً » ، أَيْ قَبْضَ الدُّنْيَا عَنْهُ بِاخْتِيارٍ وَرِضًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ ، وَعَلِمَ بِمَا فِيهِ مِنْ رِفْعَةِ قَدْرِهِ ، وَمَنْزِلَتِهِ فِي الْآخِرَةِ .

والرياش والريش بمعنى ، وهو اللباس الفاخر كالحرزم والحرام واللبس واللباس ،
وقرى : ﴿ وَرِيَاشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ ^(١) ويقال : الريش والرياش : المال
والخشب والمعاش ، وارتاش فلان : خسنت حاله . ومعذرا ، أى مبالغا ، أعذر فلان فى
الأمر ، أى بالغ فيه .

الأصل :
نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَتُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةُ ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ
الْحُكْمِ ؛ نَاصِرُنَا وَنَحْبُنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوْنَا وَمُتَغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ .

الْبَيْخ :

هذا الكلام غير ملتصق بالأول كل الالتصاق ، وهو من النمط الذى ذكرناه مراراً ؛
لأن الرضى رحمه الله يقتضى فصولا من خطبة طويلة ، فيوردها إيراداً واحداً ، وبعضها
منقطع عن البعض .

قوله عليه السلام : « نحن شجرة النبوة » ، كأنه جعل النبوة كشجرة أخرجتها
شجرة بنى هاشم . ومحط الرسالة : منزلها . وتختلف الملائكة : موضع اختلافها فى صعودها
ونزولها ، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبين فقال : يفتخر على بنى عم له ليسوا
بفاطميين :

هل كان يقتعد البراق أبوكم أم كان جبريل عليه يُنزّل
أم هل يقول له الإله مُشافها بالوحي : قم يأتها المزمّل

(١) سورة الأعراف ٢٦ وهى قراءة عامه ، وانظر تفسير القرطبي ٧ : ١٨٤ .

وقال آخر يمدح قوما فاطمين :

ويطرقة الوحى وهنا وأنتم ضجيمان بين يدي جبرئيل

يعنى حسنا عليه السلام وحسينا عليه السلام .

واعلم أنه إن أراد بقوله : « نحن مختلف الملائكة » جماعة من جملة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلا ريب في صحة القضية وصدقها ، وإن أراد بها نفسه وابنيه فهى أيضا صحيحة ؛ ولكن مدلوله مستنبط ، فقد جاء في الأخبار الصحيحة ، أنه قال . « يا جبريل ، إنه منى وأنا منه » ، فقال جبريل : وأنا منكم . وروى أبو أيوب الأنصارى مرفوعا : « لقد صلت الملائكة على وعلى سبع سنين لم تصل على ثالث لنا » ؛ وذلك قبل أن يظهر أمر الإسلام ويتسامع الناس به .

وفى خطبة الحسن بن على عليه السلام لما قبض أبوه : « لقد فارقكم فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون ، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره » .

وجاء فى الحديث أنه سُمِعَ يوم أحد صوت من الهواء من جهة السماء ، يقول : « لاسيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا على » ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « هذا صوت جبريل » .

فأما قوله : « ومعادن العلم ، ونباييع الحكم » يعنى الحكمة أو الحكم الشرعى ، فإنه وإن عنى بها نفسه وذريته ، فإن الأمر فيها ظاهر جدًّا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب » ، وقال : « أقضاكم على » والقضاء أمر يستلزم علوما كثيرة .

وجاء فى الخبر أنه بعثه إلى اليمن قاضيا ، فقال : يا رسول الله ، إنهم كهول وذوؤ أسنان

وأنا فتى، وربما لم أصب فيما أحكم به بينهم، فقال له : « اذهب فإن الله سيثبت قلبك ويهدي لسانك » .

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ ^(١) : سألت الله أن يجعلها أذنك ففعل . وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(٢) : أنها أنزلت في عليّ عليه السلام وما خُصّ به من العلم . وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَقَمَنَ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(٣) : أن الشاهد علىّ عليه السلام .

وروى المحدثون أنه قال لفاطمة : « زَوْجَتُكَ أَقْدَمَهُمْ سِلْمًا ، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا ، وَأَعْلَمَهُمْ عِلْمًا » . وروى المحدثون أيضا عنه عليه السلام أنه قال : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نُوحٍ فِي عَزْمِهِ ، وَمُوسَىٰ فِي عِلْمِهِ ، وَعِيسَىٰ فِي وَرَعِهِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ » .

وبالجملة فخاله في العلم حال رفيعة جدا لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه . وحق له أن يصف نفسه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم ، فلا أحد أحقّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

فإن قلت : كيف قال : « عدونا ومبغضنا ينتظر السطوة » ، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه ، لا ينتظرونها !

قلت : لما كانت منتظرة لهم ومعلوما بيقين حلولها بهم ، صاروا كالمنتظرين لها . وأيضا فإنهم ينتظرون الموت لا محالة الذي كلّ إنسان ينتظره ؛ ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقا إليه جعل انتظاره انتظار ما يكون بعده .

(١) سورة الحاقة ١٢

(٢) سورة النساء ٥٤

(٣) سورة هود ١٧

(١٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، الْإِيمَانُ بِهِ وَرَسُولِهِ ،
وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ ؛ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ ، وَإِقَامُ
الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا أَلَمَّةٌ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ
جَنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَأَعْتِمَارُهُ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَصَانِ الذَّنْبَ ،
وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَنَازِلٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُسَكِّرُ
الْخُطِيئَةَ ، وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ الشُّوْءِ ، وَصَفَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي
مَصَارِعَ الْهَوَانِ .

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَأَرْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ
أَصْدَقُ الْوَعْدِ ؛ وَأَقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ ، وَأَسْتَنْوُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا
أَهْدَى السُّنَنِ ، وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ
الْقُلُوبِ ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ .
وَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْخَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ ؛ بَلِ الْخُجَّةُ
عَلَيْهِ أَكْثَرُ وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَكْثَرُ ؛ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْيَوْمَ .

الشرح :

ذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَمَانِيَةَ أَشْيَاءَ ، كُلُّ ثَمَنِيهَا وَاجِبٌ .

أولها : الإيمان بالله وبرسوله ، ويعنى بالإيمان هاهنا مجرد التصديق بالقلب ، مع قَطْع النظر عما عدّا ذلك من التلقظ بالشهادة ، ومن الأعمال الواجبة ، وترك القبائح . وقد ذهب إلى أن ماهية الإيمان هو مجرد التصديق القلبي جماعة من المتكلمين ؛ وهو وإن لم يكن مذهب أصحابنا ، فإنّ لهم أن يقولوا : إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللفظ على أصل الوضع اللغوي ؛ لأن الإيمان في أصل اللغة هو التصديق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَا وَكِفَّا صَادِقِينَ ﴾ ^(١) ، أى لست بمصدق لنا ؛ لأن كتماناً صادقين ، ولأن كتماناً كاذبين . ومجيئه عليه السلام به على أصل الوضع اللغوي لا يبطل مذهبنا في معنى الإيمان ؛ لأننا نذهب إلى أن الشرع استجد لهذه اللفظة معنى ثانياً ، كما نذهب إليه في الصلاة والزكاة وغيرهما ، فلا مُنَافَاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام .

وثانيها : الجهاد في سبيل الله ، وإنما قدّمه على التلقظ بكلمتي الشهادة ، : لأنه من باب دفع الضرر عن النفس ، ودفع الضرر عن النفس مقدّم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح ، والتلقظ بكلمتي الشهادة من أعمال الجوارح ؛ وإنما أخره عن الإيمان ، لأن الإيمان من أفعال القلوب ؛ فهو خارج عما يتقدم عليه ، ودفع الضرر من الأفعال المختصة بالجوارح ، وأيضاً فإن الإيمان أصل الجهاد ، لأنه ما لم يعلم الإنسان على ماذا يُجاهد لا يجاهد ، وإنما جملة ذروة الإسلام ، أى أعلاه ، لأنه ما لم تتحصّن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام ؛ فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن .

وثالثها : كلمة الإخلاص ؛ يعنى شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ، قال : فإنها الفطرة ؛ يعنى هى التى فطر الناس عليها ؛ والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد ، وعليها فطر البشر كلهم ، والكلمة الثانية تبع لها فأجريت مجراها ، وإنما أخرت

هذه الخصلة عن الجهاد ، لأنّ الجهاد كان هو السبب في إظهار الناس لها ونطقهم بها ؛ فصار كالأصل بالنسبة إليها .

ورابعها إقام الصلاة أى إدامتها ، والأصل « أقام إقواما » ، فحذفوا عين الفعل ، وتارة يعوضون عن العين المفتوحة هاء ، فيقولون : « إقامة » . قال : فإنها الملة ، وهذا مثل قول النبي صلى الله عليه وآله : « الصلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هدم الدين » . وخامسها إيتاء الزكاة ، وإنما أخرجها عن الصلاة لأن الصلاة آكد افتراضا منها ؛ وإنما قال في الزكاة « فإنها فريضة واجبة » ، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعين المقدر في السائمة ، باعتبار غير الاعتبار الذى يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة ؛ والاعتبار الأول من القطع ، والثانى من الوجوب ، وقال : فإنها فريضة واجبة ؛ مثل أن يقول : فإنها شئ مقتطع من المال موصوف بالوجوب .

وسادسها صوم شهر رمضان ؛ وهو أضعف وجوباً من الزكاة ، وجعله جُدة من العقاب ، أى ستره .

وسابعها الحج والعمرة ، وهما دون فريضة الصّوم ، وقال : إنهما ينبغيان الفقر ، ويَرَحضان الذنب ، أى يفسلانه ؛ رَحَضَت الثوب ، وثوب رَحِيض . وهذا الكلام يدلّ على وجوب العمرة ؛ وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء .

وثامنها صلة الرّحم وهى واجبة ، وقطيعة الرحم محرّمة ، قال : فإنها مثناة في المال ، أى تُثَرِّبُهُ وتُكْثِرُهُ .

ومَنَسأة في الأجل ، أى تنسؤه وتؤخره ، ويقال : نسأ الله في أجلك . ويجوز أنسأه بالهمزة .

فإن قلت : فما الحجّة على تقديم وجوب الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ؟

قلت : أما الصلاة ، فلأن تاركها يقتل ، وإن لم يجحد وجوبها ، وغيرها ليس كذلك ؛ وإنما قدمت الزكاة على الصوم لأن الله تعالى قرنها بالصلاة في كثير من الكتاب العزيز ، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا في موضع واحد ، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليل على أنه أهم ، وإنما قدم الصوم على الحج ، لأنه يتكرر وجوبه ، والحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة ، فدل على أنه أهم عند الشارع من الحج .

ثم قال عليه السلام : « وصدقة السر » ، فخرج من الواجبات إلى النوافل . قال : « فإنها تكفر الخطيئة » ، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحق بنواب أزيد منه أو توبة وأصله في اللغة الستر والتغطية ، ومنه الكافر ؛ لأنه يغطي الحق ، وسمى البحر كافرا لتغطيته ما تحته ، وسمى الفلاح كافرا لأنه يغطي الحب في الأرض المحروثة .

ثم قال : « وصدقة العلانية » ، فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والهدم وغيرها . قال : « وصنائع المعروف » ، فإنها تقي مصارع الهوان « كأشر الروم للمسلم ، أو كأخذ الظلمة لغير المستحق للأخذ .

ثم شرع في وصايا آخر عددها . والهدى : السيرة ، وفي الحديث : « واهدوا هدى عمار » ، يقال : هدى فلان هدى فلان ، أى سار سيرته .

وسمى القرآن حديثا اتباعا لقول الله تعالى : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ ^(١) ؛ واستدل أصحابنا بالآية على أنه محدث ، لأنه لا فرق بين حديث ومحدث في اللغة . فإن قالوا : إنما أراد أحسن الكلام ، قلنا : لعمري إنه كذلك ، وكيف لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث ؛ لأنه إنما سمي الكلام والمحاوره والمحاطبة حديثا ؛ لأنه أمر يتجدد حالا فخالا ، والقديم ليس كذلك .

ثم قال : « تفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب » ؛ من هذا أخذ ابن عباس قوله : « إذا قرأت آلم حَمَّ ، وقعت في روضات دِمْنَاتٍ » .

ثم قال : « فإنه شفاء الصدور » ، وهذا من الألفاظ القرآنية^(١) .
ثم سماه قصصا ، اتباعا لما ورد في القرآن من قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾^(٢) .

ثم ذكر أن العالم الذي لا يعمل بعلمه كالجاهل الخائر الذي لا يستفيع من جهله .
ثم قال : « بل الحجة عليه أعظم » ، لأنه يعلم الحق ولا يعمل به ، فالحجة عليه أعظم من الحجة على الجاهل ، وإن كانا جميعا محجوجين ، أما أحدهما فيعلمه ، وأما الآخر فبتمكُّنه من أن يعلم .

ثم قال : « والحسرة له ألزم » ، لأنه عند الموت يتأسف ألا يكون عمل بما علم ، والجاهل لا يتأسف ذلك الأسف .

ثم قال : « وهو عند الله ألوم » ، أى أحق أن يلام ، لأن المتمكن عالم بالقوة ، وهذا عالم بالفعل ، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشد .

(١) وهو قوله تعالى في سورة يونس ٥٧ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .
(٢) سورة يوسف ٣

(١١٠)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَحَدُكُمْ أَلَدُنِيَا ؛ فَإِنَّهَا حُلُوةٌ خَيْرَةٌ ، خُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، وَتَحَبَّبَتْ
بِالْعَاجِلَةِ ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْفُرُورِ . لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا ؛
وَلَا تُؤَمِّنُ فَجَعَتُهَا . غَرَارَةٌ ضَرَارَةٌ ، حَارِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ ، أَكْثَالَةٌ غَوَالَةٌ ،
لَا تَعْدُو - إِذَا تَمَاقَتْ - إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَا بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ
الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ ^(١) .

لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عِبْرَةٌ ، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَائِهَا بَطْنًا ،
إِلَّا مَنَعَتْهُ مِنْ ضَرَائِهَا ظَهْرًا ؛ وَلَمْ تَطْلُحْ فِيهَا دِيمَةٌ رَخَاءً ، إِلَّا هَتَّانَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةٌ بَلَاءً .
وَحَرَىَّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ ، أَنْ تُمَسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةٌ ، وَإِنْ جَانِبَ مِنْهَا
أَعَذُوبٌ وَأَحْلُوَى ، أَمَرٌ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْى !

لَا يَنَالُ أَمْرٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغْبًا ، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، وَلَا يُنْسِي مِنْهَا
فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ؛ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ .

غَرَارَةٌ ؛ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، فَإِنِّيَّةٌ ؛ فَإِنْ مَنَ عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْوَادِهَا
إِلَّا التَّقْوَى .

مَنْ أَقَلِّ مِنْهَا أُسْتَكْثَرَ بِمَا يُؤْمِنُهُ، وَمَنْ أُسْتَكْثَرَ مِنْهَا أُسْتَكْثَرَ بِمَا يُؤْبَقُهُ،
وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ .

كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُهْبَةٍ قَدْ جَمَلَتْهُ
حَقِيرًا؛ وَذِي نَحْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا

سُلْطَانُهَا دُولُ، وَعَيْشُهَا رِنَقُ، وَعَذْبُهَا أَجَاجُ، وَخُلُوقُهَا صَبَرُ، وَغِذَاؤُهَا سِيمَامُ،
وَأَسْبَابُهَا رِمَامُ. حَيْثَا بَعَرَضَ مَوْتٍ، وَصَحَّيْحُهَا بَعَرَضَ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبُ،
وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبُ، وَمَوْفُورُهَا مَفْكُوبُ، وَجَارُهَا تَحْرُوبُ.

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِينٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا،
وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَى جُنُودًا ! تَعَبِدُوا لِلدُّنْيَا أَيْ تَعَبِدُوا، وَآثَرُوهَا أَيْ إِبْشَارُ، ثُمَّ
ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ، وَلَا ظَهَرَ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَّغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ
نَفْسًا بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَاثَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنْتْ لَهُمْ صُحْبَةً ! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَاحِشِ،
وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِيعِ، وَضَعَفَتْهُمْ بِالنَّوَارِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ بِالْمَخَايِرِ، وَوَطَّئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ،
وَأَعَاثَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبُ الْمُتَمُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَفَسَّكُرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ
إِلَيْهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ .

وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ،
أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا الدَّمَامَةَ !

أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ؛ أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ !
فَبُنِيتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَسْكُنْ فِيهَا حَتَّى وَجَلَ مِنْهَا !
فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَأَنْعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ
قَالُوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ^(١)، مُحِلُّوهُ إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا، وَأَنْزِلُوا

الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعُونَ ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيِّحِ أَجْنَانٌ ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ ،
وَمِنَ الرِّفَافِ جِيرَانٌ . فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ؛ وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا ، وَلَا يُبَالُونَ
مَنْدَبَةً . إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ فُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا ، جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِيرَةٌ
وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مُقْدَأُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ .

حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ ؛ لَا يُخْشَى فَجْمُهُمْ ؛
وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ . اسْتَبَدُّوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا ، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ،
وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجَاءَ وَهًا كَمَا فَارَقُوا هَا ، حُفَاءَ عُرَاةٍ قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ ، إِلَى
الْحَيَاتِ الدَّائِمَةِ ، وَاللَّارِ الْبَاقِيَةِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ
وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ^(١) .

الشرح :

خِصْرَةٌ ، أى ناضرة ، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية ، قال النبي صلى الله عليه وآله :
« إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خِصْرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ! » .

وَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، كَأَنَّ الشَّهَوَاتِ مُسْتَدِيرَةٌ حَوْلَهَا ، كَمَا يَحْفُ الْمَوْجُ بِالْثِيَابِ ،
وَحَفُوا حَوْلَهُ يَحْفُونَ حَقًّا : أَطَافُوا بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ
حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ ^(٢) .

قوله : « وَتَحَبَّبْتَ بِالْعَاجِلَةِ » ، أى تحببت إلى الناس بكونها لذّة عاجلة ، والنفوس مغرمة
مواصلة بحب العاجل ، فخذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول .

قوله : « وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ » ، أى أعجبت أهلها ؛ وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم .

(١) سورة الأنبياء ١٠٤

(٢) سورة الزمر ٧٥

قوله : « وتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ » من الحلية ، أى تَزَيَّنَتْ عند أهلها بما يؤملون منها .

قوله : « وَتَزَيَّنَتْ بِالْفَرُورِ » ، أى تَزَيَّنَتْ عند الناس بفرور لاحقية له .

والخبرة : السرور . وحائلة : متغيرة . ونافذة : فانية . وبائدة : منقضية . وأكالة : قتالة ، وغوالة : مهاكمة . والغول : ماغال ، أى أهلك ؛ ومنه المثل : « الغضب غول الحلم » .
ثم قال : إنها إذا تنافت إلى أمنية ذوى الرغبات فيها لا تتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ أُرِّيَاهُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

فاختلط ، أى فالتفت بنبات الأرض . وتسكائف به ، أى بسبب ذلك الماء وبنزوله عليه ؛ ويجوز أن يكون تقديره : فاختلط بنبات الأرض ، لأنه أَمَا غَدَاهُ وَأَنَامُهُ ، فقد صار مختلطاً به ، ولَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُخْتَلِطِينَ مُشَارِكًا لِمُصَاحِبِهِ فِي مَسْمَى الْاِخْتِلَاطِ جاز « فاختلط به نبات الأرض » ، كما يجوز : فاختلط هو بنبات الأرض .

والهشيم : ما تهشم وتحطم ، الواحدة هشيمة . وتذروه الرياح : تطيره . وكان الله على ما يشاء ، من الإنشاء والإفناء ، مقتدرا .

قوله : « مَنْ يَلْقَ مِنْ سَرَائِمِهَا بَطْنًا » إنما خص السراء بالبطن ، والضراء بالظهر ، لأن الملاقى لك بالبطن ملاقى بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك . وقيل : لأن الترس بطنه إليك وظهره إلى عدوك ، وقيل : لأن المشى فى بطون الأودية أسهل من السير على الظراب والآكام .

وطله السحاب يطله ، إذا أمطره مطراً قليلاً ، يقول : إذا أعطت قليلاً من الخير أعقبته ذلك بكثير من الشر ، لأن التهنان الكثير المطر ، هتن يهتن بالكسر ، هتفا وهتونا وهتفاننا .

قوله : « وحرى » ، أى جدبر وخليق ، يقال : بالحرى أن يكون هذا الأمر كذا ، وهذا الأمر تحرة لذلك ، أى مقمنة ، مثل تحجاة ، وما أحرأه مثل ما أحجأه ، وأحر به ، مثل أحج به ، ونقول : هو حرى أن يفعل ذلك بالفتح ، أى جدبر وقين ، لا يثنى ولا يجمع ، قال الشاعر :

وَهْنٌ حَرَّى أَلَا يُثْبِتُكَ نَقْرَةٌ وَأَنْتَ حَرَّى بِالْفَارِحِينَ تُثِيبُ^(١)

فإذا قلت : هو حرى بكسر الراء وحرى بتشديد هاء على « فعمل » ثنيت وجمعت ، فقلت : هما حرىًان وحرىان ، وحرُونَ مثل عَمُونَ ، وأحرأه أيضا ، وفي المشدد حرِيُونَ وأحرِيَاءَ ، وهى حرية وحرية ؛ وهنَ حرِيَات وحرِيَات وحرَايا .

فإن قلت : فهلا قال : « وحرية إذا أصبحت » ، لأنه يخبر عن الدنيا ؟

قلت : أراد شأنها ، فذكر ، أى وشأنها خليق أن يفعل كذا .

واعذوذب : صار عذبا . واحلُولَى : صار حُلُوءاً ، ومن هاهنا أخذ الشاعر قوله :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةً إِذَا اخْضَرَّتْ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ

فَلَا تَكْتَحِيلُ عَيْنَاكَ مِنْهَا بَعْبَرَةً عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ

وارتفع « جانب » المذكور بعد « إن » لأنه فاعل فعل مقدّر يفسره الظاهر ؛ أى

وإن اعذوذب جانبٌ منها ، لأن « إن » تقتضى الفعل وتطلبه فهى : كـ « إذا » فى

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾^(٢) .

وأمر الشيء ، أى صار مرأ . وأوْبَى : صار وبيئاً ، ولَيْنَ الهمز ، لأجل السجع .

والرَّغَب : مصدر رغبت فى الأمر رغبة ورغبا ، أى أردته .

يقول : لا ينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقه تعباً ، يقال : أرهقه إتماماً ، أى حمّله وكلّفه .

(١) البيت فى اللسان ١٨ : ١٨٨ ، من غير نسبة .

(٢) سورة الانشقاق ١

فإن قلت : لم خصّ الأمن بالجنّاح والخوف بالقوادم ؟
قلت : لأنّ القوادم مقاديمُ الريش ، والراكب عليها بعرض خطر عظيم وسقوط قريب ، والجنّاح يسترويقي البرد والأذى ، قال أبو نُوَاس :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظُلِّ جَنَاحِهِ فصرّت أرى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي ^(١)
فلو تسأل الأيامَ ما اسمي لمَـا دَرَّتْ وأينَ مكاني ما عرفنَ مكاني
والهاء في « جناحه » ترجع إلى الممدوح ^(٢) بهذا الشعر .

وتؤبّقه : تهلكه ، والأبّهة : الكبر . والرّثَق ، بفتح الزون ، مصدر رَثَقَ الماء ، أى
تكدّروا بالكسر الكدر ، وقد روى هاهنا بالفتح والكسر ، فالكسر ظاهر ، والفتح
على تقدير حذف المضاف ، أى ذو رَثَق .

وماء أجاج : قد جمع المرارة والمُلوحة ، أجاج الماء يؤجّج أجاجا . والصبر ، بكسر الباء :
هذا النبات المرّ نفسه ، ثم سمّى كلّ مرّة صبراً . والسام : جمع سَمّ لهذا القاتل ، يقال سَمّ
وسُمّ ، بالفتح والضم ، والجمع سام وسُموم .

ورمام : بالية ، وأسبابها : حبالها . وموفورها : ذو الوفّر والثروة منها ، والمحروب : المسلوب ،
أى لا تحمى جارا ولا تمنعه .

ثم أخذ قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ ^(٣) فقال : « ألسم في مساكين مَنْ كان قبلكم
أطول أعمارا » ، نصب « أطول » بأنه خبر كان ، وقد دلّنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول

(١) ديوانه ٩٧

(٢) هو محمد بن الفضل بن الربيع .

(٣) سورة إبراهيم ٤٥ .

أعماراً بقوله: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا﴾ ^(١) ، وثبت بالعيان أنهم أبقي آثاراً ؛ فإن من آثارهم الأهرام والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك . وأما بُعد الآمال فمرتّب على طول الأعمار ، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعد ، وإن عني به علوّ الهمم ، فلا ريب أنهم كانوا أعلى همماً من أهل هذا الزمان ؛ وقد كان فيهم من ملأ معصورة الأرض كلّها ، وكذلك القول في « أعدّ عديداً ، وأكثف جنوداً » ، والعديد : العدو الكثير ؛ وأعدّ منهم ، أى أكثر .

قوله : « ولا ظهر قاطع » ، أى قاطع لمسافة الطريق .

والفوادح : المنقّلات ، فدّحه الدّين أثقله ؛ ويروى « بالقوادح » بالقاف ؛ وهى آفة تظهر فى الشجر ، وصدوع تظهر فى الأسنان .

وأوهقهم : جعلهم فى الوهق ، بفتح الهاء ، وهو حبل كالطّول ^(٢) ويجوز التّسكين ، مثل هزّ وهزّ .

والقوارع : الحن والدواهي ؛ وسميت القيامة قارعة فى الكتاب العزيز من هذا المعنى وضعفهم : أذلهم ، قال أبو ذؤيب :

* أنى لربّ الدهر لا أنضعضع * ^(٣)

وضعفت البناء : أهدمته .

وعقرتهم للمناخر . ألصقت أنوفهم بالعقر ، وهو التراب . والمناسم : جمع منيسم ، بكسر السين وهو خفّ البعير .

(١) سورة العنكبوت ١٤

(٢) الطولى ، أو الطيل : حبل طويل يشد به فائمة الدابة .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٣ ؛ وصدّره :

* وَتَجَلَدَى لِلشَّامِتِينَ أَرْيَهُمُ *

ودان لها : أطاعها ، ودان لها أيضا : ذل . وأحلد إليها : مال ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ خَلْدًا إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

والسَّغْب : الجوع : يقول : إنما زودتهم الجوع ، وهذا مثل ، كما قال :

* ومدحته فأجازني الحرمانا *

ومعنى قوله : « أو نورت لهم إلا الظلمة » : أى بالظلمة ؛ وهذا كقوله : « هل زودتهم إلا السَّغْب » . وهو من باب إقامة الضدّ مقام الضدّ ، أى لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة . والضمك : الضيق .

ثم قال : فبُئِست الدار ، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره « هى » كما قال تعالى : ﴿ نِعَمَ الْعَبْدُ ﴾ ^(٢) ، وتقديره : « هو » .

ومن لم يتممها : من لم يسؤ ظنّا بها . والصفيح : الحجارة . والأجنان : القبور ، الواحد جَنَنٌ ، والمجنون : المقبور ، ومنه قول الأعرابية : « لله درك من مجنون فى جَنَنٍ » . والأكنان : جمع كِنٍ : وهو السَّتر ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ ^(٣) .

والرَّفات : العظام البالية . والمندبة : الندب على الميت . لا يبالون بذلك : لا يكثرثون به . وجيدوا : مطروا . وقُحِطوا : انقطع المطر عنهم فأصابهم القحط ، وهو الجذب وإلى معنى قوله عليه السلام : « فهم جيرة لا ينجيهم داعيا ، ولا يمنعون ضيا ، جميع وهم آحاد ، وجيرة وهم أبعاد ، متدانون لا يتزاورون ، وقريبون لا يتقاربون » نظر البحتري ، فقال :

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٢) سورة س ٣٠

(٣) سورة النحل ٨١

بنّا أنت من مجفوة لم تؤنب ومهجورة في هجرة لم تعتب^(١)
 ونازحة والدار منها قريبة وما قرب ثاوي التراب مغيب
 وقد قال الشعراء والخطباء في هذا المعنى كثيرا، فمن ذلك قول الرضى أبى الحسن رحمه
 الله في مرثيته لأبى إسحاق الصابى :

أعزى على بأن نزلت بمنزل متشابه الأجداد بالأوغاز^(٢)
 في عصبية جنبوا إلى آجالهم والدهر يُعجلهم عن الإزاد
 ضربوا بمدرجة الفناء قبائهم من غير أطناب ولا أوتاد
 ركب أناخوا لا يرجى منهم قصد لإتهم — ام — ولا إنجاز
 كرهوا النزول فأنزلتهم وقعة للدهر نازلة بكل مقاد
 فتهافتوا عن رخل كل مذلل وتطأوحوا عن سرج كل جواد
 بادون في صور الجميع وإنهم متفردون تفرّد الأحاد
 فقلوه : « بادون في صور الجمع ... » البيت ، هو قوله عليه السلام : « جمع وهم آحاد » بعينه .
 وقال الرضى رحمه الله تعالى أيضا :

متوسدين على الحدود كأنما كرعوا على ظلم من الصهباء^(٣)
 صور ضمنت على العيون بحسبها أمسيت أوقرها من البوغاء^(٤)
 ونواظر كحل التراب جفونها قد كنت أحرصها من الأقذاء
 قرئت ضرائحهم على زوارها ونأوا عن الطلاب أى تناء^(٥)

(١) ديوانه ١ : ٤٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٩ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ من مرثيته لوالدته .

(٤) لحظها : ملاحظتها . والبوغاء : التربة الرخوة .

(٥) الضرائع : جمع ضريح ؛ وهو القبر .

قوله : « قربت ضرائحهم . » البيت هو معنى قوله عليه السلام : « وجيرة ، وهم أبعاد » بعينه .

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب : ^(١)

لكل أناس مقبر في ديارهم ^(٢) فهم ينقصون ، والقبور تزيد
فكأن ترى من دار حتى قد أخربت وقبر بأكناف التراب جديد ^(٣)
هم جيرة الأحياء ، أما مزارهم ^(٤) فدان ، وأما الملتقى فبعميد
ومن كلام ابن نباته : « وحيدا على كثرة الجيران ، بعيدا على قرب المكان » .

ومنه قوله : « أسير وحشة الانفراد ، فقير إلى اليسير من الزاد ، جار من لا يحير ،
وضيف من لا يمر ، حملوا ولا يرون ركبانا ، وأنزلوا ولا يدعون ضيفانا ، واجتمعوا
ولا يسمنون جيرانا ، واحتشدوا ولا يعدون أعوانا ، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام
بعينه المذكور في هذه الخطبة ، وقد أخذ مصالته .

ومنه قوله : « طحنهم طحن الحصيد ، وغيبتهم تحت الصعيد ، فبطون الأرض لهم
أوطان ، وهم في خرابها قطان ، عمرو فأخربوا ، واقتربوا فاغتربوا ، واصطحبوا
وما اصطحبوا » .

ومنه قوله : « غيبا كأشهاد ، عصبا كأحاد ، همودا في ظلم الأحاد ، إلى
يوم التناد » .

(١) لعبد الله بن ثعلبة الحنفي ؛ حساسة أبي تمام - بشرح المرزوقي ٨٩١
(٢) الحساسة :

* لِكُلِّ أَنْاسٍ مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ *

(٣) رواية الحساسة :

وما إن يزال رسم دار قد اخلقت وبيت لميت بالفناء جديد
(٤) الحساسة : « أما جوارهم » .

واعلم أن هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" (١)،
ورواها لفطري بن الفجاءة ، والناس يروونها للأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها
في كتاب "المونق" ، لأبي عبيد الله المرزباني مروية للأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهي
بكلام أمير المؤمنين أشبه ؛ وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن
أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ؛
وقد لقي قطري أكثرهم .

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٢٦ - ١٢٩ ؛ وهي أيضا بنسبتها إلى قطري في المعتمد ١ : ١٤١ ،
ومصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠ .

(١١١)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام : يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس :

هَلْ يُحْسُ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا ! بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى
الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ! أَلَيْدِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتُهُ بِإِذْنِ
رَبِّهَا ، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا !
كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ خَلْقٍ مِثْلِهِ !

الشيخ :

أما مذهب جمهور أصحابنا ؛ وهم النافون للنفس الناطقة ؛ فعندهم أن الروح جسم لطيف
بخارى ، يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية ، ينفذ في العروق الضواري ، والحياة عرض
قائم بالروح وحال فيها ؛ فللماغ روح دماغية وحياة حائلة فيها ؛ وكذلك للقلب ، وكذلك
للكبد ؛ وعندهم أن ملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه ؛ لولا ذلك لتعذّر
عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب ؛ لأنّ الجسم الواحد
لا يكون في مكانين في وقت واحد . قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون
هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل ، قالوا : وكيفية القبض ولوج الملك من النّم إلى
القلب ، لأنه جسم لطيف هوأى لا يتعذّر عليه النفوذ في الخارق الضيقة ، فيخالط الروح

التي هي كالشبيهة به ، لأنها جسم لطيف بخارى ، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه ، وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن الله تعالى له فيه ؛ وهو حضور الأجل ، فأنزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الفريق ؛ ليقبض روحه تحت الماء ؛ فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء ؛ فإن فيه مسام ومنافذ ، وفي كل جسم على قاعدتهم في إثبات الماء في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسام فيه ، لم يبعد أن يلججه الملك فيوسّع لنفسه مكانا كما يلججه الحجر والسمك وغيرهما ، وكالريح الشديدة التي تفرع ظاهر البحر فتقعره ، وتخفّره ، وقوة الملك أشد من قوة الريح .

ثم نعود إلى الشرح فنقول :

الملك أصله « مَلَك » بالهمز ، ووزنه « مفعِل » والميم زائدة ، لأنه من الألوكة والألوك ؛ وهي الرسالة ، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقبل ملاك ، قال الشاعر :
فلستُ لِإِنْسِيٍّ ولكن للملاكِ تَنَزَّلَ من جَوِّ السماءِ يصبوب^(١)
ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال ، فقبل : « مَلَك » ، فلما جمع ردت الهمزة إليه ، فقالوا : ملائكة وملائك ، قال أمية بن أبي الصلت :

وَكَأَنَّ بِرِيقِ الْمَلَائِكِ حَوْلَهَا سَدِرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوَائِمُ أَجْرَدُ^(٢)
والتوقي : الإمامة وقبض الأرواح ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يُتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾^(٣) .

والتقسيم الذي قسمه في وفاة الجنين حاصر ؛ لأنه مع فرضنا إتياء جسما يقبض الأرواح التي في الأجسام ؛ إما أن يكون مع الجنين في جوف أمه فيقبض روحه عند حضور أجله ،

(١) اللسان ١٢ : ٢٧٤ من غير نسبة .

(٢) اللسان ٦ : ٣٠ .

(٣) سورة الزمر ٤٢

أو خارجا عنها . والقسم الثانى ينقسم قسمين : أحدهما أن يُلجَّ جوف أمه لقبض روحه فيقبضها ، والثانى أن يقبضها من غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها ؛ وذلك بأن تطيعه الرُّوح وتكون مسخرة إذا أراد قبضها امتدت إليه فقبضها . وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها ، ولو قسمها واصلع المنطق لما زاد .

ثم خرج إلى أمر آخر أعظم وأشرف مما ابتدا به ، فقال : « كيف يصف إلهه مَنْ يعجز عن وصف مخلوق مثله » ! وإلى هذا الغرض كان يتراعى ، وإياه كان يقصد ؛ وإنما مهد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف ، والسرّ الدقيق .

[فصل فى التخلص وسياق كلام للشعراء فيه]

وهذا الفن يسميه أرباب علم البيان التخلص ، وأكثر ما يقع فى الشعر ، كقول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خَفَّ مركبى عزيزٌ علينا أن نراك تسير^(١)
أما دون مصرٍ للغنى متطلبٌ ! بلى ، إن أسباب الغنى لكثيرُ
فقلت لها واستمجلتها بوادِرْ جَرَتْ ، فخرى فى جريهن عَبيْرُ
ذرينى أكثر حاسديك برحلةٍ إلى بلد فيه الخصيب أميرُ
ومن ذلك قول أبى تمام :

يَقُولُ فى قَوْمِمْ صَحْبِي وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَى وَخُطَا الْمَهْرِ يَتَّ الْقُودِ^(٢)
أَمْطِلْعِ الشَّمْسِ تَبْنِى أَنْ تَوْمَ بِنَا فقلت كَلَّا وَلَسْكَنَ مَطْلِعِ الْجُودِ

(١) ديوانه ٩٩ ، من قصيدة يمدح فيها الخصيب بن عبد الرحمن المرادى ، أمير مصر .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٠ ، قومس : بلد بين العراق وخراسان .

ومنه قول البحتري:

هل الشباب ملّمٌ بى فراجعةً أياؤه لى فى أعقاب أياى (١)
لو أنه نائل غمرٌ يجادُ به إذن تطلبته عند ابن بسطام
ومنه قول المتنبي؛ وهو يتغزل بأعرابية، ويصف بخالها وجبينها وقلة مطعمها؛ وهذه
كلها من الصفات الممدوحة فى النساء خاصة (٢):

فى مُقَتّى رشاً تديرهما بدويةٌ فتنت بها الحِلل (٣)
تشكو المطاع طول هجرتها وصدودها، ومن الذى تصلأ
ما سأرت فى القعب من لبن تركته، وهو المسك والعسل
قات: ألا تصحو فقلت لها أعلمتني أن الهوى ثمل
لو أن فناخسرا صبحكم وبرزت وحدث عاقه الغزل (٤)
وتفرقت عنكم كتائبه إن الملاح خوادع قتل
ما كنت فاعلة وضيضكم ملك الملوك وشأنك البخل
أتمنين قرى فتفتضحى أم تهذلبن له الذى يسأل
بل لا يحل بحيث حل به بخل ولا جور ولا وجل

وهذا من لطيف التخلص ورشيقة، والتخلص مذهب الشعراء، والمتأخرون يستعملونه
كثيراً، ويتفاخرون فيه ويتناضلون، فأما التخلص فى الكلام المنثور فلا يكاد يظهر لمتصفح
الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمل شديد؛ وقد وردت منه مواضع فى القرآن العزيز؛ فمن

(١) المثل السائر ٢ : ٢٦٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٠١؛ من قصيدة يمدح فيها ركن الدولة.

(٣) الرشأ : ولد الطيبة الصنير . والحلل : جمع حلة ؛ وهى القوم المجتمعون فى بيوت مجتمعة للنزول .
والبدوية : الساكنة البدو .

(٤) فناخسرا ؛ هو اسم عضد الدولة . وصبحكم : أتاكم صباحاً للغارة .

أبينها وأظهرها أنه تعالى ذكر في سورة الأعراف الأمم الخالية ؛ والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن انتهى إلى قصة موسى ، فقال في آخرها بعد أن شرحها وأوضحها : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِثْبَايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّقَمَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَرَبُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاسْكُتْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوَارِثِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخِلُّ آلَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩٨ ١٥٩٩ ١٦٠٠ ١٦٠١ ١٦٠٢ ١٦٠٣ ١٦٠٤ ١٦٠٥ ١٦٠٦ ١٦٠٧ ١٦٠٨ ١٦

وأغرَّ في الزَّمن البهيمُ مُحَجَّلٍ قَدْ رَحَتْ مِنْهُ عَلَى أَغْرِ مُحَجَّلٍ^(١)
 كالمهيكل المبنيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحَسَنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ
 وَأَفِي الضَّلُوعِ بِشَدِّ عَقْدِ حَزَامِهِ يَوْمَ الْإِقَاءِ عَلَى مُعِمْ مَخُولٍ
 أَخُوَالِهِ لِلرَّسْتَمِينَ بِفَارِسٍ وَجَدُوْدُهُ لِلتَّبَعِينَ بِمُوكَلٍ
 يَهْوِي كَاهُوتِ الْعُقَابِ وَقَدْرَاتٍ صَيْدًا، وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
 مَتَوَجَّسٍ بِرَقِيقَتَيْنِ كَأَنَّمَا تُرَيَانٍ مِنْ وَرَقٍ عَلَيْهِ مَكَلَلٍ
 مَا إِنْ يَعَافُ قَدَى وَلَوْ أوردته يَوْمًا خِلَاقٌ تَحْدُوِيهِ الْأَحُولُ
 ذَنْبٌ كَمَا سَحَبَ الرَّشَاءُ يَذْبُ عَنْ عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْعُدَاعِ الْمَسْبَلِ
 جَذَلَانُ يَنْفُضُ عُذْرَةً فِي غُرْتِهِ يَقِي تَسِيلَ حَجْوِهَا فِي جَنْدَلٍ
 كَالرَّائِحِ النَّشْوَانِ أَكْثَرُ مَشِيهِ عَرْضًا عَلَى السَّنَنِ الْبَعِيدِ الْأَطُولِ
 ذَهَبُ الْأَعَالَى حَيْثُ تَذْهَبُ مَقْلَةٌ فِيهِ بِنَظَرِهَا حَدِيدُ الْأَسْفَلِ
 هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَفَمَاتِهِ نَهْرَاتُ مَعْبِدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
 مَلَكُ الْقُلُوبِ، فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيَنَّهُ نَظَرَ الْحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمَقْبَلِ

ألا تراه كيف استطرد بذكر تحدويه الأحوال الكاتب ، وكأنه لم يقصد ذلك ؛
 ولا أراد أن يجرته القافية ، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس ؛ ولو أقسم إنسان أنه
 ما بنى القصيدة منذ افتتحها إلا على ذكره ، ولذلك أتى بها على روى اللام ، لكان
 صادقاً . فهذا هو الاستطراد .

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنك في التخلّص متى شرعت في ذكر المدح

أو المهجو تركت ما كنت فيه من قبل بالسكّية وأقبلت على ما تخلصت إليه من المديح
والهجاء بيتا بعد بيت ؛ حتى تنقضى القصيدة ، وفي الاستطراد تمرّ على ذكر الأمر الذي
استطردت به مروراً كالبرق الخاطف ؛ ثم تتركه وتنسأه ، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك
لم تقصد قصدَ ذلك ، وإنما عرض عروضا . وإذا فهمت الفرق فاعلم أن الآيات التي تلونها
إذا حققت وأمعنت النظر ، من باب الاستطراد ، لا من باب التخلص ، وذلك لأنه
تعالى قال بعد قوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وَقَطَعْنَا لَهُمُ
أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ
وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَآلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ . فعاد إلى ما كان فيه أولا ، ثم مرّ في هذه القصة ، وفي أحوال
موسى وبنى إسرائيل حتى قارب الفراغ من السورة .

ومن لطيف التخلص الذي يكاد يكون استطرادا ، لولا أنه أفسده بالخروج إلى
المدح ، قول أبي تمام في قصيدته التي يمدح بها محمد بن المهيم التي أولها :

أَسْقَى طُلُوبَهُمْ أَجَشُّ هَزِيمُ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ ^(٢)
ظَلَمْتُكَ ظَلَمَةُ الْبَرَى ظُلُومُ وَالظُّلْمُ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ مَذْمُومُ
رَزَعَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ مِنْهَا طُلُوبٌ بِاللَّوَى وَرِسُومُ

(١) سورة الأعراف ١٥٨ - ١٦٠ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ .

لا والذي هو عالمٌ أن النوى صَبْرٌ وأن أبا الحسين كريمٌ
 ما حُلْتُ عَمَّا تمهدين ولا غَدْتُ^(١) نفسي على ألفٍ سـ وَاكِ تحومُ
 فلو أتممتُ مفزلاً لكان مستطرداً لا محالة ، ولكنه نقض الاستطراد ، وغمس يده في
 المدح ، فقال بعد هذا البيت :

محمد بن الهيثم بن شُبَّانَةَ مجذٌ إلى جنب السماك مقيمٌ
 ملك إذا نَسِبَ الندى من مُلْتَمَى طَرَفِيهِ فهو أخٌ له وَحِيمٌ
 ومضى على ذلك إلى آخرها .

ومن الاستطراد أن يحتال الشاعر لذكر ما يروم ذكره ، بوصف أمر ليس من
 غرضه ، ويدمج الغرض الأصلي في ضمن ذلك وفي غرضه ؛ وأحسن ما يكون ذلك إذا
 صرح بأنه قد استطرد ونص في شعره على ذلك ، كما قال أبو إسحاق الصابى في أبيات
 كتبها إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة ، كتبها إليه إلى شيراز
 وأبو إسحاق في بغداد ، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكرمان وما والاها
 متواصلة مترادفة إلى العراق ، وكتب عبد العزيز واصله بها إلى عز الدولة بختيار والصابى
 يجيب عنها :

يارا كَبَ الْجُسْرَةَ العَيْرَانَةَ الأَجْدِ يَطْوِي المَهَامَةَ من سهل إلى جَلَدِ
 أبلغ أبا قاسمٍ - نفسى الفداه له - مقالةً من أخٍ للحقٍّ معتمدِ
 فى كلِّ يومٍ لكم فتحٌ يُشَادُّ به بين الأنام بذكر السيِّدِ العضدِ
 وما لنا مثله لَكُنَّا أبداً نجيبكم بجواب الحاسدِ الكيدِ
 فأنت أكتب منى فى الفتوح وما تجرى مجيباً إلى شأوى ولا أمدى

(١) الديوان :

* ما زلتُ عن سننِ الودادِ ولا غَدْتُ *

وما ذمّتُ ابتدأني في مكاتبةٍ ولا جوابكم في القرب والبُعدِ
لكنتي رمت أن أثني على مَلِكٍ مستطردٍ سديح فيه مطرِدِ
ولقد ظرُف ومُلح أبو إسحاق في هذه الأبيات ، ومتى خلا أو عَرى عن الظرف
والملاحه ، ولقد كان ظرفا ولباقة كله !

وليس من الاستطراد ما زعم ابن الأثير الموصلي في كتابه المسمى ” بالمثل ^(١) السائر “ ، أنه
استطرد ؛ وهو قول بعض شعراء الموصل يمدح قرواش بن المقلد ، وقد أمره أن يعث بهجاء
وزيره سليمان بن فهد ، وحاجبه أبي جابر ومثنيه المعروف بالبرقيدي ، في ليلة من ليالي الشتاء
وأراد بذلك التعابة والولع بهم ، وهم في مجلس في شراب وأنس ، فقال وأحسن
فيما قال :

وليل كوجه البرقيدي ظلمة وبرد أغانيه وطول قرونيه
سريت ونومي فيه نومٌ مشردٌ كعقل سليمان بن فهدٍ ودينه
على أولقي فيه التفات كأنه أبو جابر في خبطه وجنونه
إلى أن بدا ضوه الصبح كأنه سفا وجه قرواش وضوء جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كل واحد منهم ، ووضع الأبيات لذلك ، وأمره
قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك ، فهجاءهم ومدحه ولم يستطرد . وهذه الأبيات تشبيهات
كلها مقصود بها الهجاء ، لم يأت بالعرض في الشعر كما يأتى الاستطراد .
وهذا غلط من مصنف الكتاب .

(١١٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ بُعْثَةٍ ؛ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا ،
وَعَرَّتْ بِزِيْنَتِهَا . دَارُهَا نَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا ، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا ، وَحَيَاتُهَا
بِمَوْتِهَا ، وَخُلُوعُهَا بِمِرِّهَا . لَمْ يُصْنَفْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ ، وَلَمْ يَصْنَعْ بِهَا عَنْ أَعْدَائِهِ .
خَيْرُهَا زَهِيدٌ ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ ، وَمُسْلِكُهَا يُسْلَبُ ، وَعَامِرُهَا يَخْرُبُ . فَمَا
خَيْرُ دَارٍ تَنْقُضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ ، وَتَعْمُرُ بِنَفْسِ الْفَنَاءِ ، وَمَدَّةُ تَنْقِطِعُ أَنْقِطَاعِ
السَّيْرِ !

أَجْمَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبَتِكُمْ ، وَأَسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ كَمَا سَأَلَ لَكُمْ ،
وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ إِذَا نَكَمْتُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْعِيَ بِكُمْ .
إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبَسَّكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ
فَرَحُوا ، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اغْتَبَطُوا بِمَا رَزَقُوا .
قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ ، وَحَضَرَ تَكْمُ كَوَاذِبُ الْأَمَالِ ، فَصَارَتْ
الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ
إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ؛ مَا فَارَقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْتُ السَّرَائِرِ ، وَسُوءُ الظَّمَائِرِ ؛ فَلَا
تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ ، وَلَا تَبَازِلُونَ وَلَا تَوَاضَعُونَ .

مَا بَالُكُمْ تَفَرَّحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُذَرِّكُمْ كُونُهُ ، وَلَا يَحْزُنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنْ
الْآخِرَةِ يُحْزِمُونَهُ ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ ؛ حَتَّى يَدْبِينَ ذَلِكَ فِي

وَجُوهِكُمْ، وَقَلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زَوَىٰ مِنْهَا عَنْكُمْ أَكْأَنَّهُا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَقَاعَهَا
بَاقٍ عَلَيْكُمْ.

وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْنَيْهِ؛ إِلَّا تَخَافُهُ أَنْ
يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ.

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْأَجْلِ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لِنُفْعَةٍ عَلَى
لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَخْرَزَ رِضًا سَيِّدِهِ.

الشَّيْخُ :

قوله عليه السلام : « فَإِنِهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ » بضم القاف وسكون اللام، أى ليست
بمستوطنة . ويقال : هذا مجلس قُلْعَةٍ ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة .
ويقال : هم على قُلْعَةٍ ، أى على رحلة ، ومن هذا الباب . قولهم : فلان قُلْعَةٌ ، إذا كان
ينقلع عن سرجه ، ولا يثبت في البطش والصراع ، والقُلْعَةُ أيضا : المسال العارية ، وفي
الحديث : « بُئِسَ الْمَسَالُ الْقُلْعَةُ ».

والنتيجة : طلب الكَلَأِ في موضعه ، وفلان ينتجع الكَلَأَ ، ومنه انتجعت فلانا ،
إذا أتيتَه تطلب معروفه .

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى ، فقال : « من هوانها أنه خَلَطَ حلالها بحرماها... »
الكلام ، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة ، فإن تلك صفوكلها وخيركلها ؛
وهذه مشوبة ؛ والسكدر والشر فيها أغلب من الصَّقْوِ والخير . ومن كلام بعض الصالحين :
من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها . وروى :
« ولم يرضَ بها على أعدائه » ، والرواية المشهورة « عن أعدائه » ، وكلاهما مستعمل .

والزهيد : القليل ، والعتيد : الحاضر . والسير : سير المسافر .

ثم أمرهم بأن يعملوا الفرائض الواجبة عليهم من جُملة مطلوباتهم ، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم ، أى كما ألزمهم وافترض عليهم ، فسمى ذلك سؤالاً لأجل المفاصلة بين اللفظين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾^(١) ، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله : « فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا » وكما قال الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا . فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(٢)

ثم أمرهم أن يُسمِعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت ، فيجَلَّ بهم . ومثل قوله : « تبكى قلوبهم وإن ضحكوا » قول الشاعر ، وإن لم يكن هذا المقصِد بعينه قصد :

كَمْ فَاقَّةٌ مُسْتَوْرَةٌ بِمُرُوءَةٍ وَضُرُورَةٌ قَدْ غُطِّيَتْ بِتَجَمُّلٍ
وَمِنْ ابْتِسَامٍ تَحْتَهُ قَلْبٌ شَجِيحٌ قَدْ خَامَرَتْهُ لُوعَةٌ مَا تَفْجَلِي

والقت : البغض : واغتبطوا : فرحوا .

وقوله : « أملك بكم » مثل « أولى بكم » . وقوله : « والعاجلة أذهب بكم من الآجلة » أى ذهبت العاجلة بكم واستولت عليكم أكثر مما ذهبت بكم الآخرة ، واستولت عليكم .

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فِطْرَةٍ واحدة ، وهى دين الله وتوحيده ؛ وإنما اختلفوا وتفرقتوا باعتبار أمر خارجى عن ذلك ؛ وهو خبث سرائرهم وسوء ضمائرهم ، فصاروا إلى حالٍ لا يتوازرون ، أى لا يتعاونون ، والأصل الهمز ، آزرته ، ثم تقلب الهمزة واوا ، وأصل قوله : « فلا توازرون » « فلا تتوازرون » لحذفت إحدى النوائين ، كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾^(٣) ، أى لا تتناصرون ، والتبادل : أن يوجد بعضهم على بعض بماله ويبدله له .

(١) سورة الشورى ٤٠ . (٢) لعمر بن كلثوم ، من المعلقات بشرح التبريزى ٢٣٨ .

(٣) سورة الصافات ٢٥ .

ومثل قوله عليه السلام « ما بالكم تفرحون بكذا ، ولا تحزنون لكذا ، ويقلقكم
اليسير من الدنيا بفوتكم » من هذا قول الرضى رحمه الله :
نقصُ الجديدين من عمرى يزيدُ على ما ينقصُ على الأيام من مالى ^(١)
دهرٌ تؤثرُ فى جسمى نوائبه — فما اهتممُ أنْ أودى بسرِّالى
والضمير فى « يخاف » راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له ؛ أى ما يخافه الأخ من
مواجهته بعينه .

قوله : « وصارَ دينُ أحدكم لُعْمَةً على لسانه » أخذَه الفرزدق ، فقال للحسين بن عليّ
عليه السلام ، وقد لقيَه قادمًا إلى العراق ، وسأله عن الناس : « أمّا قلوبهمُ فمَعك ، وأمّا
سيوفهمُ فمَعليك ، والدينُ لُعْمَةٌ على ألسنتهم ، فإذا امتحنوا قلَّ الديّانون » ، واللفظة مجازة ،
وأصل اللُعْمَة شيء قليل يُؤخذ بالملعقة من الإناء ، يصف دينهم بالزّارة والقلة كملك
اللُعْمَة ؛ ولم يمنع بأن جعله لُعْمَة حتى جعله على ألسنتهم فقط ، أى ليس فى قلوبهم .

(٤) ديوانه ، لوحة ١٥٠ ؛ من قصيدة يرثى فيها صديقاً له .

(١١٣)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنَّعَمِ ، وَالنَّعَمَ بِالشُّكْرِ ؛ نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ ؛ كَمَا
نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ ، وَنَسْتَغِيثُهُ عَلَى هَذِهِ الْقُفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ ، السَّرَّاعِ إِلَى
مَانُهِيتٍ عَنْهُ . وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ ، وَأَخْصَاهُ كِتَابُهُ ؛ عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ ؛
وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيْمَانٌ مِنْ عَايِنِ الْغُيُوبِ ، وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ ؛
إِيْمَانًا نَفَى إِخْلَاصَهُ الشُّرْكَ ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهِادَتَيْنِ تَضَعِدَانِ الْقَوْلَ ،
وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ ؛ لَا يَخِفُ مِيزَانُ تَوْضَعَانِ فِيهِ ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانُ تَرْفَعَانِ مِنْهُ .

أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ ؛ زَادٌ مُبْلِغٌ ، وَمَعَادٌ
مُنْجِصٌ ؛ دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ ، وَوَعَاَهَا خَيْرُ دَاعٍ ؛ فَأَسْمَعُ دَاعِيَهَا ، وَفَازَ وَاعِيَهَا .
عِبَادَ اللَّهِ ؛ إِنْ تَقَوَّى اللَّهُ حَتَّى أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَحَارَمَهُ ، وَالزَّامَتِ قُلُوبُهُمْ تَحَافَتَهُ ؛ حَتَّى
أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ ؛ وَأَظْلَمَاتِ هَوَاجِرُهُمْ ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ، وَالرَّيَّ بِالظُّلْمِ ،
وَأَسْتَقَرُّوا الْأَجَلَ ، فَبَادَرُوا الْعَمَلَ ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ ، فَلَا حَظَّوَا الْأَجَلَ .
ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ ، وَغَيْرِ وَعَبْرٍ ؛ فَمِنْ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتَرٌ ^(١) قَوْسُهُ ،
لَا تُخْطِئُ سِيهَامُهُ ، وَلَا تُؤَسِّي جِرَاحَهُ ، بِرُمِي الْحَيِّ بِالمَوْتِ ، وَالصَّحِيحِ بِالسَّقَمِ ،
وَالنَّاجِيِ بِالعَطَبِ ؛ آكِلٌ لَا يَشْبَعُ ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ . وَمِنْ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ

(١) مخطوطة النهج : « موتر » بالتشديد .

مَالًا يَا كُلُّ، وَيَبْنِي مَالًا يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لَا مَالًا حَلَّ، وَلَا
بِنَاءً نَقَلَ.

وَمِنْ غَيْرِهَا أَنْكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نِعْمًا
زَلَّ، وَبُؤْسًا نَزَلَ.

وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورًا جَلِيلًا؛ فَلَا أَمَلٌ يَذْرُكُ،
وَلَا مُوَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا عَزَّ سُرُورُهَا، وَأَظْهَرَ رِيَّهَا، وَأَضْحَى فَيْئَهَا
لَا جَاءَ بُرْدٌ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ؛ فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلْحَاقِقِ
بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِبَشَرٍ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا
نَوَابُهُ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ
أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ؛ فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنْ الْعَيْنِ الْخَبَرُ.
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ
وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَسَكِّمُوا مِنْ مَنَقُوصٍ رَابِحٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!

إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نَهَيْتُمْ عَنْهُ، وَمَا أَحَلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا
حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ، قَدْ تَكْفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ،
وَأَمَرْتُمْ بِالْعَمَلِ؛ فَلَا يَسْكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلِبُهُ أَوْ لِي بِسْكُنٍ مِنَ الْفَرُوضِ عَلَيْكُمْ
عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَدَخَلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَانَتْ أَلَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ
قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَانَ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وَضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ،
يَخَافُوا بَقْعَةَ الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ، مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ.
مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَدًا زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يَرْجَ الْيَوْمَ

رَجَعْتُمْ . الرَّجَاءُ مَعَ الْجَانِي ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي ، فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ !

الشيخ

لقائل أن يقول : أمّا كونهُ واصل الحمد له من عباده بالنعم منهم عليهم فمعلوم ؛ فكيف قال : إنه يصلُ النعم المذكورة بالشكر ، والشكر من أفعال العباد ؛ وليس من أفعاله ليكون واصلًا للنعم به !

وجواب هذا القائل ، هو أنه لما وفق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقررًا ، وبعد أن أقدرهم عليه ، صار كأنه الفاعل له ، فأضافه إلى نفسه توسعًا ، كما يقال : أقام الأمير الحدّ ، وقتل الوالي اللصّ ؛ فأما حمدُ سبحانه على البلاء كحمده على الآلاء فقد تقدّم القول فيه . ومن الكلام المشهور : « سبحانه من لا يحمّد على المكروه سواء » ، والسرّ فيه أنه تعالى إنما يفعلُ المكروه بنا لمصلحتنا ، فإذا حمّدناه عليه فإنما حمدناه على نعمة أنعم بها ، وإن كانت في الظاهر بليّة وألماً .

فإن قلت : فقد كان الأحسن في البيان أن يقول : « نحمده على بلائه ، كأنحمده على آلائه » . قلت : إنما عكس لأنه جاء باللفظين في معرض ذكر النعم والشكر عليها ، فاستهجن أن يلقبها بلفظة الحمد على البلاء للمنافرة التي تكون بينهما ، فقال : نحمده على هذه الآلاء التي أشرنا إليها ؛ التي هي آلاء في الحقيقة . وهذا ترتيب صحيح منظم .

ثم سأل الله أن يعينه على النفس البطيئة عن المأمور به ، السريعة إلى المنهى عنه . ومن دعاء بعض الصالحين : اللهم إني أشكو إليّ بعض عدوّ بين جنبيّ قد غلب عليّ .
وفسر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلَظَةً ﴿١﴾ قالوا : أراد مجاهدة النفوس .
ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « أبت الأنفس إلا حبَّ المال والشرف ، وإنَّ
حبَّهما لأذهبُ بدين أحدكم من ذنُوبين ضاريَّين باناً في زريبة غنم إلى الصباح ، فماذا
يبقيان منها !

ثم شرع في استغفار الله سبحانه من كلِّ ذنب ، وعبر عن ذلك بقوله : « ممَّا أحاط به
علمه ، وأحصاه كتابه » ؛ لأنه تعالى عالم بكلِّ شيء ، ومحيط بكلِّ شيء ؛ وقد أوضح ذلك
بقوله : « علم غير قاصر ، وكتاب غير مغادر » ، أى غير مبقٍ شيئاً لا يحصىه ، قال تعالى :
﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصَاهَا ﴾ (٢) .

ثم قال : « ونؤمن به إيمان من عاين وشاهد » ، لأنَّ إيمان العيان أخلصُ
وأوثق من إيمان الخبر ، فإنه ليس الخبر كالعيان ؛ وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو
عليه السلام سيدهم ورئيسهم ؛ ولذلك قال : « لو كشف الغطاء ما ازدتُ يقيناً » .
وقوله : « تُسعدان القول » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٣) وروى : « تسعدان القول » بالسین ، أى هما شهادتان
بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان ، ويُسعدانها .

ثم ذكر أنَّهما شهادتان لا يخف ميزانُهما فيه ، ولا يثقل ميزانُ رُفعا عنه .
أمَّا إنه لا يثقل ميزانُ رُفعا عنه ؛ فهذا لا كلام فيه ؛ وإنما الشأن في القضية الأولى ، لأنَّ
ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلق ؛ وهم أصحاب مقاتل بن سليمان ، القائلون إنَّه
لا يضرُّ مع الشهادتين معصية أصلاً ، وإنَّه لا يدخل النَّارَ مَنْ في قلبه ذرَّة من الإيمان ،

(١) سورة التوبة ١٢٣

(٢) سورة الكهف ٤٩

(٣) سورة فاطر ١٠ .

ولهم على ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتبنا الكلامية ، فنقول في تأويل ذلك إنه لم يحكم بهذا على مجرد الشهادتين ، وإنما حَكَمَ بهذا على شهادتين مقيدتين ، قد وصفهما بأنهما يصعدان القول ، ويرفعان العمل ، وتأنك الشهادتان المقيدتان بذلك الفيد ، إنما هما الشهادتان اللتان يقارنهما فعل الواجب وتجنب القبيح ، لأنه إن لم يقارنهما ذلك لم يرفع العمل ، وإذا كان حكمه عليه السلام بعد خفة ميزان هافيه ، إنما هو على شهادتين مقيدتين لا مطلقتين ، فقد بطل قول من يجعل هذا الكلام حجة للمرجئة .

ثم أخذ في الوصاة بالتقوى ، وقال إنما الزاد في الدنيا الذي يزود منه لسفر الآخرة وسها المعاذ ، مصدر من عذت بكذا ، أى لجأت إليه واعتصمت به .
ثم وصفهما - أعنى الزاد والمعاذ - فقال : « زاد مُبْلَغ » ، أى يبلغك المقصد والغاية التي تسافر إليها ، ومعاذ منجج ، أى يصادف عنده الفجاء .

دعا إليها أسمع داع : يعنى البارئ سبحانه ؛ لأنه أشد الأحياء إسماعا لما يدعوهم إليه وبناء « أفعل » هاهنا من الرباعى ، كما جاء ما أعطاه المال ؛ وما أولاه المعروف ؛ وأنت أكرم لى من زيد ، أى أشد إكراما ؛ وهذا المكان أفقر من غيره ، أى أشد إفقارا ، وفى المثل « أفلس من ابن المذلق » ^(١) ، وروى : « دعا إليها أحسن داع » ، أى أحسن داع دعا ، ولا بد من تقدير هذا المميز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن ، وإنما بوصف بالحسن أفعاله .

ووعاها خير واع ، أى من وعها عنه تعالى وعقلا وأجاب تلك الدعوة ، فهو خير واع .
وقيل : عنى بقوله : « أسمع داع » رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعنى بقوله : « خير واع » نفسه ، لأنه أنزل فيه : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ ^(٢) والأول أظهر .

(١) فى الإقاموس : « وابن المذلق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليله ، ولا أبوه ولا أجداده ، فقيل : « أفلس من ابن المذلق » .
(٢) سورة الحاقة ١٢

ثم قال : « فاسمع داعيها » أى لم يبق أحداً من المكلفين إلا وقد أسمعه تلك الدعوة وفازوا عليها ، أفلح من فهمها وأجاب إليها ، لا بد من تقدير هذا ؛ وإلا فأى فوز يحصل لمن فهم ولم يجب ! والتقوى : خشية الله سبحانه ومراقبته فى السر والعلن ، والخشية أصل الطاعات ، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾ ^(١) وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(٢) . قوله : « حتى أسهرت ليااليهم ، وأظلمات هواجرهم » من قول العرب « نهارة صائم ، وليله قائم » ؛ نقلا الفعل إلى الظرف ، وهو من باب الاتساع الذى يحرون فيه الظروف مجرى المفعول به ، فيقولون : الذى سهرته يوم الجمعة ، أى سرت فيه ، وقال :

* ويوم شهدناه سليما وعامرا ^(٣) *

أى شهدنا فيه سليما ، وقد اتسعوا فأضافوا إلى الظروف فقالوا :

* يا سارق الليلة أهل الدار ^(٤) *

وقال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ^(٥) فأخرجوهما بالإضافة عن الظرفية . قوله عليه السلام : « فأخذوا الراحة النصب » يروى : « فاستبدلوا الراحة » والنصب : التعب . واستقربوا الأجل : رأوه قريبا .

فإن قلت : لماذا كرر لفظة « الأجل » ، وفى تكرارها مخالفة لغير البيان ؟ قلت : إنه استعملها فى الموضعين بمعنىين مختلفين ، فقوله : « استقربوا الأجل » يعنى المدة . وقوله : « فلا حظوا الأجل » يعنى الموت نفسه .

(٢) سورة الطلاق ٢

(١) سورة الحجرات ١٣

(٣) الكتاب ١ : ٩ ، ونسبه لبعض بنى عامر ، وبقيته :

* قليل سوى طعن النهار نوافله *

(٤) الكتاب لسيديويه ١ : ٨٩ ، ونسبه إلى بعض الرجاز .

(٥) سورة سبأ ٣٣ .

ويروى : « موتّر » و « وموتّر » بالتشديد . ولا تؤسّى جراحه : لانطبّ
ولا تصلح ، أسوت الجرح ، أى أصلحته ، ولا ينقع : لا يروى ؛ شرب حتى نفع ، أى شفى
عليه ، وماء نافع ؛ وهو كالنّاجع ، وما رأيتُ شربة أنفع منها .

وإلى قوله عليه السلام : « يجمع ما لا يآكل ، ويبني ما لا يسكن » نظر الشاعر ، فقال :
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيهـ
وقال آخر :

أَلَمْ تَرَ حَوْشَبَا أَمْسَى يَبْنِي بِنَاءَ نَفْعِهِ لِبْنَى بُقَيْلَةَ
يُؤْمَلُ أَنْ يَمُوتَ عَمْرُ نُوحٍ وَأَمَرَ اللَّهُ بِطَرِيقِ كُلِّ لَيْلَةٍ

قوله : « ومن غيرها أنك ترى المرحوم مغبوطا والمغبوط مرحوما » ، أى يصير الفقير غنيا
والغنى فقيرا ، وقد فسره قوم فقالوا : أراد أنك ترى مَنْ هو فى باطن الأمر مرحوم ، مغبوطا ،
وترى مَنْ هو فى باطن الأمر مغبوط ، مرحوما ، أى تحسب ذاك وتفخّيلة ؛ وهذا التأويل
غير صحيح ، لأن قوله بعده : « ليس ذلك إلا نعيما زلّ ، وبؤسا زلّ » ، يكذب به وبصدق
التفسير الأول .

وأضحى فيئها ، من أضحى الرجل إذا برز للشمس . ثم قال : « لاجاء يردّ ولا ماضٍ
يرتد » أى يسترد ويسترجع ، أخذه أبو العتاهية فقال :

فلا أنا راجعٌ ما قد مضى لي ولا أنا دافعٌ ما سوف يأتى
وإلى قوله : « ما أقرب الحى من الميت للحاقه به ، وما أبعد الميت من الحى
لانقطاعه عنه » نظر الشاعر ، فقال :

يا بعيدا عني وليس بعيداً من لحاقى به سميع قريب

صِرْتُ بين الورى غريبا كما أنتك تحت الثرى وحيد غريب
فإن قلت : ما وجه تقسيمه عليه السلام الأمور التي عدّها إلى الفناء والعناء ،
والغير والعبر ؟

قلت : لقد أصاب الشّجرة وطَبَقَ المفصل ؛ ألا تراه ذكر في الفناء رَمَى الدهر الإنسان
عن قَوْس الردى ، وفي العناء جَمَعَ مالا يأكل ، وبناء مالا يسكن ، وفي الغير الفقر بعد الغنى
والغنى بعد الفقر ، وفي العبر افتطاع الأجل الأمل ؛ فقد ناط بكلّ لفظة ما يناسبها .
وقد نظر بعض الشعراء إلى قوله عليه السلام : « ليس شيء بشرّ من الشرّ لإعقابه ،
وليس شيء بخير من الخير لإثوابه » فقال :

خير البضائع للإنسان مكرُمة تنمى وتزكو إذا بارت بضائعه
فالخير خيرٌ ، وخير منه فاعله والشرّ شرّ ، وشرّ منه صانعه

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب ، والشاعر جعل مكانهما
فاعل الخير والشرّ .

ثم ذكر أن كلّ شيء من أمور الدنيا المرغوبة والمريّة ، سماعه أعظم من عيانه ،
والآخرة بالعكس ؛ وهذا حقّ ؛ أما القضية الأولى فظاهرة ، وقد قال القائل :

أهتزّ عند تمنّى وصلّ لها طرباً وربّ أمنية أخلى من الظّفر

ولهذا يحريص الواحد منا على الأمر ، فإذا بلغه برّد وفتر ، ولم يجده كما كان يظنّ في
اللذة . ويوصف لنا البلد البعيد عتاً بالخصب والأمن والعدل ، وسماح أهله ، وحسن نسائه ،
وظرف رجاله ، فإذا سافرنا إليه لم نجدّه كما وصّف ؛ بل ربما وجدنا القليل من ذلك ، ويوصف
لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم ، ويبالغ الواصفون في ذلك . فإذا
اختبرناه وجدناه دون ما وصّف ؛ وكذلك قد يخاف الإنسان حبسا أو ضربا أو نحوهما فإذا

وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه ، ووجد الأمر دون ذلك ، وكذلك القتل والموت ؛ فإنّ ما يستعظمه الناس منهما دون أمرهما في الحقيقة ، وقد قال أبو الطيب - وهو حكيم الشعراء :

كُلّ ما لم يكن من الصّعب في الآثام نفس سهلٌ فيها إذا هو كانا^(١)
ويقال في المثل: ليج الخوف تأمن. وأما أحوال الآخرة فلا ريب أنّ الأمر فيها بالضدّ من ذلك ؛ لأنّ الذي يتصوره الناس من الجنة، أنّها أشجار وأنهار وما كول ومشروب، وجماع، وأمرها في الحقيقة أعظم من هذا وأشرف ، لأنّ ملاذها الروحانية المقارنة لهذه الملاذ المضادة لها أعظم من هذه الملاذ بطبقات عظيمة ، وكذلك أكثر الناس يتوهمون أنّ عذاب النار يكون أياما وينقضي ؛ كما يذهب إليه المرجئة، أو أنه لا عذاب بالنار لمسلم أصلا ؛ كما هو قول الخليل من المرجئة، وأنّ أهل النار يألون عذابها فلا يستصرون به إذا تطاول الأمد عليهم ؛ وأمر العذاب أصعب مما يظنون ؛ خصوصا على مذهبنا في الوعيد ؛ ولو لم يكن إلّا آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها ، فإنّ ذلك أعظم من ملاقات جرم النار لبدن الحيّ .

وفي هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة ، ليس هذا الكتاب موضوعا لها .
ثم أمرهم بأن يكتفوا من عيان الآخرة وغيبها بالسماع والخبر ، لأنّه لا سبيل ونحن في هذه الدار إلى أكثر من ذلك .

وإلى قوله : « ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة ؛ خيرٌ مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا » نظر أبو الطيب ، فقال ، إلّا أنّه أخرجه في مخرج آخر :

بلاد ما اشتبهت رأيت فيها فليس يفوتها إلا كرام^(٢)

(١) ديوانه ٤ : ٢٤١

(٢) ديوانه ٤ : ٧٣

فهلاً كان نقصُ الأهل فيها وكان لأهلها منها التَّمامُ !

ثم قال : « فكم من منقوص في دنياء وهو راجح في آخرته ، وكم من مزيد في دنياء وهو خاسر في آخرته » . ثم قال : « إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتهم عنه ، وما أحلَّ لكم أكثر مما حرَّم عليكم » ؛ الجملة الأولى هي الجملة الثانية بعينها ، وإنما أتى بالثانية تأكيداً للأولى وإيضاحاً لها ، ولأنَّ فنَّ الخطابة والكتابة هكذا هو ، وينتظم كلتا الجملتين معنى واحد ، وهو أنَّ فيما أحلَّ الله غنىً عمَّا حرَّم ، بل الحلالُ أوسع ؛ ألا ترى أنَّ المباح من المأكول والمشروب أكثرُ عدداً وأجناساً من المحرَّمات ! فإنَّ المحرَّم ليس إلاَّ السُّكَب والخنزير وأشياء قليلة غيرهما ، والمحرَّم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر ؛ وما عدا ذلك حلالٌ أكله وشربه ، وكذلك القول في النكاح والتسرُّى ، فإنَّهما طريقان مهيَّمان إلى قضاء الوطر ، والسَّفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد .

فإن قلت : فكيف قال : « إنَّ الذي أمرتم به » فسَمَّى المباح مأموراً به ؟

قلت سَمَّى كثير من الأصوليين المباح مأموراً به ، وذلك لاشتراكه مع المأمور به في أنَّه لا حرج في فعله ، فأطلق عليه اسمه . وأيضاً فإنه لَمَّا كان كثير من الأمور التي عدناها مندوباً أطلق عليه لفظ الأمر ، لأنَّ المندوب مأمور به ؛ وذلك كالنكاح والتسرُّى وأكل اللحوم ؛ التي هي سبب قوة البدن ، وشرب ما يصلح المزاج من الأشربة التي لا حرج في استعمالها . وقال بعض العقلاء لبنيهِ : يا بني ؛ إنه ليس كل شيء من اللذة ناله أهلُ الخسارة بخسارتهم إلَّا ناله أهلُ المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم ؛ فاستتروا بستر الله ودخل إنسان على عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، وعليه ثياب مرتفعة القيمة ؛ فقال : يا بن رسول الله ، أتلبس مثل هذا ؟ فقال له : مَنْ حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق !

ثم أمر بالعمل والعبادة ، ونهى عن الحرص على طلب الرزق ، فقال : إنكم أمرتم بالأول وضمن لكم الثانى ؛ فلا تجعلوا المضمون حصوله لكم هو المخصوص بالحرص والاجتهاد ؛ بل ينبغي أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة . وقد يتوهم قوم أنه ارتفع « طلبه » بـ « المضمون » ؛ كقولك : المضروب أخوه ؛ وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبه ، وإنما ضمن حصوله ؛ ولكنه ارتفع ؛ لأنه مبتدأ وخبره أولى ؛ وهذا مبتدأ والخبر فى موضع نصب ، لأنه خبر « يكون » أو ارتفع لأنه بدل من « المضمون » ؛ وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول ؛ وهو بدل الاشتمال .

ثم ذكر أن رجعة العمر غير مرجوة ، ورجعة الرزق مرجوة ؛ أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستهيمضه ؛ أى يكتسب عوضه فى الغد ديناراً ، وأما « أمس » نفسه فستحيل أن يعود ولا مثله ، لأن الغد وبعد الغد محسوب من عمره ؛ وليس عوضاً من أمس الذاهب . وهذا الكلام يقتضى أن العمر مقدور ، وأن المكاسب والأرزاق إنما هى بالاجتهاد ، وليست محصورة مقدرة ، وهذا يناقض فى الظاهر ما تقدم من قوله : « إن الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه » ، فاحتاج الكلام إلى تأويل ، وهو أن العمر هو الظرف الذى يوقع المكلف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى ، الخالصة له من الشقاوة العظمى ؛ وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصة ، فكل جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت ، فقد فات على الإنسان بفوائده ما لا سبيل له إلى استدراكه بعينه ولا اغترام مثله ، لأن المثل الذى له إنما هو زمان آخر ، وليس ذلك فى مقدور الإنسان ، والزمان المستقبل الذى يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه ، فيقال : إنه حصله عوضاً مما انقضى وذهب من عمره ؛ وإنما هو فعل غيره ؛ ومع ذلك فهو معد ومهيأ لأفعال من العبادة توقع فيه ، كما كان الجزء الماضى معداً لأفعال

توقع فيه ، فليس أحدهما عوضاً عن الآخر ولا قائماً مقامه ، وأما المنافع الدنيوية كالنساء كل والمشارب والأموال ، فإن الإنسان إذا فاتته شيء منها قدّر على ارتجاعه بعينه ، إن كانت عينه باقية ، ومالا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله ، والرزق وإن كان مضموناً من الله إلا أن للحركة فيه نصيباً ، أما أن يكون شرطاً أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان ، كحركته واعتماده وسائر أفعاله ، ويكون الأمر بالتوكّل والنهي عن الاجتهاد في طلب الرزق على هذا القول ، إنما هو نهى عن الحرص والجشع والتهالك في الطلب ؛ فإن ذلك قبيح يدلّ على دناءة الهمة وسقوطها .

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب ، لأن الأمر الذي يراد الذاهب له يمكن حصوله بهذا المكتسب ؛ وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر ، لأن العبادات والأعمال التي كان أمس متعينا لها ، لا يمكن حصولها اليوم ، على حدّ حصولها أمس ، فافترق البابان : باب الأعمال ، وباب الأرزاق .

وقوله : « الرجاء مع الجأئ ، واليأس مع الماضي » ، كلام يجري مجرى المثل ، وهو تأكيد للمعنى الأول ، وجعل الجأئ مرجوّاً لأنه لا يعلم غيبه ، قال الشاعر :

مَاصِي فَاتَ وَالْمَقْدَّرُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وقوله : « حقّ ثقافته » ، أي حقّ تقيّته ، أي خوفه ، اتقى بتقى تقيّة وتقاة ، ووزنها « فُعلة » وأصلها الياء ، ومثلها أُنْخِمَ تَخْمَةٌ : واتهم تهمّة .

(١١٤)

ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء :

الأنزل :

اللَّهُمَّ قَدْ أَنْصَحْتُ جِبَالَنَا، وَأَغْبَرْتُ أَرْضَنَا، وَهَامَتِ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا،
وَعَجَّتْ بِحَيْجِ الشَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُّدُ فِي مَرَانِعِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا !
اللَّهُمَّ فَارْحَمْنَا أَنْ نَبْذُرَ الْآلَةَ، وَحَيْنَ الْخَانَةَ !

اللَّهُمَّ فَارْحَمْنَا حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَيْنِيهَا فِي مَوَالِجِهَا !
اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ أَعْتَسَكْرَتْ عَلَيْنَا حَدَايِدُ السَّنِينَ، وَأُخْلَفَتْنا تَحَايِلُ
الْجُودِ؛ فَكُنْتَ الرَّجَاءَ الْمُبْتَدِئِ، وَالْبَلَاغَ الْمُنْتَهَى .

نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ؛ أَلَّا تُوَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا؛
وَلَا تَتَأْخِذَنَا بِذُنُوبِنَا؛ وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبِيعِ، وَالرَّبِّيعِ الْمَغْدِقِ،
وَالغَبَاتِ الْمُوَفِّقِ، سَحًّا وَابِلًا، تُخَيِّرُ بِهِ مَاقِدَّ مَاتَ، وَتَرْدُّ بِهِ مَاقِدَّ قَاتَ .

اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُجِيَّةً مُرَوِّجَةً، تَامَةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَدِيَّةً مَرِيَّةً مَرِيَّةً،
زَاكِيَةً نَبِيَّةً، ثَامِرًا فَرْعُهَا، نَاضِرًا وَرَقُهَا، تُدْمِشُ بِهَا الضَّعِيفُ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُخَيِّرُ بِهَا
الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ !

اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعَشِّبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتُجَرِّى بِهَا وَهَادُنَا، وَيُخَصِّبُ بِهَا جَنَابُنَا،
وَتَقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعْمِشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا؛
مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ الرُّمَلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ
عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَارًا هَاطِلَةً، يَدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطَرُ مِنْهَا

الْقَطَرِ ، غَيْرَ خَلْبٍ بَرَقُهَا ، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا ، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا ، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا ،
حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَأَةٍ الْمُجْدِبُونَ ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْتَبُونَ ؛ فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ
مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ أَوْلَى الْخَمِيدِ .

قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى :

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنْصَا حَتَّ جِبَالُنَا » ، أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ الْمَحُولِ ، يُقَالُ : أَنْصَا حَ
الْتَوْبُ ، إِذَا أَنْشَقَ . وَيُقَالُ أَيْضًا : أَنْصَا حَ النَّبْتُ ، وَصَا حَ وَصَوَّحَ ؛ إِذَا جَفَّ وَيَدْرَسَ ؛
كُلُّهُ بِمَعْنَى .

وَقَوْلُهُ : « وَهَامَتْ دَوَابُّنَا » أَيْ عَطِشَتْ ، وَالْهَيْامُ : الْعَطَشُ .
وَقَوْلُهُ : « حَدَايِيرُ السَّنِينَ » ، جَمْعُ حَدَابِيرٍ ؛ وَهِيَ الْفَاقَةُ الَّتِي أَنْصَاهَا السَّيْرُ ؛ فَشَبَّهَ
بِهَا السَّنَةَ الَّتِي فَشَلَّ فِيهَا الْجُدْبُ ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ :
حَدَايِيرُ مَا تَنْفَكُ إِلَّا مُنَاخَاةٌ عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَزَمِي بِهَا بَلَدًا قَفْرًا (١)
وَقَوْلُهُ : « وَلَا قَزَعٌ رَبَابُهَا » ، الْقَزَعُ : الْقِطْعُ الصَّغِيرُ الْمُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ .
وَقَوْلُهُ : « وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا » فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ : « وَلَا ذَاتَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا » ، وَالشَّفَّانُ
الرَّيْحُ الْبَارِدَةُ ، وَالذَّهَابُ : الْأَمْطَارُ اللَّيِّنَةُ ، فَحُذِفَ « ذَاتُ » لِعِلْمِ السَّامِعِ بِهِ .

(١) ديوانه ١٧٣ ، وروايته : « حراجيج ما تنفك » .

البَشْرُ :

يجوز أن يريد بقوله : « وهامت دوابنا » معنى غير ما فسّره الشريف الرضى رحمه الله به ، وهو نُدُوذها وذهابُها على وجوهها لشدة المَحَل ، يقول : هام على وجهه ، يهيم هَيْمًا وَهَيْمَانًا .

والمرابض : مبارك الغنم ، وهى لها كالمواطن للإبل ، واحدها مَرَبِضٌ ، بكسر الباء مثل مجلس . وَجَّتْ : صرخت . ويحتمل الضمير فى « أولادها » أن يرجع إلى الشكالى ، أى كمجيج الشكالى على أولادهن ، ويحتمل أن يرجع إلى الدواب ، أى وَجَّتْ على أولادها كمجيج الشكالى ، وإِنَّمَا وصفها بالتجثير فى مَرَابِضها ، لأنها أشدة المَحَل فتجثير فى مباركها ، ولا تدرى ماذا تصنع ؛ إن نهضت لترعى لم تجد رعيًا ، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادّة أقرب !

قوله : « وملتّ التردد فى مراتعها ، والحنين إلى مواردها » ، وذلك لأنها أكَثَرَتْ من التردد فى الأماكن التى كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعا ، فملتّ التردد إليها ، وكذلك ملتّ الحنين إلى الغدران والموارد التى كانت تعتادها للشرب ، فإنّها حنّت إليها لما فقدتها ، حتى ضجرت ويئست فملتّ مما لا فائدة لها فيه .

والآنة والحانة : الشاة والناقة ، ويقال : ماله حانة ولا آنة . وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوصب ، يقال : أن يئنّ أنينا وأنانا وتأنانا .

والمواج : المداخل ؛ وإِنَّمَا ابتدأ عليه السلام بذكر الأنعام وما أصابها من الجذب اقتفاءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولعادة العرب ، أما سنة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال : « لولا البهائم الرّاع ، والصبيان الرّضع ، والشيوخ الرّكع ، لصبّ

عليكم العذاب صَبًا ، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم في صلاة الاستسقاء . وتقدير دعائه عليه السلام : اللَّهُمَّ إِن كُنْتَ حَرَمْتَنا الغيث لسوء أعمالنا ، فارحم هذه الحيوانات التي لَا ذَنْبَ لها ، وَلَا تَتَوَاخِذُهَا بِذُنُوبِنَا . وأما عادة العرب فإنهم كانوا إذا أصابهم المخل استسقوا بالبهائم ، ودعوا الله بها واسترحموه لها ؛ ومنهم من كان يجعل في أذنان البقر السَّلْعَ والعُشْرَ^(١) ، ويصعد بها في الجبال والتلاع العالية ، وكانوا يُسْقَوْنَ بذلك ؛ وقال الشاعر :

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيِّقُورًا مَسْلَمَةً ذَرِيعةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ^(٢)
فَاعْتَكِرْتَ : رَدِفَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَأَصْلُ عَكَّرَ عَطَفَ . والعَكْرَةُ . السَّكْرَةُ ، وفي الحديث : قال له قوم : يا رسول الله ، نحن الْفَرَارُونَ . فقال : « بَلْ أَنْتُمْ الْمَكَّارُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ »^(٣) .

والبيت الذي ذكره الرضیَّ رحمه الله لدى الرِّمَّةِ ، لَا أعرفه إِلَّا « حَرَّاجِيحَ » ، وهكذا رأيته بخط ابن الخشاب رحمه الله ، والحَرْجُوجُ : الناقَةُ الضَّامِرَةُ في طول . وفيه مسألة نحوية ، وهي أَنَّهُ كَيْفَ نَقَضَ النَّفْيَ من « مَا تَنْفَكُ » وهو غير جائز ، كما لَا يجوز ما زال زَيْنًا إِلَّا قَائِمًا ؟ وجوابها أَنَّ تَنْفَكَ هَاهُنَا تَامَّةٌ ، أَي مَا تَنْفَصِلُ ، ومناخة منصوب على الحال .

قوله : « وَأَخْلَفْتُمَا خَيْلَ الْجُودِ » ، أَي كَلَّمَا شَيْئًا بَرَقًا ، واختلنا سحابة ، أَخْلَفْنَا ولم يمطر . والجود : المطر الغزير . ويروى : « مَخَايِلُ الْجُودِ » بالضم .

(١) السِّلْعُ : نبات ، وقيل : شجر مرّ . والعشْر : شجر من العضاء ، وله صمغ حلو .
(٢) اللسان ١٠ : ٢٥ ، ونسبه إلى الورك الطائى .
(٣) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢٠ ؛ قال في شرحه : « أَي السَّكْرَارُونَ إلى الحرب ، والمطافون نحوها ؛ يقال للرجل الذى يولى عن الحرب ثم يكر راجعاً إليها : عَكَرَ واعتَكَر » .

والمبتئس : ذو البؤس . والبلاغ للمبتئس ، أى الكفاية للطلاب .
وتقول : قنط فلان ، بالفتح ، يقنط ويقنط ، بالكسر والضم ، فهو قانط . وفيه
لغة أخرى قنط بالكسر ، يقنط قنطا ، مثل تعب يتعب تعباً ، وقنطة أيضاً ، فهو
قنط . وقرئ : ﴿ وَلَا تَسْكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ ﴾ ^(١) .

وإنما قال : « وَمَنْعَ الْغَنَامِ » ؛ فبني الفعل للمفعول به ؛ لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله
تعالى ، وهو بمنع النعم ، فاقتضى حسن الأدب أنه لم يسم الفاعل . وروى « مَنْعُ الْغَنَامِ » ،
أى وَمَنْعُ الْغَنَامِ الْقَطَر ، فحذف المفعول . والسوام : المال الراعى .
فإن قلت : ما الفرق بين « تَوَاخَذْنَا » وبين « تَأْخَذْنَا » ؟
قلت : المؤاخذة دون الأخذ ؛ لأن الأخذ الاستئصال ، والمؤاخذة عقوبة
وإن قلت .

والسحاب المدهق : المتبعج بالمطر ، ومثله المتبعق ، ومثله البُعاق . والربيع المغدق :
الكثير . والنبات المونق : المعجب .

وانتصب « سَحَا » على المصدر . والوايل : المطر الشديد .
ثم قال : « تُحْيِي بِهِ مَاقِدَمَات » ، أى يكاد يتلف بها من الزرع . وترد به ماقدمات ،
أى يستدرك به الناس مافاتهم من الزرع والحراث .

والسقي مؤنثة ؛ وهى الاسم من سَقَى . والمربعة : الخصبية .
و « ثامراً فرعها » : ذو ثمر ، كما قالوا : لابن وتامر ؛ ذو لبن وتمر .
وتنمش : ترفع . والنجد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض . والوهاد : جمع وهْد ،
وهو المظمن منها ؛ وروى : « نَجَادَنَا » بالنصب على أنه مفعول .

قوله : « وتندى بها أقاصينا » ، أى الأبعاد مِنّا . ويندى بها : ينتفع ، ندّيت بكذا ، أى انتفعت .

والضواحي : النواحي القريبة من المدينة العظمى . والمرملة : الفقيرة ، أرمل افتقر ونفد زاده . ووحشك المهمة : التى لا راعى لها ولا صاحب ولا مشفق .

وسماء مَخْضَلَةٌ : تُخْضِلُ النبت أى تبهّله ، وروى : «مَخْضَلَةٌ» أى ذات نبات وزروع مَخْضَلَةٌ ؛ يقال : اخضَلَّ النبت اخضلالا ، أى ابتلّ ؛ وإنما أنث السماء وهو المطر وهو مذكّر ، لأنه أزداد الإمطار . والودق : المطر . ويحْفِز : يدفع بشدّة ؛ وإذا دفع القطر القطر ، كان أعظم وأغزر له .

وبرق خُلب : لا مطر معه ، وسحاب جَهَام : لا ماء فيه . والمجدّيون : أهل الجذب . والمستنقون الذين أصابهم السّنة وهى المخل والقحط الشديد .

[صلاة الاستسقاء وآدابها]

واعلم أنّ صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سُنّة .
وقال أبو حنيفة : لا صلاة للاستسقاء . قال أصحابه : يعنى ليست سُنّة فى جماعة ، وإنما يجوز أن يصلّى الناس وحّدا ، قالوا : وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستنفار .
وقال باقى الفقهاء كالشافعى وأبى يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك . قالوا : وقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس جماعة فى الاستسقاء ، فصلّى ركعتين ، جهر بالقراءة فيهما وحول رداءه ورفع يديه واستسقى . قالوا : والسنة أن يكون فى المصلّى ، وإذا أراد الإمام الخروج لذلك وعظ الناس ، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ، لأنّ ذلك يمنع القطر .

قالوا : وقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إذا بُحِسَ المسكِيال حُبِسَ القطر .
وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَيَلْعَنَهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ ^(١) ، قال : دواب الأرض تلغسهم ،
يقولون : مُنِعْنَا القطر بخطايهم .

قالوا : ويأمر الإمام الناس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج ، ثم يخرج في اليوم الرابع
وهم صيام ويأمرهم بالصدقة ، ويستسقى بالصالحين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه
وآله كما فعل عمر ، ويحضر معه أهل الصلاح والخير ، ويستسقى بالشيوخ والصبيان .
واختلفوا في إخراج البهائم ، فمنهم من استحب ذلك ، ومنهم من كرهه . ويكره
إخراج أهل الدمة ، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا . والغسل والسواك في صلاة
الاستسقاء عندهم مسنونان ، ولا يستحب فيهما التطيب ، لأن الحال لا يقتضيه .
وينبغي أن يكون الخروج بتواضع وخشوع وإخبات ، كما خرج رسول الله صلى الله
عليه وآله للاستسقاء .

قالوا : ولا يؤذن لهذه الصلاة ولا يقام ، وإنما ينادى لها : الصلاة جامعة وهي
ركعتان كصلاة العيد ، يكبر في الأولى سبع تكبيرات ، وفي الثانية خمس تكبيرات .
قالوا : ويخطب بعد الصلاة خطبتين ، ويكون دعاء الاستسقاء في الخطبة الأولى .
قالوا : فيقول : اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، هنيئا مريئا ، غدا جلالا طبعًا ، سحًا
دائمًا . اللهم اسقنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهم إن بالعباد والبلاد من الأواء
والضنك والجهد مالا نشكوه إلا إليك . اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ،
واسقنا من بركات السماء . اللهم اكشف عنا الجهد والجوع والعمرى ، واكشف عنا
مالا يكشفه غيرك . اللهم إنا نستغفرك ؛ إنك كنت غفارًا ، فأرسل السماء
علينا مدرارًا .

قالوا : ويستحب أن يستقبل القبلة في أثناء الخطبة الثانية ، وبحول رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن تفاؤلاً بتحول الحال . وكذا روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله فعل ، ويستحب للناس أن يحولوا أرديتهم مثله ، ويتركوها كما هي ، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلا إذا رجعوا إلى منازلهم .

ويستحب أن يدعو في الخطبة الثانية سرّاً فيجمع بين الجهر والسر ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمْتُ لَهُمْ وَأَمَرَزْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ ، وكنهه تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾^(٢) . قالوا : ويستحب رفع اليد في هذا الدعاء ، وأن يكثر من الاستغفار لقوله تعالى : ﴿ أَسْتَغْفِرُكَ رَبِّكَمُ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾^(٣) ، فإن صلّوا واستسقوا فلم يسقوا عادوا من الغد ، وصلّوا واستسقوا ، وإن سقوا قبل الصلاة صلّوا شكراً وطلباً للزيادة .

قالوا : ويستحب أن يقفوا تحت المطر حتى يصيبهم ، وأن يحسروا له عن رءوسهم ؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله حسر عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء .

ويستحب إذا سال الوادي أن يفتسلوا فيه ، ويتوضئوا منه .

وقد استحب قوم من الفقهاء أن يخرج الناس للاستسقاء حفاة حاسرين ، والأكثر على خلاف ذلك .

فأما مذهب الشيعة في هذه المسألة فإن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين ، فيكبّر الله مائة تكبيرة ، ويرفع بها صوته ويكبّر من حضر معه ، ثم يلتفت عن يمينه فيسبح الله مائة تسبيحة ، ويرفع بها صوته ، ويسبح معه من حضر ، ثم يلتفت عن يساره فيهلل الله

(١) سورة نوح ٩

(٢) سورة الأنعام ٦٣

(٣) سورة نوح ١٠ ، ١١

مائة مرة يرفع بها صوته ، ويقول من حضر مثل ذلك ، ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيحمد الله مائة مرة ، يرفع بها صوته ويقول معه مَنْ حضر مثل ذلك ؛ ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام في الاستسقاء ، فإن لم يتمكن منها اقتصر على الدعاء .

[أخبار وأحاديث في الاستسقاء]

وجاء في الأخبار الصحيحة رؤيا رقيقة في الجاهلية ؛ وهي رقيقة بنت أبي صيفي ابن هاشم بن عبد مناف^(١) ، قالت رقيقة : تنابعت على قريش سنون أقحلت^(٢) الضرع وأرقت العظم ، فبينما أنا راقدة^(٣) - اللهم - أو مهومة^(٤) [ومعى صِنوى]^(٥) ، إذا أنا بهاتف صيت^(٦) يصرخ بصوت صجل^(٧) : يامعشر قريش ؛ إن هذا النبي المبعوث فيكم قد أظلتكم أيامه ، وهذا إبان نجومه^(٨) ؛ فخيلاً^(٩) بالخصب والحيا^(١٠) . ألا فانظروا رجلاً منكم عظاماً جساماً^(١١) ، أبيض بضاً ، أو طف الأهداب^(١٢)

(١) وكانت لدة عبد المطلب بن هاشم .

(٢) أقحلت ، من قحلت فحولاً ، وقحلت قحلاً إذا يبس .

(٣) الرقود : النوم بالليل المستحكم الممتد ؛ ومنه قولهم : طريق مرقد ؛ إذا كان بيناً ممتداً .

(٤) هوموا وتهوموا ؛ إذا هزوا هامهم من النعاس .

(٥) من الفائق .

(٦) الصيت : فيعل ، من صاب يصوت وبصات كالليت من مات ، ويقال في معناه : صائت وصات ومصوات .

(٧) الصجل : الذي في صوته ما يذهب بجذته ؛ وهو مستلذ في السمع .

(٨) إبان نجومه : وقت ظهوره ، وهو فعْلان ، من أب الشيء إذا تهيأ .

(٩) غيلاً ، بألف مزيدة ، ويجوز التنوين والتنكير ، أي عجلاً .

(١٠) الحيا : المطر ؛ لأنه حياة الأرض .

(١١) الفائق : طوالاً .

(١٢) أو طف الأهداب : طويلاً .

سَهْل الخدين ؛ أَشَمَّ العَرْنَيْن ، له سُنَّةٌ ^(١) تَهْدِي إِلَيْهِ . أَلَا فَلْيَخْلُصْ ^(٢) هُوَ وَوَلَدُهُ ،
وَلْيَدْلِفْ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ . أَلَا فَلْيَسْتُنُوا ^(٣) عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ ، وَلْيَسْئُوا مِنَ الطَّيِّبِ ؛
وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ سَبْعًا ؛ وَلْيَكُنْ فِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ [لِدَاتِهِ] ^(٤) . فَلْيَسْتَقِ الرِّجْلُ ،
وَلْيُؤْمِنِ الْقَوْمُ . أَلَا فَفِثْمٌ ^(٥) إِذَا مَا شِئْتُمْ .

قَالَتْ : فَأَصْبَحْتُ — عِلْمُ اللَّهِ — مَذْعُورَةٌ قَدْ ^(٦) قَفَّ جِلْدِي ، وَوَلَّيَ عَقْلِي ، فَأَقْتَصَصْتُ
رُؤْيَايَ عَلَى النَّاسِ ، فَذَهَبَتْ فِي شِعَابِ مَكَّةَ ؛ فَوَ الْحَرَمَةِ وَالْحَرَمِ ؛ إِنْ بَقِيَ أَبْطَحِي إِلَّا
وَقَالَ : هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ ^(٧) .

فَتَنَامَتْ ^(٨) رِجَالُ قَرِيشٍ ، وَانْقَضَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، فَشَنُّوا عَلَيْهِمْ مَاءً ،
وَمَسَّوْا طَيِّبًا ، وَاسْتَلَمُوا وَأَطَوْفُوا ، ثُمَّ ارْتَقَوْا أَبَا قُبَيْسٍ ، وَطَفِقَ الْقَوْمُ يَدْفُونَ حَوْلَ ^(٩)
عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، مَا إِنْ يُدْرِكُ سَمْعِهِمْ مَهْلُهُ ^(١٠) ؛ حَتَّى اسْتَقَرُّوا بِذِرْوَةِ الْجَبَلِ ،
وَاسْتَكْفَوْا ^(١١) جَانِبِيهِ .

فَقَامَ فَاعْتَضَدَ ابْنُ ابْنِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَرَفَعَهُ عَلَى عَاتِقِهِ ؛ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ غُلَامٌ

(١) الفائق : « له فخر » .

(٢) فليخلص : فليتميز هو وولده من الناس .

(٣) شن الماء : صبّه على رأسه .

(٤) زيادة من الفائق ؛ قال في شرحه : « يعني أن مولده وموالده من مضي من آبائه كلها موصوف بالظهر والزكاة ، أو يراد أترابه ، وذكر الأتراب أسلوب من أساليبهم في تثبيت الصفة وتمكينها » .

(٥) غثم : مطرتم .

(٦) قف شعري : تقبض .

(٧) قال الزمخشري : اسم عبد المطلب عامر ؛ ولأنما قيل له شيبه الحمد لشيبه كانت في رأسه ؛ وعبد المطلب ، لأن هاشمًا تزوج سلمى بنت زيد النجارية ، فولدته ، فلما توفي هاشم وشب الغلام انتزعه المطلب عمه من أمه ، وأردفه على راحلته ، وقدم به مكة . فقال الناس : أردف المطلب عبده .

(٨) التمام : التوافر .

(٩) الدفيف : الممر السريع .

(١٠) المهل ، بالإسكان : التؤدة ؛ أي لا يدرك لسراعتهم لإبطاءه .

(١١) استكفوا : أحذقوا ؛ من الكفة وهي ما استدار .

قد أَيْفَعُ أَوْ كَرَبٌ^(١)، ثم قال : اللهم سادَّ الخَلَّةَ ، وكاشفَ الكُربةَ ، أنتَ عالمٌ غيرُ مُعَلَّمٍ ،
ومستولٍ غيرِ مَبْتَخَلٍ ، وهذه عِبْدَاؤُكَ^(٢) وإِماءُكَ بعذاراتٍ^(٣) حَرَمِكَ ، يشكونَ إليك
سَنَتَهُمُ التي أَذهبتِ الخُلفَ والظُلْفَ ، فاسمِنَ اللهم ، وأمطِرِنَا علينا غيثًا مُفْدِقًا مَرِيحًا
سَحًّا طَبَقًا درا ٥ .

قالت : فوَرَبَّ السَّكْبَةِ ماراموا حتى انفجرت السماءُ بِمائها واكتظَّ الوادى بِشَجِيحِهِ^(٤)
وانصرف الناسُ يقولون لعبدِ المطلب : هنيئًا لك سيدَ البطحاء !
وفي رواية أبي عبيدة معمر بن المثنَّى قال : فسمعنا شَيْخَانِ^(٥) قريشٍ وجَلَّتْهَا :
عبدُ الله بن جُدعانٍ وحَرْبُ بن أمية وهشام بن المغيرة ، يقولون لعبدِ المطلب : هنيئًا
لك ، أبا البطحاء^(٦) !

وفي ذلك قال شاعر من قريش وقد روى هذا الشعر لرقية :

بشِيبَةِ الحُمْدِ اسْقَى اللهُ بِلَدَتِنَا وقد فَقَدْنَا الحَيَاَ واجلُوذَ المَطَرِ^(٧)
فجَادَ بالمَاءِ وسمى لَهُ سَبِيلَ سَحًّا ، فعاشت به الأنعام والشجر^(٨)

وفي الحديث من رواية أنس بن مالك : أصابَ أهلَ المدينة قَحْطٌ على عهد رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فقام إليه رجل وهو يخطب يومَ جمعة ، فقال : يا رسول الله ، هَلَاكَ
الشَّاءُ ، هَلَاكَ الزَّرْعُ^(٩) ، ادعُ اللهَ لنا أن يسقينا ، فمدَّ عليه السلام يده ، ودعا واستسقى ،

(١) كَرَب ، أى قرب من الإيقاع .

(٢) العبداء والعبدى : العبيد .

(٣) العذرات : جمع العذرة ؛ وهى الفناء .

(٤) الشجيج : المنجوج ، أى المصبوب .

(٥) الشبخان : جمع شيخ ، كالضيفان فى جمع ضيف .

(٦) الخبر فى الفائق ٢٠ : ٣١٤ - ٣١٧ .

(٧) اجلُوذُ المطر ، أى امتد وقت تأخره وانقطاعه .

(٨) سبيل : أى مطر جود هائل .

(٩) سنن أبي داود : « هَلَاكَ السَّكْرَاعُ ، هَلَاكَ الشَّاءُ » .

وإن السماء كمثل الزجاجة ، فهاجت ريح ثم أنشأت سحابا ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت عزاليها^(١) ، فخرجنا نخوض المساء حتى أتينا منازلنا ، ودام القطر . فقام إليه الرجل في اليوم الثالث . فقال : يا رسول الله ، تهدمت البيوت ، ادع الله أن يحبسها عنا . فنبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم رفع يده : وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » . قال أنس : فو الذي بعث محمداً بالحق ، لقد نظرتُ إلى السحاب ، وإنه لقد انجأَ حول المدينة كالإكليل^(٢) .

وفي حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرنُ الشمس ، فقع على المنبر ، وحمد الله وكبره ، ثم قال : إنكم شكوتُم جذبَ دياركم ، وقد أمركم الله أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيبَ لكم فادعوه . ثم رفع صوته فقال : « اللهم إنك أنت الغنى ، ونحن الفقراء ، فأنزل علينا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهم اجعل ما تنزله علينا قوةً لنا ، وبلاغاً إلى حين ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين » . فأنشأ الله سحابا ، فعدتْ وبرقت ، ثم أمطرت ، فلم يأت عليه السلام منزله ، حتى سألت السيول ، فلما رأى سرعتهن إلى السكن ضحك حتى بدت نواجذه ، وقال : أشهد أني عبد الله ورسوله ، وأن الله على كل شيء قدير^(٣) .

ومن دعائه عليه السلام في الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم : « اللهم اسقنا وأغننا ، اللهم اسقنا غيثا مُغيثا ، وحيّا ربيعاً ، [وجدأ]^(٤) ، طَبَقاً ، غَدَقاً مُغْدَقاً^(٥) ، مَوْثِقاً^(٦) عامّاً ،

(١) العزالي في الأصل : جنح عزلاء ، وهو مصب الماء من الراوية ، ويريد شدة وقع المطر ، على التشبيه .

(٢) الحديث في سنن أبي داود ١ : ٤١٦ ، مع اختلاف في الرواية .

(٣) الحديث في سنن أبي داود ١ : ٤١٦ ، مع اختلاف الرواية أيضاً .

(٤) من الفائق ، والجدأ : والطبق مثله .

(٥) المغدق : الكثير المطر .

(٦) مَوْثِقاً : معجباً .

هنيئاً مريئاً ، مَرِّمًا مَرِّبًا^(١) مرتعاً^(٢) ، وابلاً سابلًا^(٣) مسيلاً ، مجللاً^(٤) ، درأً ، نافعا غير ضارٍّ ، عاجلاً غير راثٍ^(٥) . غيثاً - اللهم - تحيى به العباد ، وتغيث به البلاد ، وتجعله بلاغاً للحاضر متناً والباد ؛ اللهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها ، وأنزل علينا فى أرضنا سكنها . اللهم أنزل علينا ماء طهوراً ، فأحى به بلدة ميتاً ، واسقه مما خلقت لنا أنعاماً وأناسى كثيراً^(٦) .

* * *

وروى عبد الله بن مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقى بالعباس ، فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وقفية^(٧) آبائه^(٨) وكثير رجاله ، فإنك قلت ، وقولك الحق : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ... ﴾ الآية ، فحفظتهما لصالح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه فقد دلونا به إليك مستشفعين ومستغفرين . ثم أقبل على الناس ، فقال : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً .

قال ابن مسعود : رأيت العباس يومئذ وقد طال عمر ، وعينه تنضحان ، وسبائبه تجول على صدره ؛ وهو يقول : اللهم أنت الراعى فلا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار مضية ، فقد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى . اللهم أغثهم بغيثك من قبل أن يفتنوا فيهلكوا ، إنه لا يئأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون^(٩) .

(١) المريع : ذو المراعة ؛ وهى الخصب . والمريع : الذى يربهم عن الارتداد ؛ من ربت بالمكان وأربى . (٢) المرتع : اللبث ما يرتع فيه .

(٣) السابل ، من قولهم : سبل سابل ؛ أى مطر ماطر .

(٤) المجلل : الذى يجلل الأرض بمائه أو بنباته .

(٥) الراث : البطىء . (٦) الفائق للزخمرى ١ : ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٧) قفية آبائه : تلوم وتابهم . (٨) كبر قومه : أقدم فى النسب .

(٩) الخبر فى الفائق ٢ : ٣٦٦ .

قال : فنشأت طريرة^(١) من سحاب ، وقال الناس : ترون ترون ! ثم تلاءمت واستنمت
ومشت فيها ريح ، ثم هدّت^(٢) ودرّت ، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية ، وقلّصوا
المآزر ، وطقق الناس يلوذون بالعباس ، يسحون أركانه ويقولون : هنيئنا لك ساقى
الحرمين^(٣) .

(١) الطريرة : تصغير طرة ، وهى القطعة المستطيلة من السحاب ؛ شبهت بطرة الثوب .
(٢) هدّت من الهدّة ؛ وهى صوت ما يقع من السماء .
(٣) قال الزمخشري : « سقى ساقى الحرمين بهذه السقيا » .

(١١٥)

الأنزل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْخَلْقِ ، وَشَهِيدًا عَلَى الْخَلْقِ ، فَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، غَيْرَ وَانٍ
وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَجَاهِدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ ، إِمَامٌ مَنِ اتَّقَى ، وَبَصَرٌ
مَنِ اهْتَدَى .

الشرح :

قوله : « وشاهدا على الخلق » ، أى يشهد على القوم الذين بعث إليهم ، وشهد لهم ،
فيشهد على العصاة بالمعصيات والخلاف ، ويشهد للمطيعين بالإطاعة والإسلام ، وهذا من
قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ^(١) ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ ^(٢) .
فإن قلت : إذا كان الله تعالى عالماً بكل شيء ، ومالكاً لكل أحد ، فأى حاجة
إلى الشهادة ؟

قلت : ليس بمفكرٍ أن يكون في ذلك مصلحة للمكلفين في أديانهم ، من حيث إنه
قد تقرر في عقول الناس ، أن مَنْ يقوم عليه شاهد بأمرٍ مفكرٍ قد فعله ، فإنه يخزى

(١) سورة النساء ٤١ .

(٢) سورة المائدة ١١٧ .

ويخجل وتقطع حجته ، فإذا طرق أسماعهم أن الأنبياء تشهد عليهم ، والملائكة الحافظين
تكتب أعمالهم ، كانوا عن مواقعة القبيح أبعد .
والوأي : الفاتر الكال . والواهن : الضعيف .
والمعذر : الذي يعتذر عن تقصيره بغير عذر ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ
الْأَعْرَابِ ﴾ ^(١) .

الأفضل :

منها :

وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أُعْلِمَ مِمَّا طَوَّيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ ؛ إِذَا تَخَرَّجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ ؛
تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكَتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ
لَهَا ، وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَلَهَمَّتْ كُلُّ أَمْرِي مِنْكُمْ نَفْسُهُ ؛ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا ؛
وَلَسَكُنَّكُمْ نِسِيَتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ ، فَنَاءَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَنَشْتِ
عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ .

وَلَوِ دِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ ؛
قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينَ الرَّأْيِ ، مَرَّاجِيحُ الْحُلُمِ ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، مَتَارِكُ اللَّبْغِ ، مَضَوَا
قَدَمًا عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ ، وَالْكَرَامَةِ
الْبَارِدَةِ .

أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفُ الذِّبَالِ الْمَيْالِ ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ ،
وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ . إِيَّاهُ أَبَا وَذَحَةَ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

أَلْوَذَحَة : أَلْخَنَفَسَاءُ ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ يُؤَمِّىُّ بِهِ إِلَى الْحَجَّاجِ ، وَلَهُ مَعَ أَلْوَذَحَة حَدِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

* * *

الْيَنْحُ :

الصعيد : التراب ، ويقال : وَجْهُ الْأَرْضِ ، وَالْجَمْعُ صُعْدُوصُودَات ، كَطَرِيقٍ وَطَرُوقٍ وَطَرُوقَات . وَالْإِلْتِدَامُ : ضَرْبُ النَّسَاءِ صَدُورَ مَنْ فِي النَّيَاحَةِ . وَلَا خَالَفَ عَلَيْهَا : لَا مُسْتَخْلَفَ .

قوله : « وَلَهْمَتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسَهُ » ، أَيْ أَذَابَتْهُ وَأَمْلَحَتْهُ ، هَمَمْتُ الشَّعْمَ ، أَيْ أَذْبَنَهُ . وَيُرْوَى : « وَلَاهَمْتُ كُلَّ امْرِئٍ » وَهُوَ أَصَحُّ مِنَ الرَّوَايَةِ الْأُولَى ؛ أَهْمَنِي الْأَمْرَ ، أَيْ أَحْزَنَنِي .

وتأه عن فلان رأيه ، أَيْ عَزَبَ وَضَلَّ .

ثم ذكر أنه يودّ ويتمنى أن يفرّق الله بينه وبينهم ، ويلحقه بالنبي صلى الله عليه وآله وبالصالحين من أصحابه ، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممن كان أمير المؤمنين يثنى عليه . ويحمد طريقته من الصحابة . فضوّأ قُدُماً ، أَيْ مُتَقَدِّمِينَ غَيْرَ مُعَرَّجِينَ وَلَا مُعَرِّدِينَ^(١) .

وأوجفوا : أَسْرَعُوا . وَيُقَالُ : غَنِيمَةٌ بَارِدَةٌ وَكَرَامَةٌ بَارِدَةٌ ، أَيْ لَمْ تَوْخِذْ بِحَرْبٍ وَلَا عُسْفٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْكَنْسَبَ بِالْحَرْبِ جَارٍ فِي الْمَعْنَى لِمَا يَلَاقِي وَيَعَانِي فِي حَصُولِهِ مِنَ الْمُشَقَّةِ .

وغلام ثقيف المشار إليه ، هُوَ الْحَبِجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ . وَالذَّيَالُ : التَّائِهَ ، وَأَصْلُهُ مِنَ « ذَال » أَيْ تَبَخَّرَ ، وَجَرَّ ذَيْلَهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَالْمِيَالُ : الظَّالِمُ .

وَيَأْ كُلَّ خَضِرَتٍ سَكَمَ : يَسْتَأْصِلُ أَمْوَالَكُمْ . وَيَذِيبُ شَحْمَتَكُمْ مِثْلَهُ ؛ وَكَلَّمَا اللَّفْظَتَيْنِ اسْتِعَارَةً .

(١) يُقَالُ : عَرَدَ الرَّجُلُ عَنْ قَرْنِهِ ؛ إِذَا أَحْجَمَ وَنَسَكَ .

ثم قال له كالمخاطب لإنسان - ضر بين يديه : « إيه أبأوذحة » ، إيه كلمة يُستزاد بها من الفعل ، تقديره : زدوها أيضا ماعندك ، وضدّها إيه ، أى كفت وأمسكت .
قال الرضى رحمه الله : والوذحة الخنفساء ؛ ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب ، ولا وجدته في كتاب من كتب اللغة ، ولا أدري من أين نقل الرضى رحمه الله ذلك !
ثم إن المفسرين بعد الرضى رحمه الله قالوا في قصّة هذه الخنفساء وجوهاً :
منها أن الحجاج رأى خنفساء تدبّ إلى مصلاه ، فطردّها فعاادت ، ثم طردّها فعاادت ، فأخذها بيده ، وحذف بها ، فقرصته قرصاً ورمّت يده منها وربما كان فيه حتفه ، قالوا : وذلك لأن الله تعالى قتله بأهون مخلوقاته ؛ كما قتل عمرو بن كعبان بالبقّة التي دخلت في أنفه ، فكان فيها هلاكه .

ومنها أن الحجاج كان إذا رأى خنفساء تدبّ قريبة منه ، يأمر غلامه بإبعادها ، ويقول : هذه وذحة من وذح الشيطان ، تشبيهاً لها بالبعرة ، قالوا : وكان مفرّجاً بهذا القول ، والوذح : ما يتعلق بأذنان الشاة من أبعادها فيجفف .

ومنها أن الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات : وأعجبنا لمن يقول إن الله خلق هذه ! قيل : فمن خلقها أيها الأمير ؟ قال : الشيطان ، إن ربكم لأعظم شأنًا أن يخلق هذه الودح ! قالوا : فجمعها على « فَعَلَ » كبَدَنَة وبدَن ، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره ، فأكفروه .

ومنها أن الحجاج كان مثفارا^(١) ، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشتفي بحركتها في الموضع حكاكه . قالوا : ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شائناً مبغضاً لأهل البيت . قالوا : ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء ، وإنما قلنا : كلّ من فيه هذا الداء فهو مبغض . قالوا : وقد روى أبو عمر الزاهد - ولم يكن من رجال الشيعة - في أماليه وأحاديثه عن السياريّ

(١) رجل مثفار : نمت سواه .

عن أبي خزيمة السكاتب ، قال : ما فتشنا أحدا فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصبيا .

قال أبو عمر : وأخبرني العطافي عن رجاله ، قالوا :

سئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصنف من الناس ، فقال رحم منكوسة يؤتى ولا يأتي ، وما كانت هذه الخصلة في ولي الله تعالى قط ؛ ولا تكون أبدا ، وإنما تكون في الكفار والفاسق والناصب للطاهرين .

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي من القوم ؛ وكان أشد الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، قالوا : ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر : يامُصَفَّرَ اسْتِه^(١) .

فهذا مجموع ما ذكره المفسرون ، وما سمعته من أفواه الناس في هذا الموضع ، ويغلب على ظني أنه أراد معنى آخر ؛ وذلك أن عادة العرب أن تكنى الإنسان إذا أرادت تعظيمه بما هو مظنة التعظيم ، كقولهم : أبو الهول ، وأبو المقدام ، وأبو للفوار ، فإذا أرادت تحقيره والغض منه كنتته بما يستحق ويستهان به ، كقولهم في كنية يزيد بن معاوية : أبو زنة ، يعنون القرد ، وكقولهم في كنية سعيد بن حفص البخاري المحدث : أبو الفار ، وكقولهم للطفيلي : أبو لقمة ، وكقولهم لعبد الملك : أبو الذبان لبخره ، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء :

فأنت لعمرى أبو جعفرٍ ولكننا نختلف الغناء منه

وقال أيضا :

لثيم دَرِنُ الثوبِ نظيف القعب والقدرِ
أبو الفتن ، أبو الدفرِ ، أبو البعر ، أبو الجعرِ

فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم من حال الحجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب ؛

(١) انظر اللسان - صفر .

التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشاء ، كناه « أبو وذحة »
ويمكن أيضاً أن يكنيه بذلك لدمامته في نفسه ، وحقارة منظره ، وتشويه خلقته ، فإنه
كان قصيراً دميماً نحيفاً ، أخفش العينين معوج الساقين ، قصير الساعدين ، مجدور الوجه ،
أصلع الرأس ، فكناه بأحقر الأشياء ، وهو البعرة .

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى ، فقالوا : « إيه أبأودجة » ؛ قالوا : واحدة
الأوداج ، كناه بذلك لأنه كان قتالاً يقطع الأوداج بالسيف ، ورواه قوم « أبأوحرة »
وهي دويبة تشبه الحزباء قصيرة الظهر ؛ شبهه بها .
وهذا وما قبله ضعيف ، وما ذكرناه نحن أقرب الصواب .

—————

(١١٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

فَلَا أَمْوَالَ بَدَلْتُمُوهَا لِلَّهِ رَزَقَهَا ، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا الَّذِي خَلَقَهَا ،
تَسْكُرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا تُسْكِرُمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ !
فَاعْتَبِرُوا بِزُؤَالِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَالِ إِخْوَانِكُمْ !

الشرح :

انتصاب « الأموال » بفعل مقدر دلّ عليه « بدلتوها » وكذلك « أنفس » ،
يقول : لم تبدلوا أموالكم في رضا من رزقكم إياها ، ولم تخاطروا بأنفسكم في رضا الخالق
لها ، والأولى بكم أن تبدلوا المال في رضا رازقه ؛ والنفس في رضا خالقها ، لأنه ليس
أحدٌ أحقّ منه بالمال والنفس وبذلها في رضا .

ثم قال : من العجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرمواكم ويطيعواكم لأجل الله ،
والتائبين إلى طاعته ، ثم إنكم لا تسكرومون الله ولا تطيعونه في نفع عباده ،
والإحسان إليهم .

ومحصل هذا القول : كيف تسيئون الناس أن يطيعواكم لأجل الله ؛ ثم إنكم أنتم
لا تطيعون الله ، الذي تسكفون الناس أن يطيعواكم لأجله !

ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل من كان قبلهم ، وهذا مأخوذ من قوله

تعالى : ﴿ وَسَكَتْنُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ ^(١) .

وروى عن « أصل إخوانكم » وذلك بموت الأب ، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشج
بينه وبين أخيه ، والرواية الأولى أظهر .

(١) سورة إبراهيم ٤٥ .

(١١٧)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْخَلْقِ ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجَنُّ يَوْمَ الْبَاسِ ، وَالْبَطَانَةُ
دُونَ النَّاسِ ؛ بِكُمْ أَضْرَبُ الْمُدِيرِ ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ ؛ فَأَعِينُونِي بِمَنَاصِحَةِ خَلِيفَةٍ
مِنَ الْعَشِّ ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ؛ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوَّلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ !

الشرح

الجنن : جمع جنة ، وهى مأبستر به . وبطانة الرجل : خواسته وخالصته الذين
لا يطوى عنهم سره .

فإن قلت : أما ضربه بهم المدير فمعلوم ؛ يعنى الحرب ، فما معنى قوله عليه السلام :
« وأرجو طاعة المقبل » ؟

قلت : لأن من ينضوى إليه من المخالفين إذا رأى ماعليه شيعته وبطانته من
الأخلاق الحميدة ، والسيرة الحسنة ، أطاعه بقلبه باطنا ، بعد أن كان انضوى
إليه ظاهرا .

واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام الأنصار بعد فراغه من حرب
الجل ؛ وقد ذكره المدائنى والواقدى فى كتابيهما^(١) .

(١) كتاب الجل للمدائنى ، ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٠ ، وكتاب الجل للواقدى ذكره أيضاً
ابن النديم فى ص ٩٩ .

(١١٨)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضهم على الجهاد ، فسكنوا ملياً، فقال عليه السلام: ما بالكم! انخرسون أنتم؟ فقال قوّم منهم: يا أيّير المؤمنين، إن سرت سرت نأمتك.

فقال عليه السلام :

مَا بِالْكُمِ الْأَسَدُّ دُثُمُ لِرُشْدٍ وَلَا هُدًى بُمُ لِقَصْدٍ، أَيْ مِثْلُ هَذَا يَذْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ! وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ يَمْنُ أَرْضَاهُ مِنْ شَجَمَائِكُمْ، وَذَوِي بَأْسِكُمْ؛ وَلَا يَذْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجَنَّةَ وَالْمَصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَحِبَابَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى؛ أَتَقَلُّلُ تَقَلُّلُ الْفِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ.

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَائِي؛ فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَأَضْطَرَبَ نِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السَّوْبُ؛ وَاللَّهِ لَوْ لَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوِّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَائِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ، مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشِمَالٌ؛ طَعْمَانِينَ عِيَّابِينَ، حِمَادِينَ رَوَّاعِينَ.

إِنَّهُ لَا غِنَاءَ فِي كَثَرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قَلَّةِ أَجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ.
مَنْ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!

البِنْجُ :

سكتوا مليا ، أى ساعة طويلة ، ومضى ملى من النار كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَهْجُرْ نِي مَلِيًّا ﴾ ^(١) . وأقت عند فلان مُلاوة وملاوة وملاوة من الدهر ، بالحركات الثلاث ، أى حيناً وبرهة ، وكذلك أقت مَلْوة ومُلْوة ومِلْوة ، بالحركات الثلاث . وقوله : « أَخْرَسُونَ أَنْتُمْ ؟ » اسم المفعول من أخرسه الله ، وخرس الرجل ، والخرس المصدر .

والكتيبة : قطعة من الجيش . والتقليل : الحركة في اضطراب . والقِدْح : السهم . والتجفير : الكفانة ، وقيل وعاء للسهم أوسع من الكفانة . واستحار مدارها : اضطرب ، والمدار هاهنا مصدر . والثقال بكسر الثاء : جلد يبسط وتوضع الرما فوقه ، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق . وحُمّ : أى قُدّر ، والركاب : الإبل ، وشخصت عنكم : خرجت : ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم ، وأنهم يحيدون عن الحق وعن الحرب ، أى ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب . ثم قال : إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرق القلوب . والغناء ، بالفتح والمدة : النفع .

وانتصب « طعانين » على الحال من الضمير المنصوب في « أطلبكم » .

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صفين والنهروان ، وقد ذكرنا سببه ووقته فيما تقدم .
فإن قلت : كيف قال : الطريق الواضح ، فذكره ، ثم قال : « لا يهلك فيها »
فأنته ؟

قلت : لأن الطريق يذكر ويؤنث ، تقول : الطريق الأعظم والطريق العظمى ،
فاستعمل اللفتين معا .

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :

تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ ، وَتِمَامَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَعِنْدَنَا - أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ ، وَضِيَاءُ الْأُمْرِ .

أَلَا وَإِنْ شَرَّائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةً ؛ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةً ؛ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ ؛ وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَلَدِمَ .

أَعْمَلُوا لِيَوْمٍ تَذْخَرُ لَهُ الدَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ؛ وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لَبِّهِ فَعَارِضُهُ عَفْوٌ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ .

وَاتَّقُوا نَاراً حَرَّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعَرُهَا بَعِيدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ .
أَلَا وَإِنَّ أَلْسَانَ الصَّالِحِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَرْءٍ فِي النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَلْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ .

المنج :

رواها قوم « القَدْ عَلِمْتُ » بالتخفيف وفتح العين ، والرواية الأولى أحسن ، فتبليغ الرسائل تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلفين ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(١) ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصة براءة : « لَا يُوَدَّى عَنِّي إِلَّا أَنَا وَرَجُلٌ مَنِي » .

(١) سورة الأحزاب ٣٩ .

وإتمام العِدات : إنجازها ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾^(١) ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام : « قاضى دينى ومنجز موعدى » .

وتمام الكلمات : تأويل القرآن ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾^(٢) ، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام : « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » .

وخلاصة هذا ، أنه أقسم بالله أنه قد علم ، أو علم ، - على اختلاف الروايتين - أداء الشرائع إلى المكلفين ، والحكم بينهم بما أنزله الله ، وعلم مواعيد رسول الله التي وعد بها ، فمنها ما هو وعدٌ لواحدٍ من الناس بأمرٍ ، نحو أن يقول له : سأعطيك كذا ، ومنها ما هو وعدٌ بأمرٍ يحدث ، كإخبار الملاحم والأمور المتجددة . وعلم تمام كلمات الله تعالى ، أى تأويلها وبيانها الذى يتم به ؛ لأن فى كلامه - تعالى - الجمل الذى لا يستغنى عن مقتمٍ وبيانٍ بوضحه . ثم كشف الغطاء وأوضح المراد فقال : « وعندنا - أهل البيت - أبواب الحكيم » ، يعنى الشرعيات والفتاوى . وضياء الأمر ، يعنى العقليات والعقائد ، وهذا مقام عظيم لا يحسُر أحدٌ من المخلوقين أن يدعىه سواه عليه السلام ؛ ولو أقدم أحد على ادعائه غيره لكذب وكذبه الناس . و « أهل البيت » منصوب على الاختصاص .

وسبله قاصدة ، أى قريبة سهلة ، ويقال : بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة ، أى هينة المسير لا تعب فيها ولا بطء . وتبلى فيه السرائر ، أى تختير .

ثم قال : من لا ينفعه لبه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر

(١) سورة الأحزاب ٢٣

(٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ولا موجود من العقل عنده أولى وأحرى ؛ أى مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع
وزاجر عن التبيح ، فبعيد أن ينزجر ، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل :
. وزاجر من النفس خير من عتاب العواذل

ثم ذكر النار فحذر منها .

وقوله : « حليتها حديد » ؛ يعنى القيود والأغلال .

ثم ذكر أن الذكر الطيب - يخلقه الإنسان بين الناس - خير له من مال يجمعه
ويورثه من لا يحمد ؛ وجاء فى الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه مخبر فأخبره
أن مالا له قد انفجرت فيه عين خرابرة ، يبشره بذلك ، فقال : بشر الوارث ؛
بشر الوارث ، يكررها ، ثم وقف ذلك المال على الفقراء ، وكتب به كتابا فى
تلك الساعة .

(١٢٠)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام ، وقد قام إليه رجل من أصحابه ، فقال : نهيئنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فما ندرى أى الأمرين أرشد ؟ فصق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ، ثم قال :

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ تَحَمَّلْتُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا ، فَإِنْ أَسْتَقْنَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنْ أَعْوَجَجْتُمْ قَوْمْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَذَارَكْتُكُمْ ، لَكَانَتْ أَلْوَنِي ، وَلَكِنْ يَمُنْ وَإِلَى مَنْ ! أُرِيدُ أَنْ أَدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كَغَفَاشِ الشُّوْكَهِ بِالشُّوْكَهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ ضَلَمَهَا مَعَهَا !

اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِي ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِي !
أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ، وَقَرَّوْهُ الْقُرْآنَ فَأَحْسَكُمُوهُ ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّوْهُ وَالَهُ اللَّقَاحَ إِلَى أَوْلَادِهَا ، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا ، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا ؛ وَصَفًا صَفًا ، بَعْضُ هَلَاكَ ، وَبَعْضُ نَجَا ، لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَخْيَاءِ ، وَلَا يُعَزُّونَ عَنِ الْمَوْتِ ، مُرَّةُ الْمُعْيُونِ مِنَ الْبُسَاءِ ، مُخَضُّ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ ، دُبُلُ الشِّفَاءِ مِنَ الدُّعَاءِ ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ ، أَوْلَائِكَ إِخْوَانِي الدَّاهِيُونَ ، فَحَقٌّ لَدَا أَنْ نَقْلَمَ إِلَيْهِمْ ، وَنَمَضَ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ !
إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّ لَكُمْ طُرُقَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ، وَيُعْطِيَكُمْ

يَا جَمَاعَةَ الْفُرْقَةِ ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةِ ، فَاصْدُقُوا عَنْ نَزَاغَتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ، وَأَقْبِلُوا النَّصِيحَةَ
مَنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ ، وَأَعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

الشَّيْخُ :

هذه شبهة من شبهات الخوارج ، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولاً ثم أمرت
بها ثانياً ، فإن كانت قبيحة كفت بنهيك عنها مصيباً ، وبأمرك بها مخطئاً ، وإن كانت
حسنة ، كفت بنهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً ، فلا بدّ من خطئك على كل حال .

وجوابها أنّ للإمام أن يعمل بموجب ما يظنّ على ظنه من المصلحة ، فهو عليه السلام
لمّا نهى عن أمرها كان نهياً عنها مصلحة حينئذ ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة في ظفه قد
تغيّرت ، فأمرهم على حسب ما تبدّل وتغيّر في ظنه ، كالطبيب الذي ينهى المريض اليوم
عن أمر ويأمره بمثله غداً .

وقوله : « هذا جزاء من ترك العقدة » ، يعنى الرأى الوثيق ، وفي هذا الكلام
اعتراف بأنه بان له وظهرَ فيما بعد أنّ الرأى الأصح كان الإصرار والثبات على الحرب ،
وأن ذلك وإن كان مكروهاً ، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه ، كما قال سبحانه :
﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(١) .

ثم قال : كنت أحلّسكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرّو ؛ من
رفع المصاحف ، فإن استقمتم لى اهتديتم بى ، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين :
أحدهما أن تعوجوا ، أى يقع منكم بعض الالتواء ، ويسير من العصيان ، كفتور الهمة وقلة
الجدّ فى الحرب . والثانى التأنى والامتناع المطلق من الحرب ، فإن كان الأول قوّمتمكم

بالتأديب والإرشاد وإزهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع ، وإن كان الثأني تداركت الأمر معكم : إمتا بالاستنجد بغيركم من قبائل العرب وأهل خراسان والحجاز ، فكلهم كانوا شيعته وقائلين بإمامته ، أو بما أراه في ذلك الوقت من المصلحة التي تحكم بها الحال الحاضرة .

قال : لو فعلت ذلك لكانت هي العقدة الوثقى ؛ أي الرأي الأصوب الأحزم .

فإن قلت : أفتمولون إنه أخطأ في العدول عن هذا الرأي ؟

قلت : لا نقول إنه أخطأ بمعنى الإنم ، لأنه إنما فعل ما تغلب على ظنه أنه المصلحة ، وليس الواجب عليه إلا ذلك ، ولكنه ترك الرأي الأصوب ، كما قال الحسن : « هلا مضيت قدما لا أبالك ! » ، ولا يلحق الإنم من غلب على ظنه في حكم السياسة أمر فاعتمده ، ثم بان له أن الأصوب كان خلافه ، وقد قيل إن قوله :

لَقَدْ عَثَرْتُ عَثْرَةً لَا تَنْجِبُ سَوْفَ أَكِيسُ بَعْدَهَا وَأُسْتَمِرُّ

* وأجمع الرأي الشئيت المنتشر *

إشارة إلى هذا المعنى ؛ وقيل : فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضى الله عنه : مَنْ عَرَفَهُ عَرَفَ أَنَّهُ غَيْرُ مَلُومٍ فِي الْإِقْيَادِ مَعَهُمْ إِلَى التَّحْكِيمِ ، فَإِنَّهُ مَلَّ مِنَ الْقَتْلِ وَتَجَرَّدَ السِّيفَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، حَتَّى مَلَّتِ الدَّمَاءُ مِنْ إِرَاقَتِهِ لَهَا ، وَمَلَّتِ الْخَيْلُ مِنْ تَقَحُّمِهِ الْأَهْوَالِ بِهَا ، وَضَجَرَ مِنْ دَوَامِ تِلْكَ الْخَطُوبِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْأَرْزَاءِ الْعَظِيمَةِ ، وَاسْتَلَابَ الْأَنْفُسَ ، وَتَطَايَرَ الْأَيْدَى وَالْأَرْجُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَكَلَتِ الْحَرْبُ أَصْحَابَهُ وَأَعْدَاءَهُ ، وَعُطِّلَتِ السَّوَادُ ، وَخَدِرَتِ الْأَيْدَى الَّتِي سَلَمَتْ مِنْ وَقَائِعِ السِّیُوفِ بِهَا ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يَسْتَعْفُوا مِنَ الْحَرْبِ ، وَيَسْتَقِيلُوا مِنْ

المقارعة والمصادمة ، لأدّت الحال إلى قعود الفيلقنين معا ، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح ، فإنّ الحال أفضت بمعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه .

واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول ، واستدرك بكلام آخر حذراً أن يثبت على نفسه الخطأ في الرأي ، فقال : لقد كان هذا رأياً لو كان لي من يطيعني فيه ، ويعمل بموجبه ، وأستمع به على فعله ، ولكن بمن كنت أعمل ذلك ، وإلى من أخذ في فعله ! أمّا الحاضرون لنصرى فأنتم وحالكُم معلومة في الخلاف والشقاق والعصيان ، وأمّا الغائبون من شيعتي كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ العدو غرضه مني ، ولم يبق من أخذ إليه في إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأي الذي كان صواباً لو اعتد ؛ إلا أن أستمع ببعضكم على بعض ، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة ؛ وهذا مثل مشهور : « لا تدقش الشوكة بالشوكة » . فإن ضلّمتها لها ، والضلع الميل ؛ يقول : لا تستخرج الشوكة الناشئة في رجلك بشوكة مثلها ، فإن إحداها في القوّة والضعف كالأخرى ، فكما أن الأولى انكسرت لمّا وطئتها فدخلت في لحك ، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تفكسر ، وتلج في لحك .

ثم قال : « اللهم إن هذا الداء الدويّ ، قد مات أطباؤه » ، والدويّ : الشديد ، كما تقول : ليلٌ أليل .

وكلّت النزعّة ، جمع نازع ، وهو الذي يستقي الماء ، والأشطان : جمع شطآن ، وهو الحبل . والزكيّ : الآبار ، جمع زكية ، وتجمع أيضا على ركايّا .

ثم قال : ابن القوم ! هذا كلام متأسّف على أولئك ، متحسّر على فقدهم .

والوله : شدة الحب حتى يذهب العقل ، وله الرجل .

واللقاح ، بكسر اللام : الإبل ، والواحدة لقوح ؛ وهي الحلوب ، مثل قلاص وقلوص .

قوله : « وأخذوا بأطراف الأرض » ، أى أخذوا على الناس بأطراف الأرض ،
أى حصروهم ، يقال لمن استولى على غيره وضيق عليه : قد أخذ عليه بأطراف الأرض ،
قال الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ^(١)
وزخفاً زخفاً ، منصوب على المصدر المحذوف الفعل ، أى يزحفون زخفاً ، والكلمة
الثانية تأكيده للأولى . وكذلك قوله : « وَصَفًا صَفًا » .

ثم ذكر أن بعض هؤلاء المتأسف عليهم هلك ، وبعض نجا ، وهذا ينبجى قوله تعالى :
﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾^(٢) .

ثم ذكر أن هؤلاء قوم وقّدتهم العبادة ، وانقطعوا عن الناس ، وتجردوا عن
العلائق الدنيوية ، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشّر به ، وإذا مات له ميت لم يمزّ عنه .
ومرّ هت عين فلان ، بكسر الراء ، إذا فسدت لترك الكحل ، لكن أمير المؤمنين
عليه السلام جعل مرّة عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه . وذكر أن
بطونهم من خاص الصوم ، وشفاهم ذابلة من الدعاء ، ووجوههم مصفرة من السهر ،
لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غبرة الخشوع .

ثم قال : « أولئك إخواني الذاهبون » . فإن قلت : من هؤلاء الذين يشير
— عليه السلام — إليهم ؟

قلت : هم قوم كانوا في نأناة الإسلام وفي زمان ضعفه وخوله أرباب زهد وعبادة
وجهاد شديد في سبيل الله ، كمصعب بن عمير من بني عبد الدار ، وكسعد بن معاذ من
الأوس ، وكجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهم ؛ ممن استشهد من الصالحين

(١) ديوانه ٥١٥

(٢) سورة الأحزاب ٢٣ .

أرباب الدين والعبادة والشجاعة في يوم أحد ، وفي غيره من الأيام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكمّار ، وأبي ذرّ ، والمقداد ، وسلمان ، وخبّاب ، وجماعة من أصحاب الصّفة وفقراء المسلمين أرباب العبادة ، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة . وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجنة لتشتاق إلى أربعة : عليّ ، وعمار ، وأبي ذرّ ، والمقداد » ، وجاء في الأخبار الصحيحة أيضا ، أن جماعة من أصحاب الصّفة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضّوا أيديهم عليه ، وقالوا : وأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عُقّ عدوّ الله ! وكان معه أبو بكر ، فقال لهم : أتقولون هذا لسيد البطحاء ؟ فرفع قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأناكره ، وقال لأبي بكر : « انظر لا تسكون أغضبتهم ، فتسكون قد أغضبت ربك » . فجاء أبو بكر إليهم وترضّاهم وسألهم أن يستغفروا له ، فقالوا : غفر الله لك .

قوله : « فحقّ لنا » ، يقال : حقّ له أن يفعل كذا ، وهو حقيق به ، وهو محقوق به ، أى خاليق له ، والجمع أحقاء ومحقوقون .

ويسئى : يسهل . وصدف عن الأمر ، يصدف ، أى انصرف عنه . ونزغات الشيطان : ما ينزغ به ، بالفتح ، أى يفسد ويفرّى . ونفثاته : ما ينفث به وينفث ، بالضم والكسر ؛ أى يختل ويسحر .

واعقلوها على أنفسكم ، أى اربطوها والزموها .

(١٣٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة ، فقال عليه السلام : أَكُتِلْتُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِغْفِيرٌ ؟ فَقَالُوا : مِنَّا مَنْ شَهِدَ ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ . قَالَ : فَاُمْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ؛ فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِغْفِيرَ فِرْقَةٍ ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةٍ ؛ حَتَّى أَكَلَّكُمْ كَلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ . وَنَادَى النَّاسَ ، فَقَالَ : أُمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَعَنْ نَشْدَانِهِ شَهَادَةٌ فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا . ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، مِنْ مَحَلَّتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيْلَةً ، وَمَسْكِرًا وَخَدِيعَةً : إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا ، اسْتَقَالُونَا وَأَسْتَرَاخُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُجْحَانَهُ ، فَارَأَى الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ، فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيْمَانٌ ، وَبَاطِنُهُ عُذْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ ، وَالزَّمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَعَاضُوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِي نَعَقَ ؛ إِنْ أَحْيَبَ أَضَلَّ ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ^(١) .

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ

(١) بعدها في المخطوطة المصرية : « وقد كانت هذه الفعلة ، وقد رأيتمكم أعطيتموها . والله لئن أبيتها ما وجبت على فريضتها ، ولا حملت الله ذنبها ، والله إن جئتها لاني المحق الذي يتبع ، وإن الكتاب لمي ، ما فارقت مذهبته » .

وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ ، فَمَا نَزَدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ ،
وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْجَرَّاحِ .

وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ
وَالْأَعْوِجَاجِ ، وَالشُّبُهَةِ وَالْتَّأْوِيلِ ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَكُمُ اللَّهُ بِهَا شَعْنًا ، وَنَتَدَانِي بِهَا
إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا ، رَغِبْنَا فِيهَا ، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا !

الْبُشْرُخ :

هذا الكلام يتلو بعضه بعضا ؛ ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصق أحدها بالآخر ؛ وهذه
عادة الرضى ، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلمات فصيحة ، يوردها على سبيل التتالي ؛
وليست متتالية حين تسكّم بها صاحبها ، وسنقطع كل فصل منها عن صاحبه إذا مررنا
على مَثْنِهَا .

قوله : « إلى معسكرهم » الكاف مفتوحة ، ولا يجوز كسرها ؛ وهو موضع
المسكر ومحطة .

وتشهد صفين : حضرها ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبَاهَدَ مِنْكُمْ الشَّهَرُ ﴾ ^(١) .

قوله : « فامتازوا : أى انفردوا » ، قال تعالى : ﴿ وَأَمْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ^(٢) .

قوله : « حتى اكلمكم كلامكم بكلامه » ، أى بالكلام الذى يليق به .

والفيلة : الخداع . والناعق : المصوت .

قوله : « إن أجيب ضلّ ، وإن ترك ذلّ . . » هو آخر الفصل الأول . وقوله : « ضلّ » ،
أى ازداد ضلالا ، لأنه قد ضلّ قبل أن يجاب .

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) سورة يس ٥٩ .

فأما قوله : « فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه » ، فهو من كلام آخر ، وهو قائم بنفسه ، إلى قوله : « وصبرا على مضض الجراح » ، فهذا آخر الفصل الثاني .

فأما قوله : « لكنا إنما أصبحنا » ، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما ؛ وهوى الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول ؛ لأنّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم ؛ وهذا يتضمن تصويبها ؛ وظاهر الحال أنّه بعد كلام طويل . وقد قال الرضى رحمه الله في أول الفصل : إنه من جملة كلام طويل ، وإنه لمّا ذكر التحكيم ، قال ما كان يقوله دائما ، وهو أنّي إنما حكمت على أن نعمل في هذه الواقعة بحكم الكتاب ، وإن كنت أحارب قوما ما أدخلوا في الإسلام زيفا وأحدثوا به اعوجاجا ، فلما دعوني إلى تحكيم الكتاب أمسكت عن قتلهم ، وأبقيت عليهم لأنى طمعت في أمرٍ يُلمّ الله به شعث المسلمين ، ويتقاربون بطريقه إلى البقية ، وهى الإبقاء والكف .

فإن قلت : إنه قد قال : « نقاتل إخواننا من المسلمين » ، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة « المسلمين » ؟

قلت : إنّنا وإن كنا نذهب إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما ، فإننا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدى الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرج به عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء والمدح ، فإن لفظة « مسلم » و « مؤمن » تستعمل في أكثر الأحوال كذلك ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك الإتيان بهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشرك ، ولم يقصد مدحهم بذلك ، فلم ينسكروا مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم .

(١٢٢)

الأفضل:

ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساعة الحرب :

وَأَيُّ أَمْرِي مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِي رِبَاطَةَ جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًّا ، فَلْيَذُبْ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ تَجَدُّدِهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهٍ ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ .

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَمُوتُهُ الْمُقِيمُ ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ .
إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ ؛ وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ ؛ لَا لَفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنَ عَلَى مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفَرَّاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ !

الشنخ :

أحسن : علم ووجد . ورباطة جاش ، أى شدة قلب : والماضى « رَبَطَ » ، كأنه يربط نفسه عن الفرار . والمروى : « رِبَاطَةٌ » بالكسر ، ولا أعرفه نقلا وإنما القياس لا يأباه ، مثل تمر عمارة ، وخباب خلافة .

والفشل : الجبن . وذب الرجل عن صاحبه ، أى أكثر الذب ، وهو الدفع والنزع .
والنجدة : الشجاعة . والحديث : السريع ؛ وفي بعض الروايات : « فليذب عن صاحبه » بالإدغام ، وفي بعضها « فليذب » بفك الإدغام . والميعة ، بالكسر : هيئة الميعة كالجلسة : والر كبة هيئة الجالس والراكب ، يقال : مات فلان ميعة حسنة ، والمروى فى " نهج .

البلاغة ، بالسكسر في أكثر الروايات ، وقد روى : « من مودة » وهو الأليق ، بمعنى المرة الواحدة ، ليقع في مقابلة الألف .

واعلم أنه عليه السلام أقسم أن القتل أهون من الموت حتف الأنف ؛ وذلك على مقتضى مامنه الله تعالى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر ؛ وهو عليه السلام يحاول أن يحض أصحابه ، ويحرضهم ؛ ليجمع طباعهم مناسبة لطباعه ، وإفدائهم على الحرب مماثلاً لإفدائه ؛ على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم ؛ وهيئات إنما هو كما قال أبو الطيب :

يكلّف سيفُ الدولة الجيشَ همَّهُ وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الجيوشُ الْخُصَارِمُ^(١)
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مَا لَا تَدْعِيهِ الضَّرَاغِمُ

ليست النفوس كلها من جوهر واحد ، ولا الطباع والأمزجة كلها من نوع واحد ، وهذه خاصية توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده ، في الأوقات المتطاولة ، والدهور المتباعدة ؛ وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان ؛ فإن التواريخ من قبل الطوفان - مجهولة عندنا - أن أحداً أعطى من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها ؛ من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم ؛ والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم ، والموت على الحياة ، والموت الذي كان يطلبه ويؤثره ؛ إنما هو القتل بالسيف ، لا الموت على الفراش ، كما قال الشاعر :

لو لم يمت بين أطرافِ الرماحِ إذا لمات - إذ لم يمت - من شدة الحزنِ

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٩ ، والحضارم : جمع خضرم ؛ وهو العظيم الكبير من كل شيء .

وكما قال الآخر :

يستعذبون منايهم كأنهم لا يأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت : فما قولك فيما أقسم عليه : هل ألف ضربة بالسيف أهون الماء على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة، أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوز ؛ ترغيباً لأصحابه في الجهاد ؟

قلت : الحالف يحلف على أحد أمرين : أحدهما أن يحلف على ظنه واعتقاده ؛ نحو أن يحلف أن زيدا في الدار ، أي أنا حالف ومقسم على أني أظن أن زيدا في الدار ، أو أني أعتقد كون زيدا في الدار . والثاني أن يحلف ، لا على ظنه ، بل يحلف على نفس الأمر في الخارج ؛ فإن حملنا قسم أمير المؤمنين عليه السلام على الحمل الأول فقد اندفع السؤال ؛ لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك ؛ فحلف أنه يعتقد وأنه يظن ذلك ؛ وهذا لا كلام فيه ، وإن حملناه على الثاني فالأمر في الحقيقة يختلف ، لأن المقتول بسيف صارم معجل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة ما يجده الميت دون النزع من المد والكف ، نعم قد يجد المقتول قبل الضربة ألم التوقع لها ، وليس كلامنا في ذلك ، بل في ألم الضربة نفسها ، وألف سيف صارم مثل سيف واحد ، إذا فرضنا سرعة الزهوق . وأما في غيره هذه الصورة ، نحو أن يكون السيف كالأل ، وتنكرر الضربات به ، والحياة باقية بعد ؛ وقايسنا بينه وبين ميت يموت حتف أنفه موتا سريعا ، إما بوقوف القوة الغازية كما يموت الشيوخ ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة ، ويبقى العقل والذهن ، إلى وقت الموت ، فإن الموت هاهنا أهون وأقل ألما ، فالواجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إما على جهة التعريض ؛ فيكون قد بالغ كمادة العرب والخطباء في المبالغات المجازية ، وإما أن يكون أقسم على أنه يعتقد ذلك ، وهو صادق فيما أقسم ؛ لأنه هكذا كان يعتقد بناء على

ماهو مركز في طبعه من محبة القتال ، و كراهية الموت على الفراش . وقد روى أنه قيل
 لأبي مسلم الخراساني : إن في بعض الكتب المنزلة : مَنْ قَتَلَ بالسيف فبالسيف يُقَتَّل ،
 فقال : القتل أحب إلى من اختلاف الأطباء ، والنظر في الماء ، ومقاساة الدواء والداء ،
 فذكر ذلك المنصور بعد قتل أبي مسلم ، فقال : قد أبلغناه محبته !

(١٢٣)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَكَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشِيشَ الضُّبَابِ ، لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا ، وَلَا
تَتَمَنَعُونَ ضَمِيمًا ، قَدْ خَلَيْتُمْ وَالطَّرِيقَ ، فَأَنْجَاةُ الْمُقْتَحِمِ ، وَالْهَآكَّةُ الْمُتَلَوِّمِ .

الشرح :

الكشيش : الصوت يشوبه خَوَرٌ ، مثل الخشخشة ، وكشيش الأفعى : صوتها من
جلدها لا من فمها ، وقد كَشَّتْ تَكِشٌ ، قال الراجز :

كَشِيشَ أَفْعَى أَجْمَعَتْ لِعَضٍّ وَهِيَ تَحْكُ بِمَعْضَاهَا بَعْضُ^(١)

يقرع عليه السلام أصحابه بالجن والفسل ، ويقول لهم : لكأني أنظر إليكم
وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي قد اعتراكم ؛ فهي أشبه شيء بأصوات
الضباب المجمعة .

ثم أكد وصف جبنهم حقا وخوفهم ، فقال : لا تأخذون حقًّا ، ولا تمنعون ضيما ، وهذه
غاية ما يكون من الدلّ .

ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال : قد خَلَيْتُمْ وطريق النجاة عند الحرب ، ودلّتم عليها ،

(١) اللسان ٨ : ٢٣٣ ، من غير نسبة .

وهي أن تفتحوا وتلججوا ، ولا تهنوا ؛ فإنكم متى فعلتم ذلك نجوتهم ؛ ومتى تلوتهم
وتثبطهم وأحجتم هلكتم ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

تَأَخَّرْتُ اسْتَنْبَقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَحِذْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدِّمَ^(١)

وقال قطري بن الفجاءة :

لا يركنن أحدٌ إلى الإحجامِ يومَ الوغى متخوفاً لحمامِ^(٢)
فلقد أراي للرماحِ دريئةً من عن يميني تارةً وأمامي
حتى خضبتُ بما تحدر من دمي أكناف مَرَجِي أو عِمان لجامي
ثم انصرفتُ وقد أصبتُ ولم أصبْ جَذَعَ البصيرةِ قَارِحَ الإقدامِ^(٣)

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أن عليك عيونا من الله تراك وتراك ،
فإذا لقيت العدو ، فاحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تفسل الشهداء من دماهم ؛
فإن دم الشهيد نور له يوم القيامة . وقال أبو الطيب :

يَقْتُلُ الْعَاجِزُ الْجَبَانُ وَقَدْ يَمْتَحِزُ عَنْ قَطْعِ بُخْنِ الْمَوْلُودِ^(٤)
ويوقى الفتى الخش وقد خوض في ماء لبّة الصنديد^(٥)

(١) للحصين بن الحمام المري ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١٩٢

(٢) ديوان الحماسة ، بشرح التبريزي ١ : ١٣٠

(٣) قال التبريزي في شرح البيت : « يقول : أنا جذع البصيرة ، أي استبصارى ويقني لا يحتاجان إلى تهذيب ولا تأديب ؛ كما لا يحتاج الجذع إلى الرياضة ، وإقدامي قارح ، أي قد بلغ النهاية ، كما أن القروح نهاية سن الفرس ولا سن بعده » .

(٤) ديوانه ١ : ٣٢٢ ، البخني : ما يجعل على رأس الصبي ، وتليسه المرأة عند إدهان رأسها .

(٥) الخش : الرجل الجريء على الليل . والصنديد : السيد الكريم . وخوض : أكثر الخوض .

(٢٠ - نهج ٧)

— ٣٠٦ —

ولهذا المعنى الذى أشار إليه عليه السلام سبب معقول ؛ وهو أن المقدّم على خصمه يرتاع له خصمه ، وتنخزل عنه نفسه ، فتكون النجاة والظفر للمقدّم ؛ وأما المتلوّم عن خصمه ، المحجّم المتهيب له ؛ فإن نفس خصمه تقوى عليه ، ويزداد طمعه فيه ، فيكون الظفر له ، ويكون المطب والهلاك للمتلوّم المائب .

﴿ تم الجزء السابع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثامن ﴾

فهرس الخطب (*)

صفحة	
٣٢ - ٣	٩٠ - تنمة الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح ^(١)
	٩١ - من كلام له عليه السلام لما أرادہ الناس على البيعة بعد قتل عثمان
٩١	رضى الله عنه
	٩٢ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ما كان من تغلبه على فتنة الخوارج
٤٥ - ٤٤	وما يصيب الناس من بنى أمية
٦٥ - ٦٣	٩٣ - من خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الأنبياء
٦٦	٩٤ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال الناس عند البعثة
	٩٥ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم الله وتمجيده ، ثم ذكر الرسول
٦٨ - ٦٧	صلى الله عليه وسلم والثناء عليه
٧٧ - ٧٠	٩٦ - من كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه على التباطؤ عن نصرته الحق
٧٨	٩٧ - من كلام له عليه السلام في وصف بنى أمية وحال الناس في دولتهم
٨١ - ٨٠	٩٨ - من خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا
٨٤	٩٩ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها محمدا صلى الله عليه وماتركه
	في أصحابه من سنته
	١٠٠ - من خطبة له عليه السلام ، وهي من الخطب التي تشتمل على
١٠١ - ٩٦	ذكر الملاحم

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

(١) أولها في الجزء السادس ص ٣٩٨

- الصفحة
- ١٠١ - من خطبة له أخرى عليه السلام تجرى هذا الجرى ١٠٢-١٠٤
- ١٠٢ - من خطبة له عليه السلام في التزهيد ووصف الناس في بعض الأزمان ١٠٣-١١٣
- ١٠٣ - من خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الناس قبل البعثة وما صاروا إليه بعدها ١١٤
- ١٠٤ - من خطبة له عليه السلام ، ذكر فيها كلاما في شأن أهل البيت وأمر بني أمية معهم ١١٧-١٦٧
- ١٠٥ - من خطبة له عليه السلام في وصف الإسلام وسمو شرائعه ، ثم ذكر النبي صلى الله عليه وآله وذكر أصحابه ١٧١-١٧٦
- ١٠٦ - من كلام له عليه السلام يصف بعض أيام صفين ١٧٩
- ١٠٧ - من خطبة له عليه السلام ؛ وهي من خطب الملاحم أيضا ١٨١-١٩١
- ١٠٨ - من خطبة له في تمجيد الله ووصف ملائكته ١٩٤-٢١٨
- ١٠٩ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام ٢٢١
- ١١٠ - من خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا ٢٢٦-٢٢٨
- ١١١ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس ٢٣٧
- ١١٢ - من خطبة له عليه السلام في التحذير من أمر الدنيا ٢٤٦، ٢٤٧
- ١١٣ - من خطبة له عليه السلام في الخوض على التقوى وذكر أوصاف الدنيا والفرق بينها وبين الآخرة ٢٥٠-٢٥٢
- ١١٤ - من خطبة له عليه السلام في الاستسقاء ، وصلاة الاستسقاء وآدابها وأخبار وأحاديث في الاستسقاء ٢٧٠-٢٧٥
- ١١٥ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم ما حُجِبَ عن الناس وكشف له ، والإخبار بما سيكون من أمر الحجاج الثقي ٢٧٦-٢٧٨

- صفحة
- ٢٧٢ ١١٦ - من كلام له عليه السلام في التوبيخ على البخل ، ودعوة أصحابه لنصرته
- ٢٨٤ ١١٧ - من كلام له عليه السلام في حث أصحابه على مناصحته
- ٢٨٥ ١١٨ - من كلام له عليه السلام وقد جمع له أصحابه فخصهم على الجهاد وأثار المحبة فيهم
- ٢٨٨ ١١٩ - من كلام له عليه السلام في وصف نفسه والحث على الاستقامة والتحذير من النار والحث على طلب الحد
- ٢٩٢ ، ٢٩١ ١٢٠ - من كلام له عليه السلام في احتجاجه على الخوارج
- ٢٩٨ ، ٢٩٧ ١٢١ - من كلام له عليه السلام في التحكيم
- ٣٠٠ ١٢٢ - من كلام له عليه السلام قال لأصحابه في ساعة الحرب
- ٣٠٤ ١٢٣ - من كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه ووصفهم بالجبن ؛ وحثهم على الجرأة والتفهم

فهرس الموضوعات (*)

صفحة	
٢١ - ٧	القول فى عصمة الأنبياء وفيه ثلاثة فصول :
١٠ - ٨	الفصل الأول فى حال الأنبياء قبل البعثة
١٨ - ١١	الفصل الثانى فى عصمة الأنبياء زمن النبوة فى أفعالهم وتركهم عدا
	ما يتعلق بتبليغ الوحى والفتوى فى الأحكام
٢١ - ١٨	الفصل الثالث فى خطبهم فى التبليغ والفتاوى
٤٣ - ٣٥	فصل فيما كان من أمر طلحة والزبير عند قسم المال
٥١ - ٤٧	فصل فى ذكر أمور غيبية أخبر بها الإمام ثم تحققت
٨٧ ، ٨٦	أقوال مأثورة فى مدح الأناء وذم العجلة
٩٣ - ٨٧	فصل فى مدح قلة الكلام وذم كثرتة
١٢٣ - ١٢١	هزيمة مروان بن محمد فى موقعة الزاب ثم مقتله بعد ذلك
١٢٤ ، ١٢٣	شعر عبدالله بن عمرو العبلى فى رثاء قومه
١٢٤	أنفة ابن مسلمة بن عبد الملك
١٢٨ - ١٢٥	مما قيل من الشعر فى التحريض على قتل بنى أمية
١٦٦ - ١٢٨	أخبار متفرقة فى انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس
١٨٦ - ١٨٤	فصل فى التقسيم وما ورد فى ذلك من الكلام
١٩٧ ، ١٩٦	فصل فى الكلام على الالتفات
٢١٦ - ٢١١	موازنة بين كلام الإمام على وخطب ابن نباته
٢٤١ - ٢٣٩	فصل فى التخلص وسياق كلام للشعراء فيه
٢٤٥ - ٢٤١	فصل فى الاستطراد وإيراد شواهد للشعراء فيه
٢٧٥ - ٢٧٠	أخبار وأحاديث فى الاستسقاء

(*) وهى الموضوعات الواردة فى كتاب شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الثامن

دار الجيل
بيروت

محقق الطبع محفوظ للناس
طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

(١٢٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في حث أصحابه على القتال :

فَقَدَّمُوا الدَّارِعَ ، وَأَخَّرُوا الْخَاسِرَ ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ ؛ فَإِنَّهُ أَنْهَى لِلْسُّيُوفِ
عَنِ الْهَامِ ، وَالتَّوَوَّأَ فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ ؛ فَإِنَّهُ أَمَرُ لِلْأَسِنَّةِ ، وَعَضُّوا الْأَبْصَارَ ؛ فَإِنَّهُ
أَرْبَطَ لِلْجَاشِ ، وَأَسْكَنَ لِلْقُلُوبِ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ ؛ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَقْلِ . وَرَأَيْتَكُمْ
فَلَا تُمَيِّلُوهَا وَلَا تُخْلُوهَا ، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ ، وَالْمَانِعِينَ الدَّمَارَ مِنْكُمْ ؛
فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نَزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ بَرَائِيَاتِهِمْ ، وَيَكْتَنِفُونَهَا : حِفَا فِيهَا ،
وَوَرَاءَهَا ، وَأَمَامَهَا ؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسَلِّمُوهَا ، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا .

الشرح :

الدارع : لابس الدرع ، والخاسر : الذي لا درع عليه ولا مغفر ؛ أمرهم عليه السلام
بتقديم المستلئم على غير المستلئم ، لأن سورة الحرب وشدتها تلتقى وتصادف الأول فالأول ؛
فواجب أن يكون أول القوم مستلئماً . وأن يعضوا على الأضراس ؛ وقد تقدم شرح هذا ، وقلنا :
إنه يجوز أن يبدؤهم بالحنق والجد ؛ ويجوز أن يريد أن العض على الأضراس يشد شئون
الداغ ورباطاته ، فلا يبلغ السيف منه بمبلغه لو صادف رخواً . وأمرهم بأن يلتزموا إذا طعنوا ؛

لأنهم إذا فعلوا ذلك، فبالحرى أن يمور السنان ، أى يتحرك عن موضع الطعنة ؛ فيخرج زلقا ، وإذا لم يلتزموا لم يمر السنان ، ولم يتحرك عن موضعه فيحرق وينفذ ، فيقتل .
وأمرهم بنقض الأبصار فى الحرب ، فإنه أربط للجأش ؛ أى أثبت للقلب ، لأن الغاض بصره فى الحرب آخرى ألا يدهش ولا يرتاع لهول ما ينظر .

وأمرهم بإماتة الأصوات وإخفاءها ، فإنه أطرده للفشل ؛ وهو الجبن والخوف ؛ وذلك لأن الجبان يردد ويرق ، والشجاع صامت .

وأمرهم بحفظ رايتهم ألا يميلوها ، فإنها إذا مالت انكسر العسكر ، لأنهم إنما ينظرون إليها ولا يخلوهم من محام عنها ، وألا يميلوها بأيدي الجبناء وذوى الهلع منهم كي لا ينجيموا ويحبوا عن إمساكها .

والذمار : ما وراء الرجل مما يحقّ عليه أن يحميه ، وسمى ذمارا ؛ لأنه يجب على أهله .
التذمر له ، أى الغضب .

والحقائق : جمع حاقّة ؛ وهى الأمر الصعب الشديد ؛ ومنه قول الله تعالى : ﴿ الحاقّةُ ما الحاقّةُ ﴾ ، يعنى الساعة .

ويكتنفونها : يحيطون بها . وحفاهاها : جانبها ، ومنه قول طرفة :
كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنُفَا حِفَافِيهِ شُكَا فِي الْعَسِيبِ بِمَسْرَدٍ^(١)

الأصل:

أَجْزَأُ أَمْرُو قِرْنَهُ ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ ؛ وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ ؛ فَيَجْتَمِعَ

(١) العلفات - بشرح التبريزى ٦٤ . المضرحى : العتيق من النسر ؛ يضرب إلى البياض . وحفاها : جانبها . والعسيب : عظم الذئب . والمسرد : الخصف .

عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ . وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ فَرَزْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ ، لَا تَسْلَمُونَ مِنْ
سَيْفِ الْآخِرَةِ ، وَأَنْتُمْ لِهَاجِمِ الْعَرَبِ ، وَالسَّنَامِ الْأَعْظَمِ .
إِنْ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةٌ اللَّهِ وَالذِّلَّ اللَّازِمَ ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ . وَإِنْ الْفَارُّ أَغْيَرُ مَزِيدٍ
فِي عُمُرِهِ ، وَلَا تَحْجُوزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ .
مَنْ رَانَحَ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ بَرِدُ الْمَاءِ ! الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي .
الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ .
وَاللَّهُ لَا نَأْشُوقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ . اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَأَفْضُضْ
جَمَاعَتَهُمْ ، وَشَتَّ كَلِمَتَهُمْ ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ .

البَيِّنَاتُ :

من الناس من يجعل هذه الصيغة وهي صيغة الإخبار بالفعل الماضي ، في قوله :
« أَجْزَأُ امْرُؤُ قِرْنَهُ » في معنى الأمر ؛ كأنه قال : لِيُجْزِيَ كُلَّ امْرَأٍ قِرْنَهُ ؛ لأنه إذا جاز
الأمر بصيغة الإخبار في المستقبل ، جاز الأمر بصيغة الماضي ، وقد جاز الأول ، نحو قوله
تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾^(١) ، فوجب أن يجوز الثاني . ومن الناس من
قال : معنى ذلك : هَلَا أَجْزَأُ امْرُؤُ قِرْنَهُ ! فيكون تحضيضاً محذوف الصيغة لعدم بها . وأجْزَأُ
بالهمزة ، أي كفى . وقِرْنُكَ : مقارنتك في القتال أو نحوه .

وَأَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ مَوَاسَاةً ، بالهمز ، أي جعله أسوة لنفسه ، ويجوز : واسيتُ زيدا
بالواو ، وهي لغة ضعيفة .

ولم يكلِّ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ ، أي لم يدع قِرْنَهُ يَنْضَمَّ إِلَى قِرْنِ أَخِيهِ ، فيصيرا معا في

(١) سورة البقرة ٢٣٣ .

مقاومة الأخ المذكور، وذلك قبيحٌ محرّم، مثاله: زيد وعمر مسلمان، ولهما قرنان كافران في الحرب؛ لا يجوز لزيد أن يفسكّلَ عن قرنه فيجتمع قرنه وقرن عمرو على عمرو. ثم أقسم عليه السلام أنهم إن سلموا من الألم النازل بهم لو قُتِلُوا بالسيف في الدنيا؛ فإنهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة؛ على فرارهم وتخاذلهم، وسمّى ذلك سيفاً على وجه الاستعارة وصناعة الكلام، لأنه قد ذكر سيف الدنيا، فجعل ذلك في مقابلته. واللاهيم: السادات الأجواد من الناس، والجياد من الخيل، الواحد لهموم. والسّنام الأعظم، يريد شرفهم وعلو أنسابهم، لأن السّنام أعلى أعضاء البعير. وموجدة الله: غضبه وسخطه.

ويروى: «والذلّ اللازم» بالذال المعجمة؛ وهو بمعنى اللازم أيضاً، لَدِمْتُ المَكان بالكسر، أى لَزِمْتَهُ.

ثم ذكر أن الفرار لا يزيد في العُز، وقال الراجز:
قَدْ عَلِمْتُ حَسَنَاءَ دَعَجَاهُ الْمَقْلُ أَنْ الْفِرَارَ لَا يَزِيدُ فِي الْأَجَلِ
ثم قال لهم: أَيُسْكَم يروح إلى الله فيكون كالظمآن يرد الماء!
ثم قال: الجنة تحت أطراف العوالى؛ وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الجنة تحت ظلال السيوف». وسمع بعض الأنصار رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول يوم أحد: «الجنة تحت ظلال السيوف»، وفي يده تُمَيّرات يُلُو كُها، فقال: بَخِ بَخِ! ليس يدي وبين الجنة إلا هذه التُمَيّرات! ثم قَدَفَهَا من يده؛ وكسر جَفَنَ سيفه، وحمل على قريش فقاتل حتى قُتِلَ.

ثم قال: «اليوم تُبْلَى الأخبار»؛ هذا من قول الله تعالى: ﴿وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾^(١)،
أى نَحْتَبِرُ أفعالكم.

ثم دعا على أهل الشام إن ردوا الحق ، بأن يفض الله جماعتهم ، أى يهزمهم ويشتت ، أى يفرق كلمتهم . وأن يُبسلهم بخطاياهم ، أى يسلمهم لأجل خطاياهم التى اقترفوها ولا ينصرهم ، أبسلت فلانا ؛ إذا أسلمته إلى الهلكة ، فهو مبسل ، قال تعالى : ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾^(١) ، أى تُسَلَمَ ، وقال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾^(٢) ، أى أُسْلِمُوا للهلاك لأجل ما اكتسبوه من الإثم ؛ وهذه الألفاظ كلها لا يتلو بعضها بعضا ، وإنما هى متزعة من كلام طويل ، انتزعها الرضى رحمه الله ، واطرح ماعداها .

الأصل :

لَهُمْ أَنْ يَرْوُلُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكِ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ أَلْهَامَ ، وَيُطْلِحُ أَلْعِظَامَ ، وَيُنْذِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ . وَحَتَّى يَرْمُوا بِالْمَنَاسِيرِ تَنْتَبِعُهَا الْمَنَاسِيرُ ، وَيَرْجُوا بِالسَّكَايِبِ تَقْفُوهَا أَلْحَلَّابُ . وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخُلَيْسُ يَتْلُوهُ الْخُلَيْسُ . وَحَتَّى تَدْعَى الْخُلَيْولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِيهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ .

قال الشريف الرضى رحمه الله تعالى :

الدَّعَى : الدَّقُّ ، أَيْ تَدَقُّ الْخُلَيْولُ بِحَوَافِرِهَا أَرْضَهُمْ . وَنَوَاحِرُ أَرْضِهِمْ : مُتَقَابِلَاتُهَا ، وَيُقَالُ : مَنَازِلُ بَنِي فُلَانٍ تَتَنَاحَرُ ؛ أَيْ تَتَقَابَلُ .

الشرح :

طعن دراك ، أى متتابع يتلو بعضه بعضاً . ويخرج منه النسيم ، أى لسهته ؛ ومن هذا

النحو قول الشاعر :

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طمئةً ثائرٍ لها نَفَذٌ، لولا الشعاع أضاءها^(١)
 ملكتُ بها كفى فأنهرتُ فتَقَمَّها يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءها^(٢)
 فهذا وصف الطمئة ، بأنها لا تأسعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ما وراءها ، وأنه
 لولا شعاع الدم - وهو ما تفرق منه - لبان منها الضوء . وأمير المؤمنين عليه السلام أراد من
 أصحابه طمعاتٍ يخرجُ النسيم - وهو الريحُ اللينة - منهن .
 وفلقت الشيء ، أفلقه - بكسر اللام - فلما ، أى شقته . ويُطِيع المظالم : يسقطها ،
 طاح الشيء ، أى سقط . أو هلك أو تاه فى الأرض ، وأطاحه غيره ، وطوّحه .
 ويُندِرُ السواعد : يسقطها أيضاً ، ندر الشيء يندُرُ نذراً ، أى سقط . ومنه النوادر ،
 وأندره غيره . والساعد : من الكوع إلى المرفق ، وهو الذراع .
 والمفامر : جمع مَنَسَر ؛ وهو قطعة من الجيش تكون أمامَ الجيش الأعظم ، بكسر
 السين وفتح الميم ، ويجوز مَنَسَر بكسر الميم وفتح السين ، وقيل إنها اللغة الفصحى .
 وبُرْجُوموا ، أى يُغزَوُا بالكتائب ، جمع كتيبة وهى طائفة من الجيش .
 تقفوها الخلاب ، أى تتبعها طوائف لنصرها والحماية عنها ، يقال : قد أحلبوا ، إذا
 جاءوا من كل أوب للنصرة ، ورجلٌ مُحَلِّب ، أى ناصر ، وحالبت الرجل ، إذا نصرته
 وأعنته ؛ وقال الشاعر^(٣) :

أَلْهَمَّا بِقُرْمَى سَحَبَلٍ حِينَ أَحْلَبْتِ عَمَلِيًّا الْوَلَايَا وَالْعَدُوَّ الْمَبَايِلَ^(٤)

(١) لقيس بن الخطيم ، ديوانه ٧ ، وديوان الحماسة - بشرح التبريزى ١ : ١٧٨ . الشعاع : المتفرق ، ومنه :
 تطاير القوم شعاعاً ، والنَفَذُ : الحرق ؛ يقول : لولا انتشار الشمس لأضاءها .
 (٢) ملكت ، من قولهم : ملكت العجين وأملكته ؛ إذا بالنت فى عجنه ؛ أى شددت بهذه الطمئة
 كفى ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيء الذى وراءها .
 (٣) هو جعفر بن عتبة المازنى ؛ ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ١ : ٤٤ .
 (٤) قرى : اسم موضع ، وسحبيل : واد بعينه . وأحلبت : أعانت : والولاي : جمع ولية ؛ وهى
 البردة ؛ يكنى بها عن النساء أو الضعفاء ؛ والمبايل : من البسالة ؛ وهى الشجاعة .

أى أعانت ونصرت . والخيس : الجيش . والدعق ، قد فسرّه الرضى رحمه الله ؛ ويجوز أن يفسّر بأمر آخر ؛ وهو المنيج والتنفير ؛ دَعَقَ القومَ يَدْعُقُهُمْ دَعَقًا ، أى هاج منهم ونفّرهم .

ونواحرأرضهم ، قد فسرّه رحمه الله أيضا ؛ ويمكن أن يفسّر بأمر آخر ، وهو أن يراد به أقصى أرضهم وآخرها ، من قولهم لآخر ليلة في الشهر : ناحرة .

وأعنان مساربهم ومسارحهم : جوانبها ، والمسارب : ما يسرب فيه المال الراعى ، والمسارح : ما يسرح فيه ، والفرق بين «سرح» و «سرب» ، أن السروح إنما يكون في أول النهار ، وليس ذلك بشرط في الشروب .

١ عود إلى أخبار صفيين

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه في صفيين ، يحرضهم به ، وقد ذكرنا من حديث صفيين فيما تقدّم أكثره ؛ ونحن نذكر هاهنا تمة القصة ؛ ليكون من وقف على ما تقدّم وعلى هذا المذكور آنفا هنا ، قد وقف على قصة صفيين بأسرها .

اتفق الناس كلّهم أنّ عمّارا رضى الله عنه أصيب مع على عليه السلام بصفيين ، وقال كثير منهم ، بل الأكثر : إنّ أويسا القرّنى^(١) أصيب أيضا مع على عليه السلام بصفيين . وذكر ذلك نصر بن مزاحم في "كتاب صفيين" ، رواء عن حفص بن عمران البرجمي ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي البختري ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أويس ما قال ، وقال الناس كلّهم : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنّ الجنة لتشتاق إلى

(١) هو أويس بن عامر القرّنى (بفتح القاف والراء) سيد التابعين ؛ ذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب .

عمار ، ورووا عنه صلى الله عليه وآله أن عماراً جاء يستأذن عليه ، فقال : « ائذنوا له ، مَرَحَباً بالطيب المطيب »^(١).

وروى سلمة بن كهيل ، عن مجاهد ، أن النبي صلى الله عليه وآله رأى عماراً وهو يحمل أحجار المسجد فقال : « ما لهم ولعمار ! يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار ! » .
وروى الناس كافة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « تقتلك الفئة الباغية »^(٢).

وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين ، عن عمرو بن شعير ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب الجهمي ، أن عمار بن ياسر نادى^(٣) في صفين يوماً قبل مقتله بيوم أو يومين : أين من يرغبى رضوان الله عز وجل ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ؟ فأتته عصابة من الناس ؛ فقال : أيها الناس ، اقصدوا بنا قصده هؤلاء القوم [الذين يتبعون دم عثمان ، ويرغمون أنه قتل مظلوماً ، والله إن كان إلا ظالماً لنفسه ، الحاكم بغير ما أنزل الله]^(٤) . ودفع على عليه السلام الراية إلى هاشم بن عتبة بن أفي وقاص - وكان عليه ذلك اليوم درعان - فقال له على عليه السلام كهيفة المازح : أيا هاشم ، أما تخشى على نفسك أن تكون أغور جبانا ؟ قال : ستعلم يا أمير المؤمنين ، والله لألئن بين جاجم العرب لف رجل ينوي الآخرة . فأخذ رماحه فمزقه فانكسر ، ثم أخذ آخر فوجده جاسياً فألقاه ، ثم دعا برمح كين فشده به اللواء^(٥).

قال نصر : وحدنا عمرو قال : لما دفع على عليه السلام الراية إلى هاشم بن عتبة ، قال

(١) صفين ٣٦٧

(٢) صفين ٣٦٦

(٣) صفين : « نادى يومئذ » .

(٤) تكملة من صفين

(٥) صفين ٣٦٩ - ٣٧٠ .

له رجل من أصحابه من بكبر بن وائل : أقدم هاشم - يسكررها - ثم قال : مالك [يا هاشم^(١)] قد انتفخ سحرُك ! أعوراً وجُبناً ! قال : مَنْ هذا ؟ قالوا : فلان ، قال : أهلها وخير منها ، إذا رأيتني قد صرعت نخذها . ثم قال لأصحابه : شدوا شُسوعَ نعالكم ، وشدوا أزرَكم ، فإذا رأيتموني قد هزّزت الراية ثلاثاً ، فاعلموا أنّ أحداً منكم لا يسبقني إلى الحملة^(٢) . ثم نظر إلى عسكر معاوية ، فرأى جمعا عظيما ، فقال : مَنْ أولئك ؟ قيل : أصحاب ذى الكلاع ، ثم نظر فرأى جندا ، فقال : من أولئك ؟ قيل : قريش وقوم من أهل المدينة ، فقال : قَوْمِي ، لا حاجة لي في قتالهم ، مَنْ عند هذه القبة البيضاء ؟ قيل : معاوية وجنده ، قال : فإني أرى دُونَهُمْ أسودّة^(٣) ، قيل : [ذاك]^(٤) عمرو بن العاص وابناه ومواليه ، فأخذ الراية فهزّها ، فقال رجل من أصحابه : ألَبَثَ^(٥) قليلا ولا تعجل ، فقال هاشم :

قَدْ أَكْثَرَا لَوْمِي وَمَا أَفْلَأَ^(٥) إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَنْ أَعْتَلَأَ
أَعْوَرُ يَبْغِي أَهْلَهُ مَحَلَأَ قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَأَ
لَا بَدَّ أَنْ يَقُولَ أَوْ يُفَلَأَ^(٦) أَشْلَهُمْ بِذِي الْكُعُوبِ شَلَأَ^(٧)

(١) تكملة من صفين .

(٢) صفين : « إليها »

(٣) أسودة : جمع سواد ، وهو الشخص .

(٤) صفين : « أمكت »

(٥) مروج الذهب ، ٢ : ٣٩٢ : « قد أكثر القوم » .

(٦) الفل : الهزيمة .

(٧) الشل : الطرد ، وذو الكعوب : الرمح . ورواية الطبري ٦ : ٢٤ :

* يَتَلَهُمْ بِذِي الْكُعُوبِ تَلَأَ *

ويتلهم : يصرعهم . وفي إحدى روايتي صفين . « أشدهم بذى الكعوب » :

مَعَ ابْنِ عَمِّ أَحْمَدَ الْمَعْلَى^(١) أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ وَصَلَّى^(٢)

قال نصر : وحدّثنا عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : لما تناول هاشم الراية ، جعل عمار بن ياسر يحرّضه على الحرب ، ويقرعه^(٣) بالرمح ، ويقول : أقدم يا أعور :

* لَا خَيْرَ فِي أَعْوَرَ لَا يَأْتِي الْفَزَعُ *

فيستحي من عمار ، ويتقدّم ، ويركز الراية ؛ فإذا ركزها عاوده عمار بالقول ، فيتقدّم أيضا . فقال عمرو بن العاص : إني لأرى لصاحب الراية السّوداء عملا ، لئن دام على هذا لَتَقْتُلَنَّ العرب اليوم ! فاقتتلوا قتالا شديدا ، وعمار ينادى :^(٤) صبرا ! والله إن الجنة^(٥) تحت ظلال البيض . فكان نازاء هاشم وعمار أبو الأعور السلمي ، ولم يزل عمار بهاشم ينجّسه وهو يزحف بالراية ، حتى اشتدّ القتال وعظم ، والتقى الزحفان ، واقتتلا قتالا لم يسمع السامعون بمثله ، وكثرت القتل في الفريقين جميعا^(٥) .

وروى نصر ، عن عمرو بن شمر ، قال : حدّثني^(٦) مَنْ أَثِقَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،

(١) بعده في صفين :

* فِيهِ الرَّسُولُ بِالْهَدَى اسْتَهْلَا *

(٢) بعده في صفين :

* فَجَاهَدَ السَّكْفَارَ حَتَّى أَبْلَى *

والخبر في صفين ٣٧٠ ، ٣٧١ ، وبعده هناك : « قال : وقد كان على قال له : أتخاف أن يكون أعور جبايا أبا هاشم المرقال ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ انعملني - إن شاء الله - ألف اليوم بين جاجم القوم ؛ فحمل يومئذ يرقل لمرقالا » .

(٣) صفين : « يتناولوه » .

(٤ - ٥) صفين : « صبرا عباد الله ، الجنة » . والبيض : السيوف .

(٥) صفين : « كليهما » ، والخبر هناك في ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٦) في صفين . « عن عمرو بن شمر ، عن أبي إسحاق ، عن أبي السفر » .

قال: لما التقينا بالقوم في ذلك اليوم، وجدناهم خمسة صفوف [قد قيّدوا أنفسهم بالعمائم]^(١)، فقتلنا صفّاً، ثم صفّاً، ثم خلاصنا إلى الرابع؛ ما على الأرض شاحى ولا عراقى يوتى دُبْرَه، وأبو الأعور يقول:

إِذَا مَا فَرَزْنَا كَانَ أَسْوَا فِرَارِنَا صُدُودَ الْخُدُودِ وَأَزُورَانَ الْمُنَاكِبِ^(٢)
صُدُودَ الْخُدُودِ وَالْقَنَا مَتَشَاوِرَ وَلَا تَبْرَحُ الْأَقْدَامُ عِنْدَ التَّضَارِبِ
قال نصر: والتقت في هذا اليوم همدان العراق بعك الشام، فقال قائلهم:
هَمْدَانُ هَمْدَانُ؛ وَعَكٌّ عَكٌّ سَتَعَلَمُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَرْكَ^(٣)
وكانت على عكّ الدروع، وليس عليهم رايات^(٤)، فقلت: همدان: خدّموا القوم،
أى اضرّوا سوقهم... فقالت عكّ: ابرُّكوا برك ألّكمل^(٥)، فبركوا كما يبرك^(٦)
الجل ثم رموا الحجر، وقالوا: لا نفرّ حتى يفر الحكر^(٧).

قال نصر: واقتتل الناس من لدن اعتدال النهار إلى صلاة المغرب، ما كان صلاة القوم إلا التكبير عند مواقيت الصلاة.

ثم إن أهل العراق^(٨) كشفوا ميمنة أهل الشام، فطاروا في سواد الليل، وكشف أهل الشام ميسرة أهل العراق، فاختلفوا في سواد الليل، وتبدلت الرايات بعضها ببعض، فلما أصبح الناس وجدّ أهل الشام لواءهم وليس حوله إلا ألف رجل، فاقتلعوه وركزوه من

(١) من صفين.

(٢) لقيس بن الحطيم؛ ديوانه ١٠.

(٣) الأرك: الضيف.

(٤) صفين: «رانات»، والرائات: جمع ران؛ وهو كالحنف إلا أنه لا قدم له.

(٥) يريد «الجل» وعكّ قلب الجيم كافاً. وانظر صفين ٢٥٦.

(٦) صفين: «كما يبرك».

(٧) أى الحجر، بلغة عكّ.

(٨) صفين: «ميسرة العراق».

وراء موضعه الأول وأحاطوا به، ووجد أهل العراق لواءهم مركوزاً وإس حولاً إلا ربيعة؛ وعلى عليه السلام بينها، وهم يحيطون به، وهو لا يعلم من هم، ويظنهم غيرهم؛ فلما أذن مؤذن على عليه السلام الفجر، قال على عليه السلام:

يَا مَرْحَبًا بِالْقَاتِلِينَ عَدْلًا وَبِالصَّلَاحِ مَرْحَبًا وَأَهْلًا

ثم وقف وصلى الفجر، فلما انقضى أبصر وجوهاً ليست بوجوه أصحابه بالأمر، وإذا مكانه الذي هو فيه مابئين الميسرة إلى القلب، فقال: مَنْ الْقَوْمُ؟ قالوا: ربيعة، وإنك يا أمير المؤمنين لعندنا منذ الليلة^(١)! فقال:

* نَحْرٌ طَوِيلٌ لَكَ يَا رَبِيعَةَ *

ثم قال لهاشم بن عتبة: خذ اللواء؛ فوالله ما رأيت مثل هذه الليلة. فخرج هاشم بالواء حتى ركزه في القلب^(٢).

قال نصر: حدثنا عمرو بن شير، عن الشعبي، قال: عبي معاوية تلك الليلة أربعة آلاف وثلثمائة من فارس وراجل مُعَلِّين^(٣) بالخصرة، وأمرهم أن يأتوا علياً عليه السلام من ورائه. ففطنت لهم همدان، فواجهوهم وصمدوا إليهم، فباتوا تلك الليلة يتحارسون، وعلى عليه السلام قد أفضى به ذهابه ومجيئه إلى رايات ربيعة؛ فوقف بينها وهو لا يعلم، ويظن أنه في عسكر الأشعث، فلما أصبح لم ير الأشعث ولا أصحابه، ورأى سعيد بن قيس الهمداني على مركزه، فجاء إلى سعيد رجل من ربيعة، يقال له زُفَرُ^(٤) فقال [له]^(٥): أأنت القاتل بالأمر؟ لم تنته ربيعة لتسكنون ربيعة ربيعة، وهمدان همدان؟ فما أغنت همدان

(١) صفين: «وقد بت فيهم تلك الليلة».

(٢) صفين ٣٧٣، ٣٧٤.

(٣) يقال رجل معلم، بكسر اللام؛ إذا علم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها؛ ومنه قول الشاعر:

فَنَعْرِفُوْنِي إِنْ نِي أَنَا ذَاكُمْ شَاكٍ سِلَاحِي فِي الْحَوَادِثِ مُعَلِّمٌ

(٤) صفين: «نفر».

(٥) من صفين.

البارحة ! فنظر إليه على عليه السلام نظر منكبر ، ونادى منادى على عليه السلام : أن
اتعدوا للقتال ، واغدوا عليه ، وانهدوا إلى عدوكم . فكلهم تحرك إلا ربيعة لم تتحرك ، فبعث
إليهم على عليه السلام : أن انهدوا إلى عدوكم ، فبعث إليهم أبو ثروان ، فقال : إن
أمير المؤمنين عليه السلام يُقرئكم السلام ، ويقول لكم : يا معشر ربيعة ، ما لكم لا تنهدون
إلى عدوكم وقد نهّد الناس ! قالوا : كيف نهّد وهذه الخيل من وراء ظهرنا ! قل لأمر
المؤمنين فليأمر همدان أو غيرها بما جزتهم لنشهد . فرجع أبو ثروان إلى على عليه السلام ،
فأخبره ، فبعث إليهم الأشتر ، فقال : يا معشر ربيعة ، ما منعكم أن تنهدوا وقد نهّد
الناس - وكان جهر الصوت - وأنتم أصحاب كذا ، وأصحاب كذا ؟ فجمع يعدد أيامهم .
فقالوا : لسنا نفعل حتى ننظر ما تصنع هذه الخيل التي خلف ظهورنا ؛ وهي أربعة آلاف ،
قل لأمر المؤمنين : فليبعث إليهم من يكفيه أمرهم .

وراية ربيعة يومئذ مع الحُصَيْن^(١) بن المنذر . فقال لهم الأشتر : فإن أمير المؤمنين يقول
لكم : ا كفون بها ، إنكم لو بعثتم إليهم طائفة منكم لتركوكم في هذه الغلاة ، وفرّوا
كاليعافير^(٢) . فوجهت حينئذ ربيعة إليهم تيم الله والذير بن قاسط وعنزّة . قالوا : فشيننا
إليهم مستلثمين مقلّعين في الحديد - وكان عامة قتال صفيين مشياً - قال : فلما أتيناهم هربوا
وانتشروا انتشار الجراد ، فذكرت قوله : « وفرّوا كاليعافير » . ثم رجعنا إلى أصحابنا وقد
نشب القتال بينهم وبين أهل الشام ، وقد اقتطع أهل الشام طائفة من أهل العراق ، بعضها
من ربيعة ، فأحاطوا بها ، فلم نصل إليها حتى حملنا على أهل الشام ، فعلّوناهم بالأسياف
حتى انفرجوا لنا ، فأفضينا إلى أصحابنا فاستنقذناهم ، وعرفناهم تحت النقع بسيماهم وعلايتهم .
وكانت علامة أهل العراق بصفيين الصوف الأبيض ، قد جعلوه في رؤوسهم وعلى

(١) في الأصول : حصين ، بالصاد المهملة ؛ تصحيف ، وهو الحُصَيْن بن المنذر بن الحارث بن وعله
الرقاشي ، كان من كبار التابعين ، وانظر المؤلف ٨٧ .
(٢) اليعافير : جمع يعفر ؛ وهو الطي .

أكتافهم ، وشعارهم : « يا الله ، يا الله ! يا أحد يا صمد ! يا رب محمد ! يا رحمن يا رحيم ! » ، وكانت علامة أهل الشام خِرْقًا صُفْرًا ، قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم ، وشعارهم :
* نحن عبادُ الله حقًا حقًا *

يا لثارات عُثمان !

قال نصر : فاجتلدوا بالسيوف وعُمد الحديد ، فلم يتحاجزوا حتى حَجَزَ بينهم الليل ، وما يُرَى رجلٌ من هؤلاء ومن هؤلاء موليًّا^(١) .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد^(٢) ، قال : كانوا عربًا يعرف بعضهم بعضًا في الجاهلية ، وإتاهم كلدثو عهد بها ، فالتقوا في الإسلام . وفيهم بقايا تلك الحمية ، وعند بعضهم بصيرة الدين والإسلام ، فتضاربوا واستحيوا من الفرار ؛ حتى كادت الحرب تبيدهم ، وكانوا إذا تحاجزوا دَخَلَ هؤلاء عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلًاهم فيدفنونهم^(٣) .

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد ، قال : فبينما على عليه السلام واقفًا بين جماعة من همدان وحمر وغيرهم من أفناء^(٤) قحطان ، إذ نادى رجل من أهل الشام : من دلّ على أبي نوح الحميري ؟ ففيل له : قد وجدته ، فماذا تريد ؟ قال : فحَسِر عن لثامة ، فإذا هو ذو السكلاع الحميري ، ومعه جماعة من أهله ورهطه ، فقال لأبي نوح : يسرّ معي ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى أن نخرج عن الصّف ، قال : وما شأنك ؟ قال : إن لي إليك الحاجة ، فقال أبو نوح ، معاذ الله أن أسير إليك إلّا في كتيبة ! قال ذو السكلاع : بلى فسرّ فلك ذمة الله وذمة رسوله

(١) صفين ٢٧٤ - ٢٧٦

(٢) في صفين : « نصر ؟ عمر ، حدثني صديق أبي عن الإفريق بن أنعم قال . »

(٣) الخبر في صفين ٣٧٧ موصول بما بعده ؛ وهناك : « فيدفنونهم ، فلما أصبحوا - وذلك يوم الثلاثاء - خرج الناس إلى مصافهم ، فقال أبو نوح : فسكنت في الخيل يوم صفين ، في خيل على عليه السلام ، وهو واقف بين جماعة من همدان وحمر وغيرهم من أفناء قحطان . . . » .

(٤) أفناء الناس : أخلاطهم .

وذمة ذى الكلاع ، حتى ترجع إلى خيملك ، فإنما أريد أن أسألك عن أمرٍ فيكم تماريناه فيه . فسار أبو نُوح ، وسار ذو الكلاع ، فقال له : إنما دعوتك أحدثك حديثاً حدثناه عمرو بن العاص قديماً في خلافة^(١) عمر بن الخطاب ، ثم أذكرُ ناه الآن به فأعاده ؛ إنه يزعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه قال : « يلتقي أهل الشام وأهل العراق ، وفي إحدى الكتبتين الحق وإمام الهدى ، ومعه عمار بن ياسر » . فقال أبو نوح : نعم والله^(٢) ؛ إنه لفيها . قال : نشدتك الله ، أنجاداً هو على قتالنا^(٣) ؟ قال أبو نوح : نعم ورب الكعبة ، لهو أشدّ على قتالكم مني ، ولوددت أنكم خلقت واحد فذبحتّه وبدأت بك قبلهم ، وأنت ابن عمي^(٤) . قال ذو الكلاع : وبلك ! علام تمنى ذلك مِنّا ! فوالله ما قطعك فيما بيني وبينك قطّ ، وإن رحمتك لقريبة ، وما يسُرّني أن أقتلك . قال أبو نوح : إن الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة ، ووصل به أرحاماً متباعدة ، وإنى قاتلك وأصحابك ، لأتاعلى الحق وأنتم على الباطل . قال ذو الكلاع : فهل تستطيع أن تأتي معي صفّة أهل الشام ، فأنا لك جارٌّ منهم ، حتى تلقى عمرو بن العاص ، فتخبره بحال عمار وجده في قتالنا ، لعله أن يكون صلحٌ بين هذين الجندين !

— قلت : واتجّباه من قوم يعترهم الشك في أمرهم لمكان عمار ، ولا يعترهم الشك لمكان عليّ عليه السلام ! ويستدلّون على أن الحق مع أهل العراق بكون عمار بين أظهرهم ، ولا يعيئون بمكان عليّ عليه السلام ! ويحذرون من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « تقتلُ الفئة الباغية » ، ويرتاعون لذلك ، ولا يرتاعون لقوله صلى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام : « اللهم والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه » ، ولا لقوله : « لا يحببك إلا مؤمن »

(١) صفين : « إمارة »

(٢) صفين : « لعمر الله » .

(٣) صفين : « في قتالنا » .

(٤) كذا في د ، وفي ب : « أنت وابن عمي » .

ولا يفضك إلا منافق . وهذا يدلّك على أنّ عليا عليه السلام اجتهدت قريش كلها من مبدأ الأمر في إخمال ذكره وستر فضائله ، وتفطية خصائصه حتى يُحَيَّ فضلُه ومرتبته من صدورِ الناس كافة إلا قليلا منهم .

قال نصر : فقال له أبو نوح : إنك رجل غدير ، وأنت في قوم غدير ، وإن لم يُرد الغدر أغدروك ، وإن أن أموت أحبُّ إليّ من أن أدخل مع معاوية . فقال ذو الكلّاع : أنا جارك من ذلك ؛ ألا تقتل ولا تسلب ولا تسكره على بيعة ، ولا تحبس عن جنّدك ؛ وإنما هي كلمة تبلّغهم عمرو بن العاص ، لعلّ الله أن يُصليح بذلك بين هذين الجندين ، ويضع عنهم الحرب . فقال أبو نوح : إني أخاف غدراتك وغدرات أصحابك . قال ذو الكلّاع : أنا لك بما قلت زعيم ، قال أبو نوح : اللهم إنك ترى ما أعطاني ذو الكلّاع ، وأنت تعلم ما في نفسي ، فاعصمني واختر لي وانصرني ، وادفع عني . ثم سار مع ذي الكلّاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس ، وعبد الله بن عمر يحرّض الناس على الحرب ، فلما وقفوا على القوم ، قال ذو الكلّاع لعمرو : يا أبا عبد الله ، هل لك في رجل ناصح لبيب مشفق ؛ يخبرك عن عمّار بن ياسر فلا يكذبك ؟ قال : ومن هو ؟ قال : هو ابن عمّي هذا ، وهو من أهل الكوفة . فقال عمرو : أرى عليك سيما أبي تراب ! فقال أبو نوح : على سيما محمد وأصحابه ، وعليك سيما أبي جهل وسيا فرعون ! فقام أبو الأعور فسل سيفه ، وقال : لا أرى هذا الكذاب اللئيم يسبّنا بين أظهرنا وعليه سيما أبي تراب ! فقال ذو الكلّاع : أقسم بالله لنن بسط يدك إليه لأحطمن أنفك بالسيف ؛ ابن عمّي وجاري ، عقدت له ذمتي ، وجئت به إليكم ليخبركم عما تماريتم فيه . فقال له عمرو بن العاص : يا أبا نوح ، أذكرك بالله إلّا ما صدقنا ولم تكذبنا ، أفياكم عمّار بن ياسر ؟ قال أبو نوح : ما أنا بمخبرك حتى تخبر : لم تسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد صلى الله عليه عذّة غيره ، وكلّهم جادّ على قتالكم ؟ فقال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إن

عماراً تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس لعمار أن يفارق الحق، ولن تأكل النار من عمار شيئاً»، فقال أبو نوح: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لآميناً جاداً على قتالكم! فقال عمرو: الله الذي لا إله إلا هو إنه لجاد على قتالنا! قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو؛ ولقد حدثني يوم الجمل أنا سنظهر على أهل البصرة، ولقد قال لي أمس: إنكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بناسمات^(١) هَجَرَ؛ لعلمنا أننا على الحق، وأنكم على باطل؛ ولما كانت قتالنا في الجنة وقتالكم في النار. قال عمرو: فهل تستطيع أن تجمع بيني وبينه؟ قال: نعم، فركب عمرو بن العاص وابناه، وعُتْبَةُ بن أبي سفيان وذو السكلاع، وأبو الأعور السلمي، وحوشب، والوليد بن عقبة وانطلقوا، وسار أبو نوح ومعه شُرَحْبِيل بن ذي السكلاع يحميه؛ حتى انتهى إلى أصحابه، فذهب أبو نوح إلى عمار، فوجده قاعداً مع أصحاب له، منهم الأشتر وهاشم وابنا بُدَيْل، وخالد بن معمر، وعبد الله بن حَجَل، وعبد الله بن العباس. فقال لهم^(٢) أبو نوح: إنه دعاني ذو السكلاع، وهو ذو رَحِم؛ فقال: أخبرني عن عمار ابن ياسر، أفیکم هو؟ فقلت: لِمَ تسأل؟ فقال: أخبرني عمرو بن العاص في إمرة عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه، يقول: «يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وعمار مع أهل الحق، وتقتله الفئة الباغية»، فقلت: نعم، إن عماراً فينا، فسألني: أجاد هو كل قتالنا؟ فقلت: نعم والله، إنه لأجد متى في ذلك، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك يا ذا السكلاع، فضحك عمار، وقال: أيسرك ذلك؟ قال: نعم، ثم قال أبو نوح: أخبرني الساعة عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه يقول: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، قال عمار: أقررت به بذلك؟ قال: نعم، لقد قررت به بذلك فأقر،

(١) الحديث في النهاية ٢: ١٦٢؛ قال في شرحه: «السعات: جمع سعة، بالتجريك؛ وهي أغصان النخيل؛ وقيل: إذا يبست سميت سعة؛ وإذا كانت رطبة؛ فهي شطبة؛ وإنما حض هجر للبعداء في المسافة؛ ولأنها موصوفة بكثرة النخيل». .
(٢) صفين: «وقال أبو نوح» .

فقال عمار : صدق ، ولا يضرته ما سمع ولا ينفعه . قال أبو نوح : فإنه يريد أن يلقاك ، فقال عمار لأصحابه : اركبوا ، فركبوا وساروا . قال : فبعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمى عوف بن بشر فذهب ، حتى إذا كان قريباً منهم ، نادى : أين عمرو بن العاص ؟ قالوا : ها هنا ؛ فأخبره بمكان عمار وخيله ، قال عمرو : قل له : فليسر إلينا ، قال عوف : إنه يخاف غدارتك وفجراتك ، قال عمرو : ما أجراك على وأنت على هذه الحال ؟ قال عوف : جرأتى عليك بصري فيك وفى أصحابك ، وإن شئت نابذتك الآن على سواء ، [وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك ، وأنت كنت غادراً]^(١) ؛ فقال عمرو : إنك لسفيه ، وإنى باعث إليك رجلاً من أصحابي يوافقك^(٢) ، قال : ابعث من شئت ، فلست بالمستوحش ، وإنك لا تبعث إلا شقيئاً ، فرجع عمرو ، وأنفذ إليه أبا الأعور ، فلما تواقفا تعارفاً ، فقال عوف : إني لأعرف الجسد وأنكر القلب ، وإنى لا أراك مؤمناً ولا أراك إلا من أهل النار ، قال أبو الأعور : يا هذا ؛ لقد أعطيت لسانا يكتبك الله به على وجهك فى النار ، قال عوف : كلاً والله إني لأتسكلم بالحق وتكلم بالباطل ، وإنى أدعوك إلى الهدى وأقاتلك على الضلال^(٣) ؛ وأفر من النار ، وأنت بنعمة الله ضال ، تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة ، وتشترى العقاب بالمغفرة ، والضلالة بالهدى ؛ انظر^(٤) إلى وجوهنا ووجوهكم وسيانا وسيامكم ، واسمع دعوتنا ودعوتكم ، فليس أحداً ميتاً إلا وهو أولى بالحق وبحمد ، وأقرب إليه منكم . فقال أبو الأعور : لقد كثرت الكلام ، وذهب النهار ، ويحك ! ادع أصحابك وأدع أصحابي ، وليأت أصحابك فى قلة إن شاءوا أو كثرة ، فإني أجىء من أصحابي بعدتهم^(٥) ، [فإن شاء أصحابك فليقلوا ،

(١) تكملة من كتاب صفين .

(٢) كذا فى د ، وفى ب : « يوافقك » .

(٣) صفين : « وأقاتل أهل الضلال » .

(٤) صفين : « انظروا . . . واسمعوا . . . » .

(٥) صفين : « بعددهم » . وفى ب : « بعده » .

وإن شاءوا فليكثرُوا»^(١). فسار^(٢) عمار في اثني عشر فارساً، حتى إذا كانوا بالمنصف سار عمرو بن العاص في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل^(٣)؛ خيل عمار وخيل عمرو، ونزل القوم واحتبوا بمائل سيوفهم، فتشهد عمرو بن العاص، فقال له عمار: اسكت، فلقد تركتها وأنا أحق بها منك، فإن شئت كانت خصومة فيدفع حقنا باطلاً، وإن شئت كانت خطبة؛ فنحن أعلم بفصل الخطاب منك، وإن شئت أخبرتك بكلمة تفصل بيننا وبينك، وتكفرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسك، ولا نستطيع أن تسكذبني فيها. فقال عمرو: يا أبا اليقظان، ليس لهذا جئت إنما جئت لأنني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم. أذكرك الله ألا كففت سلاحهم، وحقنت دماءهم، وحرصت^(٤) على ذلك، فعلام تقاتلوننا! أو لسنا نعبد إلهاً واحداً، ونصلي إلى قبلتكم وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن بنبيتكم ا فقال عمار: الحمد لله الذي أخرجنا من فيك، إلهي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والني والكتاب؛ من دونك ودون أصحابك. الحمد لله الذي قررك لنا بذلك، وجعلك ضالاً مضلاً أعمى، وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك؛ إن رسول الله صلى الله عليه أمرني أن أقاتل الناكثين؛ فقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين وأنتم هم، وأما المارقون فلا أدري أدرتهم أم لا! أيها الأبت، ألسنت تعلم أن رسول الله صلى الله عليه قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه!» فأنامولى الله ورسوله وعلى مولاي بعدما. قال عمرو: لِمَ تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك! قال عمار: ويَمَ تشتمني؟ أستطيع أن تقول: إني عصيت الله ورسوله يوماً قط ا قال عمرو: إن فيك لمساب^(٥) سوى ذلك؛ قال عمار: إن الكريم من أكرمه

(١) تسكلمة من كتاب صفين .

(٢ - ٢) صفين : « فسار أبو الأعور في مائة فارس حتى إذا كان حيث كنا بالمرة الأولى وقفوا وسار في عشرة بعمر، وسار عمار في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل . . . » .

(٣) صفين : « وحرصت على ذلك » .

(٤) صفين : « لمسات » .

الله ! كنتُ وضعياً فرفعني الله ، ومملوكاً فأعتقني الله ، وضعيفاً فقوّاني الله ؛ وفقيراً فأغنانى الله ! قال عمرو : فأتري في قتل عثمان ؟ قال : فتنح لكم باب كل سوء ، قال عمرو : فعلى قتله ؟ قال عمار : بل الله ربُّ على قتله وعلى معه ، قال عمرو : فكنت^(١) فيمن قتله ؟ قال : كنتُ مع مَنْ قتله ، وأنا اليوم أقاتل معهم ، قال عمرو : فلم تقتلتموه ؟ قال عمار : إنه أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه ، فقال عمرو : ألا تسمعون ؟ قد اعترف بقتل إمامكم ! فقال عمار ، قد قالها فرعون قبلك لقومه : ﴿ أَلَا أَسْتَمِعُونَ ﴾^(٢) . فقام أهل الشام ولهم زجل فركبوا خيولهم ورجعوا ، وقام عمار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا ، وباع معاوية ما كان بينهم فقال : هلكت العرب إن حرّكتهم خفة العبد الأسود - يعني عماراً^(٣) .

قال نصر : فخذنا عمرو بن شمر ، قال : فخرجت^(٤) الخيول إلى القتال واصطفت بعضها البعض ، وتزاحف الناس ، وعلى عمار درعٌ بيضاء ؛ وهو يقول : أيها الناس ، الرواح إلى الجنة .

فقاتل القوم قتالا شديدا لم يسمع السامعون بمثله ، وكثرت القتلى حتى أن كان الرجل ليشدّ طُنْبُ فُسْطاطه بيد الرجل أو برجله . وحكى الأشعث بعد ذلك ، قال : لقد رأيت أخبية صفيين وأروقتها ، وما فيها خباء ولا رواق ولا فُسْطاط إلا مربوطا بيد إنسان أو برجله .

قال نصر : وجعل أبو التمام الأسدي يأخذ إداوة من ماء وشقيرة حديدية ، فيطوف في القتلى ، فإذا رأى رجلاً جريحاً وهرمق أقعده ، فيقول له : مَنْ أمير المؤمنين ؟ فإذا قال :

(١) صفين : « أ كنت » .

(٢) من الآية ٢٥ في سورة الشعراء

(٣) صفين ٣٧٧ - ٣٨٤

(٤) صفين : « وخرج للقتال » أي عمار .

« على » غسل الدم عنه ، وسقاه من الماء ، وإن سكت وجاء بالسَّكِين حتى يموت ولا يسقيه^(١) .

قال نصر : وحدَّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : سمعت الشعبي ، يقول : قال الأحنف بن قيس : والله إنِّي إلى جانب عمار بن ياسر ، [بيني وبينه رجل من بني الشعيرة^(٢)] .

فتقدّمنا حتى دنونا من هاشم بن عتبة ، فقال له عمار : انجل فذاك أبي وأمي ! فقال له هاشم : يرحمك الله يا أبا اليعظان ! إنك رجل تأخذك خيفة في الحرب ، وإنما أزعف باللواء زحفاً ، أرجو أن أنال بذلك حاجتي ، وإن خففت لم آمن الهلكة . وقد كان قال معاوية لعمرو : ويحك ! إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان من قبل يُرقل به إرقالاً ، وإن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول على أهل الشام ، فإن زحف في عُنق^(٣) من أصحابه ؛ إنني لأطمع أن تقتطع . فلم يزل به عمار حتى حمل ، فبصر به معاوية ، فوجه إليه حماة أصحابه ومن يُزَنُّ^(٤) بالبأس والفجدة منهم في ناحية ، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومعه يومئذ سيفان قد تقلد بأحدهما ، وهو يضرب بالآخر ، فأطافت به خيول على عايه السلام ، وجعل عمرو يقول : يا الله ، يا رحن ! ابني ، ابني ! فيقول معاوية : اصبر فلا بأس عليه . فقال عمرو : لو كان يزيد ابن معاوية ، أصبرت^(٥) ! فلم يزل حماة أهل الشام تذبّ عن^(٦) عبد الله حتى نجاهاربا على فرسه^(٧) [ومن معه ، وأصيب هاشم في المعركة]^(٨) .

(١) صفين ٣٨٥

(٢) من صفين .

(٣) عنق ، أي جماعة .

(٤) يزَنُّ ، أي يتهم .

(٥) صفين : « إذا أصبرت » .

(٦) صفين : « يذبون عنه » .

(٧) صفين ٣٨٥ ، ٣٨٦

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : وفي هذا اليوم قُتِلَ عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أصيب في المعركة ، وقد كان قال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص : والله إنها لراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن ، ثم قال :

نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
* أَوْ يَرْجِعَ الْحَقُّ إِلَى سَبِيلِهِ *

ثم استسقى وقد اشتد عطشه ، فأتته امرأة طويلة اليدبن ، ما أدرى أعس معها أم إداوة ، فيها ضيآخ^(١) من لبن ! فقال حين شرب : « الجنة تحت الأسنه ، اليوم ألقى الأحبه ، محمدا وحزبه » . والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعَفَاتِ هَجَرَ لعلنا أنا على الحق ، وأنهم على الباطل . ثم حمل وحمل عليه ابن حوَي السكسكى^(٢) وأبو العادية ، فأما أبو العادية فطمعه ، وأما ابن حوَي فاحتز رأسه ، وقد كان ذو السكلاع يسمع عمرو بن العاص يقول : إن النبي صلى الله عليه يقول لعمار : « تقتلك الفئة الباغية ، وآخر شريك ضيآخ من لبن » ، فقال ذو السكلاع لعمرو : ويحك ما هذا ! قال عمرو : إنه سيرجع إلينا ، ويفارق أبا تراب ؛ وذلك قبل أن يصاب عمار ، فلما أصيب عمار في هذا اليوم أصيب ذو السكلاع ، فقال عمرو لمعاوية : والله ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ! والله لو بقي ذو السكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة قومه إلى على ، ولأفسد علينا أمرنا^(٣) .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : كان لا يزال رجل يحس ، فيقول لمعاوية وعمرو : أنا قتلت عمارا ، فيقول له عمرو : فما سمعته يقول ؟ فيخاطب ، حتى أقبل ابن حوَي^(٤) ،

(١) الضيآخ بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .

(٢) صفين : « ابن جون السكوني » ، وفي مروج الذهب ٢ : ٢١ : « أبو حواء السكسكى » .

(٣) صفين : « جندنا » ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

(٤) صفين : « ابن جون » .

فقال : أنا قتلته ، فقال عمرو : فما كان آخر منطقه ؟ قال : سمعته يقول : « اليوم ألقى الأحبَّ ، محمدا وحزبه » . فقال : صدقت ، أنت صاحبه ، أما والله ما ظفرتُ يداك ؛ ولقد أسخطتَ ربَّك ^(١) .

قال نصر : حدثنا عمرو بن شمر ، قال : حدثني إسماعيل السديّ ، عن عبد خير الهمدانيّ ، قال : نظرتُ إلى عمّار بن ياسر يوم من أيام صيفين ، قد رُمِيَ رميةً فأغمي عليه ، فلم يصلِّ الظهرَ ولا العصرَ ولا المغربَ ولا العشاءَ ولا الفجرَ ، ثم أفاق فقضاهن جميعا ، يبدأ بأول شيء فاتّه ، ثم بالتي تليها ^(٢) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن السديّ ، عن أبي حُرَيْث ، قال : أقبل غلامٌ لعمّار بن ياسر ، اسمه راشد ، يحمل إليه يوم قتل بشربة من لبن ، فقال عمّار : أما إني سمعتُ خليلي رسول الله صلى الله عليه يقول : « إنَّ آخِرَ زادك من الدنيا شربة لبن » ^(٣) .

قال نصر : وروى عمرو بن شمر ، عن السديّ ، أن رجلين بصيفين اختصما في سلب عمّار وفي قتله ، فأَتيا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : ويحكما اخرجنا عني ! فإن رسول الله صلى الله عليه قال : « ما لقريش ^(٤) ولعمّار ! يدعوم إلى الجنة ويدعونه إلى النار . قاتله وسأله في النار » .

(١) صفين : ٣٨٧ ، ٣٨٨

(٢) صفين ٣٨٨

(٣) صفين ٣٨٨

(٤) العبارة في صفين : « ولعت قريش بعمار ، ما لهم ولعمار .. »

قال السُّدِّيُّ : فبلغني أنَّ معاوية قال لما سمع ذلك : إنما قَتَلَهُ مَنْ أخرجَهُ ؛ يَخْدَعُ بذلك طَفَّامَ أَهْلِ الشَّامِ ^(١) .

قال نصر : وحدثنا عمرو، عن جابر، عن أبي الزبير ، قال : أتى حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رَهْطًا مِنْ جُهَيْنَةَ ، فقالوا له : يا أبا عبد الله ، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه استجار من أن تُصْطَلَمَ أُمَّتُهُ ^(٢) ، فأجبر من ذلك ، واستجار من أن يُذَيَّقَ ^(٣) أُمَّتَهُ بعضها بأس بعض ، فنع من ذلك ، فقال حُذَيْفَةُ : لِمَ نَسَمِعْتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إِنَّ ابْنَ سَمِيَّةٍ لَمْ يَخَيْرْ بَيْنَ أُمْرَيْنِ قَطَّ إِلَّا اخْتَارَ أَشَدَّهُمَا - يَعْنِي عَمَّارًا - فَالْزَمُوا سَمِيَّةَ » ^(٤) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر، قال : حمل عَمَّارُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَى صَفِّ أَهْلِ الشَّامِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ :

كَتَلَا وَرَبَّ الْبَيْتِ لَا أَبْرَحُ أَحْيَى	حَتَّى أَمُوتَ أَوْ أَرَى مَا أَشْتَبِي
لَا أَفْتَأُ الدَّهْرَ أَحَامِي عَنْ عَلِيٍّ ^(٥)	صَهْرَ الرَّسُولِ ذِي الْأَمَانَاتِ الْوَفِيِّ
يَنْصُرُنَا رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعَلِيِّ ^(٦)	وَيَقْطَعُ الْهَامَ بِحَدِّ الْمَشْرِفِيِّ
يَنْحُنُّ النَّصْرَ كُلِّي مِنْ يَدَيْهِ ^(٧)	ظَلَمَّا عَلَيْنَا جَاهِدًا مَا يَأْتِلِي

قال : فَضْرَبَ أَهْلَ الشَّامِ حَتَّى اضْطَرَّوْا إِلَى الْفِرَارِ ^(٨) .

(١) صفين ٣٨٨ ، ٣٨٩

(٢) تصطلم : تستأصل .

(٣) صفين : « واستجار من أن يذوق بعضها بأس بعض » .

(٤) صفين ٣٨٩

(٥) صفين : « أما مع الحق أحامى عن علي » .

(٦) صفين : نقتل أعداءه وينصرنا الحق .

(٧) صفين : « والله ينصرنا » .

(٨) صفين ٣٨٩

قال نصر : وقد كان عبد الله بن سويد الحميري من آل ذى الكلاع ، قال لذي الكلاع : ما حديثُ سمعته من ابن العاص في عمار ؟ فأخبره ، فلما قُتِلَ عمار خرج عبد الله ليلاً يمشي ، فأصبح في عسكر على عليه السلام ، وكان عبد الله من عباد أهل زمانه ، وكاد أهل الشام أن يضطربوا لولا أن معاوية قال لهم : إن علياً قتل عماراً ، لأنه أخرجه إلى الفتنة . ثم أرسل معاوية إلى عمرو : لقد أفسدت على أهل الشام ؛ أكل ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله تقوله ! فقال عمرو : قلتها ولست أعلم الغيب ، ولا أدري أن صفيين تكون ! قلتها وعمار يومئذ لك ولي ، وقد رويت أنت فيه مثل ما رويت . فنضب معاوية وتذمر لعمرو ، وعزم على منعه خيرته ، فقال عمرو لابنه وأصحابه : لا خير في جوار معاوية ؛ إن تجملت هذه الحرب عنه لأفارقته - وكان عمرو يحى الأنف ، قال (١) :

تعاينني أن قلتُ شيئاً سمعته	وقد قلت لو أنصفتني مثله قبلي
أنعلك فيما قلت نعل ثبيرة	وتزلق بي في مثل ما قلته نعلي !
وما كان لي علم بصفيين أنها	تكون وعمار يحث على قتلي
ولو كان لي بالغيب علم كتبتها	وكابدت أقواماً مراجلهم تغلي (٢)
أبي الله إلا أن صدرك واغر	على بلا ذنب جنيت ولا دخل
سوى أننى والراقصات عشية	بنصرك مدخول الهوى ذاهل العقل
فلا وضعت عني حصان فيناعها	ولا حملت وجناه ذعلبة رجلي (٣)
ولازلت أدعى في لوى بن غالب	قليلاً غفائي لا أمرئ ولا أخلي
إن الله أرخى من خفافك مرة	ونلت الذي رجيت إن لم أزر أهلي

(١) صفيين : فقال في ذلك .

(٢) ب : « كابدت » تصحيف صوابه من د .

(٣) الوجناء : الناقة الشديدة ، شبهت بالوجين من الأرض ؛ وهو الأرض الصلبة . والذعلبة : السريعة

وأترك لك الشام التي ضاق رُحْبُها عليك ولم يَهْنِكْ بها العيشُ من أجلي
فأجابه معاوية :

أالآن لما ألفتِ الحربُ برَّكها وقام بنا الأمر الجليلُ على رجلٍ
غمزتَ قناتي بعد ستين حجةً تبعاً كأنى لا أمرٌ ولا أخلي !
أثبتَ بأمرٍ فيه للشام فتنةٌ وفي دون ما أظهرته زاةُ النعلِ
فقلت لك القول الذي ليس ضائراً ولو ضرَّ لم يضرُ رُكَّ حملك لي ثقلِ
تُعَاتِبُنِي في كلِّ يومٍ وليلةٍ كأن الذي أبليك ليس كما أبلي^(١)
فيأقبِّحَ الله العتابَ وأهله ألم ترما أصبحتُ فيه من الشغلِ !
فدعْ ذاوا لکن هل لك اليومَ حيلةٌ تردُّ بها قوماً مراجِلُهُم تَغْلِي !
دعاهم على فاستجابوا لدَعْوَةٍ أحبَّ إليهم من نَرَى المال والأهل
إذا قلت ها بوا حوامة الموت أرقلوا إلى الموت إرقال الملوك إلى الفحلِ

قال : فلما أتى عمرا شعر معاوية أتاه ، فأعقبه^(٢) وصار أمرهما واحدا .

قال « نصر : ثم إن عليا عليه السلام دعا في هذا اليوم هاشم بن عتبة ومعه لواؤه
[وكان أعور]^(٣) فقال له : يا هاشم^(٤) حتى متى ! فقال هاشم : لأجهدنَّ ألا أرجع إليك
أبدًا . فقال علي عليه السلام : إنَّ بإزائك ذا السكلاع ، وعنده الموت الأحمر . فتقدم هاشم

(١) صفين : « فعايتني »

(٢) أعقبه : أرضاه .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « يا هاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ فقال هاشم : لأجهدن على ألا أرجع إليك
أبدًا ، قال علي : إن بإزائك ذا السكلاع وعنده الموت الأحمر ! فتقدم هاشم فلما أقبل قال معاوية : من هذا
المقبل ؟ فقيل : هاشم المرقال . ، فقال : أعور بني زهرة ! قاتله الله ! وقال : إن حماة اللواء ربيعة ،
فأجبلوا القداح ، فن خرج سهمه غيبته لهم ، فخرج سهم ذى السكلاع لبكر بن وائل ، فقال : ترحك الله
من سهم ! كرهت الضراب ! وإنما كان جل أصحاب على أهل اللواء من ربيعة ؛ لأنه أمر حماة منهم أن
يحاموا عن اللواء ، فأقبل هاشم وهو يقول « .

فلما أقبل ، قال معاوية : مَنْ هذا المقبل ؟ فقيل : هاشم المِرْقَال ، فقال : أعور بن زُهْرَة !
قَاتله الله ! فأقبل هاشم وهو يقول :

أَعْوَرُ يَبْغِي نَفْسَه خَلَاصًا مِثْلَ الْفَنِيْقِ لَا بَسَاءَ دِلَاصًا^(١)
لَا دَبَّةَ يَخْشَى وَلَا قِصَاصًا كُلُّ أَمْرٍ وَإِنْ كَبَا وَحَاصًا^(٢)
* لَيْسَ يَرَى مِنْ يَوْمِهِ مَنَاصًا *

فحمل صاحب لواء ذى الكلاع - وهو رجل من عُذْرَة - فقال :
يَا عَوْرَ الْعَيْنِ - وَمَا بِي مِنْ عَوْرٍ - انْتَبُتْ فَإِنِّي لَأَسْتُ مِنْ فَرْعَى مُضَرٍ
لَحْنُ الْيَمَانُونَ وَمَا فِينَا خَوْرٌ كَيْفَ تَرَى وَقَعَ غُلَامٍ مِنْ عُدْرٍ !
يَنْعَى ابْنَ عَفَانَ وَيَلْحَى مَنْ عُدْرٌ سَيَّانٍ عِنْدِي مَنْ سَعَى وَمَنْ أَمْرٌ
فاختلعا طعنةين ، فطعن هاشم فقتله ، وكثرت القتلى حول هاشم ، وحمل ذو الكلاع ،
واختلط الناس واجتلدوا ، فقتل هاشم وذو الكلاع جميعا ، وأخذ عبدُ الله بن هاشم اللواء
وارتجز ، فقال :

يَا هَاشِمَ بْنَ عَتَبَةَ بْنِ مَالِكٍ أَغْزِرْ بِشَيْخٍ مِنْ قُرَيْشٍ هَالِكٍ !
تَحِيْطُهُ الْخِلَافُ بِالسَّنَابِكِ فِي أَسْوَدٍ مِنْ نَقْعَيْنِ حَالِكِ
أُبَشِّرُ بُحُورَ الْعَيْنِ فِي الْأَرَائِكِ وَالرُّوحَ وَالرِّيحَانِ عِنْدَ ذَلِكَ^(٣)

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبي ، قال : أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة
راية أبيه ، ثم قال : أيها الناس ، إن هاشمًا كان عبداً من عباد الله الذي قدر أرزاقهم ،

(١) بعده في صفين :

* قَدْ جَرَّبَ الْحَرْبَ وَلَا أَنَا صَا *

(٢) حاس : هرب .

(٣) صفين ٣٩٢ - ٣٩٥

وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه الله ربّه فاستجاب لأمره^(١)، وسلم لأمره،
وجاهد في طاعة ابن عمّ رسوله . أول من آمن به ، وأفقههم في دين الله ، الشديد على أعداء
الله، المستحلّين حُرْم الله ، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد ، واستحوذ عليهم الشيطان،
فأنساهم ذكر الله ، وزين لهم الإثم والعدوان ، فحق عليكم جهاد من خالف الله ، وعطل
حدوده ، ونابد أوليائه . جودوا بهجكم في طاعة الله في هذه الدنيا ، تصيبوا الآخرة
والمنزّل الأعلى ، والأبد الذي لا ينفى . فوالله لو لم يكن ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار،
لكان القتال مع على أفضل من القتال مع معاوية ، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون !

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : لما انقضى أمر صيفين ، وسلم الحسن عليه
السلام الأمر إلى معاوية ، ووفدت عليه الوفود، أشخص عبدالله بن هاشم إليه أسيراً، فلما
مثل بين يديه ، وعنده عمرو بن العاص ، قال : يا أمير المؤمنين ، هذا المختال ابن المرقال،
فدونك الضب المضب^(٢)، المغرّ المفتون ؛ فاقتله ، فإن العصا من العصية ، وإنما تلد الحية
حية ، وجزاء السيئة سيئة مثلها .

فقال عبد الله : إن تقتلني فما أنا بأول رجل خذله قومه ، وأسلمه يومه . فقال عمرو :
يا أمير المؤمنين، أمكنني منه أشخب أوداجه على أثباجه . فقال عبد الله : فهلا كانت هذه
الشجاعة منك يا ابن العاص في أيام صيفين، ونحن ندعوك إلى النزال ، وقد ابتلت أقدام
الرجال من نقيع الجريال^(٣)، وقد تضايقت بك المسالك ، وأشرفت منها على المهالك !
وايم الله لولا مكانك منه لرميتك بأحد من وقع الأشافي^(٤) ؛ فإنك لا تنزال تكثر في

(١) د « له »

(٢) الضب : اللّازم .

(٣) الجريال : صبغ أحمر ، ويريد به هنا الدم .

(٤) الأشافي : جم لاشفي ، وهو مخصف الإسكاف .

هَوَسِيكَ ، وَتَخِيطُ فِي دَهْسِيكَ ، وَتَنْشَبُ فِي مَرَسِكَ ، [تَخِيطُ الْعَشَوَاءَ ، فِي اللَّيْلَةِ الْحَنْدِسِ
الظَّلَاءِ] . (١) فَأَمَرَ (٢) معاوية به إلى الحبس ، فَكُتِبَ عمرو إلى معاوية (٣) :

أَمَرْتُكَ أَمْرًا حَازِمًا فَمَصِيتَنِي وَكَانَ مِنْ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابْنِ هَاشِمٍ
وَكَانَ أَبُوهُ يَا مُعَاوِيَةَ الَّذِي رَمَاكَ عَلَى حَرْبٍ بِحَزِّ الْغَلَاظِمِ
فَقَتَلْنَا حَتَّى جَرَتْ مِنْ دِمَائِنَا (٣) بِصِفَتَيْنِ أَمْثَالُ الْبُحُورِ الْخَضَارِمِ
وَهَذَا ابْنُهُ ، وَالْمَرْءُ يُشَبِّهُ أَصْلَهُ سَتَقَرَّعَ - إِنْ أَبْقَيْتَهُ - سِنَّ نَادِمٍ !

فَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ بِالشَّعْرِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ ، فَكُتِبَ فِي جَوَابِهِ مِنَ السِّجْنِ :
مُعَاوِيَ - إِنْ الْمَرْءَ كَحَمْرٍاءَ أَبَتْ لَهُ ضَعِيفَةٌ صَدْرٍ وَدَّهَا غَيْرُ سَالِمٍ
يَرَى لَكَ قَتْلِي يَا بْنَ حَرْبٍ ، وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عمرو مَلُوكُ الْأَعَاظِمِ
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أُسِيرَهُمْ إِذَا كَانَ فِيهِ مُنْعَةٌ لِلْمَسَالِمِ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ يَوْمَ صِفَتَيْنِ نَفَرَةٌ عَلَيْكَ ، جَنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمِ
قَضَى اللَّهُ فِيهَا مَا قَضَى ثُمَّتَ أَنْقَضَى وَمَا مَقْضَى إِلَّا كَأَضْفَاتِ حَالِمِ
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنْ ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي نَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي
هَذِهِ رِوَايَةُ نَصْرِ بْنِ مَزَاحِمٍ (٤) .

(١) من صفتين .
(٢-٣) صفتين : « قَالَ فَأَعْجَبَ مُعَاوِيَةَ مَا سَمِعَ مِنْ كَلَامِ ابْنِ هَاشِمٍ فَأَمَرَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ وَكَفَّ عَنْ قَتْلِهِ ؛
فَبَعَثَ إِلَيْهِ عمرو بِأَيَّاتٍ يَقُولُ لَهُ » .
(٣) صفتين :

* فَمَا بَرَّحُوا حَتَّى جَرَتْ مِنْ دِمَائِنَا *

وروى أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الله المرزباني ، أن معاوية لما تم له الأمر بعد وفاة علي عليه السلام ، بعث زيادا على البصرة ، ونادى منادى معاوية : أَمِنْ الْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ بِأَمَانِ اللَّهِ ؛ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ بن هَاشِمِ بْنِ عُثْبَةَ ! فسكت معاوية يطلبه أشد الطلب ، ولا يعرف له خبراً ، حتى قدم عليه رجل من أهل البصرة ، فقال له : أنا أدلك على عبد الله بن هاشم بن عتبة ؛ اكتب إلى زياد ؛ فإنه عند فلانة الخزومية ؛ فدعا كاتبه فكتب : من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمد إلى حي بني مخزوم ، ففقهه داراً داراً ، حتى تأتي إلى دار فلانة الخزومية ؛ فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها ؛ فاحلق رأسه ؛ وألبسه جبّة شقر ، وقيّده ، وغلّ يده إلى عنقه ، واحمله على قتب بعير بغير وطاء ولا غداء ، وانفذ به إلى .

قال المرزباني : فأما الزبير بن بكار فإنه قال : إن معاوية قال لزياد لما بعثه إلى البصرة : إن عبد الله بن المرقال في بني ناجية بالبصرة ، عند امرأة منهم يقال لها فلانة ، وأنا أعزم عليك إلا حططت رحك ببابها ، ثم اقتحمت الدار واستخرجته منها ، وحملته إلى .

فلما دخل زياد إلى البصرة ، سأل عن بني ناجية ، وعن منزل المرأة فافتح الدار ، واستخرج عبد^(١) الله منها ، فأنفذه إلى معاوية فوصل إليه يوم الجمعة ، وقد لاقى نصيباً كثيراً ، ومن الهجير ما غير جسمه ، وكان معاوية يأمر بطعام فيتخذ في كل جمعة لأشراف قرش ولأشراف الشام ووفود العراق ، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه ، وقد ذبل وسهم وجهه ، فمرقه ولم يعرفه عمرو بن العاص ، فقال معاوية : يا أبا عبد الله ، أنعرف هذا الفتى ؟ قال : لا ، قال : هذا ابن الذي كان يقول في صفين :

أُغَوَّرَ بَيْنِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَا

* لَا بَدَأَ أَنْ يُفْلَ أَوْ يُفْلَا *

قال عمرو : وإنه هو ! دونك الضب المضب ، فاشخب أوداجه ، ولا ترجمه إلى أهل

(١) ب : « واستخرجه » .

العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق ، وله مع ذلك هوّى يُرَدِّيه ، وبطانة تغويه ، فوالذى
نفسى بيده لئن أفلت من حبالك ، ليُجَتَّزن إليك جيشاً تكثر صواهلك ، لشرّ يوم لك .
فقال عبد الله وهو فى القيد : يابن الأبر ، هَلَا كانت هذه الحماسة عندك يوم صفين ،
ونحن ندعوك إلى البراز ، وتلوذ بشمائل الخليل كالأمّة السوداء والمنهجة القوداء^(١) ! أما
إنه إن قتلتى قتّل رجلاً كريم الخبرة ، حميد المقدرة^(٢) ، ليس بالجيس المنكوس ، ولا
الثلب^(٣) المركوس . فقال عمرو : دع كيت وكيت ، فقد وقعت بين كحّى لَهْزَم ،
فَرُوس للأعداء ، يسعطك إسعاط السكودن^(٤) الماجم . قال عبد الله : أكثر إكشارك ،
فإنى أعلمك بطراً فى الرخاء ، جبانا فى اللقاء ، هَيّابة عند كفاح الأعداء ، ترى أن تقى
مهجتك ، بأن تبدى سوءك . أنسيت يوم صفين وأنت تدعى إلى النزال ، فحميد عن القتال ،
خوفا أن يفرّك رجال لهم أبدان شداد ، وأسنة حداد ، ينهبون السرح ، ويدنون العزيز .
قال عمر : لقد علم معاوية أنى شهدت تلك المواطن ، فكفت فيها كِدرة الشوك ،
ولقد رأت أباك فى بعض تلك المواطن تخفق أحشاؤه ، وتنقّ أمعاؤه . قال : أما والله
لو لقيك أبى فى ذلك المقام ، لارتعدت منه فرائصك ، ولم تسلم منه مهجتك ، ولكنه
قاتل غيرك فقتل دونك .

فقال معاوية : ألا تسكت لأمّ لك ! فقال : يابن هند ، أتقول لى هذا ! والله لئن
شئت لأعرقنّ جبينك ، ولأقيمّنك وبين عينيّك وسمّ يلين له أخدعاك . أبأكثر من
الموت تخوفنى ! فقال معاوية : أو تسكف يابن أخى ! وأمر به إلى السجن .
فقال عمرو : وذكر الأبيات ، فقال عبد الله : وذكر الأبيات أيضاً ، وزاد :
« فأطرق معاوية طويلاً حتى ظنّ أنه لن يتكلم » ، ثم قال :

(١) القوداء : الدلية المنقادة .
(٢) المقدرة ، مثلثة الدال : القوة واليسار .
(٣) الثلب : الميب .
(٤) الكودن : البرذون يوكف ويشبه به البليد .
(٣ - نهج - ٨)

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيٍّ قَرِيشٍ وَسَيْلَةٍ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَبَّوسِ الْقِمَاطِرِ
وَأَسْتُ أَرَى قَتْلِي فَتَى ذَا قَرَابَةٍ لَهُ نَسَبٌ فِي حَيٍّ كَعَبٍ وَعَامِرٍ
بَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَ مَا خَابَ قَدْحُهُ وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَائِرِ
وَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ مُحَنَّقًا عَلَيْنَا ، فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ يُحَابِرِ
ثم قال له : أترأك فاعلاما قال عمرو من الخروج علينا ! قال : لا تسئل عن عَقِيدَاتِ
الضَّمَائِرِ ، لَأَسِيًّا إِذَا أَرَادَتْ جِهَادًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ . قال : إِذَنْ يَقْتُلُكَ اللَّهُ كَمَا قَتَلَ أَبَاكَ ، قال :
وَمَنْ لِي بِالشَّهَادَةِ !
قال : فَأَحْسَنَ مَعَاوِيَةَ جَائِزَتَهُ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ مَوْثِقًا أَلَّا يَسَاكُنَهُ بِالشَّامِ فَيُفْسِدَ
عَلَيْهِ أَهْلُهُ .

قال نصر : وَحَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ شَمِيرٍ ، عَنِ السَّدِّيِّ ، عَنْ عَبْدِ خَيْرِ الْهَمْدَانِيِّ ، قال :
قال هَاشِمُ بْنُ عُثْبَةَ يَوْمَ مَقْتَلِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَجُلٌ ضَعِيفٌ ، فَلَا يَهْوِي لَكُمْ مَسْقَطِي إِذَا
سَقَطْتُ ، فَإِنَّهُ لَا يَفْرَغُ مِنِّي أَقْلٌ مِنْ تَحَرُّجِ زُورٍ ، حَتَّى يَفْرَغَ الْجَزَارُ مِنْ جَزْرِهَا . ثُمَّ
حَمَلَ فَصْرِيَّ ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَهُوَ صَرِيحٌ بَيْنَ الْقَتْلَى ، فَنَادَاهُ : اقْرَأْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : بِرَكَاتِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَيْكَ ^(١) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَشُدُكَ اللَّهَ إِلَّا أَصْبَحْتَ
وَقَدْ رَبَطْتَ مَقَاوِدَ خَيْلِكَ بِأَرْجُلِ الْقَتْلَى ، فَإِنَّ الدَّبْرَةَ تَصْبِيحُ غَدًا لِمَنْ غَلَبَ عَلَى الْقَتْلَى .
فَأَخْبَرَ الرَّجُلُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا قَالَهُ ، فَسَارَ فِي اللَّيْلِ بِكَتَائِبِهِ حَتَّى جَعَلَ الْقَتْلَى خَلْفَ
ظَهْرِهِ ، فَأَصْبَحَ وَالدَّبْرَةَ لَهُ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ^(١) .

قال نصر : وَحَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ شَمِيرٍ ، عَنِ السَّدِّيِّ ، عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ ، قال : قَاتَلَ هَاشِمُ
الْحَارِثَ بْنَ الْمَذَرِ التَّنُوحِيَّ ، حَمَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ أَعْيَا وَكَلَّ ، وَقَتَلَ بِيَدِهِ ، فَطَعَنَهُ بِالرَّمْحِ فَشَقَّ
بَطْنَهُ فَسَقَطَ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ : أَقْدِمَ بِلَوَائِكَ ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ : انْظُرْ

إلى بطني ، فإذا هو قد انشق ، فجاء علىّ عليه السلام حتى وقف عليه ، وحوله عصا به من أسلم قد صرّ عوا معه ، وقوم من القراء ، فجزع عليه ، وقال :

جَزَى الله خيراً عُصْبَةً أَسْلَمِيَّةً صَبَّاحَ الْوُجُوهِ صُرْعُوا حَوْلَ هَاشِمٍ -
يَزِيدُ وَسَعْدَانٍ وَبِشْرٍ وَمُعَبِّدٍ وَسَفِيَّانٍ ، وَابْنَا مُعَبِّدٍ ذِي الْمَكَارِمِ
وَعُرْوَةَ لَا يَبْعَدُ نَثَاءُ وَذِكْرُهُ ^(١) إِذَا اخْتَرَطَتْ يَوْمًا خَفَافُ الصَّوَارِمِ ^(٢)

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبي ، عن أبي سلمة ^(٣) ، أن هاشم بن عتبة استصرخ الناس عند المساء : : « ألا من كان له إلى الله حاجة ، ومن كان يريد الآخرة فليقبل » . فأقبل إليه ناس كثير شدد بهم على أهل الشام مرارا ، ليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له ، فقاتل قتالا شديدا ثم قال لأصحابه : لا يهولنكم ماترون من صبرهم ، فوالله ماترون منهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها ، وعند مراكرها ؛ وإنهم على الضلال ، وإنكم على الحق ؛ يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدونا على تودة ، رويدا ، واذكروا الله ، ولا يسلمن رجل أخاه ، ولا تكثروا الالتفات ، واصمدوا صمدهم ، وجالدوهم محتسبين ؛ حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ وهو خير الحاكمين .

قال أبو سلمة : فبينما هو وعصا به من القراء يجالدون أهل الشام ، إذ طلع عليهم فتى شاب ، وهو يقول :

أَنَا ابْنُ أَرْبَابِ مُلُوكٍ غَسَّانُ وَالدَّائِنُ الْيَوْمَ بِدَيْنِ عُمَانَ ^(٥)

(١) نثاء : خبره .

(٢) اختلطت : سلت ، والخبر في صفين ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٣) صفين : « عن عمرو بن شمر ، عن رجل » .

(٤ - ٤) صفين : « ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل » .

(٥) صفين : « غسان » .

أنبأنا قراؤنا بما كان^(١) أن علياً قتل ابن عفان

ثم شدة لا ينثنى حتى يضرب بسيفه ، ثم جعل يلعن عليا ويشتمه ويسهب في ذمه ، فقال له هاشم بن عتبة : يا هذا إن الكلام بعدك الخصاص ، وإن لعنك سيد الأبرار ، بعده عقاب النار . فأتى الله ، فإنك راجع إلى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال^(٢) . قال الفتى : إذا سألتني ربّي قلت : قاتلت أهل العراق ، لأن أصحابهم لا يصلّون كما ذكر لي ، وإنهم لا يصلّون ، وصاحبهم قتل خليفةتنا ، وهم آزره على قتله . فقال له هاشم : يا بني ، وما أنت وعثمان ! إنما قتله أصحاب محمد ؛ الذين هم أولى بالنظر في أمور المسلمين ، وإن صاحبنا كان أبعد القوم عن دمه ، وأما قولك : « إنه لا يصلّي » ، فهو أول من صلى مع رسول الله ، وأول من آمن به . وأما قولك : إن أصحابه لا يصلّون ، فكل من ترى معه قراء الكتاب ، لا ينامون الليل تهجداً ، فأتى الله واخش عقابه ، ولا يفرّك من نفسك الأشقياء الضالون .

فقال الفتى : يا عبد الله ، لقد دخل قلبي وجل من كلامك ، وإنني لأظنك صادقاً صالحاً ، وأظنني مخطئاً تماماً ، فهل لي من توبة ؟ قال : نعم ، ارجع إلى ربك وتب إليه ، فإنه يقبل التوبة ويمحو عن السيئات ، ويحبّ التوايين ويحبّ المتطهرين . فرجع الفتى إلى صفته منكسراً نادماً ، فقال له قوم من أهل الشام : خذك العراق ! قال : لا ، ولكن نصحني العراقي^(٣) .

قال نصر : وفي قتل هاشم وعمار تقول امرأة من أهل الشام :
لا تعدموا قوماً أذاقوا ابن ياسر شعوباً ولم يملطوكم بالخزائم

(١) صفين : « أنبأنا قراؤنا »

(٢) صفين : « وما أردت به »

(٣) صفين ٤٠٣ ، ٤٠٤

فنحنُ قتلنا اليربىَّ ابنَ مُحْصَنٍ خطيبكمُ وابنى بُذَيْلٍ وهاشمٍ^(١)
قال نصر : أما اليربى ، فهو عمرو بن مُحْصَن الأنصارى ، وقد رثاه النجاشى شاعر
أهل العراق ، فقال :

لِنِعْمَ فِتَى الْحَيَيْنِ عمرو بن مُحْصَنٍ	إذا صارخُ الحى المصْبِحُ ثوباً ^(٢)
إذا الخليل جالت بينها قِصْدُ القفا ^(٣)	يثرن عَجَاجاً ساطِعاً متنصباً
لَقَدْ فُجِعَ الْأَنْصَارُ طَرّاً بِسَيْدٍ	أخى ثِقَةً فى الصَّالِحَاتِ مَجْرَباً
فِيَارَبِّ خَيْرٍ قَدْ أَفْدَتَ ، وَجَفَنَ	مَلَأَتْ ، وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتَ مَسْلَباً ^(٤)
وِيَارَبِّ خَصْمٍ قَدْ رَدَدْتَ بَغِيظَهُ	فَأَبْ ذَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَفْضَباً
وَرَايَةَ مَجْدٍ قَدْ حَمَلَتْ وَغَزَوَةَ	شَهِدْتَ إِذِ النَّكْسُ الْجَبَانُ تَهَيَّباً
حَوِيطاً عَلَى جَلِّ الْعَشِيرَةِ مَاجِداً ^(٥)	وَمَا كَبَتْ فى الْأَنْصَارِ نِكْساً مُؤَنِّباً
طَوِيلَ عِمَادِ الْمَجْدِ رَحْباً فِنَاؤُهُ	خَصِيْباً إِذَا مَارَأَتْ الحى أَجْدَباً
عَظِيمَ رِمَادِ النَّارِ لَمْ يَكُ فَاحِشاً	وَلَا فِشْلاً يَوْمَ النَّزَالِ مَغْلَباً
وَكُنْتَ رِيْعاً يَنْفَعُ النَّاسَ سَيْبُهُ	وَسَيْفَا جُرَازاً بَاتِكَ الْحَدَّ مِقْضَباً
فَنَ يَكُ مَسْرُوراً بِقَتْلِ ابْنِ مُحْصَنٍ	فَعَاشَ شَقِيّاً ثُمَّ مَاتَ مَعْتَباً
وَعُودٍ مَنْكَباً لَفِيهِ وَوَجْهِهِ	يَعَالِجُ رَحْماً ذَا سَنَانٍ وَثَعْلَباً ^(٦)
فَإِنْ يَقْتُلُوا الْحَرَ الْكَرِيمَ ابْنَ مُحْصَنٍ	فَنَحْنُ قَتَلْنَا ذَا الْكَلَالِ وَحَوْشَباً

(١) صفين ٤٠٥

(٢) المصباح : الذى صبحته الفارة ، والتشويب : الاستصراخ .

(٣) القصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة .

(٤) صفين : « فخبيا » .

(٥) صفين : « حووطا » .

(٦) الثعلب : طرف الرمح .

وإن يقتلوا ابني بُدَيْل وهاشما
ونحن تركنا خيراً في صفوفكم
وأفلتتما تحت الأستة مرثد
ونحن تركنا عند مختلف القنا
بصفين لما ارفض عنه رجالكم
وطلحة من بعد الزير ولم ندع
ونحن أحطنا بالبعير وأهله
فنحن تركنا منكم القرن أعضبا
لدى الحرب صرعى كالفخيل مُشدّبا
وكان قديما في الفرار مدرّبا
أخاكم عبيد الله لحما ملجّبا
ووجه ابن عتاب تركناه مُلقّبا^(١)
لضبة في الهيجا عريفا وَمَنَكِبا^(٢)
ونحن سقيناكم سماما مقشّبا^(٣)

قال نصر : وكان ابن مخصن من أعلام أصحاب علي عليه السلام ، قتل في المعركة ،
وجزع علي عليه السلام لقتله .

قال : وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة السكفاني ، وهو من
الصحابه - وقيل إنه آخر من بقي من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشهد مع
علي صفين ، وكان من مخلصي الشيعة :

يا هاشم الخير جريت الجنة قاتلت في الله عدو السنة
والتارك الحق وأهل الظنة أعظم بما فزت به من مئة ا
صبرني الدهر كأتى شدة وسوف تملو حول قبري رنة^(٤)
* من زوجة وحوبة وكنته *

(١) صفين : « عنه صفوفكم » . ملقب ، من اللقب ، وهو التعب والنصب .

(٢) العريف : النقيب دون الرئيس ، والمنكب : من يماونه .

(٣) المقشّب : المخلوط .

(٤) الرنة : الندب والعويل على الميت .

قال نصر : والحوبة^(١) القرابة ، يقال : لى فى بنى فلان حوبة ، أى قرُبى^(٢) .

قال نصر : وقال رجلٌ من عُذرة ، من أهل الشام :
لقد رأيتُ أموراً كلها حَجَبٌ وما رأيتُ كأيامٍ بصغيماً
لَمَّا غَدَوْا وَغَدَوْنَا كُلُّنَا حَنِقٌ كما رأيتَ الجمالَ الجِلَّةَ الجُونَا
خيلٌ تجولُ وأخرى فى أعنتِها وآخرون على غيظٍ يُرامُونَا
ثم ابتذلْنَا سيوفاً فى جاجهم وَمَا نساقيهم من ذاك يجزونا
كأنهم فى أكف القوم لامة سلاسلُ البرق يجذعن العرائنا
ثم انصرفنا كأشلاء مقطعة وكلهم عند قتلام يصولونا^(٣)

قال نصر : وقال رجل^(٤) لعدى بن حاتم الطائى - وكان من جملة أصحاب على عليه السلام - يا أبا طريف ، ألم أسمعك تقول يوم الدار : « والله لا تحبى فيها عناق حَوْلِيَة »^(٥) ! وقد رأيت ما كان فيها ! وقد كان فقت عین عدى ، وقتل بنوه - فقال : أما والله لقد حَبَّيْت فى قتله العناق والتيس الأعظم^(٦) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، قال : بعث على عليه السلام خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادته ، فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفهري فى خيل إلى تلك الخيل ، فأزالوها ،
(١) وفى اللسان عن ابن عبيد : « وهى عندى كل حرمة نضيع إن تركتها ، من أم أو أخت أو ابنة أو غيرها » .

(٢) صفين ٤٠٧ ، ٤٠٨

(٣) صفين ٤٠٥ ، ٤٠٦

(٤) صفين : « نصر عن عمرو بن شمر بإسناده »

(٥) الحبق : ضراط المز ، والعناق : الأنثى من ولد المز .

(٦) صفين ٤٠٨ ، ٤٠٩

وجاءت عيون عليّ عليه السلام فأخبروه بما كان ، فقال لأصحابه : ماترون فيما هاهنا ؟ فقال بعضهم : نرى كذا ، وقال بعضهم : نرى كذا ، فلما زاد الاختلاف ، قال عليّ عليه السلام : اغدوا إلى القتال ، فغاداهم إلى القتال ، فانهزمت صفوف الشام من بين يديه ذلك اليوم ، حتى فرّ عتبة بن أبي سفيان عشرين فرسخا عن موضع المعركة ، فقال النجاشيّ فيه من قصيدة أولها :

لقد أمنت يا عتبُ الفِرَارَا وأورثك الوغى خِزْيَا وعارا
فلا يحميكَ خُصاك سوى طِمْرِي إذا أجريتُهُ انهمر انهمارا

وقال كعب بن جُمَيْل - وهو شاعر أهل الشام - بعد رفع المصاحف ، يذكر أيام صِفِين ويحرّض معاوية :

معاويّ لا تنهضْ بغير وثيقةِ فإنّك بعد اليوم بالذلّ عارفُ
تركتم عبيد الله بالقاع مسدداً يمجّ نجيماً والعروق نوازفُ
ألا إنّما تبكي العيونُ لفارسٍ بصقن أجلتُ خيله وهو واقفُ
ينوه وتعلوه شآبيبُ من دمٍ كالأح في جيب القميص اللّائف^(١)
تبدل من أسماء أسيفٍ وائلٍ وأيّ فتى لو أخطأته المتالفُ !
ألا إنّ شرّ الناس في الناس كلّهم بنو أسد ، إنّى بما قلتُ عارفُ
وفرت تميم : سعدُها وربّها وخالفت الجعراء فيمن يخالف^(٢)
وقد صبرت حول ابن عمّ محمّدٍ على الموت شهباء المناكب شارف^(٣)
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم وحتى أتاحت بالأكف المصاحفُ

(١) الجعراء : لقب بني العنبر بن عمرو بن تميم .

(٢) ورد هذا البيت وتاليه في كتاب صفين منسوبين إلى أبي جهمة الأسدي ، يرد بهما على كعب

ابن جُمَيْل .

وقد تقدم ذكر هذه الأبيات بزيادة على ما ذكرناه الآن ^(١) .

قال نصر : وهما كعب بن جُمَيْل عتبة بن أبي سفيان وعيَّره بالفرار ، وكان كعب من شيعة معاوية ، لكنه هجا عتبة تحريضا له ، فجهاه عتبة جوابا ، فقال له :

وُسِّمْتَ كعباً بشرَ العظا م وكان أبوك يُسَمَّى الجَمَلِ ^(٢)
وإنَّ مكانك من وائلٍ مكانُ القُرَادِ من است الجَمَلِ ^(٣)

قال نصر : ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس ، حدثنا بها عمر ابن سعد ، عن سليمان الأعمش ، عن إبراهيم النَّخَعِيّ ، قال : حدثنا القعقاع بن الأبرد الطَّمَوِيُّ ، قال : والله إني لواقف قريبا من عليّ عليه السلام بصغين يوم وقعة الخميس ، وقد التقت مذحج—وكانوا في ميمنة عليّ عليه السلام—وعك نخم وجُدَام والأشعريّون، وكانوا مستبصرين في قتال عليّ عليه السلام ، فلقد والله رأيتُ ذلك اليوم من قتالهم، وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس وخبط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى ؛ ما الجبال تهتد ^(٤) ، ولا الصواعق تصمق ، بأعظم من هؤلاء في الصدور من تلك الأصوات. ونظرتُ إلى عليّ عليه السلام وهو قائم، فدنوت منه فأسمعه يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم إليك الشكوى وأنت المستعان ! ثم نهض حين قام قائمُ الظهيرة وهو يقول: « ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ، وأنت خير الفاتحين ». وحل على الناس بنفسه ، وسيفه مجرد بيده ، فلا والله ما حجز بين الناس ذلك اليوم إلا الله رب العالمين ، في قريب من ثلث الليل

(١) صفين ٤١٠ ، ٤١١

(٢) صفين : « سمى الجمل » .

(٣) صفين : ٤١٢

(٤) تهدي : تحدث صوتا ، والهدية : الصوت .

الأول ، وقتلت يومئذ أعلام العرب ، وكان في رأس علي عليه السلام ثلاث ضربات ، وفي وجهه ضربتان .

قال نصر : وقد قيل : إن عليا عليه السلام لم يخرج قط ، وقتل في هذا اليوم خزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين ، وقتل من أهل الشام عبد الله بن ذى الكلاع الحميري ، فقال معقل بن نهيك بن يساف الأنصاري :

يا لهفَ نفسي ومَنْ بشي حَزَّازَتَهَا إذ أَفْلَتَ الفَاسِقُ الضَّالُّلُ منطلقاً
وأفْلَتَ الخليلَ عمرو وهى شاحِبَةٌ تحتَ المعجَاجِ تحتَ الرِّكْضِ والمَنَقَا^(١)
وافت مَيِّةَ عبد الله إذ لحقتُ قُبَّ الخيولِ به ، أنجِزْ بمن لحِقَا
وانساب مروانُ في الظَّلَماءِ مستتراً تحتَ الدَّجَى كلما خاف الردى أرقا
وقال مالك الأشتر :

نحن قتلنا حوشباً لما غدا قد أعلما
وذَا الكَّلَاعِ قبلَهُ ومَعْبِداً إذ أقدما
إن تقتلوا منا أبا السَّيِّفِ قُظَانَ شيخنا مسلماً
فقد قتلنا منكمُ سبعينَ كَهْلاً مجرماً
أضحوا بصِيفينَ وقد لاقوا نكالا مؤثماً

وقالت ضُبَيْعة بنت خزيمة بن ثابت ذى الشهادتين ترى أباهما رحمه الله :
عَيْنِ جودى على خزيمة بالدمعِ قَتِيلِ الأحزابِ يومَ الفُراتِ
قتلوا ذا الشَّهادتين عُتُوًّا أدركَ اللهُ منهم بالثَّراتِ
قتلوه في فتية غَيرِ عَزَلِ يسرعون الركوبَ فى الدَّعَوَاتِ
نصروا السَّيِّدَ الموقِّ ذَا العَدِ لِ ، ودانوا بذاك حتى الماتِ

(١) العنق : ضرب من السير .

لعنَ الله معشراً قتلوه ورمام بالخزري والآفات^(١)

قال نصر : وحديثنا عمر بن سعد ، عن الأعمش ، قال : كتب معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان سيداً معظمًا من سادات الأنصار ، وكان من شيعة عليّ عليه السلام - كتاباً ، وكتب إلى زياد بن سمية - وكان عاملاً لعليّ عليه السلام على بعض فارس - كتاباً ثانياً . فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطرًا واحدًا : حاجيتك ا « لا تنسى الشيباء أبا عذرها ، ولا قاتل بكرها » ، فلم يدر أبو أيوب ما هو ! قال : فأتي به عليا عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ، إن معاوية كهف المنافقين ، كتب إليّ بكتاب لا أدرى ما هو ! قال عليّ عليه السلام : فأين الكتاب ؟ فدفعه إليه ، فقرأه ، وقال : نعم ، هذا مثل ضربه لك ، يقول : لا تنسى الشيباء أبا عذرها . والشيباء : المرأة البكر ليلة أفبضاها ، لا تنسى بعلمها الذي افترعها أبدا ، ولا تنسى قاتل بكرها ؛ وهو أول ولدها ، كذلك لا أنسى أنا قتل عمان .

وأما الكتاب الذي كتبه إلى زياد ، فإنه كان وعيداً وتهيداً ، فقال زياد : ويلى على معاوية ، كهف المنافقين وبقية الأحزاب ! يتهددني ويتوعدني ، ويبنى ويبدسه ابنُ عمِّ محمد ؛ معه سبعون ألفاً ، سيوفهم على عواتقهم ؛ يطعمونه^(٢) في جميع ما يأمرهم به ، لا يلتفت رجل منهم وراءه حتى يموت ! أما والله لو ظفر ثم خلص إلىّ ليجدني أحمر ضراً أباً بالسيف .

قال نصر : أحرأى مولى . فلما ادّعاه معاوية عاد عربياً منافياً^(٣) .

(١) صفين ٤١٣ - ٤١٦ (٢) صفين : « ومعه سبعون ألفاً طوائع ، سيوفهم عند أذانهم » .

(٣) منافيا : منسوب إلى عبد مناف .

قال نصر : وروى عمرو بن شير أن معاوية كتب في أسفل كتابه إلى أبي أيوب :

أبلغ لديك أبا أيوب مأساة أننا وقومك مثل الذئب والنقذ^(١)
 أما قتلتم أمير المؤمنين فلا تترجوا الهواة منا آخر الأبد^(٢)
 إن الذي نلتموه ظالمين له أبقته حزنه صدعا على كبدي^(٣)
 إني حلفت يميناً غير كاذبة لقد قتلتم إماماً غير ذي أود^(٤)
 لا تحسبوا أنني أنسى مصيبتهم وفي البلاد من الأنصار من أحد
 قد أبدل الله منكم خير ذي كلع واليحصيين أهل الخوف والجند^(٥)
 إن العراق لنا فقع بقرقرة أو شحمة بزها شاور ولم يكدر^(٦)
 والشام ينزلها الأبرار ، بلدتها أمن ، وبيضتها عريسة الأسد^(٧)

فلما قرئ الكتاب على علي عليه السلام ، قال : لشد ما شحذكم معاوية ! يامعشر
 الأنصار أجيئوا الرجل ؛ فقال أبو أيوب : يا أمير المؤمنين ، إني ما أشاء أن أقول شيئاً من
 الشعر يعيا به الرجال إلا قتلته ، فقال : فأنت إذا أنت .

فكتب أبو أيوب إلى معاوية : أما بعد ، فإنك كتبت : « لا تنسى الشيباء بأعذرها ،
 ولا قاتل بكرها » ، فضربتها مثلاً بقتل عثمان ، ومانحن وقتل عثمان إن الذي تربص بعثمان

(١) المأساة : الرسالة . والنقذ : جنس صغير من الغنم ، يكون بالبحرين .

(٢) صفين : « عندي آخر الأبد » .

(٣) صفين : « حرارته » .

(٤) الأود : الأعوجاج .

(٥) الجند ، بالتحريك : مدينة باليمن ، وفي صفين : « أهل الحق والجند » .

(٦) الفقع : البيضاء الرخوة من السمكة . والقرقرة : الأرض المنخفضة ؛ ويقال في المثل : « هو أذل
 من فقع بقرقرة » ، لأنه لا يمتنع على من جناه ، أو لأنه يداس بالأرجل .

(٧) صفين : « وحويتها عريسة الأسد » .

وثبط يزيد بن أسد وأهل الشام عن نصرته لأنفقته ؛ وإن الذين قتلوه لغير الأنصار ؛
وكتب في آخر كتابه :

لا توعبدنا ابنَ حربَ إنما نفرُّ لا نبتغي وُدَّ ذِي البغضاء من أحدٍ^(١)
واسمعوا جميعاً بنى الأحزاب كلَّكمُ لسنا نريد رِضاًكمُ آخرَ الأبدِ
نحنُ الَّذِينَ ضربنا النَّاسَ كلَّهمُ حتى استقاموا وكانوا عُرْضةَ الأودِ
والعامَ قصركُ مِنّا إن ثبتَ لنا ضربُ يَزِيلُ بينَ الرُّوحِ والجسدِ^(٢)
أما علىٰ فإنا لا نفارقه ما رُفِرَ الآلُ في الدَّوِيَّةِ الجردِ^(٣)
إما تبدلت مِنّا - بعدَ نُصرتِنَا دينَ الرسولِ - أناساً ساكِنِي الجندِ
لا يعرفون أضلَّ اللهَ سعيهمُ إلا اتباعكم ، يا راعي النِّقدِ
فقد بنى الحقَّ هُضماً شرُّ ذِي كَلْعٍ واليحصبيونَ طُرّاً بيضةَ البلدِ^(٤)
قال : فلما أتى معاوية كتابُ أبي أيوب كسره^(٥) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شير ، قال : حدثني مجالد ، عن الشعبي ، عن زياد
ابن النَّضر الحارثي ، قال : شهدتُ مع عليّ عليه السلام صيفين ، فاقتتلنا مرة ثلاثة أيام ،
وثلاث ليال ؛ حتى تكسرت الرماح ، ونفدت السهام ، ثم صرنا إلى المسايقة ، فاجتلدنا
بها إلى نصف الليل ؛ حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث ؛ يعانق بعضنا بعضاً ؛
ولقد قاتلتُ ليلتئذٍ بجميع السلاح ، فلم يبقَ شيءٌ من السلاح إلا قاتلتُ به ؛ حتى تحاذينا

(١) صفين : « إنما بشر » .

(٢) صفين : « أن أقت لنا » .

(٣) الدوية : المفاضة ؛ وفي صفين « الداوية ؛ وهما سواء . والجرد : الفضاء لابيات فيه .

(٤) اليحصبيون : بنو يحصب ؛ وهم بطن في حير

(٥) صفين ٤١٧ - ٤١٩

بالتراب ، وتسكاد منّا بالأفواه ؛ حتى صرنا قياما ينظر بعضنا إلى بعض ؛ ما يستطيع أحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه ؛ ولا يقاتل ؛ فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة ، انحاز معاوية وخيله من الصف وغلب على عليه السلام على القتلى ؛ فلما أصبح أقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتل كثير منهم ، وقتل من أصحاب معاوية أكثر ، وقتل فيهم تلك الليلة شمر بن أبرهة (١) .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن جابن عن تميم ، قال : والله إني لمع على عليه السلام ؛ إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصاري ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عمرو بن العاص يرتجز في الصف بشعر ، أفأسمعه ! قال : نعم ، قال : إنه يقول :

إذا تخازرت وما بي من خزر (٢) ثم كسرت العين من غير عور (٣)
ألفيتني ألوى بعمد المستمر (٤) ذا صولة في المصملات الكبرى (٥)
أحمل ما حملت من خير وشر كالحيّة الصماء في أصل الحجر

فقال على : اللهم العنه ؛ فإن رسولك لعنه ، قال علقمة : وإِنَّ يا أمير المؤمنين يرتجز برجز آخر ، فأنشدك ؟ قال : قل ، فقال :

أنا الفلام القرشي المؤمن الماسجد الأبلج ليث كالشطن
ترضى بي الشام إلى أرض عدن بإقادة السكوفة ، يا أهل الفتن (٦)

(١) صفين ٤٢٠

(٢) التخازر : تصنع الخزر ؛ وهو ضيق العين .

(٣) صفين : « ثم خبأت العين » .

(٤) الألوى : القوى الشديد المراس .

(٥) المصملات : الوقائع الشديدة ؛ وأصل المصملة : الداهية .

(٦) بعده في صفين :

* يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ *

أضربكم ولا أرى أبا حسن^(١) كفى به ذا حزنًا من الحزن !
فضحك على عليه السلام ، وقال : إنه لكاذب ، وإنه بمكاني لعالم ، كما قال العربي :
« غير الوهي ترقعين وأنت مبصرة » ، ويحكم ! أروني مكانه ؛ لله أبوك ؛ وخلصكم ذم !
وقال محمد بن عمرو بن العاص :

لوشهدت جُلَّ مقامى ومشهدى ^(٢)	يصفين يوماً شاب منها الذوائبُ
غداة غداً أهلى العراق كأهم	من البحر موجُ جُسه متراكبُ
وجئناهم نمشى صفوفنا كأننا	سحاب خريف صففته الجنائبُ
فطارت إلينا بالرماح ككأهم	وطرنا إليهم والسيوف قواضبُ
فدارت رحانا واستدارت رحاهم	سراة نهار ماتولى المناكبُ
إذا قلت يوماً قد ونوا برزت لنا	كتائب منهم واحجنت كتائبُ
وقالوا نرى من رأينا أن تبأعوا	علياً ، فقلنا بل نرى أن نضارباً ^(٣)
فأبنا وقد أردوا سراة رجالنا ^(٤)	وليس لما لاقرأ سوى الله حاسبُ
فلم أرى يوماً كان أكثر باكياً	ولا عارضاً منهم كياً يكالبُ
كان تلالى البيض فينا وفيهم	تلاؤ برقي في يهامة ثاقب ^(٥)

(١) بعده في صفين :

* أعني علياً وابن عم المؤمن *
*

(٢) صفين : « وموقى »

(٣) في البيت لقواء .

(٤) صفين : « نالوا سراة رجالنا » .

(٥) في صفين : « فرد عليه محمد بن علي بن أبي طالب :

لَوْ شَهِدْتَ جُلَّ مَقَامِكَ أَبْصَرْتَ	مَقَامَ لَيْمٍ وَسَطَ تِلْكَ الْكُتَائِبِ
أَتَذْكُرُ يَوْمًا لَمْ يَكُنْ لَكَ فَخْرُهُ	وَقَدْ ظَهَرْتَ فِيهِ عَلَيْكَ الْجَلَائِبُ
وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا نَقِمْتُمْ	أَذِلَّةً عَلَى غَيْرِ تَقْوَى اللَّهِ وَالَّذِينَ وَاصِبُ

وقال النجاشي^١ يذكر عليا عليه السلام ، وجده في الأمر :

إني إخال عليا غير مرتدع حتى تُقام حقوقُ الله والحرمُ
أما ترى الفقع معصوبا بلمته كأنه الصقر في عرينه شمم^(١)
غضبان يحرق نأبيه على حنق^(٢) كما يفظ الفئيق المصعب القطم^(٣)
حتى يزيل ابن حرب عن إمارته كما تـكـب تيس الحبلـة الحلم^(٤)

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد عن الشعبي ، قال : بلغ النجاشي أن معاوية تهدده فقال : (٥) .

يأئها الرجل المبدي عداوته روى لنفسك أي الأمر تأثيرا
لا تحسبي كأقوام ملكهم طوع الأعنة لما ترشح الفدر
وما علمت بما اضمرت من حنق حتى أتتني به الركبان والنذر
إذا أنفست على الأنجاد مجدهم^(٦) فابسط يدك ، فإن الخير مبتدر
واعلم بأن على الخير من نفر شمم المرانين لا يعلوهم بشر
لا يحدد الحاسد الغضبان فضلمهم^(٧) ما دام بالحزن من صمائها حجبر
نم الفتى أنت إلا أن يينكا كما تفاضل ضوء الشمس والقمر

(١) في صفين : « نفع القبائل في عرينه شمم » .

(٢) صفين : « نأيه بمرته » .

(٣) المصعب : الفعل ، والقطم : المشتى للضراب .

(٤) صفين ٤٢٠ - ٤٢٤ ، وبعد هذا البيت هناك :

لَوْ تَرَوْهُ كَمِثْلِ الصَّقْرِ مُرْتَدِّعًا يَخْفِقَنَّ مِنْ حَوْلِهِ الْعُمَبَانُ وَالرَّحَمُ

(٥) في صفين : « وقال النجاشي أيضا يمدح عليا ويهجو معاوية ، وقد بلغه أنه يهدده » .

(٦) صفين : « الأنجاد » .

(٧) صفين : « لا يرتقى الحاسد الغضبان مجدهم » .

ولا إخالك إلا لست منهمياً حتى يمسك من أظفارِهِ ظفُرُ
لا تحمدنّ امرأً حتى تجربّه ولا تذمننّ من لم يسأله الخبرُ
إني، اسروا فلما أُنّي على أحدٍ حتى أرى بعض ما يأتي وما يذرُ
وإن طوى ممشرٌ عني، عداوتهم في الصدر أو كان في أبصارهم خزرُ
أجمعتُ عزماً جراميزي، بقافية لا يبرحُ الدهرُ منها فيهم أثرُ^(١)
قال : فلما بلغ معاوية هذا الشعر ، قال : ما أراه إلا قد قارب^(٢) .

قال نصر : وجدتُنا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، أن عبد الله بن جعفر بن
أبي طالب ، كان يحمل على الخيل يوماً ، فجاءه رجل ، فقال : هل من فارسٍ يابن
ذى الجناحين ؟ قال : تلك الخيل نخذ أيتها شئت ، فلما ولي قال ابنُ جعفر : إن تصب
أفضل الخيل تقتل ، فما عَيم أن أخذ أفضل الخيل ، فركبه ، ثم حمل على فارس قد كان دعاه
إلى البراز ، فقتله الشامي ، وحمل غلامان آخران من أهل العراق ؛ حتى انتهيا إلى سراق
معاوية ، فقتلَا عنده ؛ وأقبلت الكتائبُ بعضها نحو بعض ، فاقتتلت قياماً في الركب ،
لا يسمع السامع إلا وقع السيوف على البيض والدرق .
وقال عمرو بن العاص :

أجئتم إلينا تسفكون دماءنا وما ربه ستمٌ وعزٌّ من الأمر أعسرُ
لعمري لَمَّا فيه يكون حجاجنا إلى الله أذهى لو عقلتم وأنكرُ
تعاورتُم ضرباً بكل مهفدٍ إذا شدَّ وردانٌ تقدّم قنبرُ^(٣)
كتائبكم طوراً تشدُّ وتارةً كتائبنا فيها القنا والسنورُ^(٤)

(١) يقال : ضم فلان جراميزه ؛ إذا رفع ما انتشر من ثيابه ثم مضى ؛ يريد أنه أجمع أمره ومضى ،
ويريد بالقافية ، الشعر بقوله في الهجاء ، وفي صفين : « جعت صبياً » .
(٢) صفين ٤٢٤ . (٣) قنبر غلام علي ، ووردان غلام عمرو بن العاص .
(٤) السنور هنا : الدروع . والخبر في صفين ٥ ، ٤ .

إِذَا مَا أَلْتَقَوْا يَوْمًا تَدَارِكُ بَيْنَهُمْ طِعْمَانٌ وَمَوْتٌ فِي الْمَعَارِكِ أَحْمَرُ
وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ كَلْبٍ مَعَ مَعَاوِيَةَ يَهْجُو أَهْلَ الْعِرَاقِ وَيُؤَيِّجُهُمْ :

لَقَدْ ضَلَّتْ مَعَاشِرُ مِنْ نَزَارٍ إِذَا أَنْقَادُوا لِلْمَثَلِ أَبِي ثُرَابٍ ^(١)
وَأَنَّهُمْ وَيَبْقَعُهُمْ عَلِيًّا كَوَاشِمَةُ التَّفَضُّنِ بِالْخَضَابِ
تَزِينُ مِنْ سَفَاهَتِهَا بَدِينَهَا وَتَحْسِرُ بِالْيَدَيْنِ عَنِ النَّقَابِ
فِيَا كُمْ وَدَاهِيَةٌ تُثَوِّدُ تَسِيرَ إِلَيْكُمْ تَحْتَ الْعُقَابِ ^(٢)
إِذَا سَارُوا سَمِعْتَ خَافَتِيهِمْ دَوِيًّا مِثْلَ تَصْفِيْقِ السَّحَابِ ^(٣)
يُجَيِّبُونَ الصَّرِيخَ إِذَا دَعَاهُمْ وَقَدْ طَعَنَ الْفَوَارِسُ بِالْخِرَابِ ^(٤)
عَنِهِمْ كُلُّ سَابِقَةِ دِلَاصٍ وَأَبْيَضَ صَارِمٍ مِثْلَ الشَّهَابِ ^(٥)

وَقَالَ أَبُو حَيَّةَ بْنِ غَزِيَّةَ الْأَنْصَارِيُّ ؛ وَهُوَ الَّذِي عَقَرَ الْجَلَلَ يَوْمَ الْبَصْرَةِ ،
وَأَسَمَهُ عَمْرُو :

سَأَلْتُ حَلِيلَةَ مَعْبَدٍ عَنْ بَعْلِمِهَا وَحَلِيلَةَ اللَّخْمِيِّ وَابْنَ كَلَّاعٍ ^(٦)
وَأَسْأَلُ عُيَيْدَ اللَّهِ عَنْ فَرَسَانَنَا لَمَّا تَوَى مُتَجَدِّلاً بِالْقَاعِ
وَأَسْأَلُ مَعَاوِيَةَ الْمَوْتَى هَارِبًا وَالْخَلِيلَ تَمَعِجُ وَهِيَ جِدَّ سِرَاعٍ ^(٧)
مَاذَا يُخْبِرُكَ الْخَمْسُ مِنْهُمْ عَنْهُمْ وَعَنَّا عِنْدَ كُلِّ وَقَاعٍ ^(٨)
إِنْ يَصْدُقُوكَ يُخْبِرُوكَ بِأَنَّنَا أَهْلُ النَّدَى قَدِمًا مَجِيئُو الدَّاعِي

(١) صفين ٤٢٧ .

(٢) النثود : الداهية الشديدة والعقاب : الراية .

(٣) صفين : « إذا هشوا » .

(٤) الصرنيخ : المستغيث .

(٥) الدلاس : الدرع .

(٦) صفين : ٤٣١ .

(٧) تمعج : تسرع ، وفي صفين : « والخليل تعدو » .

(٨) الوقاع : المواقعة في الحرب .

إن يصدقوك يحبروك بأننا ندعو إلى التقوى ونرعى أهلها
نحى الحقيقة كل يوم مصاع^(١)
برعاية المأمون لا المضيع
ونسن للأعداء كل متقف^(٢) لذن وكل مشطب قطاع^(٣)
وقال عدى بن حاتم الطائي :

أقول لما أن رأيت الممعة^(٤) واجتمع الجندان وسط البلمعة
هذا على والهدى حمًا معة يارب فاحفظه ولا تضيعه
فإنه يخشاك رب فارقة ومن أراد عيبه فضمضه
* أو كاده بالبغي منك فقمه *

وقال النعمان بن جعلان الأنصاري :

سائل بصفين عفا عند غدوتنا أم كيف كننا إلى العلياء نبقدر^(٥)
وسل غداة لعينا الأزد فاطبة يوم البصرة لما استجملت مضر
لولا الإله وعفو من أبي حسن عنهم ، وما زال منه العفو ينتظر^(٥)
لما تداعت لهم بالمعسر داعية إلا الكلاب ، وإلا الشاء والحمر
كم مقص قد تركناه بمقفرة تعوى السباع عليه وهو منعفر^(٦)
ما إن يؤوب ولا ترجوه أسرته إلى القيامة حتى ينفخ الصور^(٧)
قال عمرو بن الحقيق الخزاعي :

(١) المصاع : المجالدة والقتال . وفي صفين : « عند كل مصاع » .

(٢) سيف مشطب : فيه شطب ؛ وهى الخطوط والطرائق .

(٣) صفين : ٤٣٣ .

(٤) البيت فى صفين :

لولا الإله وقوم قد عرقهم فيهم عفا ، وما يأتى به القدر

(٦) المقص : المقتول بمكانه ، أو المجهز عليه .

(٧) صفين : « ما إن تراه ولا يبكى علانية » .

تقول عِزِّي لما أن رأت أَرَقِي ماذا يهيجك من أصحاب صِفِينا^(١)
أَلَسْتَ في عُصْبَةِ يَهْدَى إِلَهُهُمْ لا يظلمون ، ولا بغياً يريدونا
فقلت إني عَلَى ما كان من رَشْدٍ أخشى عواقب أمرٍ سوف يأتينا
إدالة القوم في أمرٍ يرادُ بنا فاقبني حياءً وكفى ماتقولينا^(٢)
وقال حُجْر بن عدي السكندی .

ياربُّنا سَلِّمْ لَنَا علياً سَلِّمْ لَنَا المَهْذَبَ التَّقِيَّ^(٣)
المُؤْمِنَ المُسْتَرَشِدَ الرَضِيَّ واجعله هادى أمةً مهدياً
واحفظه ربَّ حفظك النَبِيَّ لا خَطِلَ الرَّأْيَ ولا غَبِيَّ^(٤)
فإنه كان لَنَا ولياً ثم ارتضيه بعده وصياً

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبي ، قال : قال الأحنف بن قيس في
صِفِين لأصحابه : هلكت العرب ! قالوا له : وإن غلبنا يا أبا بحر ؟ قال : نعم ، قالوا : وإن
غلبنا ؟ قال : نعم ، قالوا : والله ما جعلت لنا مخرجاً . فقال الأحنف : إنا إن غلبناهم
لم نترك بالشام رئيساً إلا ضربنا عنقه ، وإن غلبونا لم يمرَّج بعدها رئيس عن معصية
الله أبداً^(٥) .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبي ، قال : ذكر معاوية يوماً صِفِين بعد
عام الجماعة ، وأسلم الحسن عليه السلام الأمر إليه ، فقال الوليد بن عقبة : أيّ بنى عمك

(١) صِفِين : ٤٣٣

(٢) . (٢) . اقْبِ حياءً ، أي الزم الحياء .

(٣) صِفِين ٤٣٤

(٤) في الأصول : « بغياً » . وما أثبتته من صِفِين

(٥) صِفِين ٤٤٠ .

كان أفضل يوم صفين [ياوليد]^(١)، عند وَقْدَان الحرب، واستشاعة لظآها حين قاتلت الرجال على الأحساب؟ قال: كلهم قد وصل كنفها عند انتشار وقعها، حتى ابتلت أثباج الرجال من الجريال، بكلّ لذنّ عَسال، وبكلّ عَضْب قَصال. فقال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: أما والله لقد رأيتنا يوما من الأيام، وقد غشينّا ثعبان في مثل الطّود الأرعن، قد أثار قسطلآ حال بيننا وبين الأفق، وهو على أدهم سائل الغرّة، - يعني عليا عليه السلام - بضربهم بسيفه ضرب غرائب الإبل؛ كاشراً عن نابه كشر المخدر الحرب، فقال معاوية: نعم إنه كان يقاتل عن ترّة له وعليه^(٢).

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: أرسل علىّ عليه السلام إلى معاوية: أن ابرُز إلىّ وأعفِ الفريقين من القتال، فأينا قتل صاحبه كان الأمر له. فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، فقال معاوية: أنا أبارز الشجاع الأخرق! أظنك يامعرو طمعت فيها. فلما لم يجب قال علىّ عليه السلام: وانفساه! أبطاع معاوية وأعصى! ما قاتلت أمة قطّ أهل بيت نبيها وهي مقرّة بنبيها غير هذه الأمة! ثم إنّ عليا عليه السلام أمر الناس أن يحملوا على أهل الشام، فحملوا، فنقضوا صفوف الشام، فقال عمرو: علىّ من هذا الرّهج الساطع؟ قالوا: على ابنك عبد الله ومحمد، فقال عمرو: ياوردان، قدّم لوأنى، فأرسل إليه معاوية: إنه ليس على ابنك بأس فلا تنقض الصفّ، والزم موقفك، فقال عمرو: هيهات هيهات.

الليثُ يَحْمِي شِبْلِيهِ ما خِيرُهُ بَعْدَ ابْنِيهِ

ثم تقدّم بالواء، فأدركه رسول معاوية [فقال]^(٣): إنه ليس على ابنك بأس؛ فلا تحملنّ،

(١) من صفين

(٢) صفين ٤٤٠، ٤٤١

(٣) من د و صفين.

فقال : قل له : إنك لم تلدها ، وإنى أنا ولدتها . وبلغ مقدّم الصفوف ، فقال له الناس : مكانك ! إنه لا بأس على ابنك ؛ إنهما فى مكان حريز . فقال : أسمعونى أصواتهما حتى أعلم أحيّان هما أم قتيلان ! ونادى : ياوردان ، قدم لواءك قيد قوس ؛ فقدّم لواءه ، فأرسل علىّ عليه السلام إلى أهل الكوفة : أن احموا ، وإلى أهل البصرة : أن احموا . فحمل الناس من كلّ جانب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وخرج رجل من أهل الشام ، فقال : مَنْ يبارز ؟ فبرز إليه رجلٌ من أهل العراق ، فاقتتلا ساعةً ، وضرب العراقى الشامى علىّ رجله ، فأسقط قدمه ، فقاتل ولم يسقط إلى الأرض ، فضربه العراقى أخرى ، فأسقط يده ، فرمى الشامى سيفه إلى أهل الشام ، وقال : دونكم سيفى هذا ، فاستعينوا به على قتال عدوكم . فاشتراه معاوية من أوليائه بعشرة آلاف درهم^(١) .

قال نصر : وحدثنا مالك الجهمى ، عن زيد بن وهب ، أن عليّاً عليه السلام مرّ على جماعة من أهل الشام بصيّقين ، منهم الوليد بن عقبة ، وهم يشتمونه ويقصّبونه^(٢) ، فأخبر بذلك ، فوقف على ناسٍ من أصحابه ، وقال : انهدّوا إليهم ، وعليكم السكينة والوقار وسيما الصالحين ، أقربُ بقومٍ من الجهل ، قاندهم ومؤدّبهم معاوية ، وابن النابغة ، وأبو الأعور [السّلمى]^(٣) ، وابن أبى مُعيط شارب الحرام ، والمحدود^(٤) فى الإسلام ! [وهم أولاء]^(٥) ، يقصّبوننى ويشتموننى ، وقبل اليوم ماقاتلونى وشتمونى ، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام ، وهم يدعونى إلى عبادة الأصنام ، فالحمد لله ، ولا إله إلا الله ! تقدّماً ما عادانى الفاسقون ، إن هذا هو الخطب الجلل ؛ إن فساقا كانوا عندنا غير مرضيين ، وعلىّ الإسلام

(١) صفين ٤٤١ ، ٤٤٢

(٢) يقصّبونه : يسبوناه .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « المحدود »

وأهله متخوفين ، أصبحوا وقد خدسو اشطر هذه الأمة ، وأشرى بوا في قلوبهم حب الفتنة ، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان ، وأنصبوا لنا الحرب ، وجدوا في إطفاء نور الله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . اللهم فإنهم قد ردوا الحق فافضض جمعهم ، وشقت كلمتهم ، وأبلسهم بخطاياهم ، فإنه لا يدل من واليت ، ولا يميز من عاديت^(١) .

قال نصر : وكان على عليه السلام ، إذا أراد الحملة هلال وكبيرة ، ثم قال : من أيّ يومى من الموت أفرّ ؟ أيوم لم يقدر أو يوم قدّر ! فجعل معاوية لواء الأعظم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فأمر على عليه السلام بجارية بن قدامة السمدى أن ياقاه بأصحابه ، وأقبل عمرو بن العاص بعده في خيل ، ومعه لواء ثانٍ ، فتقدم حتى خالط صفوف العراق ، فقال على عليه السلام لابنه محمد : امش نحو هذا اللواء رويداً ؛ حتى إذا أشرعت الرماح في صدورهم فأمسك يدك حتى يأتبك أمرى . ففعل — وقد كان أعدّ على عليه السلام مثلهم مع الأشرع — فلما أشرع محمد الرماح في صدور القوم ، أمر على عليه السلام الأشرع أن يحمل خمل ، فأزالهم عن مواقفهم ، وأصاب منهم رجالاً ، واقتتل الناس قتالا شديداً ، فما صلى من أراد الصلاة إلا إيماء ، فقال النجاشي في ذلك اليوم يذكر الأشرع :

ولما رأينا اللواء العقاب^(٢) يقتحمه الشاني الأخزر
كليث العرين خلال العجاج وأقبل في خيله الأبر
دعونا لها الكباش كبش العراق وقد أضمر الفشل العسكر^(٣)
فردّ اللواء على عقيبه وفاز بحظوتها الأشر

(١) صفين ٤٤٤ ، ٤٤٥

(٢) صفين : « رأيت اللواء لواء العقاب »

(٣) صفين : « وقد خالط العسكر العسكر »

كما كان يفعل في مثلها إذا ناب مَعْصُوبٌ منكراً
فلئن يدفع الله عن نفسه فحظَّ العراق به الأوفرُ
إذا الأشرُّ الخيرُ خَلَّى العراق فقد ذهب العرفُ والمفكرُ
وتلك العراق ومن عرفت كفة تَقَعُ تضمَّنه المَرَقَرُ (١)

قال نصر: وحدثنا محمد بن عقبة الكندي، قال: حدثني شيوخ من حضر موت شهيد مع علي عليه السلام صيفين، قال: كان منّا رجل يعرف بهاني بن فهد (٢)، وكان شجاعاً، فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى البراز فلم يخرج إليه أحد، فقال هاني: سبحان الله! ما يمنعكم أن يخرج منكم رجل إلى هذا! فوالله لولا أنني موعوك، وأني أجده ضعفاً شديداً نخرجت إليه. فما ردّ أحدٌ عليه، فقام وشدّ عليه سلاحه ليخرج، فقال له أصحابه: يا سبحان الله! أنت موعوك وعكّة شديدة، فكيف نخرج! قال: والله لأخرجنّ ولو قتلتني، فخرج؛ فلما رآه عرفه، وإذا الرجل من قومه من حضر موت، يقال له يعمر بن أسد الحضرمي، فقال: يا هاني، ارجع فإنّه إن يخرج إلى رجل غيرك أحبّ إليّ، فإنّي لا أحبّ قتلك. قال هاني: سبحان الله! أرجع وقد خرجت؛ لا والله لأقاتلنّ اليوم حتى أقتل، ولا أبالي قتلتني أنت أو غيرك! ثم مشى نحوه، وقال: اللهم في سبيلك ونصر آ لابن عمّ رسولك. واختلعا ضربتين، فقتله هاني، وشدّ أصحاب يعمر بن أسد على هاني، فشدّ أصحاب هاني عليهم، فاقتتلوا وانفرجوا عن اثنين وثلاثين قتيلاً. ثم إنّ علياً عليه السلام أرسل إلى جميع العسكر: أن احمّلوا، فحمل الناس كلهم على رياتهم، كلٌّ منهم

(١) الفقه: السكّاة الرخوة، والفرقر: الأرض اللينة المطمئنة. والشعر في صيفين ٤٥١ - ٤٥٢

(٢) صيفين: «ابن عمر»

يَجْمَلُ عَلَى مَنْ بَازَاثُهُ ^(١)، فَتَجَالِدُوا بِالسُّيُوفِ، وَعُمِدَ الْحَدِيدِ؛ لَا يَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَ ضَرْبِ
الْهَامَاتِ، كَوَقْعِ الْمَطَارِقِ عَلَى السَّنَادِينَ، وَمَرَّتِ الصَّلَاةُ كُلُّهَا، فَلَمْ يَصِلْ أَحَدٌ إِلَّا تَسْكِيْرًا
عِنْدَ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ؛ حَتَّى تَفَانَوْا، وَرَقَّ النَّاسُ، وَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِ الصَّغْفَرِ، لَا يَعْلَمُ
مَنْ هُوَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَخْرِجْ فِيكُمْ الْخَلْقُونَ؟ فَقِيلَ: لَا، فَقَالَ: إِنَّهُمْ سَيَخْرُجُونَ،
أَلَسْتُمْ أَحَلَّ مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرٌ مِنَ الصَّبْرِ، لَهُمْ حُمَّةٌ كَحُمَّةِ الْحَيَاتِ. ثُمَّ غَابَ
الرَّجُلُ فَلَمْ يَعْلَمْ مَنْ هُوَ ^(٢)!

قَالَ نَعْر: وَحَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ شَمْرٍ، عَنْ السَّيِّدِ، قَالَ: اخْتَلَطَ أَمْرُ النَّاسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ،
وَزَالَ أَهْلُ الرَّايَاتِ عَنْ مَرَكَزِهِمْ، وَتَفَرَّقَ أَصْحَابُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُ، فَأَتَى رِبْعَةَ لَيْلًا؛
فَكَانَ فِيهِمْ، وَتَعَاظَمَ الْأَمْرُ جَدًّا، وَأَقْبَلَ عَدِيَّ بْنُ حَاتِمٍ يَطْلُبُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَوْضِعِهِ
الَّذِي تَرَكَهُ فِيهِ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَطَافَ يَطْلُبُهُ، فَأَصَابَهُ بَيْنَ رِمَاحِ رِبْعَةَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛
أَمَّا إِذْ كُنْتُ حَيًّا، فَلَا أَمْرَ أَمِّمْ، مَامَشَيْتُ إِلَيْكَ إِلَّا عَلَى قَتِيلٍ؛ وَمَا أَبَقْتُ هَذِهِ الْوَقْعَةَ لَمْ
عَمِيدًا، فَقَاتِلْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ بَقِيَّةَ بَعْدِ. وَأَقْبَلَ الْأَشْعَثُ يَلْهَثُ جَرْعًا،
فَلَمَّا رَأَى عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلَّلَ فَكَبَّرَ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، خَيْلٌ كَخَيْلِ وَرَجَالٌ
كَرَجَالٍ؛ وَلَنَا الْفَضْلُ عَلَيْهِمْ إِلَى سَاعَتِنَا هَذِهِ، فَعَدَّ إِلَى مَكَانِكَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ؛ فَإِنَّ
النَّاسَ إِنَّمَا يَظُنُّونَكَ حَيْثُ تَرَكوكَ. وَأَرْسَلَ سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيَّ إِلَى عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
إِنَّا مُشْتَفِلُونَ بِأَمْرِنَا مَعَ الْقَوْمِ، وَفِينَا فَضْلٌ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ نَمِدَّ أَحَدًا أَمْدَدْنَاهُ. فَأَقْبَلَ عَلَى
عَلِيهِ السَّلَامُ عَلَى رِبْعَةَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ دِرْزَعِي وَرَحْمِي - قَالَ: فَرِبْعَةَ تَفَخَّرَ بِهَذَا الْكَلَامِ إِلَى
الْيَوْمِ - فَقَالَ عَدِيَّ بْنُ حَاتِمٍ. يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ قَوْمًا أَنْسَتْ بِهِمْ؛ وَكُنْتُ فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ

(١) صفين: «جمل الناس على راياتهم كل قوم بجيالههم»

(٢) صفين ٤٤٧، ٤٤٨

فيهم ، لمظيم حقهم ؛ والله إنهم لصُبر عند الموت ، أشداء عند القتال - فدعا على عليه السلام بفرس رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يقال له المرتجز ، فركبه ، ثم تقدم أمام الصفوف ، ثم قال : بل البغلة ، بل البغلة ، فقدّمت له بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الشهباء ، فركبها ، ثم تعصب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت سوداء ، ثم نادى : أيها الناس ، مَنْ يَشِرْ نفسه الله يريح ، إن هذا ليومٌ ^(١) له ما بعده ، إن عدوكم قد مسّه القرّح كما مسكم ، فانتدبوا لنصرة دين الله . فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفا ، قد وضعوا سيوفهم على عواتقهم ، فشذب بهم على أهل الشام ، وهو يقول :

دَبُّوا دَيْبَ النَّمْلِ لَا تَفُوتُوا وَأَصْبِحُوا فِي حَرْبِكُمْ وَبَيْتُوا
حَتَّى تَنَالُوا الثَّارَ أَوْ تَمُوتُوا أَوْ لَا فَإِنِّي طَالِمَا عَصَيْتُ
قَدْ قَلْتُمُو لَوْ جِئْتُمَا لَجِئْتُ لَيْسَ لَكُمْ مَا شِئْتُمْ وَشِئْتُ
* بل ما يريد المُخَيُّ المميتُ *

وتبعه عدى بن حاتم بلوائه ، وهو يقول :

أَبْسَدَ عَمَّارٍ وَبَسَدَ هَاشِمٍ وَابْنُ بَدِيلٍ فَارِسُ الْمَلَايِمِ
نَرْجُو الْبَقَاءَ ، ضَلَّ حُلْمُ الْحَالِمِ لَقَدْ عَصَصْنَا أَمْسَ بِالْأَبَاهِمِ
فَالْيَوْمَ لَا نَقْرَعُ سَنَ نَادِمٍ لَيْسَ أَمْرٌ مِنْ حَتِفِهِ بِسَالِمٍ
وَحَمَلُ وَحَلِّ الْأَشْتَرِ بَعْدَهَا فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ كَافَّةً ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض ، وأحمد أهل ^(٢) العراق ما أتوا عليه حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية ، وعلى عليه السلام يضرب الناس بسيفه قُدُمًا قُدُمًا ، ويقول :

(١) ج ، د : « إن هذا اليوم » .
(٢) صفين : « وأحمدوا ما أتوا عليه »

أضربهم ولا أرى معاوية الأخزر الدين العظيم الحاوية
* هوت به النار أم هاوية *

فدعا معاوية بفرسه لينجوه عليه ، فلما وضع رجله في الركاب توقف وتلوم قليلا ،
ثم أنشد قول عمرو بن الإطنابة :

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذني الجمد بالثمن الربيع
وأقداى على المكروه نفسي وضربى هامة البطل الشيخ
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تسترعي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعدد عن عرض صحيح
بذي شعل كلون الملح صافي ونفس ما تقر على القبيح

ثم قال : يا عمرو بن العاص ، اليوم صبر وغدا نغر ، قال : صدقت ، إنك وما أنت
فيه ، كقول القائل^(١) :

ما علتني وأنا جلد نابل^(٢) والقوس فيها وتر عُنابل^(٣)
نزل عن صفحتها المعابل^(٤) الموت حق والحياة باطل

فثنى معاوية رجله من الركاب ، ونزل واستصرخ بعك الأشعرين ، فوقفوا دونه ،
وجالدوا عنه ، حتى كره كل من الفريقين صاحبه ، وتحاجز الناس^(٥) .

(١) صفين : « ابن أبي الأفلح » ؛ وهو عامر بن ثابت بن أبي الأفلح ؛ صحابي ، ذكره ابن حجر في
الإصابة ٢ : ٢٣٥ . والرجز في اللسان ١٣ : ٥٠٦ .
(٢) في اللسان : « طب خاتل » .
(٣) العنابل : الوتر الغليظ .
(٤) المعابل : جمع معبل ؛ وهي النعل الطويل العريض .
(٥) صفين ٥٥٧ - ٥٦٠ .

قال نصر : جاء رجل إلى معاوية بعد انقضاء صيفين وخلوص الأمر له ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لي عليك حقاً ، قال : وما هو ؟ قال : حق عظيم ! قال ويحك ! ماهو ؟ قال : أتذكر يوماً قدمت فرسك لتفتر ، وقد غشيك أبو تراب والأشتر ، فلما أردت أن تستوثبه وأنت على ظهره ، أمسكت بعنانك وقلت لك : أين تذهب ! إنه للوم بك أن تسمح العرب بنفوسها لك شهرين ، ولا تسمح لها بنفسك ساعة ، وأنت ابن ستين ! وم عسى أن تعيش في الدنيا بعد هذه السن إذا نجوت ! فتلومت في نفسك ساعة ، ثم أنشدت شعراً لا أحفظه ثم زلت ! فقال : ويحك ! فإنك لأنت هو ! والله ما أحلني هذا الحل إلا أنت ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن النخعي ، عن ابن عباس ، قال : تعرض عمرو بن العاص لعل عليه السلام يوماً من أيام صيفين ، وظن أنه يطعم منه في غرة فيصيبه ، فحمل عليه على عليه السلام فلما كاد أن يخاطبه أذرى نفسه عن فرسه ، ورفع ثوبه وشعر برجله ، فبدت عورتته ، فصرف عليه السلام وجهه عنه ، [وارث^(١)] ، وقام معقراً بالتراب ، هارباً على رجله ، معتصماً بصنوفه . فقال أهل العراق : يا أمير المؤمنين : أفلت الرجل ! فقال أتدرون من هو ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه عمرو بن العاص ، تلقاني بسوءته فصرفت وجهي عنه . ورجع عمرو إلى معاوية ، فقال : ما صنعت يا أبا عبد الله ؟ فقال : لقيتني على فصرعني ، قال : الحمد لله وعورتك ، والله إنني لأظنك لو عرفته لما أقحمت عليه ، وقال معاوية في ذلك :

ألا لله من هفوات عمرو
يعاتبنى على تركي برازي

فقد لاقى أبا حسن علياً فآب الوائلي مآبَ نخازي
فلولم يُبد عورته لطارت بجهجه قوادمُ أيّ بلزي^(١)
فلن تسكن اللثية أخطانه فقد غنى بها أهل الحجاز
ففضب عمرو وقال : ما أشدّ تعظيمك [علياً]^(٢) أبا تراب في أمرى ! هل^(٣) أنا إلى الأرجل
لقيه ابن عمه فصرعه ! أفترى السماء قاطرةً لذلك دما ! قال : لا ، ولكنّها معقبة لك
خزياً^(٤) ..

قال نصير : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : لما اشتدّ الأمر ، وعظم على أهل الشام ،
قال معاوية لأخيه عتبة بن أبي سفيان : الق الأشعث ، فإنه إن رضى رضيت العامة - وكان
عتبة فصيحاً - فخرج فنادى الأشعث ، فقال الأشعث : سلوا من هو المنادي ؟ قالوا : عتبة
ابن أبي سفيان ، قال : غلام مُتَرَفٍّ ولا بدّ من لقائه فخرج إليه ، فقال : ما عندك يا عتبة ؟
فقال : أيها الرجل ، إن معاوية لو كان لاقيا رجلاً غير عليّ للقيك ، إنك رأس أهل
العراق ، وسيّد أهل اليمن ، وقد سلفَ من عثمان إليك ما سلف من الصّهر والعميل ، ولست
كأصحابك ، أما الأشتر فقتل عثمان ، وأما عديّ فخرّض عليه ، وأما سميد بن قيس فقلّد
عليّاً ديتة ، وأما شريح وزحر بن قيس فلا يعرفان غير الهوى ، وإنك حاميت عن أهل
العراق تكثر ما ، وحاربت أهل الشام حميّة ، وقد بلغنا منك ويبلغت منا ما أردت ؛ وإنّا
لا ندعرك إلى ترك عليّ ونصرة معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك
وصلاحنا . فكلّم الأشعث ، فقال : يا عتبة ، أما قولك : « إن معاوية لا يلقى إلا علياً » ،

(١) صفين : « به لينا يذل كل نازي »

(٢) صفين .

(٣) صفين : « هو » .

(٤) صفين ٤٦٣ ، ٤٦٤

فلولقيني والله لما عظم عني ، ولا صغرْتُ عنه ، وإن أحب أن أجمع بينه وبين عليّ فعلت .
 وأما قولك : «إني رأسُ أهل العراق ، وسيدُ أهل اليمن» ؛ فإن الرأسَ المتبَع والسيدَ المطاع ،
 هو عليّ بن أبي طالب ؛ وأما ماسلَف من عثمان إلى ، فوالله ما زادني صهره شرفاً ، ولا عمله
 عزاً . وأما عيبُك أصحابي ، فإنه لا يقرُّ بك مني ، ولا يباعدني عنهم ؛ وأما محاماتي عن أهل
 العراق ؛ فمن نزل بيتنا حماء ؛ وأما البقية فلستُ بأحوجَ إليها ممّا ، وسنرى رأينا فيها .
 فلما عاد عتبة إلى معاوية ، وأبلغه قوله قال له : لا تلقه بعدها ؛ فإنّ الرجل عظيم عند
 نفسه ؛ وإن كان قد جَنَحَ للسلم . وشاع في أهل العراق ما قاله عتبة للأشعث وما ردّه
 الأشعث عليه ؛ فقال النجاشي يمدحه :

يا بن قيس وحارثٍ ويزيدٍ أنتَ والله رأسُ أهلِ العراقِ
 أنتَ والله حيّةٌ تنفثُ السّمَّ قليلٌ منها غشاءُ الرّاقِي^(١)
 أنتَ كالشمس والرجال نجومٌ لا يرى ضوءها مع الإِشراقِ
 قد حميتَ العراقَ بالأسلِ السُّمِّ رِ وبالبيض كالبروق الرّفاقِ
 وسعرتَ القتالَ في الشامِ باليهض المواضي وبالرماح الدّفاقِ
 لا ترى غيرَ أذرعٍ وأكفٍ ورءوسٍ بهائمٍ أفلاقٍ^(٢)
 كَلِمَةً قلتَ قد تصرّمتَ الهيمُ بها سقيتهمُ بكأسٍ دِهاقٍ
 قد قضيتَ الذي عليك من الحقِّ وسارتُ به الفِلاسُ المناقِي^(٣)
 أنتَ حلوتَ لمن تقربَ بالوَدِّ وللشّائنين مرّةً المذاقِ
 بأَسْمَا ظَلَمَ ابنُ هندٍ ومَن مثلكَ في الناسِ عند ضيقِ الخفاقِ !

(١) صفين : « قليل فيها »

(٢) أفلاق : جمع فلق ؛ وهو المكسور .

(٣) المناق : النباق السمينة ، جمع منقبة .

قال نصر : فقال معاوية لما يؤس من جهة الأشعث لعمر بن العاص : إن رأس
الفاص بعد على هو عبد الله بن العباس ، فلو كتبت إليه كتاباً لعلمك ترققه ، ولعله لو قال
شيئاً لم يخرج على منه ؛ وقد أكلتناً الحرب ، ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل
الشام . فقال عمرو : إن ابن عباس لا يُخَدَع ؛ ولو طمعت فيه لطمعت في على ، قال معاوية :
على ذلك فاكتب ، فكتب عمرو إليه :

أما بعد ، فإن الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء ؛ وأنت رأس هذا
الجمع بعد على ، فانظر فيما بقي ، ودع ماضى ، فوالله ما أقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة
ولا صبرا ، فاعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ؛
فما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ! ولنا نقول :
ليت الحرب عادت ؛ ولنا نقول : ليتها لم تكن ؛ وإن فينا من يكره اللقاء ، كما أن
فيكم من يكرهه ؛ وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ؛ أو مؤتمن مشاور وهو أنت ،
فأما الأشتر الغليظ الطبع ، القاسى القلب ؛ فليس بأهل أن يدعى في الشورى ولا في خواص
أهل النجوى . وكتب في أسفل الكتاب :

طال البلاء وما يرجى له آسى	بعد الإله سوى رفيق ابن عباس
قولاله قول من يرجو موذته ^(١) :	لاتنس حظك إن الخاسر الناسي
انظر فدّى لك نفسى قبل قاصمة	للظهر ليس لها راق ولا آسى
إن العراق وأهل الشام لن يجدوا	طعم الحياة مع المستفلق القاسى
يابن الذى زمزم سقىا الحجييج له	أعظم بذلك من نغر على الناس
إنى أرى الخير فى سلم الشام لكم	والله يعلم ما بالسلم من باس
فيها التقي وأمور ليس يحلمها	إلا الجهول وما نوزكى كياس

(١) صفين : « قول من يرضى لخطوته »

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس، عرضه على أمير المؤمنين عليه السلام، فضحك، وقال: قاتل الله ابن العاص! ما أغراء بك يا عبد الله. أجبه وليردّ ليه شعره الفضل ابن العباس، فإنه شاعر؛ فكتب ابن عباس إلى عمرو:

أما بعد، فإنني لأعلمُ أحداً من العرب أقلّ حياءً منك، إنه ملأ بك معاوية إلى الهوى فيمته. دينك بالثمن اليسير، ثم خبطت الناس في عَشْوَةٍ؛ طمعا في الدنيا فأعظمتها إعظام أهل الدنيا، ثم تزعم أنك تنزّه عنها تنزّه أهل الورع، فإن كنت صادقاً فارجع إلى بيتك، ودع الطمع في مصر والركون إلى الدنيا القانية، واعلم أن هذه الحرب ما معاوية فيها كعلّى؛ بدأها على بالحق، وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف؛ وليس أهل العراق فيها كأهل الشام؛ بايع أهل العراق علياً، وهو خيرٌ منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه، ولست أنا وأنت قهينها سواء، أردتُ الله وأردت مصر، وقد عرفتَ الشيء الذي باعدك مني، ولا أعرف الشيء الذي قربك من معاوية، فإن تُردّ شراً لانسبقتك به، وإن تردّ خيراً لانسبقنا إليه. والسلام.

ثم دعا أخاه الفضل، فقال: يا بن أمّ، أجب عَمراً، فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من مَكْرٍ وَوَسْوَاسٍ	فاذهب فليس لداء الجهل من آسٍ
إلا تواتر طعنٍ في نحوركم	يُشجى النفوس وَيَشْفِي نخوة الراسِ
أما على فإن الله فضله	بفضل ذي شرفٍ عالٍ على الناسِ
إن تمقلوا الحربَ تمقلها بخيسة	أو تبمشوها فإنما غير أنكاس ^(١)

(١) بعده في صيفين:

قد كان مينا ومنكم في مجاجتها مالا يردّ، وكلّ عُرْضة الباسِ

قَتَلَى الْعِرَاقَ بِقَتْلِ الشَّامِ ذَاهِبَةً هَذَا بِهِذَا ، وَمَا بِالْحَقِّ مِنْ بَاسٍ ^(١)
 نَمَّ عَرَضَ الشَّعَرِ وَالْكَتَابِ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : لَا أَرَاهُ يُجِيبُكَ بِعَمْدٍ أَبَدًا .
 بِشَيْءٍ إِنْ كَانَ بِمَقْلٍ ؛ وَإِنْ عَادَ عُدَّتْ ^(٢) عَلَيْهِ . فَلَمَّا انْتَهَى الْكِتَابُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ
 عَرَضَهُ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ : إِنْ قَلْبُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَلْبُ عَلِيٍّ قَلْبٌ وَاحِدٌ ، وَكُلَاهُمَا وَلَدٌ
 عَبْدُ الْمَطْلَبِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ خَشُنَ فَلَقَدْ لَانَ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَطَّمَ أَوْ عَظُمَ صَاحِبُهُ ، فَلَقَدْ
 قَارِبَ وَجَنَحَ إِلَى السَّلَمِ .

قَالَ أَنْصَرُ : وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لَا تَكُتُبَنَّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ كِتَابًا أَسْتَعْرِضُ فِيهِ عَقْلَهُ ، وَأَنْظُرَ
 مَا فِي نَفْسِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكُمْ مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ لَسْتُمْ إِلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ بِالْمَسَاءَةِ مِنْكُمْ إِلَى أَنْصَارِ
 ابْنِ عَفَّانٍ ؛ حَتَّى إِنْ كُنْتُمْ قَتَلْتُمْ طَالِحَةَ وَالزَّيْبِرَ ؛ لَطَلِبَهُمَا دَمَهُ ، وَاسْتَعْمَلْتُمَاهُمَا مَا نِيلَ مِنْهُ ، فَإِنْ
 كَانَ ذَلِكَ مُنَافَسَةً لِبَنِي أُمَيَّةٍ فِي السُّلْطَانِ ، فَقَدْ وَارَيْتُمَا عَدِيَّ وَتَيْمَ فُلْمٌ تَدَافِسُوهُمَ ، وَأَظْهَرْتُمْ
 لَهُمُ الطَّاعَةَ ، وَقَدْ وَقَعَ مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَى ، وَأَكَلَتْ هَذِهِ الْحُرُوبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ؛ حَتَّى
 اسْتَوَيْنَا فِيهَا ، فَمَا يَطْمَعُكُمْ فِينَا بِطِمَعٍ مُتَافِيَكُمْ ، وَمَا يُوْثِقُنَا مِنْكُمْ بِوَيْثَاقٍ مُتَافِيًا لِقَدْ رَجَوْنَا
 غَيْرَ مَا كُنَّا ، وَخَشِينَا دُونَ مَنَاوِقِ ، وَالسَّتْ مَلَاقِينَا الْيَوْمَ بِأَحَدٍ مِنْ حَدِّ أَمْسٍ ، بُولَا غَدًا
 بِأَحَدٍ مِنْ حَدِّ الْيَوْمِ ، وَقَدْ قَنَعْنَا بِمَا فِي أَيْدِينَا مِنْ مُلْكِ الشَّامِ ، فَاقْنَعُوا بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ
 مُلْكِ الْعِرَاقِ ، وَأَبْقُوا عَلَى قَرِيْشٍ ، فَإِنَّمَا بَقِيَ مِنْ رَجَالِهَا سِتَّةٌ : رَجُلَانِ بِالشَّامِ ، وَرَجُلَانِ
 بِالْعِرَاقِ ، وَرَجُلَانِ بِالْحِجَازِ ، نَقَامًا لِلَّذَانِ بِالشَّامِ فَأَنَا وَعَمْرُو ، وَأَمَّا اللَّذَانِ بِالْعِرَاقِ فَأَنْتَ

(١) إِيَّاهُ فِي صَفِيْنِ :

لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي مَصْرِ لَقَدْ جَلَبَتْ شَرًّا وَحُظُّكَ مِنْهَا حُسْوَةٌ السَّكَاسِ
 يَاعَمْرُو إِنَّكَ عَارٍ مِنْ مَخَارِمِهَا - وَالرَّاقِصَاتِ - وَمِنْ يَوْمِ الْجَزَاكَاسِ

(٢) صَفِيْنِ : « فَنَعُودُ إِلَيْهِ » .

وعلى ، وأما اللذان بالحجاز ، فسمعت وابن عمر ؛ فاثنتان من الستة ناصبان لك ، واثنتان واقفان فيك ، وأنت رأسُ هذا الجمع ؛ ولو بايعَ لك الناسُ بعد عثمان كُفنا إليك أسرعَ مِنّا إلى على^(١) .

فلما وصل الكتابُ إلى ابن عباس أسخطه ، وقال : حتّى متى يخطب ابنُ هندٍ إلى على ! وحتّى متى أجهجم على مافى نفسى ! وكتب إليه :

أما بعد [فقد]^(٢) أتانى كتابك ، وقرأته . فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفّان ، وكراهتنا لسلطان بنى أمية ، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره ؛ حتى صرت إلى ما صرت إليه . ويدنى ويدنك في ذلك ابنُ عمك وأخو عثمان ، وهو الوليد بن عقبة . وأما طلحة والزبير ، فإنّهما أجلبا عليه وضيقا خنافة ، ثم خرجا يفتقضان البيعة ، ويطلبان الملك ، فقاتلتهما على النكث ، كما قاتلك على البقي . وأما قولك : إنه لم يبقَ من قريش غيرُ سقة ، فما أكثرَ رجالها ، وأحسنَ بقيتها ! وقد قاتلك من خيارها مَنْ قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خذلك . وأما مغرؤك إيانا بعدى وتيم ، فإن أبا بكر وعمر خيرٌ من عثمان ، كما أن عثمان خيرٌ منك ، وقد بقي لك مِنّا ما ينسبك ما قبله ، وتخاف ما بعده . وأما قولك : لو بايع الناسُ لي لاستقاموا ؛ فقد بايع الناسُ عليا وهو خيرٌ منى فلم يستقيموا له . وما أنت والخلافة يامعاوية ! وإنما أنت طليق وابن طليق ! والخلافة للمهاجرين الأولين ؛ وليس الطُّغماء منها في شيء ! والسلام .

فلما وصل الكتابُ إلى معاوية ، قال : هذا على بنفسى ، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة . وقال :

(١) بعدها في صفين : « في كلام كثير كتب إليه » .

(٢) من صفين .

دعوتُ ابن عَبَّاسٍ إِلَى جِلِّ حَظِّهِ وَكَانَ امْرَأً أَهْدَى إِلَيْهِ رَسَائِلِي
فَأَخْلَفَ ظَنِّي وَالْحَوَادِثَ جَمَّةً وَمَا زَادُنِ أَعْلَى عَلَيْهِ مَرَاجِلِي
فَقُلْ لابْنِ عَبَّاسٍ : أَرَأَيْكَ مَخَوِّفًا بِجَهْلِكَ حَلَمِي ، لِمَنِّي غَيْرَ غَافِلِ
فَأَبْرِقْ وَأَرْعِدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنِّي إِلَيْكَ بِمَا يَشْجِيكَ سَبْطُ الْأَمَلِ (٢)

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : عقد معاوية يوماً من أيام صفين الرياسة على
اليمين من قریش ، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم ؛ منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ،
ومحمد وعتبة ابنا أبي سفيان ، وبُسَير بن أبي أرطاة ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ،
وذلك في الوقعات الأولى من صفين ، فغمّ ذلك أهلَ اليمين ، وأرادوا ألا يتأمرَ عليهم
أحدٌ إلا منهم . فقام إليه رجل من كِنْدَةَ ، يقال له عبد الله بن الحارث السَّكُونِيّ ،
فقال : أيها الأمير ، إنّي قد قلت شيئاً فاسمعه ، وضعه منّي على النصيحة ، قال : هات ،
فأنشده :

مُعَاوِيَةُ أَحْيَيْتَ فَيَمُنَا الْإِخْنَ وَأَحْدَثْتَ بِالشَّامِ مَالِمَ يَكُنْ
عَقَدْتَ لِبُسَيْرٍ وَأَصْحَابِهِ وَمَا النَّاسَ حَوْلَكَ إِلَّا الْيَمِينَ
فَلَا تُخْلِطَنَّ بِنَا غَيْرَنَا كَمَا شِيبَ بِالْمَاءِ صَفْوُ اللَّيْنِ (٣)
وإِلَّا فِدَعْنَا عَلَى حَالِنَا فَإِنَّا وَإِنَّا إِذَا لَمْ نُهْنِ
سَتَعْلَمُ إِن جَاشَ بِحَرِّ الْعِرَاقِ وَأَبْدَى نَوَاجِذَهُ فِي الْفَتَنِ
وَشَدَّ عَلَى بَأَصْحَابِهِ (٤)

(١) صفين : « حد » .

(٢) صفين ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) صفين : « محسن اللين »

(٤) صفين : « على وأصحابه »

بأنا شعارك دون الدثار وأنا اللرمح وأنا الجن
وأنا السيوف، وأنا الخوف وأنا الدروع ، وأنا المجن
قال : فبكى لها معاوية ، ونظر إلى وجوه أهل اليمن ، فقال : أعن رضاكم يقول
ما قال ؟ قالوا : لا مرحباً بما قال ؛ إنما الأمر إليك فاضع ما أحببت . فقال معاوية : إنما
خلطت بكم أهل ثقي ، ومن كان لي فهو لكم ؛ ومن كان لكم فهو لي . فرضى القوم
وسكتوا ، فلما بلغ أهل الكوفة مقال عبد الله بن الحارث لمعاوية [فيمن عقد له من رؤوس
أهل الشام]^(١) ، قام الأعور الشني إلى علي عليه السلام ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما
لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية ، ولكن نقول : زاد الله في سرورك^(٢)
وهذا ! نظرت بدور الله ، فقدمت رجلاً ، وأخرت رجلاً . عليك أن تقول ،
وعليها أن تفعل . أنت الإمام ، فإن هلكت فهذان من بعدك - يعني حسناً وحسيناً
عليهما السلام - وقد قلت شيئاً فاسمعه ، قال : هات ، فأشده :

أباحسن أنت شمس النهار وهذان في الحادثات القمر
وأنت وهذان حتى المات بمنزلة السمع بعد البصر
وأتم أناسكم سورة تقصر عنها أكف البشر
يخبرنا الناس عن فضلكم وفضلكم اليوم فوق الخبر
عقدت اقويم أولى نجدة من أهل الحياء وأهل الخطر^(٣)
مساميح بالموت عند اللقاء منّا وإخواننا من مضر
ومن حتى ذي يمن جلة يقيمون في النابتات الصخر
فكل بسرّك في قوميه ومن قال لا ، فبغير الحجر

(١) من صفين .

(٢) صفين : « زاد الله في سرورك وهذا »

(٣) صفين ٤٨٣ ، ٤٨٤

ونحنُ الفوارس يوم الزبير وطلحة إذ قيل أودى غدَرَ
 ضربناهم قبلَ نصفِ النهار إلى الليل حتى قضيناَ الوطَرَ
 ولم يأخذ الضرب إلا الروسَ ولم يأخذ الطعنُ إلا الثُغَرَ
 فنحنُ أولئك في أمسنا ونحنُ كذلك فيما غَبَرَ
 قال : فلم يبق أحدٌ من الرؤساء إلا وأهدى إلى الشَّيِّ « [أو اتحفه] .

قال نصر : وحدَّثنا عمر بن سعد ، قال : لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل
 عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، دعا عمرو بن العاص ، وبُسر بن أبي أُرطاة ، وعُبيد الله
 ابن عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فقال لهم : إنَّه قد غلَّتى مقامُ رجال
 من أصحاب عليٍّ ، منهم سعيد بن قيس الممداني في قومه ، والأشتر في قومه ، والمِرْقَال ،
 وعدى بن حاتم ، وقيس بن سعد في الأنصار ، وقد علمتم أن يمانيةَكم وقتَكم بأنفسها
 أياماً كثيرة ، حتى لقد استجيتُ لِسِكِّم ، وأنتم عُدَّتْهم من قريش ، وأنا أحبُّ أن يعلم
 الناس أنكم أهلُ غَنَاء ، وقد عَيَّات لِسِكْلُ رجلٍ منهم رجلاً منكم ، فاجعلوا ذلك إلى ،
 قالوا : ذاك إليك ، قال : فأنا أ كفيكم غداً سعيد بن قيس وقومه ، وأنت يا عمرو
 للمِرْقَال أعور بنى زهرة ، وأنت يا بسرُّ لقيس بن سعيد ، وأنت يا عبيد الله للأشتر ،
 وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيئ - يعني عدى بن حاتم - وقد جعلتها نوباً في خمسة
 أيام ، لِسِكْلُ رجلٍ منكم يوم ، فكونوا على أَعِنَّة الخيل ، قالوا : نعم ، فأصبح معاوية
 في غدِهِ ، فلم يدعُ فارساً إلا حَشَدَهُ ، ثم قصد لهُمدان بنفسه ، وارتجز فقال :

لن تمنع الحرمة بعد العامِ بين قتيل وجريح دام^(١)
 سأمُك العِراق بالشَّام أنعى ابنَ عفانٍ مَدَى الأيامِ

(١) قبله في صفين :

لَا عَيْشَ إِلَّا فَلَاقَ فِجْفِ الهامِ من أرحبٍ وشاكِرٍ وشبامِ

فطعن في أعرض الخيل ملياً . ثم إن همدان تنادت بشمارها ، وأفحم سعيد بن قيس
فرسه على معاوية ، واشتد القتال حتى حجز بينهم الليل ، فحمدان تذكر أن سعيداً كاد
يقتنيه ؛ إلا أنه فاته ركضاً ، وقال سعيد في ذلك :

يا لطف نفسي فأننى معاوية فوق طير كالعقاب هاوية

* والراقصات لا يعود ثانيه^(١) *

قال نصر : والصرف معاوية ذلك اليوم ، ولم يصنع شيئاً ، وغدا عمرو بن العاص في
اليوم الثاني في حماة الخيل ، فقصده المرقال ، ومع المرقال لواء على عليه السلام الأعظم في
حماة الداس ، [وكان عمرو من فرسان قريش^(٢)] ، فارتجز عمرو ، فقال :

لا عيش إن لم ألق يوماً هاشما ذاك الذي جشمتني المجاشما^(٣)

ذاك الذي يشتم عرضي ظالماً ذاك الذي إن ينبج مني سالماً

* يسكن شجى حتى الممات لازماً *

فطعن في أعراض الخيل مزبداً ، وحمل المرقال عليه ، وارتجز فقال :

لا عيش إن لم ألق يوماً عمراً ذاك الذي أحدث فينا القدر

أو يبدل الله بأمر أمرا^(٤) لا تجزعي يا نفس صبراً صبراً

ضرباً هذا ذيك وطعننا شزراً^(٥) ياليت ما تجني يكون القبرا !

(١) والرقيم : ضرب من سبر الإبل ، وبه في صفين :

إلا على ذات خصيل طاوية إن يعد اليوم فكفى عاليه

(٢) من صفين .

(٣) بعده في صفين :

* ذاك الذي أقام لي المآتما *

(٤) صفين : « أو يحدث الله لأمر أمرا »

(٥) هذا ذيك ، أى هذا بعد هذا ، بمعنى قطعاً بعد قطع .

فطاعن عمرا حتى رجع ، وانصرف الفريقان بعد شدة القتال ، ولم يسر معاوية ذلك ، وغداً بسّر بن أبي أرتاة في اليوم الثالث في حاة الخليل ، فلقى قيس بن سعد ابن عبادة في كمة الأنصار ، فاشتدت الحرب بينهما ، وبرز قيس كأنه فنيق مكرم ، وهو يقول :

أنا ابنُ سعدٍ زانهُ عُبَادَةُ والخزرجيون كُأَةُ سَادَةِ
ليس فرارى في الوغى بعَادَةُ إنَّ الفِرَارَ لالْفَى قِلَادَةِ
ياربَّ أنتَ لَقِيتَ الشَّهَادَةَ فالقَتْلُ خَيْرٌ مِنْ عُنَاقِ غَادَةِ
* حَتَّى مَتَى تُنْذِنِي لِي الْوِسَادَةُ *

وطاعن خيل بسّر ، وبرز بسّر فارتجز وقال :

أنا ابنُ أَرْطَاةِ الْعَظِيمِ الْقَدَرِ مُرَدَّدٌ فِي غَالِبٍ وَفَهْرٍ
ليس الفِرَارُ مِنْ طَبَاعِ بُسْرِ إِنْ أَرْجِعَ الْيَوْمَ بَغِيرٍ وَتَرٍ
وَقَدْ قَضَيْتُ فِي الْعَدُوِّ نَذْرِي يَالَيْتَ شَعْرِي كَمْ بَقِيَ مِنْ عَمْرِي !

ويطعن بسّر قيسا ، ويضر به قيس بالسيف ، فردّه على عقبيه ، ورجع القوم جميعا ، ولقيس الفضل ، وتقدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في اليوم الرابع ؛ لم يترك فارساً مذكورا إلا جمعه ؛ واستكثر ما استطاع ، فقال له معاوية : إنك اليوم تلقى أفعى أهل العراق ، فارفق واتشد ، فلقية الأشر أمام الخليل مُزبداً - وكان الأشر إذا أراد القتال أزيد - وهو يقول :

ياربَّ فَيُضِّسْ لِي سَيُوفَ الْكُفَرَةِ واجمل وفاتى بأكف الفَجَرَةِ
فالقتل خيرٌ من ثياب الحَبَرَةِ لا تعدلُ الدُّنْيَا جميعا وَبَرَةِ
* وَلَا بِمَوْضَأٍ فِي ثَوَابِ الْبَرَةِ *

وشدّ على الخليل خيل الشام ، فردّها . فاستحيا عبيد الله وبرز أمام الخليل - وكان فارسا شجاعا ، وقال :

أُنعمى ابن عفانٍ وأرجو ربّي ذاك الذى يخرجنى من ذنبي
ذاك الذى يكشف عني كربي إنّ ابنَ عقبنَ عظيمُ الخطبِ
يا بى له حُبى بكلِّ قلبى إلا طمأنى دونه وضرى
* حَسْبى الذى أنويه حَسْبى حَسْبى *

فحمل عليه الأشتَر ، وطعمه واشتدّ الأمر ، وانصرف القوم ، وللأشتَر الفضل . فغمّ ذلك معاوية ، وغدا عبد الرحمن بن خالد في اليوم الخامس ، وكان رجاء معاوية أن ينال حاجته ، فتعوّاه بالخليل والسلاح ، وكان معاوية بعده ولدا ، فلقبته عدى بن حاتم في كُماة مذحج وقضاة ، فبرز عبد الرحمن أمام الخليل ، وقال :

قُلْ لعدىّ ذَهَبَ الوعيدُ أنا ابن سيفِ الله لا مزيدُ
وخالدٌ يزِينه الوليدُ ذاك الذى قيل له الوحيد^(١)

ثم حمل فطعن الفاس ، فقصده عدى بن حاتم ، وسدّ إليه الرمح ، وقال :
أرجو إلهى وأخافُ ذنبي ولستُ أرجو غيرَ عَفْوِ ربّي
يا بنَ الوليدِ بغضكم في قلبي كالهَضْبِ بل فوق قِنانِ الهَضْبِ
فلما كاد أن يخالطه بالرمح ، توأرى عبد الرحمن في العجاج ، واستتر بأُسدة أصحابه واختلط القوم ، ثم تجاوزوا ، ورجع عبد الرحمن مقهوراً ، وانكسر معاوية ؛ وبلغ أيمن بن خزيمة ما لقي معاوية وأصحابه ، فشمت بهم - وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام وكان معتزلاً للحرب في ناحية عنها ، فقال :

(١) صفيين : « ذاك الذى هو فيكم الوحيد » .

معاوىَ إِنْ الأمرَ لله وحدهُ وإِليك لا تسطيعُ ضُراً ولا نفعاً
عبأتَ رجالاً من قُرَيْشٍ لعُصْبَةٍ يَمَانِيَةٍ لا تستطيعُ لها دَفْعاً
فكيف رأيتَ الأمرَ إذ جدَّ جدُّه لقد زادك الأمرُ الذي جنته جدُّعا
تعبىَ لقيسٍ أو عدىَ بن حاتم وألا شترَ، يا للناسِ أغمارك الجُدعا^(١)
وتجمَعُ للرقالِ عمراً وإنه لليتُّ أقي من دون غايته ضَبْعاً
وإنَّ سعيداً إذ برزتَ لريحه لفارس هَمْدانَ الذي يشعبُ الصَّدْعا
مليٌّ بضرب الدارعين بسيفه إذا الخيلُ أبدتْ من ممابكها نَقْعاً
رجمتَ فلم تظفرْ بشيءٍ تُريدُه سوى فرسٍ أعيت وأبت بها ظُلْعاً
فدعهم فلا والله لا تستطيعهم مجاهرةً ؛ فاعمل لقمهرهم خُدْعاً

قال : وإنَّ معاوية أظهر لعمرو شمانية، وجعل يقرّعه وبوتخه ، وقال: لقد أنصفتكم؛
إذ أقيت سعيد بن قيس في همدان ، وفررتهم . وإنك لجبان يا عمرو ! فغضب عمرو ، وقال:
فهلّا برزت إلى عليّ إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم ! وقال :

نسير إلى ابنِ ذى يزنٍ سعيدٍ وتترك في العجاجة مَن دَعَا كا
فهل لك في أبى حسنٍ عليّ لعلَّ الله يُمكنُ مِن قفاكا !
دعاك إلى البرازِ فلم تجبهُ ولو نارُ لئله تربتُ يدَاكا
وكنيت أصمَّ ، إذ ناداك عنها وكان سكوتُه عنها مُناكا
فأب الكلبش قد طَحَنَتْ رَحَاهُ بنجدته وما طَحَنَتْ رَحَاكا
فما أنصفتَ صحبك يا بنَ هَندٍ أنفرقه وتغضب مَن كفاكا
فلا والله ما أضمرت خيراً ولا أظهرت لي إلّا هواكا

(١) الأغمار : جمع غمر ، وهو من لا تجربة له ، والجدة : جمع أجدع ، وهو السبيء الغداء .

قال : وإن الفرشيين استحيوا ما صنعوا ، وشمت بهم اليمانية من أهل الشام ، فقال معاوية : يا معشر قريش ؛ والله لقد قربتكم لقاء القوم إلى الفتح ؛ ولكن لا مرد لأمر الله ؛ وميم تستحيون ! إنما لقيتم كباش العراق ، فقتلتم منهم وقتلوا منكم ، ومالككم على من حجة . لقد عبأت نفسي لسيدهم وشجاعهم سعيد بن قيس . فانقطعوا عن معاوية أياما ، فقال معاوية [في ذلك] ^(١) :

لعمري لقد أنصفتُ والبصيف عاذني وعين طعنا في العجاج المعان
ولولا رجائي أن تتوبوا بُنَزَرِي ^(٢) وأن تغسلوا عارا وَعَتَهُ الكدان
لفاديت للمهيج رجالا سواكم ولكننا تحمى الملوك البطان
أندرون من لاقيتهم ، قل جيشكم ا لقيتم ليوننا أصحرتنا العرائن ^(٣)
لقيم صناديد العراق ومن بهم إذا جاشت المهيجاه تحمى الظعائن
وما كان منكم فارس دون فارس ولكننا ما قدر الله كائن ا
فلما سمع القوم ماقاله معاوية ، أتوه فاعتذروا إليه ، واستقاموا إليه على ما يحب ^(٤) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، قال : لما اشتد القتال وعظم الخطب ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : أن قدم عكا والأشعريين إلى من بإزائهم . فبعث عمرو إليه أن بإزاء علك همدان ^(٥) . فبعث إليه معاوية : أن قدم عكا ، فأناهم عمرو ، فقال : يا معشر علك ، إن عليا قد عرف أنكم حتى أهل الشام ، فعبأ لكم حتى أهل العراق همدان ،

(١) من صفين

(٢) صفين : « أن تبوءوا »

(٣) أصحرتنا : أبرزتها . والعرائن : جمع عرين ؛ مسكن الأسد .

(٤) صفين ٤٨٢ - ٤٩٢

(٥) صفين : « أن همدان بإزاء عك » .

فاصبروا وهَبُوا إِلَى جَاهِكُمْ سَاعَةَ مِنَ النَّهَارِ ؛ فَقَدْ بَلَغَ الْحَقَّ مَقْطَعَهُ . فَقَالَ ابْنُ مَسْرُوقِ الْعَسْكَيَّ : أُمَهِّلْنِي حَتَّى آتِيَ مَعَاوِيَةَ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : يَا مَعَاوِيَةَ ، اجْعَلْ لَنَا فَرِيضَةً أَلْفِي رَجُلٍ فِي أَلْفَيْنِ أَلْفَيْنِ ، وَمَنْ هَلَكَ فَأَبْنُ عَمِّهِ مَكَانَهُ ؛ لِنَقَرَّ الْيَوْمَ عَمِيْنَكَ ، فَقَالَ : لَكَ ذَلِكَ ، فَرَجَعَ ابْنُ مَسْرُوقِ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ ، فَقَالَتْ عَكَّةُ : نَحْنُ لَهْمَدَانِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ عَكَّةُ ، وَنَادَى سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ : يَا هَمْدَانِ ، أَنْ تَقْدَمُوا ^(١) ! فَشَدَّتْ هَمْدَانُ عَلَى عَكَّةَ رَجَالَةً ، فَأَخَذَتْ السَّيْفَ أَرْجُلَ عَكَّةَ ، فَنَادَى ابْنُ مَسْرُوقِ :

* يَا لَعَكَةَ بَرَكَا كَبْرِكَ السَّكَمَلِ *

فَبَرَكُوا تَحْتَ الْحَيْفِ ، فَشَجَرْتَهُمْ ^(٢) هَمْدَانُ بِالرَّمَاكِ ، وَتَقَدَّمَ شَيْخٌ مِنْ هَمْدَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

يَا بَسْكَيْلَ نَحْمُهَا وَحَاشِدُ ^(٣) نَفْسِي فِدَاكُمْ طَاعِنُوا وَجَالِدُوا
حَتَّى تَخْرُجَ مِنْكُمْ الْقَمَاحِدُ ^(٤) وَأَرْجُلُ يَتْبِعُهَا سَوَاعِدُ
* بِذَلِكَ أَوْصَى جَدُّكُمْ وَالْوَالِدُ *

وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عَكَّةَ ، فَارْتَجَزَ فَقَالَ :

تَدْعُونَ هَمْدَانًا وَتَدْعُونَ عَكَّةَا بَكَوْا الرِّجَالَ يَا لَعَكَةَ بَسَكَا
إِنْ خَدَمَ الْقَوْمُ فَبَرَكَا بَرَكَا لَا تَدْخُلُوا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ شَكَا ^(٥)
* قَدْ تَحَكَّ الْقَوْمُ فَزِيدُوا تَحَكَّا *

(١) صَفَيْنِ : « خَدَمُوا »

(٢) صَفَيْنِ : « وَشَجَرُوهُمْ بِالرَّمَاكِ » ، وَشَجَرُوهُمْ : طَعَنُوهُمْ .

(٣) بَسْكَيْلٍ وَحَاشِدٍ : مَنْ يَطُونُ هَمْدَانًا .

(٤) الْقَمَاحِدُ : جَمْعُ قَمَحَةٍ ، وَهِيَ مَا أَشْرَفَ عَلَى الْقَفَا مِنْ عَظْمِ الرَّأْسِ .

(٥) خَدَمُوا ، أَيْ أَضْرَبُوا مَوْضِعَ الْخِدْمَةِ ؛ وَهِيَ الْخَلْخَالُ ، يَعْنِي أَضْرَبُوهُمْ فِي سَوَاقِهِمْ .

قال : فالتقى القومُ جميعاً بالرماح، وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل
فقالت همدان : يامعشر عكّ ، نحن نقسم بالله إننا لا ننصرف حتى تنصرفوا . وقالت عكّ
مثل ذلك ، فأرسل معاوية إلى عكّ أن أبرّوا قَسَمَ^(١) إخوتكم وهلمّوا . فانصرفت
عكّ ، فلما انصرفت انصرفت همدان ، فقال عمرو : يامعاوية ، والله لقد لقيت أسد
أسداً ؛ لم أرَ والله كهذا اليوم قطّ لو أن معك حيّاً كعمك ، أو مع عليّ حتى كهمدان
لسكان الفناء .

وقال عمرو في ذلك :

إنّ عكّا وحاشداً وبَكَيْلا كَأَسود الضراء لاقت أسوداً
وجنّاً القومُ بالقنا وتساقوا بظُهاقِ السيوف موتاً عتيداً
ازورار المناكب الغلب بالشُّمّ وضربِ المسوّمين الخدودا
ليس يدرون ما الفرار ولو كان فراراً لكان ذاك سديداً
يعلم الله ما رأيت من القوّم ازوراراً ، ولا رأيت صدوداً
غير ضرب فوق الطلّي ، وعلى الها م وقرع الحديد يعلو الحديد
ولقد قال قاتل خدّموا السُّوق ، فخرّت هناك عكّ قعوداً
كبرؤك الجبال أثقلها الجملُ فما تستقلّ إلا وثيذاً

قال : ولما اشترطت عكّ والأشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء
فأعطاهم ، لم يبقَ من أهل العراق أحدٌ في قلبه مرض إلا طمع في معاوية ، وشخص^(٢)
ببصره إليه ؛ حتى فشا ذلك في الناس ، وبلغ عليها عليه السلام ، فساءه^(٣) .

(١) صفين : أبروا قسم القوم

(٣) صفين ٤٨٥ ، ٤٩٤

(٢) صفين : « وشخص ببصره إليه » .

قال نصر: وجاء عدى بن حاتم يلتمس عليا عليه السلام، ما يبطأ إلا على قتيل أو قدامه أو ساعده، فوجده تحت رايات بكر بن وائل، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا تقوم حتى نقاتل إلى أن نموت! فقال له على عليه السلام: ادن، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: ويحك! إن عامة من معي اليوم يعصيني، وإن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه!

قال نصر: وجاء المفذر بن أبي حمصة الوداعي - وكان شاعر همدان وفارسها - عليا عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إن عكا والأشعرين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم، فباعو الدين بالدنيا؛ وإننا قد رضىنا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية؛ والله لا خرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شامهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم؛ فاستفتحنا بالحرب، وثق منا بالنصر، وانحلمنا على الموت، وأشدته:

إن عكاً سألوا الفرائض والأشعر سألوا جوائزاً بئنية^(١)

تركوا الدين للعطاء وللفر ض، فكانوا بذلك شر البرية

وسألنا حسن الثواب من الله وصبراً على الجهاد ونية

فلكل ماساله ونواه كلنا يحسب الخلاف خطية

ولأهل العراق أحسن في الحر ب إذا ما تدانت السميرية

ولأهل العراق أحمل للثقل إذا عمت البلاد باية

ليس منا من لم يكن في الله ولياً يا ذا الولا والوصية

فقال على عليه السلام: حسبك الله! يرحمك الله! وأثنى عليه وعلى قومه خيراً. وانتهى شعره إلى معاوية، فقال: والله لأستميلن بالدنيا ثقات على، ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياى آخرته.

قال نصر: فلما أصبح الناس غدوا على مصافهم، وأصبح معاوية يدور في أحياء اليمن، وقال: عبوا إلى كل فارس مذكور فيكم، أتقوى به على هذا الحى من همدان

(١) بئنية: مذسوب إلى بئنة، قرية بالشام.

فخرجت خيل عظيمة ، فلما رآها عليّ عليه السلام وعرف أنها عيونُ الرجال ، فنادى :
يا همدان ! فأجابه سعيد بن قيس ، فقال له عليّ عليه السلام : احمل ، فحمل حتى خالط
الخليل بالخليل ، واشتد القتال ، وحطمتهم همدان حتى ألحقهم معاوية ؛ فقال معاوية : ما بقيت
من همدان ! وجزع جزعا شديدا ، وأسرع القتل في فرسان الشام ، وجمع عليّ عليه السلام
همدان ، فقال لهم : يا معشر همدان ، أنتم درعي ورمحي وبجتي ، يا همدان ما نصرتكم إلا الله ،
ولا أجبتكم غيره . فقال سعيد بن قيس : أجبتنا الله وأجبتناك ، ونصرنا رسول الله في قبره ،
وقاتلنا معك من ليس مثلك ، فارمنا حيث شئت .

قال نصر : وفي هذا اليوم قال عليّ عليه السلام :

ولو كنتُ بواباً على بابِ جنةٍ لقلتُ لهمدان ادخلي بسلامٍ
فقال عليّ عليه السلام لصاحب لواء همدان : اكفيني أهلَ خص ، فإنني لم ألقَ من
أحدٍ ما بقيت منهم . فتقدم وتقدمت همدان ، وشدتوا شدةً واحدةً على أهلِ خص ،
فضربوهم ضرباً شديداً متداركا ، بالسيوف وعُمد الحديد ، حتى ألجئوهم إلى قبة معاوية ،
وارتجز من همدان رجل ، عداؤه في أرضِ خص ، فقال :

قد قتلَ الله رجالَ خصٍ غرُّوا بقولٍ كذِبٍ وخَرَصٍ
حِرْصاً على المالِ وأى حِرْصٍ قد نكصَ القومُ وأى نكصٍ

* عن طاعةِ الله ونجوى النصِّ *

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد ، قال : لما ردت خيول معاوية أسيف فجرّد سيفه
وحمل في كُتّاه أصحابه ، فحملت عليه فوارس همدان ، فغاز منها ركضا ، وانكسرت كُتّاه
ورجعت همدان إلى مراكزها ، فقال حُجر بن قحطان الهمداني ، يخاطب سعيد
ابن قيس :

الآبن قيس قرّت العين إذ أرات فوارسَ همدان بن زيد بن مالك
كلّ عارفاتٍ للقاء عوابس طوال الهوادي مشرفات الحواريك
معوّدة للطنن في ثغراتها يجلن فيحطمن الحصى بالسنايك
عبّاهما على لابن هند وخيله فلو لم يفتها كان أول هالك
وكانت له في يومه عند ظنه وفي كل يوم كاسف الشمس حالك
وكانت بحمد الله في كل كربة حصونا وعزّا الرجال الصعالك
فقل لأمر المؤمنين : أن ادعنا متى شئت إنا عُرضة للمهالك^(١)
ونحن حطمن السمر في حيّ حير وكينة والحي الخفاف السكاسك
وعكّ ونلم شائدين سيّاطهم حذار العوالي كالإماء العواريك^(٢)

قال : نصر : وحدثنا عمر بن سعد عن رجاله ، أن معاوية دعا يوماً بصفيّين مروان
ابن الحكم ، فقال له : إنّ الأشر قد غمّني وأقلّقتني ، فأخرج بهذه الخيل في يحصب
والسكّالعين ، فالقه : فقال مروان : ادعاهما عمرا ، فإن شعارك دون ديثارك قال : فأنت نفسي
دون وريدي . قال : لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء والحقة بي في الحرمان ، وإن كنتك
أعطيتك ما في يدك ، ومتيتك ما في يد غيرك ، فإن غلبت طاب له المقام ، وإن غلبت خفّ عليه
الهرب . فقال معاوية : سيفني الله عنك . قال : أما إلى اليوم فلم يغن . فدعا معاوية عمرا ،
فأمره بالخروج إلى الأشر ، فقال : أما إني لا أقول لك ما قال مروان ، قال : وكيف نقوله
وقد قد متك وأخرتك ، وأدخلتكم وأخرجتكم قال : أما والله إن كنت فعلت ، لقد قد متني
كافيا ، وأدخلتني ناصحا ؛ وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر ، وإن كان لا يرضيهم

(١) صفين : « إذا شئت

(٢) العواريك : الحوائض .

إلا رجوعك فيما وثقت لى به منها فارجع فيه . ثم قام فخرج فى تلك الخليل، فلقية الأشر
أمام القوم ، وقد علم أنه سيلقاه ، وهو يرتجز ويقول :

يا ليت شعري كيف لى بمرو ذاك الذى أوجبت فيه نذري !
ذاك الذى أطلبه بوثري ذاك الذى فيه شفاء صدري
من بائعي يوماً بكل عمري يُعلي به عند اللقاء قدري
أجعله في— طعم الدسر أو لا فرجى عاذري بعذري

فلما سمع عمرو هذا الرجز ، فشل ^(١) وجبن ، واستحيا أن يرجع ، وأقبل نحو
الصوت ، وقال :

يا ليت شعري كيف لى بمالك ؟ كم كاهل جيبته وحارك ^(٢)
وفارس قتله وفاتك ^(٣) ومقدم آب بوجه حالك
* ما زلت دهري عرضة المهالك ^(٤) *

فغشية الأشر بالرمح ، فراغ عمرو عنه ، فلم يصنع الرمح شيئاً ، ولوى عمرو عنان
فرسه ، وجعل يده على وجهه ، وجعل يرجع راكضاً نحو عسكره . فنادى غلامٌ من
يخصب : يا عمرو ، عليك العفا ما هبت الصبا ؛ يا آل حمير [إنّا لكم ما كان معكم ^(٥)] ؛
هاتوا اللواء ^(٦) ، فأخذه وتقدم ، وكان غلاماً حدثاً ، فقال :

(١) صفين : « وفشل حبله وجبن » .

(٢) جيبته : قطعه ، والمارك أعلى الكامل .

(٣) بعده فى صفين :

* ونابل فتكته وباتك *

(٤) صفين : « هذا وهذا عرضة المهالك » .

(٥) من صفين

(٦) صفين : « أبلغوني اللواء »

إِنْ يَكْ عَمْرُو قَدْ عَلَاهُ الْأَشْتَرُ بِأَسْمَرٍ فِيهِ سِنَّانٌ أَرْهَرُ
فَذَاكَ وَاللَّهِ لَعَمْرِي مَفْخَرُ يَاعَمْرُو تَكْفِيكَ الطَّعْمَانِ حَمِيرُ
وَالْيَحْصِيَّ بِالطَّعْمَانِ أَمِيرُ دُونَ اللَّوَاءِ الْيَوْمَ مَوْتُ أَحْمَرُ
فَنَادَى الْأَشْتَرُ ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ : خُذِ اللَّوَاءَ ، فَعِلاَمٌ لَعْلَامُ . وَتَقَدَّمَ فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ اللَّوَاءَ ،

وَقَالَ :

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنِّي لَا تُرْعِ أَقْدِمْ فَلَنِي مِنْ عَرَانِينَ النَّخَعِ
كَيْفَ تَرَى طِمْنَ الْعِرَاقِي الْجَذَعِ أَطِيرُ فِي يَوْمِ الْوَعَى وَلَا أَفْعُ
مَا سَاءَ كَمْ سَرَّ ، وَمَا ضَرَّ نَفْعُ أَعْدَدْتُ ذَا الْيَوْمِ لَهْوِ الْمَطْلَعِ
وَيَحْمِلُ عَلَى الْحَمِيرِ ، فَالْتَقَاهُ الْحَمِيرِيُّ بِلَوَائِهِ وَرَمَحَهُ ، فَلَمْ يَبْرَحَا بَطْعَنَ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، حَتَّى سَقَطَ الْحَمِيرِيُّ قَتِيلًا ، وَشَمَتَ سُرَوَانُ بَعَمْرُو ، وَغَضِبَ الْقَعْقَطَانِيُّونَ عَلَى
مَعَارِيَةِ ، وَقَالُوا : تَوَلَّى عَلَيْنَا مَنْ لَا يُقَاتِلُ مَعَنَا . وَلََّ رَجُلًا مِنَّا ، وَإِلَّا فَلَا حَاجَةَ لَنَا فَيْكَ .

يُوقَالَ شَاعِرُهُمْ :

مُعَاوِيَ إِمَّا تَدْعُنَا لِعَظِيمَةٍ يُكْبَسُ مِنْ نَكَرَائِهَا الْفَرْصُ بِالْحَقَبِ^(١)
فَوَلَّ عَلَيْنَا مَنْ يَحْوَطُ ذِمَارَنَا مِنَ الْحَمِيرِيِّينَ الْمَلُوكِ عَلَى الْعَرَبِ
وَلَا تَأْمُرْنَا بِأَلَّتِي لَا نَزِيدُهَا وَلَا تَجْعَلُنَا بِالْهَوَى مَوْضِعَ الذَّنْبِ
وَلَا تَفْضُبُنَا وَالْحَوَادِثُ جَبَّهَ عَلَيْكَ ، فَيَفْشُو الْيَوْمَ فِي يَحْصَبِ الْفَضْبِ
فَإِنْ لَنَا حَقًّا عَظِيمًا وَطَاعَةً وَحُبًّا دَخِيلًا فِي الْمَشَاشِ وَفِي الْعَصَبِ^(٢)

فَقَالَ لَهُمْ مُعَاوِيَةُ : وَاللَّهِ لَا أُولَى عَلَيْكُمْ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَّا رَجُلًا مِنْكُمْ^(٣)

(١) الْفَرْصُ : حِزَامُ الرَّجُلِ . وَالْحَقَبُ : حَبْلٌ يَشَدُّ بِهِ الرَّحْلُ فِي بَطْنِ الْبَعِيرِ .

(٢) الْمَشَاشُ : رِءُوسُ الْعِظَامِ ، وَفِي صَفِين : « فِي الْمَشَاشَةِ وَالْعَصَبِ » .

(٣) صَفِين ٤٩٩ - ٥٠٢

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، قال : لما أسرع أهلُ العراق في أهل الشام ، قال لهم معاوية : هذا يوم تمحيص ، وإنّ لهذا اليوم ما بعده ، وقد أسرعتم في القوم كما أسرعوا فيكم ، فاصبروا وموتوا كراماً . وحرّض علىّ عليه السلام أصحابه ، فقام إليه الأصمغ بن نباتة ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قدّمني في البقيّة من الناس ، فإنك لا تفقد لي اليوم صبراً ولا نصراً ؛ أما أهل الشام فقد أصبنا ؛ وأما نحن ففينا بعض البقيّة ، ائذن لي فأتقدّم ، فقال له : تقدّم على اسم الله والبركة ، فتقدم وأخذ الراية ومضى بها ، وهو يقول :

إنّ الرجاء بالقنوط يُدْمَغُ حتى متى يرجو البقاء الأصمغ
أما ترى أحداث دهر تَلْبُغُ فادبغ هوالك ، والأديم يدبغ
والرفق فيما قد تريد أبلغُ اليوم شغل ، وغدا لا تفرغُ

فما رجع إلى علىّ عليه السلام حتى خضب سيفه دماً وريحه . وكان شيخنا ناسكاً عابداً ، وكان إذا لقي القومُ بعضهم بعضاً يغمد سيفه ، وكان من ذخائر علىّ عليه السلام ممّن قد بايعه على الموت ؛ وكان علىّ عليه السلام يضمن به عن الحرب والقتال^(١) .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : نادى الأشتر يوماً أصحابه ، فقال : أما من رجل يشري نفسه لله ! نخرج أثال بن حبّيل بن عامر المذحجيّ فنادى بين العسكرين : هل من مبارز ؟ فدعا معاوية - وهو لا يعرفه - أباه حبّيل بن عامر المذحجيّ ، فقال : دونك الرجل - قال : وكان مستبصرين في رأيهما - فبرز كل واحد منهما إلى صاحبه ، فبدره بطمئة ، وطعمه الغلام ، وانتسبا فإذا هو ابنه ، فترلا فاعتنق كل

واحد منهما صاحبه ، وبكيا . فقال له الأب : يا بني ، هلم إلى الدنيا . فقال له الغلام : يا أبي هلم إلى الآخرة . ثم قال : يا أبت والله لو كان من رأي الانصراف إلى أهل الشام لوجب عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني ، واسوأ تأه ! فماذا أقول لعل وللمؤمنين الصالحين ! كن على ما أنت عليه ، وأنا على ما أنا عليه . فانصرف حنبل إلى صف الشام ، وانصرف ابنه أنال إلى أهل العراق ، فخبّر كل واحد منهما أصحابه ، وقال في ذلك حنبل :

إن حنبل بن عامر وأنالاً أصبحا بضربان في الأمثال
أقبل الفارس المدجج في النقع أنال يدعو يريد نزالي
دون أهل العراق يخطر كالفحل على ظهر هيكل ذيال
فدعاني له ابن هند وما زل لقليل في صحبه أمثالي
فتناولته ببادرة الرُمح وأهوى بأسمر عسال
فاطمنا وذلك من حدث الدهر عظيم ، فتي لشيخ بجال^(١)
شاجراً بالقناة صدر أبيه وعزير على طعن أنال^(٢)
لا بألي حين اعترضت أنالاً وأنال كذاك ليس ببال
فافرقنا على السلامة ، والتفأس يقيها مؤخر الأجال
لا يراني على الهدى وأراه من هداى على سبيل ضلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق ، قال أنال ابنه محبباً له^(٣) :

إن طعني وسط العجاجة حنبل لم يكن في الذي نوبت عقوقا
كنت أرجو به الثواب من إلا وكوني مع النبي رفيقاً

(١) البجال : الكبير

(٢) صفين : « وعظيم على »

(٣) صفين : « وكان مجتهداً ومستبصراً »

لم أزل أنصر العراق على الشا م أراي بفعلٍ ذاك حَقِيقاً
قال أهل العراق إذ عَظُمَ الخط بُ ونقّ المبرزون نَقِيقاً :
مَنْ فُتِيَ بِسَلَكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ هِ ، فَبَكَتُ الَّذِي سَلَكَتِ الطَّرِيقَ (١)
حَاسِرَ الرَّأْسِ لَا أُرِيدُ سِوَى الْمَوْتِ تِ أرى الأعظمَ الجليل دَقِيقاً
فَإِذَا فَارَسَ تَفَحَّمٌ فِي الرُّو عِ خِدَباً مِثْلَ السَّحُوقِ عَتِيقاً (٢)
فَبَدَأَنِي حَبْلُ يَبَادِرَةِ الطَّعْمِ نِ وَمَا كُنْتُ قَبْلَهَا مَسْجُوقاً
فَتَلَقَّيْتُهُ بِعَالِيَةِ الرَّمِّ حِ كِلَانَا يَطَاوِلُ الْعَيَّوقَا
أَحْمَدُ اللَّهِ ذَا الْجَلَالَةِ وَالْقَدَرِ رِةَ حَمْدًا يَزِيدُنِي تَوْفِيقاً
إِذْ كَفَفْتُ السَّنَانَ عَنْهُ وَلَمْ أَدِ نِ قَتِيلًا مِنْهُ وَلَا تُفْرُوقاً (٣)
قُلْتُ لِلشَّيْخِ لَسْتُ أَكْفَرُ نَعْمَا كِ لَطِيفُ الْغَدَاءِ وَالتَّنْفِيقِ (٤)
غَيْرَ أُنَى أَخَافُ أَنْ تَدْخُلَ النَّارَ رَ فَلَا تَعْصِيْنِي وَكُنْ لِي رَفِيقاً
وَكَذَا قَالَ لِي فَغَرَّبَ تَفْرِيبِ آءَ ، وَشَرَقَتْ رَاجِعاً تَشْرِيقاً (٥)

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شير بالإسناد المذكور ، أنَّ معاويةَ دعا النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ، ومسلمةَ بن مخلد الأنصاري - ولم يكن معه من الأنصار غيرهما - فقال : يا هذان ، لقد غمّني ما لقيت من الأوس والخزرج ، واضمعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال ، حتى لقد جبنوا أصحابي الشجاع منهم والجبان ؛ وحتى والله ما أسأل عن

(١) صنفين : « فبكت الذي أخذت »

(٢) الخدب : الضخم العظيم . والسحوق : النخلة الطويلة ؛ وفي صنفين : « تفحّم في النعم » .

(٣) الثفروق : قمع التمرة .

(٤) التنفيق : التنعيم .

(٥) صنفين ٥٠٣ ، ٥٠٦ .

فارس من أهل الشام لإلّا قيل قتله الأنصار : أما والله لألقيَنهم بحدّي وحديدِي، ولأعبيَن
لسكلّ فارس منهم فارساً ينشَبُ في حلقِهِ، ولأرميَنهم بأعدادِهِم من قريش، رجال لم يَغْزِهِم
التَّمَرُ والطَّفَيْشَلُ^(١)، يقولون : نحن الأنصار ؛ قد والله آوَوْا ونصروا ، ولكن أفسدوا
حَقَّهُم بِباطلِهِم !

فغَضِبَ النعمان ، وقال : يامعاوية لا تلوَمَنَّ الأنصار في حبّ الحرب والسرعة^(٢)
نحوها ، فإنهم كذلك كانوا في الجاهلية . وأما دُعَاؤُهُم إلى النزال^(٣) فقد رأيتُهُم مع رسول
الله صلى الله عليه وآله يفعلون ذلك كثيراً . وأما لقاءُك إياهم في أعدادِهِم من قريش فقد
علمت ما لقيتُ قريش منهم قديماً ، فإن أحببت أن تَرَى فيهم مثلَ ذلك آتفاً فافعل .
وأما التَّمَرُ والطَّفَيْشَلُ ، فإن التمر كان لنا فلماً^(٤) ذقتُموه شارَكتمونا فيه . وأما الطَّفَيْشَلُ ،
فكان لليهود ، فلما أكلناه غلبناهم عليه ، كما غلبت قريش كَلَى السَّخِينَةِ^(٥) .

ثم تكَلَّمَ مسلمة بن مخلد ، فقال : يامعاوية، إن الأنصار لا تعاب أحسابُها ولا نَجَدَاتُها .
وأما غَمَمُ إِيَّاكَ فقد والله غَمَوْنَا ، ولو رَضِينَا ما فارقونا ولا فارقْنَا جماعتَهُم ، وإن في ذلك
ما فيه من مباينة العشيرة ؛ ولكننا حملنا ذلك لك ، ورجونا منك عِوَضَهُ . وأما التَّمَرُ
والطَّفَيْشَلُ ؛ فإنهما يجرّان عليك السخيفة والخرنوب .

قال : وانتهى هذا الكلام إلى الأنصار ، فجمع قيس بن سعد الأنصار ، ثم قام فيهم
خطيباً فقال : إن معاوية قال ما بلغكم ، وأجابه عنكم صاحباً كم ، ولعمري إن غَطَمُ

(١) الطفَيْشَلُ ، بوزن سَمِيدَع ؛ ذكره صاحب القاموس وقال : لأنه نوع من المرق .

(٢) صفين : « بسرعتهم في الحرب » .

(٣) صفين : « فأما دُعَاؤُهُم الله » .

(٤) صفين : « فلما أن ذقتُموه » .

(٥) في اللسان : « السخينة : دقيق يلقى على ماء أو لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى ، وهو
الحساء . . . وفي حديث معاوية أنه أزعج الأحنف بن قيس فقال : ما الشيء الملقف في البجاد ؟ قال : هو
السخينة يا أمير المؤمنين . والملقف في البجاد وطب اللبن يلف فيه ليحمى ويدرك ، وكانت تميم تعير به ،
والسخينة : الحساء المذكور يؤكل في الجذب ؛ وكانت قريش تعير بها » .

معاوية اليوم ؛ لقد غلظتموه أمس ، وإن وترتموه في الإسلام ؛ فاقصد وترتموه في الشرك ؛ وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين ، فخذوا اليوم جدًّا تنسونه به ما كان أمس ، وجِدُّوا غداً جدًّا تنسونه به ما كان اليوم ؛ فأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاقل عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ؛ والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب فأمَّا التمر فلإننا لم نفرسْه ؛ ولسكن غلبنا عليه من غرسه ، وأما الطَّفَيْشَل ، فلو كان طعامنًا لسمَّينا به ؛ كما سمَّيت قریش بسَخِيمة ، ثم قال سعد في ذلك :

يا بن هندٍ دع التوثب في الحرِّ بـ إذا نحن بالجِيادِ سَرِيناً^(١)
نحنُ مَنْ قد علمتَ قاذنٌ إذا شئتَ بمن شئتَ في العِجاجِ إلينا^(٢)
إِن تَشَأْ فارسُ له فارسٌ ممَّا وإن شئتَ باللَّفيفِ التَّقِينَا
أى هذين ما أردتَ نَفْذَه ليس مِنَّا وليس منك الهَوِينِ
ثم لا نساخِ العِجاجةَ حتَّى تنجلى حربُنَا ؛ لَمَّا أو عَلَيْنَا^(٣)
لَيْتَ ما تَطْلُبُ العَدَاةُ أَتَانَا أَنْعَمَ اللهُ بالشَّهادةِ عَيْنَا

فلما أتى شعره وكلامه معاوية ، دعا عمرو بن العاص ، فقال : ما ترى في شتم الأنصار ؟ قال : أرى أن توعدهم ، ولا تشتمهم^(٤) . ماعسى أن تقول لهم إذا أردت ذمهم ! فذم أبدانهم ولا تدم أحسابهم^(٥) . فقال : إن قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً^(٦) ، وأظنه والله يُفني غدا إن لم يحبسْه عَنَّا حابس الفيل ، فما الرأي ؟ قال : الصبر والتوكل ، وأرسل

(١) صفين : « في البلاد تأينا » .

(٢) بعده في صفين :

إِنْ بَرَزْنَا بِالْجَمْعِ نَلْقَكَ فِي الْجَمْعِ ، وَإِنْ شئتَ محضة أسرينا

فالقنا في اللّفيف نلقك في ألحز رج ندعو في حربنا أبويننا

(٣) في صفين : « ثم لا تزع العجاجة » ، والعجاج : ما تثيره الريح من التراب ، واحده عجاجة .

(٤) صفين : « أرى أن توعدهم ولا تشتم » .

(٥ - ٥) صفين : « قال معاوية ، إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً » .

إلى رموس الأنصار مع عليّ، فعاتبهم وأمرهم أن يعاتبوه، فأرسل معاوية إلى أبي مسعود^(١) والبراء بن عازب، وخزيمة بن ثابت، والحجاج بن غزية، وأبي أيوب، فعاتبهم فمشوا إلى قيس بن سعد، وقالوا له: إن معاوية لا يحب الشتم، فكفّ عن شتمه، فقال: إن مني لا يشتم، ولكنتي لأكف عن حربه حتى ألقى الله. قال: وتحركت الخيل غدوة، فظن قيس أن فيها معاوية، فحمل على رجل يشبهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حمل على آخر يشبهه أيضا فقتله بالسيف^(٢).

فلما تحاجز الفريقان شتمه معاوية شتما قبيحا، وشتم الأنصار فغضب النعمان ومسلمة، فأرضاها بعد أن هما أن ينصرفا إلى قومهما.

ثم إن معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السلم. فخرج النعمان، فوقف بين الصّفيين، ونادى: يا قيس بن سعد، أنا النعمان بن بشير، فخرج إليه، وقال: هيه يا نعمان! ما حاجتك؟ قال: يا قيس، إنه قد أنصفكم من دعاكم إلى ماضى لنفسه. يا معشر الأنصار، إنكم أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وأقبحتم خيولكم على أهل الشام بصيقي، فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم عليا؛ أكانت واحدة بواحدة، ولكنكم^(٣) لم ترضوا أن تكونوا كالدّاس؛ حتى أعلمتم في الحرب، ودعوتهم

(١) صفين: « فأرسل معاوية إلى رجال من الأنصار، فعاتبهم؛ فيهم عقبة بن عمر وأبو مسعود... ».

(٢) في صفين: ثم انصرف وهو يقول:

قولوا لهذا الشامي معاوية
إن كل مأوعدت ريح هاوية
خوفتنا أكلب قوم عاوية
إلى يا بن الخططين الماضية
ترقل إن قال العجوز الجارية
في أثر الساري ليالي الشاتية

(٣) صفين: « ولكنكم خذلتم حقا، ونصرتم باطلا، ثم لم ترضوا... ».

إلى البراز . ثم لم ينزل بعليّ خطب قطّ إلا هوّ تمّ عايه المصيبة ، ووعدهم الظفر . وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم ، فاتقوا الله في البنية .

فضحك قيس ، وقال : ما كنت أظنك يا نعمان محتويًا على هذه المقالة ، إنه لا ينصح أخاه من غشّ نفسه ، وأنت الغاشّ الضالّ المضلّ . أما ذكرك عثمان ؛ فإن كانت الأخبار تكفيك فخذ مني واحدة ؛ قتل عثمان من است خيراً منه ، وخذله من هو خير منك . وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث . وأما معاوية ؛ فوالله لو اجتمعت عليه العرب قاطبة لقاتلته الأنصار ؛ وأما قولك إننا لسنا كالنفس ، فنحن في هذه الحرب كما كفتا مع رسول الله ، نتقى السيوف بوجوهنا ، والرماح بنحورنا ؛ حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون . ولكن انظروا يا نعمان ؛ هل ترى مع معاوية إلا طليقاً ، أو أعرابياً ، أو يمانياً مستدرجاً بغرورا انظروا أين المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان ؛ الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ ثم انظر ، هل ترى مع معاوية أنصارياً غيرك وغير صوّيحبك ؛ ولستما والله ببدرين ولا عقبيين ولا أحديين ، ولا لسنا سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن . ولعمري لنن شغبت علينا لقد شغب علينا أبوك^(١) !

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : كان فارس أهل الشام الذي لا ينازع عوف بن مجزأة المرادي ، المكنى أبا أحر ، وكان فارس أهل الكوفة العكبر بن جدير الأسدي ، فقام العكبر إلى عليّ عليه السلام ، وكان

(١) الخبر في صفين ٥٠٧ - ٥١٢ ، وبعده ، وقال قيس في ذلك :

وَأَلْرَاقِصَاتِ بِكُلِّ أَشْعَثِ أَغْبَرٍ خَوْصُ الْعُيُونِ تُحْمِيهَا أَرَكْبَانُ
مَا أَبْنُ الْمُخَلَّدِ نَاسِيًا أَسِيًّا فَيَمَنْ نُحَارِبُهُ وَلَا التَّعْمَانُ
تَرَكَ الْبَيَانَ وَفِي الْعِيَانِ كِفَايَةً لَوْ كَانَ يَنْفَعُ صَاحِبِيهِ عِيَانُ

مِنْطِقًا فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ فِي أَيْدِينَا عَهْدًا مِنْ اللَّهِ لَا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى النَّاسِ ؛ قَدْ ظَنَنَّا بِأَهْلِ الشَّامِ الصَّبْرَ^(١) وَظَنُّوا بِنَا ، فَصَبَرْنَا وَصَبَرُوا ، وَقَدْ عَجِبْتَ مِنْ صَبْرِ أَهْلِ الدُّنْيَا [لِأَهْلِ الْآخِرَةِ ، وَصَبَرَ أَهْلُ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ ، وَرَغِبَةُ أَهْلِ الدُّنْيَا^(٢)] ، ثُمَّ قَرَأْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَمَعَتْ أَنَّهُمْ مَفْتُونُونَ^(٣) : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^(٤) ﴾ . فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرًا ، وَخَرَجَ النَّاسُ إِلَى مَصَافِهِمْ ، وَخَرَجَ عَوْفُ بْنُ مَجْزَأَةَ الْمَرَادِيِّ نَادِرًا مِنَ النَّاسِ ، وَكَذَا كَانَ يَصْنَعُ ، وَقَدْ كَانَ قَتَلَ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ مَبَارِزَةً ، فَنَادَى : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ؛ هَلْ مِنْ رَجُلٍ عَصَاهُ سَيْفُهُ يَبَارِزُنِي ! وَلَا أُغَرِّكُمْ مِنْ نَفْسِي ! أَنَا عَوْفُ بْنُ مَجْزَأَةَ^(٥) . فَنَادَى النَّاسُ بِالْمَكْبَرِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مَفْقُطًا عَنْ أَصْحَابِهِ لِيَبَارِزَهُ ، فَقَالَ عَوْفُ :

بِالشَّامِ أَمِنْ لَيْسَ فِيهِ خَوْفٌ بِالشَّامِ عَدْلٌ لَيْسَ فِيهِ حَيْفٌ
بِالشَّامِ جُودٌ لَيْسَ فِيهِ سَوْفٌ أَنَا ابْنُ مَجْزَأَةٍ وَإِسْمِي عَوْفٌ
هَلْ مِنْ عِرَاقٍ عَصَاهُ سَيْفٌ يَبْزُزُنِي وَكَيْفَ لِي وَكَيْفَ !
فَقَالَ لَهُ الْمَكْبَرُ :

الشَّامُ تَحُلُّ وَالْعِرَاقُ مَطَرٌ^(٦) بِهَا إِمَامٌ طَاهِرٌ مَطَهَّرٌ^(٧)
وَالشَّامُ فِيهَا أَعْوُورٌ وَمُعْوِرٌ أَنَا الْعِرَاقُ وَإِسْمِي عَكْبَرٌ^(٨)

(١) صفين : « وظنوه » .

(٢) من صفين .

(٣ - ٣) صفين : « ثم نظرت فإذا أعجب ما يعجبني جهله بآية من كتاب الله » .

(٤) سورة العنكبوت ١ - ٣

(٥) صفين : « فأنا فارس زوف » ، وزوف أبو قبيلة .

(٦) صفين : « تمطر »

(٧) صفين : « بها الإمام والإمام معذر » .

(٨) المعور : القبيح السريرة .

ابن جُدِير وأَبُوهُ الْمُنْذِرُ اَدْن ، فإِنِّي فِي الْبَرَّازِ قَسْوَرٌ^(١)
 فاطمنا ، فصرعه العكبر وقتله ، ومعاوية على التلّ في وجوه قريش ونفر قليل من
 الناس ، فوجه العكبر فرسه ، يملأ^(٢) فروجه ركضاً ؛ ويضربه بالسوط مسرعاً نحو التلّ .
 فنظر معاوية إليه فقال : هذا الرجل مغلوبٌ على عقله أو مستأمن ؛ فاسألوه ، فأتاه رجل
 وهو في نحو فرسه ، فناداه فلم يجبه ، ومضى مبادراً ؛ حتى انتهى إلى معاوية ، فجعل
 يطمئن في أعراض الخيل ورجا أن يفرد معاوية فيقتله ، فاستقبله رجال ؛ قتل منهم قوماً ،
 وحال الباقيون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورمحهم ؛ فلما لم يصل إليه قال : أوّلى لك
 يا ابن هند^(٣) ! أنا الغلام الأسديّ ، ورجع إلى صفّ العراق ولم يكلم ، فقال له على
 عليه السلام : مادعاك إلى ماصنعت ؟ لا تلقى نفسك إلى التهلكة ؛ قال : يا أمير المؤمنين
 أردت غرّة ابن هند فخيّل بيني وبينه ؛ وكان العكبر شاعراً فقال :

قتلتُ المرادى الذي كان باغياً ينادى وقد ثار العجاجُ : نَزَالٍ
 يقولُ : أنا عوفُ بن مجزاة والمنى لقيه ابن مجزاة بيوم قتالٍ
 فقلت له لمّا علا القوم صوتهُ : مُنيتَ بمشبوح اليدين طوَالٍ^(٤)
 فأوجرته في ملتقى الحرب صعدّةً ملأتُ بها رعباً صدورَ رجالٍ^(٥)

- (١) صفين : « إِنِّي لَأَسْكِي مَصْحَر » ، والمصحر : المنكشف لقرنه .
 (٢) صفين : « فَلَأُ فُرُوجُهُ » ؛ يقال : ملأ الفرس فرجه وفروجه ؛ إذا أسرع ، والفرج : ما بين
 فخذي الفرس ورجليها .
 (٣) أوّلى لك ، كلمة تهديد ووعيد ، معناه قد وليك ، أى قاربك الشر فاحذر . وقيل : أولاك الله
 ما تكرهه ، وقيل : معناه أوّلى لك العقاب والمهلك .
 (٤) رجل مشبوح الذراعين ؛ أى عريضهما ، وفي النهاية : في صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان مشبوح
 الذراعين ، أى طويلهما ، وقيل : عريضهما ، وفي رواية : « كان شبوح الذراعين » ، والشبح : مد
 الشيء بأوتاد كالجلد والحبل ، وشبحت العود إذا نحتته حتى تعرضه .
 (٥) يقال : أوجر فلاناً الرمح طعنه به فيه ، وقيل في صدره . والصعدّة : القنّاة المستوية تنبت كذلك
 لا تحتاج إلى تثقيب .

فغادرته يكبو صريعاً لوجهه ينوء مراراً في مَسْكِرَ مجالٍ^(١)
وقدّمت مُهرى راكضاً نحو صفّهم أَصْرَفَه في جَرِيه بِشِمَالِي^(٢)
أريدُ به التلّ الذي فوق رأسه معاويةُ الجاني لِسَكْلَ خَبَالٍ^(٣)
فقامَ رجالٌ دونَهُ بسِوْفهم وقام رجالٌ دونَهُ بـِـوالِي^(٤)
فلو نلتُهُ نلتُ التي ليس بعدها وفزت بذكر صالح وفعالٍ^(٥)
ولو متّ في نيلِ المُنَى ألفَ مَوْتَةٍ اقلّمت إذا ما متّ : لست أبالي

قال : فانكسر أهل الشام لقتل عَوْفِ المرادى ، وهدر معاوية دم العكبر ، فقال
العكبر : يد الله فوق يديه ، فأين الله جلّ جلاله ودفاعه عن المؤمنين^(٥) !

* * *

قال نصر : ورَوَى عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين ، عن أبي السكود ،
قال : جَزِعَ أهلُ الشام كُلِّي قَتْلَهم جزعاً شديداً ، وقال معاوية بن خديج : قَبَّحَ اللهُ
ملكاً يملكه الرء بعد حَوْشَبٍ وذى السكلاع ، والله لو ظفِرْنَا بأهل الدنيا بعد قتلهم ،
بغير مِثْلِ مِثْلِهِ ما كان ظفراً . وقال يزيد بن أسد لمعاوية : لا خيرَ في أمرٍ لا يشبه آخره
أوله ، لا يدمى جريح ولا يبكي قتيل حتى تنجلي هذه الفتنة ، فإن يكن الأمر لك أدميت

(١) صفين : « ينادى مرارا » .

(٢) في صفين : « فأصْرَفَه في حومةِ شمال » .

(٣) بعده في صفين :

يقول - ومُهرى يَعْرِفُ الْجُرَيْجَ جَاحِجاً بَغَارِيهِ : قَدْ بَانَ كُلُّ ضَلَالٍ
فلما رَأَوْنِي أَصْدَقُ الطَّعْنِ فِيهِمْ جَلَا عَنْهُمْ رَجَمَ الْغِيُوبِ فِعَالِي

(٤) صفين : « من الأمر شيء غير قيل وقال » .

(٥) صفين ٥١٢ - ٥١٦

وبكيت على قرار ، وإن يكن لغيرك فما أصبت به أعظم . فقال معاوية : يا أهل الشام ، ما جعلكم أحق بالجزع على قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم ؛ والله ما ذو الكلاع فيكم بأعظم من عمار بن ياسر فيهم ، ولا حوشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم ، وما عبيد الله بن عمر فيكم بأعظم من ابن بُدَيْل فيهم ، وما الرجال إلا أشباه ، وما التميمي إلا من عند الله ؛ فأبشروا فإن الله قد قتل من القوم ثلاثة : قتل عماراً وكان فتاهم ، وقتل هاشمياً وكان حمزتهم ، وقتل ابن بُدَيْل وهو الذي فعل الأفاعيل ؛ وبقي الأشر ، والأشعث ، وعدى بن حاتم ، فأما الأشعث فإنما حى عنه^(١) مصره ، وأما الأشر وعدى فغضبوا والله [للفتنة^(٢)] ، قاتلهم غدا إلى شاء الله تعالى ، فقال معاوية بن خديج : إن يكن الرجال عندك أشباها فليست عندنا كذلك ، وغضب . وقال شاعر اليمين يرثي ذا الكلاع وحوشباً^(٣) :

معاوى قد نلنا ونيلت سراً تنأ وجدع أحياء الكلاع ويحصب
فدو كلع لا يُبعد الله داره وكل يمان قد أصيب بحوشب
ها ماها كانا - معاوى - عصمة متى قلت كانا عصمة لا أكذب
ولو قيلت في هالك بذل فذية فديتهما بالنفس والأم والأب^(٤)

وروي نصر ، عن عمر بن سعد ، عن عبيد الرحمن بن كعب ، قال : لما قتل عبد الله بن بُدَيْل يوم صفين مر به الأسود بن طهمان أنجزاعى ، وهو بأخر رمق ، فقال له : عز على والله مصرعك أما والله لو شهدتك لآسيتك ، ولدافعتُ عنك ، ولو رأيت الذى أشعرك^(٥)

(١) صفين : « خيمة مصره » .

(٢) من صفين .

(٣) صفين : « وقال الحضرى فى ذلك شعرا » .

(٤) صفين ٥١٨ ، ٥١٩ .

(٥) الإشعار : الإدماء بطن أوى أوج بمديدة .

لأُحِبَّتْ أَلَا أَزَايِلَهُ وَلَا يَزَايِلُنِي حَتَّى أَقْتُلَهُ ، أَوْ يُلْحَقَنِي بِكَ . ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : رَحِمَكَ اللَّهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، [وَاللَّهِ] ^(١) إِنْ كَانَ جَارُكَ كَيِّامُنْ بَوَاتُكَ ، وَإِنْ كُنْتَ لَعْنِ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا . أَوْصِنِي رَحِمَكَ اللَّهُ . قَالَ : أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَنْ تَنَاصَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَقَاتِلَ مَعَهُ حَتَّى يَظْهَرَ الْحَقُّ أَوْ تُلْحَقَ بِاللَّهِ ، وَأَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِّي السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : قَاتِلْ عَلَى الْمَعْرَكَةِ حَتَّى تَجْعَلَهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَصْبَحَ وَالْمَعْرَكَةُ خَافَ ظَهْرَهُ ، كَانَ الْغَالِبَ . ثُمَّ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ مَاتَ .

فَأَقْبَلَ أَبُو الْأَسْوَدِ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : رَحِمَهُ اللَّهُ ! جَاهَدَ مَعَنَا عَدُوَّنَا فِي الْحَيَاةِ ، وَنَصَحَ لَنَا فِي الْوَفَاةِ ^(٢) .

قَالَ نَعْرُ : وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَلْدَةَ ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَحْرٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ ، قَالَ : خَرَجْتُ أَلْتَمِسُ أَخِي سُوَيْدًا فِي قَتْلَى صِفِّينَ ، فَإِذَا رَجُلٌ صَرِيحٌ فِي الْقَتْلِ ، قَدْ أَخَذَ بَشُوبَى فَالْتَفَتَ ، فَإِذَا هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ كَلْدَةَ ، فَقُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ! هَلْ لَكَ فِي الْمَاءِ وَمَعِيَ ^(٣) إِدَاوَةٌ ؟ فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، قَدْ أَنْفَذْتُ السَّلَاحَ وَخَرَقْتِي ، فَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى الشَّرَابِ ، هَلْ أَنْتَ مُبْلِغٌ عَنِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً أَرْسَلْتُ بِهَا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : إِذَا رَأَيْتَهُ فَاقْرَأْ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْمِلْ جِرْحَاكَ إِلَى عَسْكَرِكَ حَتَّى تَجْعَلَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ ، فَإِنَّ الْغَلْبَةَ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَمْ أَبْرَحْ حَتَّى مَاتَ . نَفَرَجْتُ حَتَّى أَتَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ كَلْدَةَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، قَالَ : وَأَيْنَ هُوَ ؟ قُلْتُ : وَجَدْتُهُ وَقَدْ أَنْفَذَ السَّلَاحَ وَخَرَقَهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ شَرْبَ الْمَاءِ ، وَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى مَاتَ . فَاسْتَرْجِعْ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَقُلْتُ : قَدْ أَرْسَلْتَنِي إِلَيْكَ بِرِسَالَةٍ ، قَالَ : وَمَاهِي ؟ قُلْتُ : إِنَّهُ يَقُولُ : احْمِلْ جِرْحَاكَ

(١) مِنْ صِفِّينَ . (٢) صِفِّينَ ٥٢٠ ، ٥٢١ .

(٣) الْإِدَاوَةُ : لِمَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جِلْدٍ ؛ وَيَجْمَعُ عَلَى أَدَاوَى .

إلى عسكرك ، واجملهم وراء ظهرك ؛ فإن الغلبة لمن فعل ذلك ، فقال : صدق ، فنادى
مناديه في العسكر أن احموا جرحاكم من بين القتلى إلى معسكركم ، ففعلوا ^(١) .

قال نصر : وحدثني عمرو بن شعير ، عن جابر ، عن عامر ، عن صمصمة بن ضوحان ،
أن أبرهة بن الصبّاح الحميري قام بصفين ، فقال : ويحكم يامعشر أهل اليمن ! إنني لأظن
الله قد أذن بفنائكم ! ويحكم خلوا بين الرجلين ، فليقتلا ، فأيتهما قتل صاحبه ملئنا معه
جميعا - وكان أبرهة من رؤساء أصحاب معاوية - فبلغ قوله عليا عليه السلام ، فقال :
صدق أبرهة ! والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام أنا بها أشدّ سرورا مني
بهذه الخطبة !

قال : وبلغ معاوية كلام أبرهة ، فتأخر آخر الصفوف ، وقال لمن حوله : إنني لأظن
أبرهة مصابا في عقله . فأقبل أهل الشام يقولون : والله إن أبرهة لأكلنا ديننا وعقلا ،
ورأيا وبأساء ! ولكن الأمير ^(٢) كره مبارزة علي ، وسمع مادار من الكلام أبو داود عروة
ابن داود العامري - وكان من فرسان معاوية - فقال : إن كان معاوية كره مبارزة أبي
حسن ، فأنا أبارزه ، ثم خرج بين الصّفين ، فنادى : أنا أبو داود فأبرز إلى يا أبا حسن ،
فتقدم علي عليه السلام نحوه ، فناداه الناس : ارجع يا أمير المؤمنين عن هذا الكلب فليس
لك بخطر ، فقال : والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه ، دعوني وإياه ، ثم حمل عليه فضر به
فقطعه قطعتين ، سقطت إحداها يمنية والأخرى شامية ؛ فارتج العسكران لهول الضربة ،
وصرخ ابن عم لأبي داود : واسوء صباحا ! وقبح الله البقاء بعد أبي داود ! وحمل على علي
عليه السلام ، فطعنه فضرب الرمح فبراه ، ثم قنعه ضربة فالحقه بأبي داود ، ومعاوية

(١) صفين ٤٤٨ ، ٤٤٩

(٢) صفين : « معاوية » .

واقف على التلّ ، يبصر ويشاهد ، فقال : تبّاً لهذه الرجال وقبحها ، أما فيهم من يقتلُ هذا مبارزة أو غيلة ، أو في اختلاط الفيلق وثوران النّقع . فقال الوليد بن عقبة : ابرز لي إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته ، فقال : والله لقد دعاني إلى البراز حتى لقد استحييتُ من قريش ، وإنّي والله لا أبرز إليه ، ماجعل المسكرُ بين يدَي الرئيس إلا وقاية له . فقال عتبة بن أبي سفيان : الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فقد علمتم أنه قتل حريثاً ، وفضح عمرا ولا أرى أحداً يحكّك به إلا قتله . فقال معاوية لبُسر بن أرقطة : أنتقوم لمبارزته ؟ فقال : ما أحقّ سهامنك ، أما إذ يبتموه فأنا له ، قال معاوية : إنك ستلقاه غدافي أوّل الخيل ، وكان عند بُسر ابن عمّ له ، قدِم من الحجاز يخطب ابنته ، فأتى بسرا ، فقال له : إنّي سمعتُ أنك وعدت من نفسك أن تبارز علياً ، أما تعلم أن الوالى من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمد أخوه ، وكلّ من هؤلاء قرن علىّ ، فما يدعوك إلى ما أرى ! قال : الحياء ، خرج منى كلام ، فأنا أستحي أن أرجع عنه . فضحك الغلام ، وقال :

تفازله يابُسر إن كنت مثله وإلا فإنّ الليث للشاء آكل^(١)
كأنك يابُسر بن أرقطة جاهلٌ بأثاره في الحرب أو متجاهلٌ
معاوية الوالى وصنّواه بعده وليس سواء مستغارٌ وثاكلٌ
أولئك هم أولى به منك إنّه علىّ فلا تقرّبه ، أمك هابلٌ ؟
متى تلقه فالموت في رأس رحبه وفي سيفه شغلٌ لنفسك شاغلٌ
وما بعده في آخر الخيل عاطفٌ ولا قبله في أوّل الخيل حائل

فقال بُسر : هل هو إلا الموت ؛ لا بدّ من لقاء الله فغدا علىّ عليه السلام منقطعاً من خيله ، ويده في يد الأشر ، وهما يتسأيران رويدا ، يطلبان التلّ ليقفاه عليه ؛ إذ برز له بُسر مقتنعا في الحديد ، لا يعرف ، فداده : ابرز لي أبا حسن ، فاندرد إليه على تودة غير مكترث به

(١) صفين : ه للضم آكل .

حتى إذا قارب به طعنه وهو دارعٌ فالتقاه إلى الأرض ، ومنع الدرع السنان أن يصلَ إليه ،
فاتقاه بُسرٌ بعورته ، وقصد أن يكشفها ، يستدفع بأسه ، فانصرف عنه عليه السلام مستندبراً
له فعرفه الأشتر حين سقط فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا بُسرٌ بن أرطاة ، هذا عدو الله
وعدوك ، فقال : دعه عليه لعنة الله ، أبعد أن فعلها ؟ فحمل ابنُ عمِّ بُسرٍ من أهل الشام ،
شاب ، على عليٍّ عليه السلام . وقال :

أرديت بُسرًا والغلَامُ ثائرُهُ أُرذِيتَ شيخًا غاب عنه ناصرُهُ

* وكلُّنا حَليمٌ لبُسرٍ واتراه *

فلم يلتفت إليه على عليه السلام ، وتلقاه الأشتر فقال له :

في كل يومٍ رجلٌ شيخٍ شاغرُهُ وعورةٌ وسَطُ العَجَاجِ ظَاهِرُهُ
تبررُها طعنة كَفٍ واتره عمروٌ وبُسرٌ مِنيا بالقَافِرُهُ

فطعنه الأشتر ، فكسر صُلْبُهُ ، وقام بُسرٌ من طعنة على عايه السلام مولياً ، وفرت
خيله ، وناداه على عليه السلام : يا بُسر ، معاوية كان أحقَّ بها منك ، فرجع بُسرٌ إلى
معاوية ، فقال له معاوية : ارفع طرفك ، فقد أدال الله عمرًا منك ، قال الشاعر
في ذلك :

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونهُ له عورةٌ تحتَ العجاجةِ باديةُ
يكفُّ بها عنه علىُّ سنانُهُ ويضحكُ منها في الخلاءِ معاويةُ
بدت أَمْسٍ من عمرو ففنع رأسه وعورةٌ بِسرٍ مثلها حَذُو حاذيةُ
فقولا عمروا بن أرطاة أبصرًا سَدِيلَيْكُمَا ، لانتَقيا اللَّيْثَ نانيةُ
ولا تَحْمِدا إلا الحيا وخصا كما هما كاتتا لِلنَّفسِ - والله - واقيةُ
فلولاها لم تنجُوا من سيفانهِ وتلك بما فيها عن العودِ ناهيةُ

متى تلقياً الخيلَ المغيرةَ صُبْحَةً وفيها على فاتركا الخيلَ ناحِيَةً^(١)
وكوفاً بعيداً حيث لا تبلغ القنأ ونار الوغى ، إن التجارب كافِيَةٌ^(٢)
وإن كان منه بعدُ للنفس حاجةٌ فعوداً إلى ماشئنا هيَ ماهِيَةٌ
قال : فكان بُسر بعد ذلك اليوم ، إذا لقي الخيل التي فيها على ينتحي ناحية ،
وتحامي فرسان الشام بعدها علياً عليه السلام^(٣) .

قال نصر : وحدَّثنا عمر بن سعد ، عن الأجلح بن عبد الله الكندي ، عن
أبي جُحيفة ، قال : جمع معاوية كلَّ قرشيٍّ بالشام ، وقال لهم : العجَبَ يا معشر قريش !
أنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فِعَالٌ^(٤) يطول بها لسانه غداً ماعداً عمراً ، فما بالكم
أين حمية قريش ؟ فغضب الوليد بن عُقبة ، وقال : أيُّ فِعَالٍ تريد ؟ والله ما نعرف في
أكفائنا من قريش العراق مَنْ يُغني غناءنا باللسان ولا باليد . فقال معاوية : بلى إن
أولئك ، وقواً علياً بأنفسهم . قال الوليد : كلا ، بل وقاهم على نفسه . قال : ويحكم أماً فيكم
مَنْ يقوم لِقَرْنِه منهم مبارزة ومفاخرة ! فقال مروان : أماً البراز فإن علياً لا يأذن لحسن
ولا لحسين ولا لحمد بنيه فيه ، ولا لابن عباس وإخوته ، ويصلي بالحرب دونهم ، فلا يهتم
نبارزاً وأماً المفاخرة ؛ فماذا نفاخرهم ! بالإسلام أم بالجاهلية ! فإن كان بالإسلام ،
فالنفر لهم بالنبوة ، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن ، فإن قلنا قريش ، قلوا لنا :
عبد المطلب .

(١) صفين : « الخيل المشيخة » .

(٢) صفين : « وسى الوغى » .

(٣) صفين : ٥٢١ - ٥٢٧ .

(٤) فِعَالٌ ، بالكسر : جمع فِعْلٌ ، وفي صفين : « فِعَالٌ يطول به لسانه » ، والفعال بالفتح : الفعل الحسن .

(٧ - نهج ٨)

فقال عُتْبَةُ بن أَبِي سَفْيَانَ : الهوا عن هذا ، فإنى لاق بالغداة جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ ،
فقال معاوية : بَخِ بَخِ ! قَوْمُهُ بنو مخزوم ، وأمّه أمّ هانئ بنت أبي طالب ،
كفء كريم !

وكثر العتاب والخصام بين القوم ، حتى أغلظوا المروان وأغلظ لهم ، فقال مروان :
أما والله ، لولا ما كان منى إلى عليّ عليه السلام في أيام عثمان ، ومشهدى بالبصرة ،
لسكان لى في عليّ رأى يسكنى امرأاً ذا حسب ودين ؛ ولكن ولعل . وناشد معاوية
الوليد بن عُقْبَةَ [دون القوم] ^(١) ، فأغلظ له الوليد ، فقال معاوية : إنك لما تجترى عليّ
بنسبك من عثمان ، ولقد ضربك الحدّ وعزلتك عن الكوفة .

ثم إنهم ما أمسوا حتى اصطلحوا ، وأرضاهم معاوية من نفسه ، ووصلهم بأموال جليّة .
وبعث معاوية إلى عُتْبَةَ ، فقال : ما أنت صانع في جَعْدَةَ ! قال : ألقاه اليوم وأقاتله غداً ،
وكان لجَعْدَةَ في قریش شرفٌ عظيم ، وكان له لسانٌ ، وكان من أحبّ الناس إلى عليّ
عليه السلام ، ففدا عليه عُتْبَةُ ، ففادى : أبا جَعْدَةَ أبا جَعْدَةَ ! فاستأذن عليّاً عليه السلام في
الخروج إليه ، فأذن له ، واجتمع الناس ، فقال عُتْبَةُ : يا جَعْدَةَ ، والله ما أخرجك علينا
إلا حبّ خالك وعمك عامل البحرين ؛ وإنّا والله مانزعم أن معاوية أحقّ بالخلافة
من عليّ ، لولا أمره في عثمان ؛ ولكن معاوية أحقّ بالشام لرضا أهلها به ، فاعفوا لنا
عنها ؛ فوالله ما بالشام رجلٌ به طُرُق ^(٢) إلا وهو أجدّ من معاوية في القتال ؛ وليس
بالمراق رجل له مثل جدّ عليّ في الحرب ، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم ، وما أقبح بعلى
أن يكون في قلوب المسلمين أوّلَى الناس بالناس ؛ حتى إذا أصاب سلطانا أفنى العرب . فقال
جَعْدَةُ : أما حُبّى لخالى ، فلو كان لك خالٌ مثله لنسيت أباك ؛ وأما ابن أبى سلمة فلم
يصب أعظم من قدره ، والجهاد أحبّ إلى من العمل ؛ وأما فضل عليّ كلّ معاوية ؛

(١) من صفين .

(٢) الطرق هنا : القوة ، وفي الحديث : « لا أجد رجلاً به طرق يتخلف » .

فهذا مالا يختلف فيه اثنان . وأما رضاكم اليوم بالشام ؛ فقد رضيتم بها أمس فلم
نقبل . وأما قولك : « ليس بالشام أحدٌ إلّا وهو أجَدّ من معاوية ، وليس بالعراق رجل
مثل جدّ عليّ » ؛ فهكذا ينبغي أن يكون ، مضى بعليّ يمينه ، وقصر بمعاوية شكّه ،
وقصدُ أهل الحقّ خيرٌ من جهد أهل الباطل . وأما قولك : « نحن أطوع لمعاوية منكم لعليّ »
فوالله ما نسأله إن سكّنت ، ولا نردّ عليه إن قال . وأما قتلُ العرب ، فإنّ الله كتب
القتل والقتال ، فمن قتله الحقّ فإلى الله .

فغضب عتبة ، وفحش على جَعْدَة فلم يجبه ، وأعرض عنه ، فلما انصرف عنه ، جمع
خيله فلم يستبقِ [منها] ^(١) شيئاً ، وجلّ أصحابه السّكون والأزد والصدّيف ، وتهايأ جَعْدَة
بما استطاع ، والتقوا ، فصبر القوم جميعاً ، وباشر جَعْدَة يومئذ القتال بنفسه ، وجزع عتبة ،
فأسلم خيله ، وأسرع هارباً إلى معاوية ، فقال له : فضحك جَعْدَة وهزمتك ، لا تفسل
رأسك منها أبداً فقال : والله لقد أعذرت ؛ واسكن أبي الله أن يديلكم منهم ؛ فما
أصنع ؟ وحطّى جَعْدَة بعدها عند عليّ عليه السلام

وقال النجاشي فيما كان من فحش عتبة كلّ جَعْدَة :

إن شتمَ الكريم يا عتب خطبٌ فاعلمنه من الخطوب عظيمُ
أمّه أمّ هاني وأبوه من معدٍ ومن لؤيّ صميمُ
ذاك منها هبيرة بن أبي وهبٍ أقوتَ بفضلِهِ مخزومُ
كان في حربكم يعدّ بال ألفٍ حين يلقى بها القُرومَ القُرومُ
وابنه جَعْدَة الخليفة منه هكذا تلبت القُروع الأروم ^(٢)

(١) من صفين .

(٢) صفين : « هكذا يخلف الفرع الأروم » .

كلّ شيء تريده فهو فيه حَسْبُ ثاقبٍ ودين قويمُ
وخطيب إذا تمعرت الأوزجُهُ يشجّى به الألدّ الحصيمُ
وحليمٌ إذا ألجى حلّها الجهلُ ، وخفت من الرجال الحلومُ
وشكيمُ الحروب قد علم النّاسُ إذا حلّ في الحروب الشكيمُ
وصحيح الأديم من آفل المييب إذا كان لا يصحّ الأديمُ
حامل للمظيم في طلب الحمْد إذا عظم الصغير اللّثيمُ
ما عسى أن تقول للذهب الأتمّ رعيماً ، هيهات منك النجوم !
كلّ هذا بحمد ربك فيه وسوى ذاك كان وهو فطيمُ

وقال الأعور الشّني في ذلك ، يخاطب عتبة بن أبي سفيان :

ما زلت تظهر في عطفك أبهة لا يرفع الطّرف منك التّيه والصّلفُ
لا تحسب القوم إلا فقع قرقرّة أو شحمة بزّها شاو لها أنطف^(١)
حتى لقيت ابن نخزوم ، وأى فتى أحيا مآثر آباء له سلفوا !
إن كان رهط أبي وهب جحاجة في الأولين ، فهذا منهم خلفُ
أشجّاك جمدة إذ نادى فوارسه حاموا عن الدّين والدنيا فما وقفوا
هلاً عطفت على قوم بمصرعة فيها السّكون وفيها الأزود والصّدْفُ^(٢)

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبي ، قال : كان رجل من أهل الشام ،

(١) الفقع : ضرب من أردأ السمكة . والفرقرة : الأرض السهلة المطمئنة .

(٢) صفين ٥٢٧ - ٥٣٣ ، وبعد هذا البيت :

قد كُفّت في منظرٍ من ذا ومستمع يا عتب لولا سفاء الرأى والسرفُ
فاليوم يقرعُ منك السن من ندم ما المبارز إلا العجز والنصفُ

يقال له الأصمغ بن ضرار الأزدي ، من مسالح معاوية وطلانعه ، فندب له على عليه السلام الأشر ، فأخذه أسيراً من غير قتال ، فجاء به ليلاً فشدّه وثاقاً ، وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح ؛ وكان الأصمغ شاعراً مفوهاً ، فأيقن بالقتل ، ونام أصحابه ، ورفع صوته فأسمع الأشر ، وقال :

ألا ليتَ هذا الليلَ أصبحَ سرمداً	على الناس لا يأتيهمُ بنهار ^(١)
يكونُ كذا حتى القيامة إنني	أحاذرُ في الإصباح يوم بوارى ^(٢)
فيما لي أطبق ، إن في الليل راحة	وفي الصبح قتلي أو فكالك أسارى
ولو كنت تحت الأرض ستين وادياً	لما رَدَّ عني ما أخاف حِذارى
فيا نفسُ مهلاً إن للموت غاية	فصبراً على ما ناب يا بنَ ضرار
أخشى ولي في القوم رِحمٌ قريبة	أبى الله أن أخشى ومالك جارى ^(٣)
ولو أنه كانَ الأسير ببلدة	أطاعُ بها ، شمرت ذيلَ إزارى
ولو كنت جارا لأشعث الخير فكّني	وقلّ من الأمر المخوف فرارى
وجار سعيد أو عدى بن حاتم	وجار شريح الخير قرّ قرارى
وجار المرادى الكريم وهانىء	وزحر بن قيس ما كرهت نهاري ^(٤)
ولو أننى كنتُ الأسير لبعضهم	دعوتُ فتى منهم ففكّ أسارى ^(٥)
أولئك قومي لا عدمتُ حياتهم	وعفومُ عني وسرّ عوارى

(١) صفين . « طابق سرمداً » .

(٢) صفين « ضربة ناز » .

(٣) صفين : « والأشر جارى » .

(٤) صفين : « المرادى العظيم » .

(٥) صفين : « دعوت رئيس القوم » .

قاز : فعدا به الأشر إلى على عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا رجل
من مسالح معاوية ، أصبته أمس ، وبات عندنا الليل ، فخرّ كفا بشعره ، وله رَحِمٌ ، فإن
كان فيه القتل فاقتله ؛ وإن ساغ لك العفو عنه فهبه لنا ؛ فقال : هو لك يا مالك ، وإذا
أصبت منهم أسيرا فلا تقتله ، فإن أسير أهل القبلة لا يقتل .
فرجع به الأشر إلى منزله وخلي سبيله .

(١٢٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في الخوارج لما أنكروا تحكيم الرجال ، ويذم فيه أصحابه في التحكيم :

إِنَّا لَمْ نُحْكَمْ الرَّجَالَ ؛ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ . هَذَا الْقُرْآنُ ، إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ؛ وَلَا يَدُّ لَهُ مِنْ تَرْجَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ . وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحْكَمْ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ ، لَمْ نَسْكُنِ الْفَرِيقَ الْمَتَوَلَّى عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ فَإِنْ تَمَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ^(١) ، فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ تُحْكَمْ بِكِتَابِهِ ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ تَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ؛ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : لَمْ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِتَبَيِّنِ الْجَاهِلِ ، وَتَبَيَّنَتِ الْعَالِمُ ؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهَدَنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا تَتَّخِذَ بِأَكْطَامِهَا ، فَتَعَجَّلَ عَنْ تَبَيِّنِ الْحَقِّ ، وَتَتَّقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ .

إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرِهَهُ ، مِنَ الْبَاطِلِ ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ وَزَادَهُ . فَأَيْنَ يُبَاهُ بِكُمْ ! وَمِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ !

أَسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمِ حَبَارَى عَنِ الْخَلْقِ لَا يُبْهِرُونَهُ ، وَمُوزَعَيْنَ بِالْجُورِ
لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ ، جُفَاءً عَنِ الْكِتَابِ ، نُسْكِبَ عَنِ الطَّرِيقِ .
مَا أَنتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعَلَّقُ بِهَا ، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ بِآيِنِهَا ؛ لَبِئْسَ حُشَاشُ نَارِ
الْحَرْبِ أَنْتُمْ !

أَفِ لَكُمْ ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحًا ^(١) يَوْمًا أَنْادِيَكُمْ ، وَيَوْمًا أُنَاجِيَكُمْ ، فَلَا
أُحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ الذِّدَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ !

الشيخ :

دَفَعْنَا المصنف : جانباه اللذان يكفُفانه ، وكان الناس يعملونهما قديما من خشب ،
ويعملونهما الآن من جلد ؛ يقول عليه السلام : لا اعتراضَ علىَّ في التحكيم ، وقول
الخوارج : « حَكَّمَتِ الرِّجَالُ » دَعْوَى غير صحيحة ؛ وَإِنَّمَا حَكَّمَتِ الْقُرْآنُ ؛ وَلَكِنْ
الْقُرْآنُ لَا يَنْطِقُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَدَّ لَهُ تَمَنُّ يَتَرَجَّمُ عَنْهُ . وَالتَّرْجُمَانُ بفتح الناء وضم الجيم ،
هو مفسر اللفظ بلسان آخر ، ويجوز ضمّ التاء لضمّة الجيم ، قال الراجز :
* كَالْتَّرْجُمَانِ لُقِيَ الْأَنْبَاطُ *

ثم قال : لَمَادَعَيْنَا إِلَى تَحْكِيمِ الْكِتَابِ ، لَمْ نَكُنْ النُّوْمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ :
{ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ } ^(٢) ، بَلْ
أَجَبْنَا إِلَى ذَلِكَ ، وَعَمَلْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } ^(٣) .
وقال : معنى ذلك أَنْ نَحْكُمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِذَا عَمِلَ النَّاسُ بِالْحَقِّ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ،
وَاطَّرَحُوا الْهَوَى وَالْمَعْصِيَةَ ، كُنَّا أَحَقَّ بِتَقْدِيرِ الْأُمَّةِ وَبِوَلَايَةِ الْخِلَافَةِ مِنَ الْمَنَازِعِ لَنَا عَلَيْهَا .

(١) مخطوطة النهج : « ترحاً » .

(٢) سورة النور ٤٨ .

(٣) سورة النساء ٥٩ .

فإن قلت : إنه عليه السلام لم يقل هكذا ؛ وإنما قال : إذا حُكِمَ بالصدق في كتاب الله ، فنحن أولى به ، وإذا حُكِمَ بالسنة فنحن أحقّ بها !

قلت : إنه رفع نفسه عليه السلام أن يصرّح بذلك الخلاف فكفى عنها ، وقال : نحن إذا حُكِمَ بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنة ، ويلزم من كونه أولى بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلاف من جميع الناس ، فدلّ على ما كنّا عنه بالأمر المستلزم له .

فإن قلت : إذا كان الرجال الذين يترجمون القرآن ويفسّرونه ، وقد كُتِّفُوا أن يحكموا في واقعة أهل العراق وأهل الشام ، بما بدّلهم القرآن عليه ؛ يجوز أن يختلفوا في تفسير القرآن وتأويله ، فيدّعى صاحب أهل العراق من تفسيره ما يستدلّ به على مراده ، ويدّعى وكيل أهل الشام ما يقابل ذلك ويناقضه ، بطريق الشبهة التي تمسكوا بها من دم عثمان ، ومن كون الإجماع لم يحصل علىبيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، احتجّ الحسكان حينئذ إلى أن يحكم بينهما حَكَمَانِ آخِرَانِ ، والقول فيهما كالقول في الأول إلى ما لا نهاية له ؛ وإنما كان يكون التحكيم قاطعا للشغب لو كان القرآن ينصّ بالصریح الذي لا تأويل فيه ، إمّا على أمير المؤمنين عليه السلام وإمّا على معاوية ، ولا نصّ صريح فيه ؛ بل الذي فيه يحتمل التأويل والتجاذب ؛ فما الذي يفيد التحكيم والحال تعود لا محالة جدّة !

قلت : لو تأمّل الحسكان الكتاب حقّ التأمل ، لوجدوا فيه النصّ الصريح على صحة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّ فيه النصّ الصريح على أن الإجماع حجة ، ومعاوية لم يكن مخالفاً في هذه المقدمة ولا أهل الشام ، وإذا كان الإجماع حجة ، فقد وقع الإجماع لما توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله ، على أن اختيار خمسة من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعتهم توجب لزوم طاعته وصحة خلافته ، وقد بايع أمير المؤمنين عليه السلام

خمسةً من صلحاء الصحابة بل خمسون ؛ فوجب أن تصحّ خلافته ، وإذا صحّت خلافته نفذت أحكامه ، ولم يجب عليه أن يقيد بعثمان ، إلا إن حضر أولياؤه عنده ، طائعين له مبايعين ، ملتزمين لأحكامه ؛ ثم بعد ذلك يطالبون القصاص من أقوام بأعيانهم ، يدّعون عليهم دمَ المقتول ؛ فقد ثبت أن الكتاب لو تؤمّل حقّ التأمل ، لسكان الحق مع أهل العراق ، ولم يكن لأهل الشام من الشبهة ما يقدح في استنباطهم المذكور .

ثم قال عليه السلام : فأما ضربى للأجل فى التّحكيم فإنما فعلته لأن الأناة والتّثبت من الأمور الحمودة ؛ أما الجاهل فيعلم فيه ما جهله ، وأما العالم فيثبت فيه على ما علمه ، فرجوت أن يصلح الله فى ذلك الأجل أمرَ هذه الأمة المفتونة .

ولا تؤخذ بأكطامها : جمع كظم ؛ وهو مخرج النّفس ، يقول : كرهت أن أنجل القوم عن التّبين والاهتداء ، فيكون إرهابى لهم ، وتركى للتّفنيس عن خفائهم ، وعدوّى عن ضرب الأجل يبنى وينهم أدعى إلى استفسادهم ، وأخرى أن يركبوا غيهم وضلالهم ، ولا يقبلوا عن القبيح الصادر عنهم .

ثم قال : أفضلُ الناس من آثرَ الحقّ وإن كرّثه - أى اشتدّ عليه ، وبلغ منه المشقة . ويجوز « أكرّثه » بالألف - على الباطل وإن انتفع به وأورثه زيادة .

ثم قال : « فأين يتأه بكم ؟ » ، أى أين تذهبون فى التّيه ؟ يعنى فى الخيرة . وروى : « فأنى يتأه بكم ؟ » .

ومن أين أتيتم ؟ أى كيف دخل عليكم الشيطان أو الشبهة ، ومن أى المداخل دخل اللبس عليكم ؟

ثم أسرم بالاستعداد للسير إلى حرب أهل الشام ، وذكر أنهم مؤزّعون بالجور ،

أَيُّ مَلْهُومٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ ^(١) أَيُّ الْمُهْمَنِ ، أَوْزَعْتَهُ
بِكَذَا وَهُوَ مُوزَعٌ بِهِ ، وَالْأَسْمُ وَالْمَصْدَرُ جَمِيعًا الْوَزْعُ بِالْفَتْحِ ، وَاسْتَوَزَعْتَ إِلَيْهِ تَعَالَى شُكْرَهُ
فَأَوْزَعْنِي ، أَيُّ اسْتَلْهِمْتَهُ فَأَلْهِمْنِي .

وَلَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ ؛ لَا يَتْرَكُونَهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَرَوَى « لَا يَعْدِلُونَ بِهِ » ؛ أَيُّ لَا يَعْدِلُونَ
بِالْجُورِ شَيْئًا آخَرَ ، أَيُّ لَا يَرْضَوْنَ إِلَّا بِالظُّلْمِ وَالْجُورِ وَلَا يَخْتَارُونَ عَلَيْهِمَا غَيْرَهَا .

قَوْلُهُ : « جَفَاةٌ عَنِ الْكِتَابِ » : جَمْعُ جَافٍ وَهُوَ الذَّابِي عَنِ الشَّيْءِ ، أَيُّ قَدْ كَانُوا
عَنِ الْكِتَابِ لَا يَلِائِمُهُمْ وَلَا يَنَاسِبُونَهُ ، تَقُولُ : جَفَاَ السَّرْجُ عَنْ ظَهْرِ الْفَرَسِ إِذَا نَبَا وَارْتَفَعَ ،
وَأَجْفَيْتُهُ أَنَا ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ أَنَّهُمْ أَعْرَابُ جَفَاةٍ ، أَيُّ أَجْلَافٌ لَا أَفْهَامَ لَهُمْ .

قَوْلُهُ : « نَكَبٌ عَنِ الطَّرِيقِ » ، أَيُّ عَادِلُونَ ، جَمْعُ نَاكَبٍ ، نَكَبَ يَنْكَبُ عَنِ
السَّبِيلِ ، بَضْمُ الْكَافِ ، نَكَبُوا .

قَوْلُهُ : « وَمَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ » ، أَيُّ بِذِي وَثِيقَةٍ ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ ، وَالْوَثِيقَةُ : الثَّقَةُ ، يَقَالُ :
قَدْ أَخَذْتُ فِي أَمْرِ فُلَانٍ بِالْوَثِيقَةِ ، أَيُّ بِالثَّقَةِ ، وَالثَّقَةُ مُصْدَرٌ .

وَالزَّوَاغِرُ : الْعَشِيرَةُ وَالْأَنْصَارُ ، وَيُقَالُ : هُمْ زَاغَرْتُهُمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، لِلَّذِينَ يَقُومُونَ
بِأَمْرِهِ عِنْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : « يَعْتَصِمُ إِلَيْهَا » ، أَيُّ بِهَا ، فَأَنَابَ « إِلَى » مِنْابِ الْبَاءِ ، كَقَوْلِ طَرَفَةٍ :
وَمَنْ يَلْتَقِ الْحَيَّ الْجَمِيعَ تَلَاَقَى إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْمَصْدَرِ ^(٢)
وَحُشَّاشُ النَّارِ : مَا تُحْسَسُ بِهِ ، أَيُّ تَوْقَدُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
أَفِي أَنْ أَحْسَنَ الْحَرْبِ فِيمَنْ يُحْسَسُهَا أَلَامٌ ، وَفِي آلَا أَقْرَ الْمَخَازِيَا

(١) سُورَةُ النَّازِعَاتِ ١٩ .

(٢) مِنَ الْمَعْلَقَةِ — بِمِثْرِجِ التَّبْرِيزِيِّ ٧٧

وروى « حَشَّاش » بالفتح كاشياع ، وهو الحطب الذى يلقى فى النار قبل الجزل ،
وروى : « حُشَّاش » بضم الحاء وتشديد الشين ، جمع حاشٍ ، وهو الموقد للنار .
قوله : « أَفْتِ لَكُمْ » من الألفاظ القرآنية ، وفيها لغات « أَفْتِ » بالكسر وبالضم
وبالفتح و « أَفْتِ » منونا بالثلاث أيضا ، ويقال : أَفَّا وتَفَّا ؛ وهو إنباع له ، وأَفَّة وتَفَّة ،
والعنى استقذار المعنى بالتأفيف .

قوله : « لقد لقيت منكم بَرْحًا » ، أى شدة ، يقال : لقيت منهم بَرْحًا بارحًا ، أى
شدة وأذى ، قال الشاعر :

أَجِدُّكَ هَذَا عَمْرُكَ اللَّهُ كَلَّمَا دَعَاكَ الْهَوَى بَرْحٌ لَعِينِكَ بَارِحٌ^(١) !

وبروى : « ترحا » ، أى حزنا .

ثم ذكر أنه يناديهم جهرا طورا ، ويناجيهم سرا طورا ، فلا يخدمهم أحراراً
عند ندائه ، أى لا ينصرون ولا يجيبون ، ولا يخدمهم ثقاتاً وذوى أمانة عند المفاجأة ، أى
لا يكتفون السر .

والنَّجَاء : المفاجأة ، مصدر ناجيته نَجَاء ، مثل ضاربته ضراباً ، وصارعه صراعاً .

(١) اللسان (برح) من غير نسبة .

(١٢٦)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام لما عوقب على التسوية في العطاء وتصييره الناس
أسوة في العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف :

أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فَيَمَنُ وَتُؤْتِي عَلَيْهِ ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ
سَمِيرٌ ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا ! وَلَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا
الْمَالُ مَالُ اللَّهِ !

ثم قال عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ إعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَنْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ ؛ وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا ،
وَيَضُمُّهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ ، وَيُهَيِّئُهُ عِنْدَ اللَّهِ ؛ وَلَمْ يَضَعْ أَمْرُؤُ مَا لَهُ
فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ؛ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ ؛ وَكَانَ لِفَتْرِهِ وَذُهُمْ ؛ فَإِنْ
زَلَّتْ بِهِ النَّمْلُ يَوْمًا فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ ، وَالْأَمُّ خَدِيدٍ .

الشنخ :

أصل « تأمروني » : تأمروني ، بنونين ، فأسكن الأولى وأدغم ، قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَنْ أُعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ^(١) .

ولا أطور به : لا أفرّ به ولا تَطُرْ حَوْلَنَا ، أى لا تقرب ماحواننا ، وأصله من طوار الدار ، وهو ما كان ممتداً معها من الفناء .

وقوله : « ما سمر سمير » يعنى الدهر ، أى ما أقام الدهر وما بقى ، والأشهر فى المثل : « ما سمر ابنا سمير » ، قالوا : السمر الدهر ، وابناء الليل والنهار . وقيل : ابنا سمير الليل والنهار ، لأنه يُسمَرُ فيهما ، ويقولون : لا أفعله السمر والقمر ، أى ما دام الناس يسمرون فى ليلة قمرء ولا أفعله سمير الليالى ، أى أبدا ، قال الشنفرى :

هنا لك لا أرجو حياة تسرني سمير الليالى مُبَسَّلاً بالجرائر^(١)

قوله : « وما أمّ نجم فى السماء نجما » ، أى قصد وتقدّم ، لأن النجوم تتبع بعضها بعضاً ، فلا بدّ من تقدم وتأخر ؛ فلا يزال النجم يقصد نجماً غيره ، ولا يزال النجم يتقدم نجماً غيره .

والخدين : الصديق ؛ يقول عليه السلام : كيف تأمرونى أن أطلب النصر من الله بأن أجور على قوم وليت عليهم ! يعنى الذين لا سوابق لهم ولا شرف ؛ وكان عمر ينقصهم فى العطاء عن غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لو كان المال لى وأنا أفرقه بينهم لسويت ، فكيف وإنما هو مال الله وفيه !

ثم ذكر أن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وإسراف ، وقد نهى الله عنه وأنه يرفع صاحبه عند الناس ، ويضعه عند الله ، وأنه لم يسلك أحد هذه المسلك إلاّ حرّمه الله ودّ الذين يتحسب إليهم بالمال ، ولو احتاج إليهم يوماً عند عثرة يعثرها لم يجدهم .

واعلم أن هذه مسألة فقهية ورأى على عليه السلام وأبى بكر فيها واحد ، وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفىء والصدقات ، وإلى هذا ذهب الشافعى رحمه الله ، وأما عمر فإنه لما ولي الخلافة فضل بعض الناس على بعض ، ففضل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين من قریش على غيرهم من المهاجرين ، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، وفضل العرب على العجم ، وفضل الصريح على المولى ، وقد كان أشار على أبى بكر أيام خلافته بذلك ، فلم يقبل ، وقال : إنَّ لم يفضل أحدا على أحد ، ولكفه قال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ ^(١) ، ولم يخص قوما دون قوم ، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أولا . وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله ، والمسألة محل اجتihad ، وللإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتihadه ، وإن كان اتباع على عليه السلام عندنا أولى ، لا سيما إذا عضده موافقة أبى بكر على المسألة ، وإن صح الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله سوى ، فقد صارت المسألة منصوصا عليها ، لأن فعله عليه السلام كمقوله .

(١٢٧)

الأجمل

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج أيضا :

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ ، فَلَيْمَ تُضِلُّونَ عَامَّةَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - بِضَلَالِي ، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطِيئِي ، وَتُكْفِرُونَهُمْ بِذُنُوبِي أَسِئُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْهَرَّةِ وَالسُّقْمِ ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يَذْنِبْ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَرَّاهُ أَهْلُهُ ، وَقَتَلَ الْفَاعِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلُهُ ، وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ ، وَنَسَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ ، فَآخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِمْ ؛ وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ . ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَضَرَبَ بِهِ رِيحَهُ . وَسَيِّئُكَ فِي صِنْفَانِ : مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْخُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ . وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِ الدَّمَطِ الْأَوْسَطِ ، فَالزُّسُومُ ، وَالزُّمُومَا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ ؛ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّنْبِ .

أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ فَاقْتُلُوهُ ؛ وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ ؛ فَإِنَّمَا حُكْمُ

الْحُكَمَانَ لِيُحْيِيَا مَا أَخْيَا الْقُرْآنُ ، وَبِمَيِّمَاتِ الْقُرْآنِ ، وَإِخْيَاؤُهُ الْأَجْمَاعُ عَلَيْهِ ،
وَأَمَاتَتُهُ الْأَفْتِرَاقُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ جَرَّنا الْقُرْآنُ إِلَيْنِهِمْ أَتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا أَتَّبَعُونَا ؛
فَلَمْ آتِ لَا أَبَا لَكُمْ بُجْرًا ، وَلَا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ ، وَلَا لَبَسْتُكُمْ عَلَيْهِمْ .
إِنَّمَا أَجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَائِكِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ ، أَخَذْنَا عَنْهُمَا إِلَّا يَتَعَدَّيَا
الْقُرْآنَ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَهَا لِحَقِّ وَهْمَا يُبْصِرَانِهِ ؛ وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، فَمَضَى عَلَيْهِ ،
وَقَدْ سَبَقَ اسْتِنْفَاؤُنَا عَنْهُمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا ،
وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا .

الشيخ :

ليس لقائل أن يقول له عليه السلام معتذرا عن الخوارج : إنهم إنما ضلّوا عامة أمة
محمد صلى الله عليه وآله ، وحكموا بخطيئهم وكفروهم وقتلهم بالسيوف خبطاً ، لأنهم وافقوك
في تصويب التحكيم ؛ وهو عندهم كفر فلم يؤاخذوهم بذنبك كما قلت لهم ؟ وذلك لأن
أمير المؤمنين عليه السلام ما قال هذه المقالة إلا لمن رأى منهم استعراض العامة ، وقتل
الأطفال حتى البهائم ، فقد كان منهم قوم فعلوا ذلك . وقد سبق مِنَّا شرح أفعالهم
ووقائعهم بالناس ، وقالوا : إن الدار دار كفر لا يجوز السكف عن أحد من أهلها ،
فهؤلاء هم الذين وجه أمير المؤمنين عليه السلام إليهم خطابه وإنكاره ، دون غيرهم من
فرق الخوارج .

[مذهب الخوارج في تكفير أهل الكبائر]

واعلم أن الخوارج كلّمها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر ، ولذلك كفّروا عليا
عليه السلام ومن اتبعه على تصويب التحكيم ؛ وهذا الاحتجاج الذي احتج به عليهم
(٨ - نهج ٨)

لازم وصحيح ؛ لأنه لو كان صاحب الكبيرة كافراً لما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا ورثته من المسلم ، ولا مكّنه من نكاح المسلمات ، ولا قسم عليه من الفداء ولا أخرجه عن لفظ الإسلام .

وقد احتجت الحوارج لمذهبها بوجوه :

منها قوله تعالى : ﴿ وَ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ ﴾ ^(١) ، قالوا : فجعل تارك الحج كافراً .

والجواب أن هذه الآية مجملة ، لأنه تعالى لم يبين ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بماذا ؟ فيحتمل أن يريد تارك الحج ، ويحتمل أن يريد تارك اعتقاد وجوبه على من استطاع إليه سبيلاً ، فلا بد من الرجوع إلى دلالة ، والظاهر أنه أراد لزوم الكفر لمن كفر باعتقاد كون الحج غير واجب ؛ ألا تراه في أول الآية قال : ﴿ وَ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ ، فأنبأ عن اللزوم ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بلزوم ذلك ؛ ونحن نقول : إن مَنْ لم يقل : لله على الناس حج البيت ، فهو كافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿ اِنَّهُ لَا يَنْفُسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُوْنَ ﴾ ^(٢) ، قالوا : والفاسق لفسقه وإصراره عليه آيس من روح الله ، فكان كافراً .

والجواب أننا لا نسلم أن الفاسق آيس من روح الله مع تجويزه تلافي أمره بالتوبة والإفلاع ؛ وإنما يكون اليأس مع القطع ، وليس هذه صفة الفاسق ، فأما الكافر الذي يبعد الثواب والمعاقب ، فإنه آيس من روح الله ، لأنه لا تحظر له التوبة والإفلاع ، ويقطع على حسن معتقده .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ ﴾ ^(٣) وكل من ترك حكم الذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله . ولم يحكم بما أنزل الله .

(٢) سورة يوسف ٨٧

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٣) سورة المائدة ٤٤

والجواب أن هذا مقصورٌ على اليهود؛ لأن ذكرهم هو المقدم في الآية؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾^(١) ثم قال عقيب قوله: ﴿هُمْ الْكَافِرُونَ﴾: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾^(٢) فدلَّ على أنها مقصورة على اليهود .
ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(٣)، قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلَّى النار، فوجب أن يسمى كافراً .

والجواب، أن قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ نكرة في سياق الإثبات فلا تميم، ولما تميم النكرة في سياق النفي؛ نحو قولك: «ما في الدار من رجل»؛ وغير ممنوع أن يكون في الآخرة نار مخصوصة لا يصلها إلا الذين كذبوا وتولَّوا، ويكون للفاسق نار أخرى غيرها .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٤)، قالوا: والفاسق تحيط به جهنم، فوجب أن يكون كافراً .

والجواب أنه لم يقل سبحانه: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَا تحيط إلا بالكافرين» وليس يلزم من كونها محيطة بقوم ألا تحيط بقوم سواهم .

ومنها قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسَوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٥)، قالوا:

(١) سورة المائدة ٤٣

(٢) سورة المائدة ٤٦

(٣) سورة الليل ١٤ - ١٦

(٤) سورة التوبة ٤٩

(٥) سورة آل عمران ١٠٧

والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم ، فوجب أن يكون ممن اسودت ،
وجوب أن يسمى كافرا ، لقوله : ﴿ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

والجواب أن هذه القسمة ليست متقابلة ؛ فيجوز أن يكون المكلفون ثلاثة أقسام :
بيض الوجوه ، وسود الوجوه ؛ وصنف آخر ثالث بين اللونين ؛ وهم الفساق .
ومنها قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلِيهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ ^(١) . قالوا : والفاسق على
وجهه غبرة ، فوجب أن يكون من الكفرة والفجرة .

والجواب ، أنه يجوز أن يكون الفساق قسماً ثالثاً لا غبرة على وجوههم ، ولا هي مسفرة
ضاحكة ، بل على ما كانت عليه في دار الدنيا .

ومنها قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآئُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ ^(٢) .
قالوا : والفاسق لا بد أن يجازى ، فوجب أن يكون كفورا .

والجواب ، أن المراد بذلك : « وهل يجازى بعقاب الاستئصال إلا الكفور » ؛
لأن الآية وردت في قصة أهل سبأ ، لكونهم استؤصلوا بالعقوبة .

ومنها أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أُنَبِّئَكَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴾ ^(٣) ، وقال في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ ﴾ ^(٤) ، فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركا .

والجواب أننا لا نسلم أن لفظة « إنما » تفيد الحصر ؛ وأيضا فإنه عطف قوله :

(١) سورة عبس ٣٨ - ٤٢

(٢) سورة سبأ ٤٧

(٣) سورة الحجر ٤٢

(٤) سورة النحل ١٠٠

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ على قوله : ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ﴾ ، فوجب أن يثبت التباين بين الفريقين ، وهذا مذهبنا ، لأن الذين يتولَّونه هم الفساق ، والذين هم به مشركون هم الكفار .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ^(١) لجعل الفاسق مكذِّباً .
والجواب ، أن المراد به الذين فسقوا عن الدين ، أى خرجوا عنه بكفرهم ، ولا شبهة أن مَنْ كان فسقه من هذا الوجه فهو كافر مكذِّب ، ولا يلزم منه أن كل فاسق على الإطلاق فهو مكذِّب وكافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ^(٢) ، قالوا : فأثبت الظالم جاحداً ، وهذه صفة الكفار .

والجواب أن المكلف قد يكون ظالماً بالسرقة والزنا ، وإن كان عارفاً بالله تعالى ، وإذا جاز إثبات ظالم ليس بكافر ولا جاحد بآيات الله تعالى ، جاز إثبات فاسق ليس بكافر .
ومنها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ^(٣) .
والجواب ، أن هذه الآية تدل على أن الكافر فاسق ، ولا تدل على أن الفاسق كافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنْفَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ^(٤) .

(١) سورة السجدة ٢٠

(٢) سورة الأنعام ٣٣

(٣) سورة النور ٥٥

(٤) سورة الأعراف ١٠٢ - ١٠٥

فبِصِّ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنْ تَخَفَ موازينه يكون مكذِّباً ، والفاسق تخَفَ موازينه، فكان مكذِّباً ، وكلّ مكذِّب كافر .

والجواب أنّ ذلك لا يمنع من قسم ثالث ، وهم الذين لا تخَفَ موازينهم ولا تنقل ؛ وهم الفساق ، ولا يلزم من كون كلّ مَنْ خَفَّت موازينه يدخل النار ألا يدخل النار إلا من خَفَّت موازينه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ ^(١) ، وهذا يقتضى أنّ من لا يكون مؤمناً فهو كافر ، والفاسق ليس بمؤمن ، فوجب أن يكون كافراً .

والجواب أنّ « مَنْ » هاهنا للتبعية ، وليس في ذكر التبعية نفي الثالث ، كما أن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ ^(٢) ؛ لا ينفي وجود دابة تمشي على أكثر من أربع كبعض الحشرات .

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : « ومن رمى به الشيطان مراميه » ، أى أضله كأنه رمى به مرمى بعيداً ، فضلّ عن الطريق ؛ ولم يهتد إليها .

قوله : « وضرب به تبهه » أى حيره وجعله تأهها .

ثم قال عليه السلام : يهلك في رجُلان ، فأحدهما مَنْ أفرط حبّه له واعتقاده فيه حتى ادّعى له الحلول كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح عليه السلام ، والثاني مَنْ أفرط بغضه له ، حتى حاربه ، أو لعنه ، أو برى منه ، أو أبغضه ؛ هذه المراتب الأربع ؛ والبغض أدناها ، وهو

(١) سورة التغابن ٢

(٢) سورة النور ٤٥

مُؤَبَّقٌ مَهْلَكٌ ؛ وفي الخبر الصحيح المتفق عليه أنه لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق ؛ وحسبك بهذا الخبر ، ففيه وحده كفاية .

[فصل في ذكر الغلاة من الشيعة والنصيرية وغيرهم]

فأما الغلاة فيه فهما السكون كما هلك الغلاة في عيسى عليه السلام . وقد روى المحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عليه السلام : « فيك مُثُلٌ من عيسى بن مريم ، أبغضته اليهود فبهتت أمه ، وأحبته النصارى فرفعت فوق قدره » ، وقد كان أمير المؤمنين عثري على قوم من أصحابه خرجوا من حدّ محبته باستحواذ الشيطان عليهم أن كفروا بربههم ، وجحدوا ما جاء به نبيهم ، فاتخذوه رباً وادّعوه إلهاً ، وقالوا له : أنت خالقنا ؛ ورازقنا ، فاستتابهم ، واستأنى وتوعدهم فأقاموا على قولهم ، فخر لهم حفراً دخن عليهم فيها ، طمعا في رجوعهم ، فأبوا لخرقهم ، وقال :

أَلَا تَرَوْنِي قَدْ حَفَرْتُ حَفْرًا ^(١) إِنِّي إِذَا رَأَيْتُ أَمْرًا مَنَكْرًا

* أَوْ قَدْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا *

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار النقيّ ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصيّ ، المعروف بنوين ، وروى أيضاً عن عليّ بن محمد النوفليّ عن مشيخته ، أن علياً عليه السلام مرّ بقوم وهم يأكلون في شهر رمضان نهراً ، فقال : أسفر أم مرضى ؟ قالوا : لا ولا واحدة منهما ، قال : فن أهلك الكتاب أنتم فتعصمكم الذمّة والجزية ؟ قالوا : لا ، قال : فما بال الأكل في نهار رمضان ! فقاموا إليه ، فقالوا : أنت أنت ! يومون إلى ربوبيته ، فنزل عليه السلام عن فرسه ، فألقى خذّه بالأرض ، وقال : ويلكم ! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله ، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام . فأبوا فدعاهم مراراً ، فأقاموا على كفرهم ، فنهض إليهم ، وقال : شدّوهم وثاقاً ، وعلى بالعملة والنار والحطب ، ثم أمر

(١) الحفر : البئر الواسعة .

بحفر بنزين فحفرنا ، إحداهما سرّياً والأخرى مكشوفة ، وألقى الخطب في المكشوفة ، وفتح بينهما فتحة ، وألقى النار في الخطب ، فدخل عليهم ، وجعل يهتف بهم ، ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام ، فأبوا ، فأمر بالخطب والنار فألقى عليهم ، فأحرقوا ، فقال الشاعر :

لترمى النية حبثُ شاءت إذا لم ترميني في الحفرتين
إذا ما حُشمتا خطباً بنار فذاك الموت نقداً غير دين

قال : فلم يبرح عليه السلام حتى صاروا حُماً .

ثم استمرت هذه المقاتلة سنة أو نحوها ، ثم ظهر عبد الله بن سبأ وكان يهودياً ينسأّر بالإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام فأظهرها ، واتبعه قوم فسموا السبئية^(١) ، وقالوا : إن علياً عليه السلام لم يمت ، وإنه في السماء ، والرعد صوته والبرق صوته ؛ وإذا سمعوا صوت الرعد ، قالوا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ! وقالوا في رسول الله صلى الله عليه وآله أغلظ قول ، وافترؤا عليه أعظم فرية ، فقالوا : كتم تسعة أعشار الوحي ، ففمى عليهم قولهم الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية رضى الله عنه في رسالته ، التي يذكر فيها الإرجاء ، رواها عنه سليمان بن أبي شيخ ، عن الهيثم بن معاوية ، عن عبد العزيز بن أبان ، عن عبد الواحد بن أيمن السكي ، قال : شهدت الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية يملئ هذه الرسالة ، فذكرها وقال فيها : ومن قول هذه السبئية : هدينا لوحى ضلّ عنه الناس ، وعلم خفي عنهم ؛ وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كتم تسعة أعشار الوحي ؛ ولو كنتم صلى الله عليه وآله شيئاً مما أنزل الله عليه لكنتم شأن امرأة زيد ، وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِي مَرَضَاتِ أَرْوَاجِكَ ﴾^(٢) .

(١) السبئية هم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجمة ، وقالت بتناسخ الجزء الإلهي بعد على رضى الله عنه . وانظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) سورة التجرىم ١

ثم ظهر المغيرة بن سعيد^(١) ، مولى بجيلة ، فأراد أن يحدث لنفسه مقالةً يستهوى بها قوماً ، وينال بها ما يريد الظفر به من الدنيا ، فغلا في عليّ عليه السلام ، وقال : لو شاء عليّ لأحيا عاداً وثمودَ وقرونا بين ذلك كثيراً .

وروى علي بن محمد النوفليّ ، قال : جاء المغيرة بن سعيد ، فاستأذنَ عليّ أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين ، وقال له : أخبر الناس أنّي أعلمُ الغيب ، وأنا أطمعك العراق ، فزجره أبو جعفر زجراً شديداً ، وأسمعته ما كره ، فانصرف عنه ، فأتى أبا هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية رحمه الله ، فقال له مثل ذلك - وكان أبو هاشم أيداً - فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً أشفى به على الموت ، فتعالج حتى برى ، ثم أتى محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن رحمه الله - وكان محمد سُكَيْتاً^(٢) - فقال له كما قال للرجلين ، فسكت محمد فلم يجبه ، ففرج وقد طمع فيه بسكوته ، وقال : أشهد أنّ هذا هو المهديّ الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه قائمُ أهل البيت ، وادّعى أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن . ثم قدم المغيرة الكوفة ، وكان مشعبداً ، فدعا الناس إلى قوله ، واستهواهم واستغوام ، فاتبعه خلق كثير ، وادّعى عليّ محمد بن عبد الله أنّه أذن له في خنق الناس وإسقاطهم السموم ، وبث أصحابه في الأسفار يفعلون ذلك بالناس ، فقال له بعض أصحابه : إنّنا نخشع من لا نعرف ، فقال : لا عليكم ! إنّ كان من أصحابكم مجتمعه إلى الجنة ، وإن كان من عدوّكم مجتمعه إلى النار ؛ ولهذا السبب كان المنصور يسمّى محمد بن عبد الله الخنّاق ، وينحله ما ادّعاه عليه المغيرة . ثم تفاقم أمرُ الغلاة بعد المغيرة ، وأمنوا في الغلو ، فادّعوا حلول الذات الإلهية

(١) هو المغيرة بن سعيد العجلي ، مولى خالد بن عبد الله القسري ، ادّعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد بن علي بن الحسين ، وبعد ذلك ادّعى النبوة لنفسه ، واستحل الحرام ، وغلا في عليّ غلواً لا يتفقه عاقل ، وزاد عليّ ذلك قوله بالثبث . الشهر ستاني ١ : ١٥٥
(٢) السكيت ، على التصغير : الكثير السكوت .

المقدّسة في قوم من سلالة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا بالتفاسخ ، وجحدوا البعث والنشور ، وأسقطوا الثواب والعقاب ، وقال قوم منهم : إن الثواب والعقاب إنّما هو ملاذ هذه الدنيا ومشاقّها ، وتولّدت من هذه المذاهب القديمة التي قال بها سلفهم مذاهبٌ أخش منها قال بها خلفهم ، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنصيرية^(١) ، وهي التي أحدثها محمد بن نصير النخعي ، وكان من أصحاب الحسن العسكري عليه السلام ، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهي التي أحدثها إسحاق بن زيد بن الحارث ، وكان من أصحاب عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف ، ويثبت لمليّ عليه السلام شركة مع رسول الله صلى الله عليه وآله في النبوة على وجهٍ غير هذا الظاهر الذي يعرفه الناس ؛ وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن بن عليّ بن محمد ابن الرضا ، فلما مات ادّعى وكالة لابن الحسن الذي تقول الإمامية بإمامته ، ففضّحه الله تعالى بما أظهره من الإلحاد والغلوّ والقول بتناسخ الأرواح ، ثم ادّعى أنه رسول الله وبنيّ من قبّل الله تعالى ، وأنه أرسله عليّ بن محمد بن الرضا ، وجحد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه ، وادّعى بعد ذلك الربوبية ، وقال بإباحة المحارم .

وللغلاة أقوال كثيرة طويلة عريضة ؛ وقد رأيتُ أنا جماعةً منهم ، وسمعت أقوالهم ، ولم أر فيهم محصّلاً ، ولا مَنْ يستحقّ أن يخاطب ؛ وسوف أستقصي ذكرَ فرقِ الغلاة وأقوالهم في الكتاب الذي كنت متشاعلاً بجمعه ، وقطعتني عنه اهتمامي بهذا الشرح ، وهو الكتاب المسمى ” بمقالات الشيعة “ ، إن شاء الله تعالى .

قوله عليه السلام : « والزمو السّواد الأعظم » ؛ وهو الجماعة ، وقد جاء في الخبر عن

(١) انظر الشهر ستاني ١ : ١٦٨ ، ١٦٩

رسول الله صلى الله عليه وآله هذه اللفظة التي ذكرها عليه السلام، وهي : « يد الله على الجماعة ولا يبالى بشذوذ من شذ » ، وجاء في معناها كثير ، نحو قوله عليه السلام : « الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » ، وقوله : « لا تجتمع أمتي على خطأ » ، وقوله : « سألت الله ألا تجتمع أمتي على خطأ ، فأعطانيها » ، وقوله : « مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » ، وقوله : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، و « سألت ربّي ألا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها » . و « لم يكن الله ليجمع أمتي على ضلال ولا خطأ » .

وقوله عليه السلام : « عليكم بالسّواد الأعظم » ، وقوله : « من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام عن عنقه » .

وقوله : « من فارق الجماعة مات ميتة جاهليّة » ، وقوله : « من سرّه ببحوحة الجنة فيلزم الجماعة » .

والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً .

ثم قال عليه السلام : « من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه » ، يعني الخوارج ، وكان شعارهم أنهم يحلّقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل . قال : « ولو كان تحت عمامتي هذه - أى لو اعتصموا بأكبر الأشياء حرمة - فلا تكفّوا عن قتله » .

ثم ذكر أنه إنما حكم الحكمان ليحييا ما أحياه القرآن ، أى ليجتمعا على ما شهد القرآن باستصوابه واستصلاحه ، ويميتا ما أماته القرآن ، أى ليفترقا وبصدًا وينكلا عما كرهه القرآن ، وشهد بضلاله .

والْبُجْر ، بضم الباء : الشرّ العظيم ، قال الرازي :

* أرمى عليها وهي شىءٌ بُجْرٌ *

أى داهية .

ولا خَتَلْتُكُمْ ، أى خدعتكم ، خَتَلَهُ وخَاتَلَهُ : أى خدعه ، والتخاثل : التخاذع .
ولا ابْتَسَمَ عليكم ؛ أى جعلته مشتبهاً ملتبساً ، ابْتَسَمَ عليهم الأمر البسه
بالكسر .

والملا : الجماعة من الناس . والصمّد : القصد .

قال : سبق شرطنا سوء رأيهما ، لأننا اشترطنا عليهما فى كتاب الحكومة مالا مضرّة
عليها ؛ مع تأمله فيما فعلاه من اتباع الهوى وترك النصيحة للمسين .

(١٢٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة :

يَا أَحَنَفُ ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ ،
وَلَا قَمَقَمَةٌ الْجَمِّ ، وَلَا حَمَمَةٌ خَيْلٍ ، يُبِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ
النَّعَامِ .

— قال الشريف الرضى أبو الحسن رحمه الله تعالى : يُومىء بِذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ
الرَّيْحِ —

ثم قال عليه السلام :

وَيْلٌ لِسِكِّكُمْ الْعَامِرَةِ ، وَالْدُّورِ الْمَزْخَرَةِ ، الَّتِي لَهَا أَجْنَحَةٌ كَأَجْنَحَةِ
النُّسُورِ ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفَيْلَةِ ؛ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ ، وَلَا يُفْقَدُ
غَايِبُهُمْ .

أَنَا كَأَبُ الدُّنْيَا لَوَجْهِهَا ، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا ، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا !

الشرح :

اللاجِب : الصوت . والدُّور المزخرفة : المزينة المموّهة بالزخرف ، وهو الذهب .
وأجْنَعَة الدور التي شبهها بأجْنَعَة النُسر : رواشيتها . والخراطيم : ميازيبها .

وقوله : « لا يندب قتيْلُهُم » : ليس يريد به مَنْ يقتلونه ، بل القتيْل منهم ؛ وذلك لأنَّ
أكثرَ الزَّنج الذين أشار إليهم ؛ كانوا عبيد الدهاقين البصرة وبناتها ، ولم يكونوا ذوى
زوجات وأولاد ، بل كانوا على هيئة الشطّار عُرّابا فلا نادبة لهم .
وقوله : « ولا يفقد غائبهم » يريد به أكثرتهم وأنهم كلما قتل منهم قتيْل سدّ مسدّه
غيره ، فلا يظهر أثر فقده .

وقوله : « أنا كاتب الدنيا لوجهها » ، مثل الكلمات الحكيمية عن عيسى عليه السلام :
أنا الذى كسبت الدنيا على وجهها ، ليس لى زوجة تموت ، ولا بيت يخرب ، وسادى الحجر
وفراشى المدر ، وسراجى القمر .

[أخبار صاحب الزّنج وفتنته وما انتحلّه من عقائد]

فأما صاحب الزّنج ^(١) هذا فإنه ظهر فى فُرّات البصرة فى سنة خمس وخمسين ومائتين
رجل زعم أنّه علىّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى
طالب عليه السلام ، فتبعه الزّنج الذين كانوا يكسّحون ^(٢) السّباخ فى البصرة .
وأكثرُ الناس يقدّحون فى نسبه وخصوصا الطالبيين .. وجمهور النّسّابين اتفقوا على

(١) ذكره صاحب الأعلام فقال : « على بن محمد الوردانيّ العلوى ، الملقب بصاحب الزّنج ؛ من كبار
أصحاب الفتن فى العهد العباسى ، وفتنته معروفة بفتنة الزّنج ؛ لأن أكثر أنصاره منهم . ولد ونشأ فى
ورزين ، إحدى قرى الرى ، وظهر فى أيام المهتدى بالله العباسى سنة ٢٥٥ هـ ، وكان يرى رأى
الأزارقة ، والتلف حوله سودان أهل البصرة ورعاها ، فامتسكها واستولى على الأبلّة ، وتناحمت لقتاله
الحيوش ؛ فكان يظهر عليها ويشتها ؛ ونزل البطائح ، وامتلك الأهواز ، وأغار على واسط ، وبلغ
عدد جيشه ثمانمائة ألف مقاتل ، وجعل مقامه فى قصر اتخذّه بالختارة ، وعجز عن قتاله الحلفاء ؛ حتى طفر
به الموفق بالله ، فقتله ، وبعث برأسه إلى بغداد . قال المرزبانى : تروى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك
كان يقولها وينجلها غيره ، وفى نسبه العلوى طعن وخلاف .
(٢) كسح البيت : كذسه ؛ ثم استعير لفنقة البئر والنهر وغيره .

أنه من عبد القيس ، وأنه عليّ بن محمد بن عبد الرحيم ، وأمه أسديّة من أسد بن خزيمه ، جدّها محمد بن حكيم الأسديّ ، من أهل الكوفة ، أحد الخارجين مع زيد بن عليّ ابن الحسين عليه السلام على هشام بن عبد الملك ، فلما قتل زيد ، هرب فليحق بالرّبيّ وجاء إلى القرية التي يقال لها ورزّنين ، فأقام بها مدّة ، وبهذه القرية ولد عليّ بن محمد صاحب الزّنج ، وبها منشؤه ، وكان أبو أبيه المسّقى عبد الرحيم رجلاً من عبد القيس ، كان مولده بالطالقان ، فقدم العراق ، واشترى جارية سنديّة ، فأولدها محمداً أباه .

وكان عليّ هذا متصلاً بجماعة من حاشية السلطان وخول بني العباس ، منهم غانم الشّطرنجيّ ، وسعيد الصغير ، وبشير^(١) ، خادم المنتصر ؛ وكان منهم معاشه ومن قوم من كتّاب الدولة يمدحهم ويستمنحهم بشعره ، ويعلم الصبيان الخطّ والنحو والنجوم ، وكان حسن الشعر^(٢) مطبوعاً عليه ؛ فصيحّ الالهجة ؛ بعيد الهمة ، تسمو نفسه إلى معالي الأمور ، ولا يجد إليها سبيلاً ؛ ومن شعره القصيدة المشهورة التي أولها :

(١) الطبري : « بشر » .

(٢) وذكره المرزباني في معجم الشعراء ٢٩ ، وقال : تروى له أشعار كثيرة في البسالة والفنك ؛ سمعت ابن دريد يذكر أنها - أو أكثرها - له ؛ لأنه كان يقولها وينجلها لغيره ، وقرئت عليه بحضوري فاعترف بها . قال : وفيما يروى لعلّ لما هرب من الدار التي كان فيها في اليوم الذي قتل فيه :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْزِلٍ خَرَجْنَا وَخَلَفْنَا غَيْرَ ذَمِيمٍ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَحَدُنْ فِرْقَةً فَنَ ذَا الَّذِي مِنْ رَبِّهِنَّ سَلِيمٍ

وله :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورٍ بِيَمِينِ د ، وَمَا قَدْ حَوَتْهُ كُلُّ عَاصٍ
وَحُورٍ هُنَاكَ تُشْرَبُ جَهْرًا وَرِجَالٍ عَلَى الْمَعَاصِي حِرَاصٍ
لَسْتُ بِابْنِ الْفَوَاطِمِ الْغُرِّ إِنْ لَمْ أَجْلِ الْخَلِيلِ حَوْلَ تِلْكَ الْعِرَاصِ

رَأَيْتُ الْمَقَامَ عَلَى الْاِقْتِصَادِ قُنُوعًا بِهِ ذَلَّةٌ فِي الْعِبَادِ
وَمِنْ جَمَلَتِهَا :

إِذَا الْفَارِ ضَاقَ بِهَا زَنْدُهَا فَفَسَحَتْهَا فِي فِرَاقِ الزَّانِ
إِذَا صَارَ قَرَّةً فِي غَمِّهِ حَوَى غَيْرُهُ السَّبْقَ يَوْمَ الْجَلَادِ
وَمِنْ الشَّعْرِ الْمَذْسُوبِ إِلَيْهِ :

وَأِنَّا لَتَصْبِحُ أَسِيفْنَا إِذَا مَا انْتَضَيْنَ لِيَوْمِ سَفُوكِ
مُتَابِرَهْنَ بَطُونُ الْأَكْفِ وَأَعْمَادُهُنَّ رُءُوسُ الْمُلُوكِ
وَمِنْ شَعْرِهِ فِي الْغَزْلِ :

وَلَمَّا تَبَيَّنَتِ الْمَنَازِلُ بِالْحَمَى وَلَمْ أَقْضِ مِنْهَا حَاجَةَ الْمُتَوَرِّدِ
زَفَرَتْ إِلَيْهَا زَفَرَةٌ لَوْ حَشَوْتُهَا سِرَابِيلُ أَبْدَانِ الْحَدِيدِ الْمَسْرُودِ^(١)
لَرَقَّتْ حَوَاشِيهَا ، وَظَلَّتْ مَتُونُهَا تَلِينَ كَمَا لَانَتْ لِدَاوُدَ فِي الْيَدِ
وَمِنْ شَعْرِهِ أَيْضًا :

وَإِذَا تَنَازَعْنِي أَقُولُ لِمَا قَرِي مَوْتُ يَرْيَحُكَ أَوْ صَعُودِ الْمُنِيرِ
مَا قَدْ قُضِيَ سَيَكُونُ فَاصْطَبِرْ لِي وَلَكَ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يَقْدِرْ

وقد ذكر السعودي في كتابه المسمى "مروج الذهب" ، أن أفعال علي بن محمد صاحب الزنج ، تدل على أنه لم يكن طالبيًا ، وتصدق ما رمى به من دعوته في النسب ؛ لأن ظاهر حاله كان ذهابه إلى مذهب الأزارقة ، في قتل النساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض ،

(١) البدن : الدرع القصيرة ؛ وجمه أبدان .

وقد روى أنه خطب مرة ، فقال في أول خطبته : « لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر لا حُكْم إلا الله » ، وكان يرى الذنوب كلها شِرْكا ^(١) .

ومن الناس من يطعن في دينه ويرميه بالزندقة والإلحاد ؛ وهذا هو الظاهر من أمره ، لأنه كان متشاغلا في بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات .

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ^(٢) ، أن علي بن محمد شَخَص من سامراء وكان يعلم الصبيان بها ، ويمدح السكتاب ، ويستميح الناس ، في سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادعى بها أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي ابن أبي طالب عليه السلام ، ودعا الناس بهجر إلى طاعته ، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ، واتبعه ^(٣) جماعة أخرى ؛ فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين أبوه عصبية ، قتل فيها بينهم جماعة ، فانتقل عنهم لما حدث ذلك إلى الأحساء ، وضوى ^(٤) إلى حتى من بني تميم ، ثم من بني سعد يقال لهم بنو الشماس ، فكان بينهم مقامه ؛ وقد كان أهل البحرين أحلوهم من أنفسهم محل النبي صلى الله عليه وآله فيما ذكر - حتى جئ له الخراج هناك ، ونفذ حُكْمهم فيهم ، وقالوا أسباب السلطان لأجله ، ووتر منهم جماعة كثيرة ، فتنكروا له ، فتحول عنهم إلى البادية . ولما انتقل إلى البادية صحبه جماعة من أهل البحرين ، منهم رجل كيمال من أهل الأحساء ، يقال له يحيى بن محمد الأزرق ، مولى بني دارم ، ويحيى بن أبي

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ١٧٤٣ وما بعدها (طبع أوروبا) .

(٣) في الطبري : « وأبته جماعة آخر » .

(٤) ضوى : النجا وانضم .

ثعلب ، وكان تاجراً من أهل هَجَرَ ، وبمض موالي بني حنظلة أسود يقال له سليمان ابن جامع ، وكان قائد جيشه حيث كان بالبحرين .

ثم تنقل في البادية من حى إلى حى ، فذكر عنه أنه كان يقول : أوتيتُ في تلك الأيام آياتٍ من آياتِ إمامتى ، منها أنى أقيمت سوراً من القرآن لم أكن أحفظها ، فجرى بها لسانى في ساعة واحدة ؛ منها «سبحان» و «الكهف» و «صاد» ، ومنها أنى أقيمتُ نفسى على فراشى ، وجعلت أفسكر في الموضع الذى أقصِدُ له ، وأجعل مُقامى به إذا نبت البادية بى . وضعتُ ذرعاً بسوء طاعة أهلها ، فأظلمتني سحابة ، فبرقت ورعدت ، واتصل صوتُ الرعد منها بسمعى ، فخطبت قفيل لى : أقصِد البصرة ؛ فقلت لأصحابى وهم يكتنفوننى : إني أمرت بصوت من هذا الرعد بالمصير إلى البصرة .

وذكر عنه أنه عند مصيره إلى البادية أوهم أهلها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين (١) المقتول بفاحية الكوفة في أيام المستعين ، فاخذع بذلك قوماً منهم ، حتى اجتمع عليه منهم جماعة ، فزحف بهم إلى موضع من البحرين ، يقال له الرّذم ، فكانت بينه وبين أهله وقعة عظيمة ، كانت الدّبرة (٢) فيها عليه وعلى أصحابه ، قتلوا فيها قتلاً ذريعاً ، فتفرقت عنه العرب وكرهته ، وتجنّبت صحبته .

فلما تفرقت العرب عنه ونبت به البادية ، شخّص عنها إلى البصرة ، فنزل بها في بني ضُبيمة ، فاتّبعه بها جماعة ، منهم على بن أبان المعروف بالمهلجى ، من ولد المهلب بن أبي صفرة ، وأخواه محمد والخليل وغيرهم ؛ وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين

(١) هو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، خرج في أيام المتوكل ، وقتل في أيام المستعين سنة ٢٥٠ ، ورثاه الشعراء . قال أبو الفرج : وما بلغنى أن أحداً ممن قتل في الدولة العباسية من آل أبى طالب رثى بأكثر مما رثى به يحيى ، ولا قيل فيه الشعر بأكثر مما قيل فيه . وانظر أخباره في مقاتل الطالبين ٦٣٩ - ٦٦٤

(٢) في الطبرى : « الدائرة » ، وما معنى .

وعاملُ السلطان بها يومئذ محمد بن رجاء، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبلاية والسعدية، فطمع في أحد الفريقين أن يميل إليه، فأرسل أربعة من أصحابه يدعون إليه؛ وهم محمد ابن سلم القصاب المجري وبريش القرابي وعلي الضراب، والحسين الصيدناني، وهم الذين كانوا صحبوه بالبحرين، فلم يستجب لهم أحد من أهل البلد، وثار عليهم الجند، فتفرقوا، وخرج علي بن محمد من البصرة هارباً، وطلبه ابن رجاء فلم يقدر عليه. وأخير ابن رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه، فأخذهم فحبسهم، وحبس معهم زوجة علي بن محمد، وابنه الأكبر، وجارية له كانت حاملاً؛ ومضى علي بن محمد لوجهه يريد بغداد ومعه قوم من خاصته؛ منهم محمد بن سلم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبريش القرابي، فلما صاروا بالبطيحة، نذر بهم بعض موالى الباهليين، كان يلي أمر البطيحة، فأخذهم وحملهم إلى محمد بن أبي عون وهو عامل السلطان بواسط، فاحتال لابن أبي عون حتى تخلص هو وأصحابه من يده؛ ثم صار إلى بغداد فأقام بها سنة، وانتسب في هذه السنة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد؛ وكان يزعم أنه ظهر له أيام مقامه ببغداد في هذه السنة آيات، وعرف مافي ضمائر أصحابه وما يفعله كل واحد منهم، وأنه سأل ربه أن يعلمه حقيقة أمور كانت في نفسه، فرأى كتابا يكتب له على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

قال أبو جعفر: واستمال ببغداد جماعة، منهم جعفر بن محمد الصوحاني، من ولد زيد ابن صوحان العبدي، ومحمد بن القاسم، وغلان ابن خاقان^(١)؛ وهما مشرق ورفيق، فسمي مشرقاً حمزة وكناه أبا أحمد، وسمي رفيقاً جعفرًا وكناه أبا الفضل؛ فلما انقضى عامه ذلك ببغداد، عزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثبت رؤساء الفتنة بها من البلاية والسعدية،

(١) الطبري: « وغلان يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان ».

ففتحوا المحابس، وأطلقوا مَنْ كان فيها، فتخلص أهله ووالده فيمن تخلص، فلما بلغ ذلك شخص عن بغداد، فكان رجوعه إلى البصرة في شهر رمضان من سنة خمس وخمسين ومائتين؛ ومعه علي بن أبان الهلبي، وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام مشرق ورفيق، وأربعة آخر من خواصه؛ وهم يحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع، وأبو يعقوب المعروف بجرّبان؛ فساروا جميعاً حتى نزلوا بالموضع المعروف بـ«نخل» من أرض البصرة في قصر هناك يعرف بقصر القرشيّ على نهر يعرف بعمود ابن المنجم؛ كان بنو موسى بن المنجم احتفروه، وأظهر أنه وكيل لولد الوائق في بيع ما يملكونه هناك من السّباخ.

قال أبو جعفر: فذكر عن ریحان بن صالح، أحد غلمان الشّورجيين الزّنوج، وهو أوّل مَنْ صاحبه منهم، قال: كنت موكّلاً بـ«غلمان مولاي»، أنقل الدقيق إليهم، فررت به وهو مقيم بقصر القرشيّ يظهر الوَ كالة لأولاد الوائق، فأخذني أصحابه وصاروا بي إليه، وأمروني بالقسليم عليه بالإمرة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئت منه، فأخبرته أني أقبلت من البصرة، فقال: هل سمعت لنا بالبصرة خبراً؟ قلت: لا، قال: فخير اليلالية والسّعدية؟ قلت: لم أسمع لهم خبراً، فسألني عن غلمان الشّورجيين وما يجري لكلّ جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعن يعمل في الشّورج من الأحرار والمبيد؛ فأعلمته ذلك، فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبته فقال لي: احتلّ فيمن قدرت عليه من الغلمان، فأقبل بهم إلىّ. ووعدني أن يودّني على من آتبه به منهم، وأن يحسن إليّ، واستحلفني ألا أعلم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. فخلّ سبيل، فأتيت بالدقيق الذي معي إلى غلمان مولاي، وأخبرتهم خبره، وأخذت له البيعة عليهم، ووعدهم عنه بالإحسان والغنى، ورجعت إليه من غد ذلك اليوم، وقد وافاه رفيق غلام الخاقانية^(١)

(١) في الطبري: « غلام يحيى بن عبد الرحمن » .

وقد كان وجهه إلى البصرة^(١) ، يدعو إليه غلمان الشُّورج ، ووافى إليه صاحب له آخر يعرف بشبل بن سالم^(٢) ، قد كان دعا إليه قوماً منهم أيضاً^(٣) ، وأحضر معه حربة كان أسره بابتياعها ، ليتخذها إواء ، فكتب فيها بالحرمة^(٤) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . ﴾^(٥) الآية ، وكتب اسمه واسم أبيه عليها ، وعلقها في رأس مُرْدِي^(٦) ، وخرج وقت السحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان ؛ فلما صار إلى مؤخر القصر الذي كان فيه ، لقيه غلمان رجل من الشورجيين ، يعرف بالمطار [متوجهين إلى أعمالهم]^(٧) ، فأمر بأخذ وكيلهم ، فأخذ وكتب ، واستضم غلمانه إلى غلمانه ، وكانوا خمسين غلاماً ، ثم صار إلى الموضع المعروف بالسفائي فاتبه الغلمان الذين كانوا فيه ، وهم خمسمائة غلام فيهم الغلام المعروف بأبي حديد ، وأمر بأخذ وكيلهم ، وكتبه ثم مضى إلى الموضع المعروف بالسيراقي ، فاتبه من كان فيه من غلمان ، وهم مائة وخمسون غلاماً ، منهم زريق وأبو الخنجر ، ثم صار إلى الموضع المعروف بسبخة ابن عطاء ، فأخذ طريقاً ، وصبيحاً الأعسر ، وراشد المغربي ، وراشدا القرمطي^(٨) ؛ وكل هؤلاء من وجوه الزنج وأعيانهم الذين صاروا قواداً وأمرأاً في جيوشهم ، وأخذ معهم ثمانين غلاماً .

ثم أتى إلى الموضع المعروف بفلام سهل الطحّان ، فاستضاف من كان به من الغلمان ؛ ثم لم يزل يفعل مثل ذلك في يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من الزنج ، ثم قام فيهم

(١) الطبري : « في حواشي من حواشيه » .

(٢ - ٣) الطبري : « وكان من غلمان الدباسين » .

(٣) الطبري : « بحمرة وخضرة » . (٤) سورة التوبة ١١١ .

(٥) المردى : خشبة تدفع بها السفينة .

(٦) من الطبري .

(٧) الطبري . « القرماطي » .

آخرَ الليل خطيباً ، فتأهّم ووعدهم أن يقوّدهم ويرتّسهم ويمتلكهم الأموال والضياع ، وحلف لهم بالأيمان الغايضة ألا يفدرّ بهم ، ولا يخذلهم ، ولا يدعّ شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم .

ثم دعا وكلاءهم ، فقال : قد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وكلفتموهم مالا يطيقونه ، فكلمني أصحابي فيكم ، فرأيت إطلاقكم .

فقالوا له : أصلحك الله ! إن هؤلاء الغلمان أبقا^(١) ، وإنهم سيهربون منك فلا يُبقون عليك ولا علينا ، نخذ من مواليتهم مالا ، وأطلقهم .

فأمر الغلمان فأحضروا شطوبا^(٢) ، ثم بطح كل قوم وكيّلتهم ، فضرَب كل رجلٍ منهم خمسمائة شطبة ، [وأحلفهم بإطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه] ^(٣) ، ثم أطلقهم ، ففوضوا نحو البصرة ومضى رجل منهم حتى عبّر دُجَيْل الأهواز ، فأنذر الشُّورجيين ليحفظوا غلمانهم ، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام زنجي^(٤) ، ثم سار ، وعبّر دُجَيْلا ، وسار إلى نهر ميمون بأصحابه ، واجتمع إليه السودان من كل جهة .

فلما كان يوم الفطر ، جمعهم وخطب خطبة ذكّر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأنّ الله تعالى قد استنقذهم من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ، ويمتلكهم المبيد والأموال والمنازل ، ويبلغ بهم أعلى الأمور ، ثم حلف لهم على ذلك . فلما فرغ من خطبته

(١) أبقا : هاربون .

(٢) الشطوب : جريد النخل المجفف .

(٣) من الطبرى .

(٤) في الطبرى : « يقال له عبد الله ، ويعرف بكريخا » .

أمرَ الَّذِينَ فهموا عنه قوله أن يُفهموه مَنْ لَا فهمَ له من عجمهم ، لتطيبَ بذلك أنفسهم ، ففعلوا ذلك .

قال أبو جعفر : فلما كان في اليوم الثالث من شوال ، وافاه الحميري أحد عمال السلطان بتلك النواحي ، في عدد كثير ، فخرج إليه صاحب الزنج في أصحابه ، فطرده وهزم أصحابه ، حتى صاروا في بطن دجلة ، واستأمن إلى صاحب الزنج رجل من رؤساء السودان ، يعرف بأبي صالح القصير في ثلاثمائة من الزنج ، فلما كثر من اجتمع إليه من الزنج قود قواده ، وقال لهم : مَنْ أتى منكم برجلٍ من السودان فهو مضموم إليه .

قال أبو جعفر : وانتهى إليه أن قومًا من أعوان السلطان هناك ، منهم خليفة بن أبي عون على الأبلّة ، ومنهم الحميري قد أقبلوا نحوه ، فأمر أصحابه بالاستعداد لهم ، فاجتمعوا للحرب ، وليس في عسكره يومئذ إلا ثلاثة أسياف : سيفه ، وسيف علي بن أبان ، وسيف محمد بن سلم ، ولحقه القوم ، ونادى الزنج ، فبدر مُفرّج النوبيّ والمسكنيّ بأبي صالح ، وربحان ابن صالح ، وفتح الحجام ؛ وقد كان فتح حينئذ يأكل وبين يديه طبق ، فلما نهض تناول ذلك الطبق ، وتقدم أمام أصحابه ، فلقى رجل من عسكر أصحاب السلطان ، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي كان في يده ، فرمى الرجل ^(١) سلاحه ، وولّى هارباً ، وانهمز القوم كلهم ، وكانوا أربعة آلاف ، فذهبوا على وجوههم ، وقُتل مَنْ قتل منهم ، ومات بعضهم عطشا ، وأسير كثير منهم ، فأتى بهم صاحب الزنج ، فأمر بضرب أعناقهم ، فضربت ، وحملت الرؤوس على بغال كانت أخذها من الشورجيين ، كانت تنقل الشورج .

(١) الطبري : « فرمى بلبل » .

قال أبو جعفر: ومروا في طريقه بالقرية المعروفة بالحمدية^(١) فخرج منها رجل من موالى الهاشميين ، فحمل على بعض السودان فقتله ، ودخل القرية ، فقال له أصحابه : ائذن لنا في انتهاب القرية وطالب قاتل صاحبنا ، فقال : لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند أهلها^(٢) ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسائلهم أن يدفعوه إلينا ، فإن فعلوا وإلا حل^(٣) لنا قتالهم ، ومجّل المسير من القرية ، فتركها وسار^(٤) .

قال أبو جعفر : ثم مروا على القرية المعروفة بالسرخ ، فأتاه كبارؤها ، وأقاموا له الأنزال^(٥) ، وبات ليلته تلك عندهم ، فلما أصبح أهدى له رجل من أهل القرية المسماة جبي فرسا كميّتا ، فلم يجد سرجا ولا لجاما ، فركبه بحبل وسنفه^(٦) بحبل ليف .

قلت : هذا تصديق قول أمير المؤمنين عليه السلام: « كأنه به قد سار في الجيش الذي ليس له غبار ولا لب ، ولا قعقة لجم ، ولا حممة خيل ، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام » .

قال أبو جعفر : وأول مال صار إليه مائتا دينار وألف درهم ، لما نزل القرية المعروفة بالجمفرية ، أحضر بعض رؤسائها ، وسأله عن المال فجحد ، وأمر بضرب عنقه ، فلما خاف

(١) الطبري : « ومضى حتى ولى القادسية » .

(٢) الطبري : « القوم » .

(٣) الطبري : « وإلا ساغ » .

(٤) الطبري : « وأجملهم عن المسير ، فصاروا إلى نهر ميمون راجعين ، فأقام في المسجد الذي كان أقام فيه . في بدايته ، وأمر بالرهوس المحمولة معه ، وأمر بالأدان أبا صالح النوبى فأذن وسلم عليه بالإمرة ، فأقام فصل بأصحابه العشاء الآخرة ، وبات ليلته بها ، ثم مضى من الفد حتى مر بالسرخ . . . » .

(٥) الأنزال : جمع نزل ، وهو ما هيء للضيف أن ينزل عليه .

(٦) سنفه : شده بالسنان ؛ وهو حبل يشد على رقبة البعير .

أَحْضَرَ لَهُ هَذَا الْفَدْرَ ، وَأَحْضَرَ لَهُ ثَلَاثَةَ بَرَاذِينَ : كَمِيَّتًا وَأَشْقَرَ وَأَشْمَبَ ، فَدَفَعَ أَحَدَهَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَ ، وَالْآخَرَ إِلَى يُحْيَى بْنِ مُحَمَّدَ ، وَالْآخَرَ إِلَى مُشْرِقِ غَلَامِ الْخَقَانِيَّةِ . وَوَجَدُوا فِي دَارٍ لِبَعْضِ الْهَاشِمِيِّينَ سِلَاحًا فَاتَّبَعُوهُ ، فَصَارَ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِأَيْدِي بَعْضِ الزَّنَجِ سِيُوفَ وَآلَاتٍ وَأَتْرَاسَ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : ثُمَّ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَلِيهِ مِنْ أَعْوَانِ السُّلْطَانِ ، كَالْحِجْرِيِّ ، وَرُؤُوسِ وَعَقِيلٍ وَغَيْرِهِمْ وَقَعَاتٌ ، كَانَ الظُّفَرُ فِيهَا كُلِّهَا لَهُ ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِقَتْلِ الْأَسْرَى ، وَيَجْمَعُ الرُّؤُوسَ مَعَهُ ، وَيَنْقُلُهَا مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ ، وَيَنْصَبُهَا أَمَامَهُ إِذَا نَزَلَ ، وَأَوْقَعَ الْهَيْبَةَ وَالرَّهْبَةَ فِي صُدُورِ النَّاسِ بِكَثْرَةِ الْقَتْلِ ، وَقِلَّةِ الْعَفْوِ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ الْمَأْسُورِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ وَلَا يَسْتَبْقِي مِنْهُمْ أَحَدًا .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : ثُمَّ كَانَ لَهُ مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقْعَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ سَارَ يَرِيدُهَا فِي سِتَّةِ آلَافٍ زَنْجِيٍّ ، فَاتَّبَعَهُ أَهْلُ النَّاحِيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْجَعْفَرِيَّةِ لِيُحَارِبُوهُ ، فَعَسَكَرَ عَلَيْهِمْ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِائَةِ رَجُلٍ ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُمْ صَمَدٌ نَحْوَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا وَمَنْ بَهَا مِنَ الْجُنْدِ ، وَحَارِبُوهُ حَرْبًا شَدِيدًا ، فَكَانَتْ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِ ، وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ ، وَوَقَعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي النَّهْرَيْنِ الْمَعْرُوفَيْنِ بِنَهْرِ كَثِيرٍ وَنَهْرِ شَيْطَانٍ ، وَجَمَلَ يَهْتَفُّ بِهِمْ وَيُرْدِّمُ وَلَا يَرْجِعُونَ ، وَغَرِقَ مِنْ أَعْيَانِ جُنْدِهِ وَقَوَّادِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو الْجَوْنِ ، وَمُبَارَكُ الْبَحْرَانِيِّ ، وَعَطَاءُ الْبَرْبَرِيِّ ، وَسَلَامُ الشَّامِيِّ ، فَلَحَقَهُ قَوْمٌ مِنْ جُنْدِ الْبَصْرَةِ ، وَهُوَ عَلَى قَنْطَرَةِ نَهْرٍ كَثِيرٍ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ، وَسَيْفُهُ فِي يَدِهِ ، فَارْجَعُوا عَنْهُ ؛ حَتَّى صَارُوا إِلَى الْأَرْضِ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ فِي دُرَاعَةٍ^(١) وَعِمَامَةٍ وَنَعْلٍ وَسَيْفٍ ، وَفِي يَدِهِ الْيَسْرَى تَرَسٌ ، وَنَزَلَ عَنِ الْقَنْطَرَةِ ، فَصَعِدَهَا الْبَصْرِيُّونَ يَطْلُبُونَهُ ، فَارْجَعَ إِلَيْهِمْ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ رَجُلًا بِيَدِهِ عَلَى خَمْسِ مَرَاقٍ مِنَ الْقَنْطَرَةِ ، وَجَمَلَ يَهْتَفُّ بِأَصْحَابِهِ ، وَيَعْرِفُهُمْ مَكَانَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ مِنْ أَصْحَابِهِ

(١) الدَّرَاعَةُ : جَبَّةٌ مَشْقُوقَةٌ مِنَ الْمَقْدَمِ ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ .

إلا أبو الشوك ومصالح ورفيق ومشرق غلاما الخاقانية ، وضل أصحابه عنه ، وانحلت عمامته ، فبقى على رأسه كور^(١) منها أو كوران ، فعمل بسحبها من ورائه ، ويمجله للشئ عن رفعها ، وأسرع غلاما الخاقانية في الانصراف ، وقصر عنهما فغابا عنه ، فاتبعه رجلان من أهل البصرة بسيفيهما ، فرجع إليهما ، فأنصرفا عنه ، وخرج إلى الموضع الذي فيه جمع أصحابه ، وقد كانوا يتخيروا ، فلما رأوه سكنوا .

قال أبو جعفر : ثم سأل عن رجاله وإذا قد هرب كثير منهم ، ونظر فإذا هو من جميع أصحابه في مقدار خمسمائة رجل ، فأمر بالفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته ، فنفخ فيه فلم يرجع إليه أحد .

قال : وانهب أهل البصرة سفنا كانت معه ، وظفروا بمقاع من متاعه ، وكتب من كتبه واصطرا لابات كان معه ، ثم تلاحق به جماعة ممن كان هرب ، فأصبح وإذا معه ألف رجل . فأرسل محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد إلى أهل البصرة يعظمهم ويملمهم أنه لم يخرج إلّا غضبا لله وللدّين ، ونهيا عن المنكر ، فعبر محمد بن سلم حتى توسط أهل البصرة ، وجعل يكلمهم ويخاطبهم ، فرأوا منه غيرة ، فوثبوا عليه فقتلوه ، ورجع سليمان ويحيى إلى صاحب الزّنج ، فأخبراه ، فأمرهما بطي ذلك عن أصحابه ؛ حتى يكون هو الذي يخبرهم .

فلما صلى بهم العصر ، نعى إليهم محمد بن سلم ، وقال لهم : إنكم تقتلون به في غد عشرة آلاف من أهل البصرة .

قال أبو جعفر : وكان الواقعة التي كانت الدّبرة عاياه فيها يوم الأحد لثلاث عشرة

(١) كور العمامة : يريد كل دائرة من العمامة ، وكل دور منها كور . (اللسان) .

ليلة خلون من ذى القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلما كان يوم الاثنين جمع له أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه يوم الأحد ، وانتدب لذلك رجل من أهل البصرة يعرف بمحمّد الساجي ، وكان من غزاة البحر في الشّذا^(١) ، وله علم بركوبها ، والحرب فيها ، فجمع المطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خفّ معه من حزبي البلاية والسعدية ، ومن غير هذه الأصناف من الهاشميين والقرشيين ومن يحبّ النظر ومشاهدة الحرب من سائر أصناف الناس ، وشحن ثلاثة مراكب من الشّذا^(١) بالرماة ، وجعل الناس يزدحمون في الشّذا حرصاً على حضور ذلك المشهد ، ومضى جمهور الناس رجالة ، منهم من معه سلاح ومنهم من لا سلاح معه بل نظّارة ، فدخلت السفن النهر المعروف بأتم حبيب بعد زوال الشمس من ذلك اليوم في المدّ ، ومرّت الرجالة والنظّارة على شاطئ النهر ، قد سدّوا ما ينفذ فيه البصر كثرةً وتكاثفاً ، فوجّه صاحب الزنج صاحبه زريقاً وأبا الليث الأصهباني ، فجعلهم كميناً من الجانب الشرقي من نهر شيطان ، وكان مقبلاً بموضع منه ، ووجّه صاحبيه شبلاً وحسيناً الجمحي ، فجعلهما كميناً في غربيّه ، ومع كلّ من الكمينين جماعة ، وأمر عليّ بن أبان المهلب أن يتلقّى القوم فيمنّ بقي معه من جمعه ، وأمره أن يستترّ هو وأصحابه بتراسهم ، ولا يثور إليهم منه ناثر ، حتى يوافيهم القوم ويخالطهم بأسياهم ، فإذا فعلوا ذلك ثاروا إليهم وتقدّم إلى الكمينين إذا جاوزها الجمع ، وأحسّ بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجوا من جنبي النهر ، ويصيحا بالناس .

وكان يقول لأصحابه بعد ذلك : لما أقبل إلى جمع البصرة وعابنته ، رأيت أسرا هائلاً راعى ، وملاً صدرى رهبةً وجزعاً ، ففرغت إلى الداء ، وليس معي من أصحابي إلا نفر يسير ، منهم مصلح ، وليس منّا أحد إلا وقد خيل إليه مصرعه ، فجعل مصلح يعجّيني من

(١) الشّذا : ضرب من السفن ، الواحدة شذاة ، قال صاحب التهذيب : هذا معروف ، لكنه ليس بعربي (اللسان) .

كثرة ذلك الجمع ، وجمعت أومى إليه أن اسكت ^(١) ، فلما قرب القوم منى قلت : اللهم إن هذه ساعة العُسرة ، فأعنى ، فرأيت طيوراً بيضا أقبلت فتلقت ذلك الجمع ، فلم أستتم دعائى حتى بصرت بسُـمَيْرِيَّة ^(٢) من سفنهم قد انقلبت بمن فيها ، ففرقوا ، ثم تلتها ، الشذا ففرقت واحدة بعد واحدة ، وثار أصحابى إلى القوم ، وخرج السكيمان من جنبي النهر ، وصاحوا وخبطوا الناس ، ففرقت طائفة ، وقتلت طائفة ، وهربت طائفة نحو الشط طمعا ، فأدركها السيف ، فن ثبت قتل ، ومن رجع إلى الماء غرق ؛ حتى أريد أكثر ذلك الجمع ، ولم ينج منهم إلا الشريد ، وكثر المفقودون بالبصرة ، وعلا العويل من نساءهم .

قال أبو جعفر : وهذا يوم الشذا الذى ذكره الناس فى أشعارهم ، وعظموا مافيه من القتل ، فكان بمن قتل من بنى هاشم ، جماعة من ولد جعفر بن سليمان ^(٣) وانصرف صاحب الزنج ^(٤) وجمع الرؤوس وملأ بها سفنا ، وأخرجها من النهر المعروف بأمر حبيب فى الجزر وأطلقها ، فوافت البصرة ، فوقفت فى مشرعة تعرف بمشرعة القيّار ، فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس ، فيأخذ رأس كل رجل أو لياؤه ، وقوى صاحب الزنج بعد هذا اليوم ، وسكن الرعب قلوب أهل البصرة منه ؛ وأمسكوا عن حربه ، وكتب إلى السلطان يخبره ، فوجه جملان التركى مددا لأهل البصرة ، فى جيش ذوى عدّة وأسلحة ^(٥) .

(١) الطبرى : « أن يمك » .

(٢) السميّية على التصغير : ضرب من السفن (اللسان) .

(٣) بعدها فى الطبرى : « وأربعون رجلا من الرماة المشهورين فى خلق كثير لا يحصى عددهم » .

(٤) فى الطبرى : « وانصرف الحبيث وجمعت له الرؤوس » .

(٥) فى الطبرى : « وأمر أبا الأحوس الباهلى بالمصير إلى الأبلّة والبا ، وأمدّه برجل من الأتراك يقال له جريج » .

قال أبو جعفر : وقال أصحاب علي بن محمد له ^(١) : إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة ، ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم ، ومن لا حراك به ، فأذن لنا في نقتلهم ، فنهام ^(٢) وهجن آراءهم وقال : بل نبعد عنها ، فقد رعبناهم وأخفناهم ، ولنفقتهم وقتنا آخر ، وانصرف بأصحابه إلى سبخة في آخر أنهار البصرة ، تعرف بسبخة ^(٣) أبي قرة ، قريبة من النهر المعروف بالحاجر فأقام هناك ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ ، وهذه السبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات ، وبث أصحابه يمينا وشمالا ، يعيشون ويغيرون على القرى ، ويمتلون الأكره ، وينهبون أموالهم ، ويسرقون مواشيهم ^(٤) .

وجاء شخص من أهل الكتاب من اليهود ، يعرف بمارويه ، فقبل يده وسجد له ، وسأله عن مسائل كثيرة ، فأجابه عنها ، فزعم اليهودي أنه يجد صفة في التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله عن علامات في يده وجسده ذكر أنها مذكورة في الكتب ؛ فأقام معه .

قال أبو جعفر : ولما صار جعلان التركي إلى البصرة بعسكره ، أقام ستة أشهر يحارب صاحب الزنج ، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والنشاب ، ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلا ، لضيق الموضع بما فيه من النخل والدغل ^(٥) عن مجال الخيل ،

(١) في الطبري : « فزعم الخبيث أن أصحابه قالوا له بعقب هذه الوقعة : إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة . . . » .

(٢) في الطبري : « فزبرهم » .

(٣) في الطبري عن شبيل : « هي سبخة أبي قرة ، موقعها بين النهرين : نهر أبي قرة ، والنهر المعروف بالحاجر » .

(٤) في الطبري : فهذا ما كان من خبره وخبر الناس الذين قربوا من موضعه في هذه البيئة ، أي سنة أربع وخمسين ومائتين .

(٥) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير للنف . وكل موضع يخاف فيه الاغتيال .

ولأنَّ صاحبَ الزنج قد كان خندق نفسه على وأصحابه .

ثم إنَّ صاحبَ الزنج بيَّت جعلان ، فقتل جماعة من أصحابه ، ورُوِّع الباكون رَوْعا شديدا ، فنصرف جعلان إلى البصرة ووجه إليه مقاومة السَّعدية والبلالية في جمع كثيف ، فواقمهم صاحب الزنج ، فقهرهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانصرفوا مغلولين ، ورجع جعلان بأصحابه إلى البصرة ، فأقام بها معتصما بجدرانها ، وظهر عجزه للسُّلطان فصرفه عن حرب الزنج ، وأمر سعيد الحاجب بالشُّخوص إلى البصرة لحربهم .

قال أبو جعفر : واتفق لصاحب الزنج من السعادة أن أربعة وعشرين مراكبا من مراكب البحر كانت اجتمعت تريد البصرة ، وانتهى إلى أصحابها خبرُ الزنج وقطعهم السبل ، وفيها أموال عظيمة للتجار ، فاجتمعت آراؤهم على أن شدوا المراكب بعضها إلى بعض ؛ حتى صارت كالجزيرة ، يتصل أولها بآخرها ، وسارت في دَجَلَة ، فكان صاحب الزنج يقول : نهضت ليلة إلى الصلاة وأخذت في الدعاء والتضرع ، نفوطبت بأن قيل لي : قد أظلك فتح عظيم ، فالتفت فلم ألبث أن طلعت المراكبُ ، فنهض أصحابي إليها في شداتها فلم يلبثوا أن حوَّوها وقتلوا مقاتلتها ، وسبوا ما فيها من الرقيق ، وغنموا منها أموالا لا تحصى ؛ ولا يعرف قدرها فأسهبتُ ذلك أصحابي ثلاثة أيام وأمرت بما بقي منها فحيزَ لي .

قال أبو جعفر : ثم دخل الزنج الأبلَة في شهر رجب من سنة ست وخسين ومائتين ، وذلك أن جعلان لما تدخى إلى البصرة ، ألحَّ صاحبُ الزنج بالسرايا على أهل الأبلَة ، فجعل يحاربهم من ناحية شَطَّ عُمان بالرجالة ، وبما خَفَّ له من السفن من ناحية دَجَلَة ، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقل .

فذكر عن صاحب الزنج أنه قال : ميّلت^(١) بين عبّادان والأبلة ، فمِلْتُ إلى التوجّه إلى عبّادان فندبت الرجال إلى ذلك ، فخطوبتُ وقيل لى : إنّ أقرب عدوّ داراً ، وأولاه ألا يتشاغل عنه بغيره أهل الأبلة ، فرددت بالجيش الذى كنت سيرته نحو عبّادان إلى الأبلة ، ولم يزالوا يحاربون^(٢) أهلها إلى أن اقتحموها وأضرموها نارا ، وكانت مبنية بالساج بناء متكائفاً ، فأسرعت فيها النار ، ونشأت ريح عاصف ، فأطارت شرر ذلك الحريق إلى أن انتهى إلى شطّ عمان ، وقتل بالأبلة خلق كثير ، وحُويت الأسلاب والأموال ، على أن لذى أحرق منها كان أكثر مما انتهب ، واستسلم أهل عبّادان بعدها لصاحب الزنج ، فإن قلوبهم ضعفت ، وخافوه على أنفسهم وحُرْمهم ، فأعطوا بأيديهم ، وسلموا إليه بلدهم ، فدخلها أصحابه ، فأخذوا من كان فيها من العبيد ، وحملوا ما كان فيها من السلاح ، وفترقه على أصحابه ، وصانعه أهلها بمال كف به عنهم .

قال أبو جعفر : ثم دخل الزنج بعد عبّادان إلى الأهواز ولم يثبت لهم أهلها ، فأحرقوا ما فيها ، وقتلوا ونهبوا ، وأخربوا ، فسكان بالأهواز إبراهيم بن محمد المدبر الكاتب ، وإليه خراجها^(٣) وضياعا ، فأسروه بعد أن ضربوه ضربة على وجهه ، وحوّوا كل ما كان يملكه من مال وأثاث ورقيق وكراع ، واشتدّ خوف أهل البصرة ، وانتقل كثير من أهلها عنها ، وتفرّقوا في بلاد شتى ، وكثرت الأراجيف من عوامها .

(١) في الأصول : « مثلت » ، وما أثبتته من الطبرى .
(٢) الطبرى : « فلم يزالوا يحاربون أهل الأبلة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب سنة ٢٥٦ ، فلما كان في هذه الليلة اقتحمها الزنج مما إلى دجلة ونهر الأبلة ، فقتل بها أبو الأحوس وابنه وأضرمت نارا ، وكانت مبنية بالساج » .
(٣) الطبرى : « ولاية الخراج والضياع » .

قال أبو جعفر : فلما دخلت سنة سبع وخمسين أنفذ السلطان بُغْراج التركي على حرب البصرة وسعيد بن صالح الحاجب للقاء صاحب الزنج ، وأمر بُغْراج بإمداده بالرجال ، فلما صار سعيد إلى نهر معقل ، وجد هناك جيشا لصاحب الزنج في النهر المعروف بالمرُغاب ، فأوقع بهم سعيد فهُزِمَهم ، واستنقذ ما في أيديهم من النساء والنهب ، وأصاب سعيدا في تلك الوقعة جراحات ؛ منها جراحة في فيه .

ثم بلغه أن جيشا لصاحب الزنج في الموضع المعروف بالفرات ، فتوجّه إليه فهُزِمَ ، واستأنم إليه بعض قواد صاحب الزنج ؛ حتى لقد كانت المرأة من سكّان ذلك الموضع تجد الزنجيَّ مستتراً بتلك الأدغال فتقبض عليه ؛ حتى تأتى به عسكر سعيد ، ما به عنها امتناع . ثم قصد سعيد حرب صاحب الزنج ، فعبر إليه إلى غربى دجلة ، فأوقع به وقعاتٍ متتالية ، كلّها يكونُ الظفر فيها لسعيد ، إلى أن تهيأ لصاحب الزنج عليه أن وجهه إلى يحيى ابن محمد البحرانيّ صاحبه ؛ وهو إذ ذاك مقيم بنهر معقل ، في جيش من الزنج ، فأمره بتوجيه ألف رجل من أصحابه ، عليهم سليمان بن جامع وأبو الليث القائدان ، ويأمرهما بقصد عسكر سعيد ليلاً ؛ حتى يوقعا به وقت طلوع الفجر ، من ليلة عيّنها لهم ، ففعلاً ذلك ، وصارا إلى عسكر سعيد في ذلك الوقت ، فصادفاهم غيرةٌ وغفلةٌ ، فأوقعا به وبأصحابه ، وقت طلوع الفجر ؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأصبح سعيد وقد ضعف أمره ، واتصل بالسلطان خبره ، فأمره بالانصراف إلى باب السلطان ، وتسليم الجيش الذي معه إلى منصور ابن جعفر الخياط ، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز وكوتب بحرب صاحب الزنج ، وأن يصمد له ، فكانت بينهم وقعة كان الظفر فيها للزنج ، فقتل من أصحاب منصور خلق كثير عظيم ، وحمل من الرؤس خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن محمد البحرانيّ القائد ، فنصبت على نهر معقل .

قال أبو جعفر : ثم كانت بين الزنج وبين أصحاب السلطان بالأهواز وقعت كثيرة ،
تولاهما على بن أبان المهلبى ، فقتل شاهين بن بسطام ، وكان من أكابر أصحاب السلطان ،
وهزم إبراهيم بن سينا ، وكان أيضا من الأمراء المشهورين ، واستولى الزنج على عسكره .

قال أبو جعفر : ثم كانت الواقعة العظمى بالبصرة في هذه السنة ، وذلك أن صاحب
الزنج قطع الميرة عنهم ، فأضرّ ذلك بهم ، وألحّ بجيوشه وزوجه عليهم بالحرب صباحا
ومساء ، فلما كان في شوال من هذه السنة ، أزمع على جمع أصحابه للهجوم على البصرة ، والجدّة
في خراجها ؛ وذلك لعلهم يضعف أهلها وتفرّقهم ، وإضرار الحصار بهم ، وخراب ما حولها
من القرى .. وكان قد نظر في حساب النجوم ، ووقف على انكساف القمر ، الليلة الرابعة
عشرة من هذا الشهر ، فذكر محمد بن الحسن بن سهل أنه قال : سمعته يقول : اجتهدت
في الداء على أهل البصرة ، وابتليت إلى الله تعالى في تمجيل خرابها ، فخطبت وقيل لي :
لما البصرة خبزة [لك] ^(١) تأكلها من جوانبها ، فإذا انكسر نصف الرغيف خرّبت
البصرة . فأولت انكسار نصف الرغيف بانكساف نصف القمر المتوقع في هذه الايام ،
وما أخلق أمر أهل البصرة أن يكون بعده !

قال : فكان يحدث بهذا حتى أفاض فيه أصابه ، وكثر تردّده في أسماعهم وإجالتهم
إياه بينهم .

ثم ندب محمد بن يزيد الدارمى - وهو أحد من كان صحبته بالبحرين للخروج إلى

(١) من الطبرى .

الأعراب واستنفار مَنْ قَدَّرَ عليه منهم - فأتاه منهم بخلق كثير ، ووجه إلى البصرة سليمان بن موسى الشعراني ، فأمره بتطرق البصرة ، والإيقاع بأهلها ، وتقدم إلى سليمان [بن موسى] ^(١) بتمرين ^(٢) الأعراب على ذلك . فلما وقع الكسوف ، أنهرض إليها على بن أبان ، وضم إليه جيشاً من الزنج وطائفة من الأعراب ، وأمره بإتيان البصرة مما يلي بني سعد ، وكتب إلى يحيى بن محمد البحراني في إتيانها مما يلي نهر عدى ، وضم باقي الأعراب إليه ؛ فكان أول مَنْ واقع أهل البصرة على بن أبان وبغراج التركي يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند ، فأقام يقاناهم يومين ، وأقبل يحيى بن محمد مما يلي قصر أنس ، قاصداً نحو الجسر ، فدخل على بن أبان البلد وقت صلاة الجمعة ، اثلاث عشرة بقين من شوال . فأقبل يقتل الناس ، ويحرق المنازل والأسواق بالفار ، فتلقاه بغراج وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان الهاشمي ، المعروف ببُريه وكان وجيهاً مقدماً مطاعاً - في جمع عظيم ، فرداه ، فرجع فأقام ليلته تلك ^(٣) . ثم غاداهم وقد تفرق جند البصرة فلم يكن في وجه أحد يدفعه ، وانحاز بغراج بمن معه ، وهرب إبراهيم بن محمد الهاشمي المعروف ببُريه ، فوضع على بن أبان السيف في الداس ، وجاء إليه إبراهيم بن محمد المهلبى - وهو ابن عمه - فاستأمنه لأهل البصرة ، فحضر أهل البصرة قاطبة ، فأمنهم ، ونادى مناديه : مَنْ أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم بن محمد المهلبى . فحضر أهل البصرة قاطبة ، حتى ملئوا الأزقة . فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة ، فأمر بأخذ السكك والطرق عليهم ، وعَدَّر بهم ، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم ، فقتل كل مَنْ شهد ذلك المشهد .

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « في تمرين » .

(٣) الطبرى : « يومه ذلك » .

ثم انصرف آخرَ نهار يومه ذلك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخريبة .

وروى أبو جعفر ، قال : حدثني محمد بن الحسن بن سهل ، قال : حدثني محمد بن سيمان ، قال : كنت يومئذ بالبصرة ، فضيت مبادراً إلى منزلي لأتخصّن به ، وهو في سكة الميربد ، فلقيتُ أهلَ البصرة هاربين ، يدعون بالويل والثبور ، وفي آخرهم القاسم بن جعفر ابن سليمان الهاشمي على بغل ، متقلداً سيفاً ، يضجح بالناس : ويحكم ! أسلّون ! بلدكم وحرّمكم ! هذا عدوّكم قد دخل البلد . فلم يلوّوا عليه ، ولم يسمعوا منه ، ففضى هارباً ، ودخلت أنا منزلي ، وأغلقت بابي ، وأُثِّرتُ فمرّى الأعراب ورجالة الزنج ، يقدمهم رجل على حصان كُميت ، بيده رمح ، وعاليه عذّبة صفراء ، فسألت بعد ذلك عنه فقيل لي : إنّه على بن أبان .

قال : ونادى منادى على بن أبان : مَنْ كان من آل المهلب فلْيَدْخُلْ دارَ إبراهيم ابن يحيى المهلبيّ ، فدخلت جماعة قليلة ، وأغلق الباب دونهم ، ثم قيل الزنج : دونكم الناس فانتلّوهم ، ولا تَبْقُوا منهم أحداً ، وخرج إليهم أبو الياث الأصفهاني ، أحدقوا الزنج ، فقال الزنج : كيّلوا ؛ وهى العلامة التي كانوا يعرفونها فيمن يؤمرون بقتله ، فأخذ الناس السيف ، قال : فوالله إنّى لأسمع أشهدهم وضجيجهم وهم يقتلون ، وقد ارتفعت أصواتهم بالشهد ، حتى سُمِعَتْ بالطفاوة ، وهو على بعدٍ من الموضع الذي كانوا فيه .

قال : ثم انتشر الزنج في سِكَك البصرة وشوارعها ، يقتلون مَنْ وجدوا . ودخل على بن أبان يومئذ المسجد فأحرقه ، وبلغ إلى السكّاء فأحرقه إلى الجسر ، وأخذت النار كل مامرت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع ، ثم ألحوا بالعدوّ والرواح على مَنْ وجدوه ، ويسوقونهم إلى يحيى بن محمد البجراني ، وهو نازل ببعض سِكَك البصرة ، فَمَنْ كان ذامال قرّره حتى يستخرج ماله ثم يقتله ، وَمَنْ كان مخنلاً قتله معجلاً .

قال أبو جعفر: وقد كان عليّ بن أبان كفّ بعض الكفّ عن العيث بنأحية بنى سعد، وراقب قوماً من المهلبيين وأتباعهم، فأنهى ذلك إلى عليّ بن محمد صاحب الزنج، فصرفه عن البصرة، وأقرّ يحيى بن محمد البحرانيّ بها لموافقة كلّ رأيه في الإثخان في القتل، ووقع ذلك بمحبته، وكتب إلى يحيى بن محمد يأمره بإظهار الكفّ ليسكن الناس، ويظهر المستخفى، ومنّ قد عرف باليسار والثروة، فإذا ظهر فليؤخذوا بالدلالة كلّ مادفعوه وأخفوه من أموالهم، ففعل يحيى بن محمد ذلك، وكان لا يخلو في اليوم من الأيام من جماعة يؤتى بهم، فن عرف منهم باليسار استنزف ماعنده ثم قتله، ومنّ ظهرت له خلتة عاجله بالقتل حتى لم يدع أحداً ظهر له إلا قتله.

قال أبو جعفر: وحدثني محمد بن الحسن، قال: لما انتهى^(١) إلى عليّ بن محمد عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة سمعته يقول: دعوت كلّ أهل البصرة في غداة اليوم الذي دخل فيه أصحابي إليها، واجتهدت في الدّعاء، وسجدت وجعلت أدعو في سجودي، فرفعت إلى البصرة، فرأيتها ورأيت أصحابي يقا تلون فيها، ورأيت بين السماء والأرض رجلاً واقفاً في صورة جعفر الملعوف المتولّى كان للاستخراج في ديوان الخراج بسامراء، وهو قائم قد خفف يده اليسرى، ورفع يده اليمنى، يريد قلب البصرة، فعملت أن الملائكة تولّت إخراجها دون أصحابي، ولو كان أصحابي تولّوا ذلك ما بلغوا هذا الأمر العظيم الذي يحكى عنها؛ واسكن الله تعالى نصرني بالملائكة، وأيدني في حروبي، وثبّت بهم من ضعف قلبه من أصحابي.

قال أبو جعفر وانتسب صاحب الزّنج^(٢) في هذه الأيام إلى محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين، بعد انتسابه الذي كان إلى أحمد بن عيسى بن زيد؛ وذلك لأنه بعد

(١) الطبري: « لما أخرج الخائن البصرة ».

(٢) الطبري: « وانتسب الخبيث ».

لإخراجه بالبصرة ، جاء إليه جماعة من العلوية الذين كانوا بالبصرة ، وأتاه فيمن أتاه منهم قوم من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، في جماعة من نساءهم وحُرَمهم ، فلما خافهم ترك الانقسام إلى أحمد بن عيسى ، وانتسب إلى محمد بن محمد بن زيد .

قال أبو جعفر : فحدثني محمد بن الحسن بن سهل ، قال : ^(١) كنت حاضرا عنده وقد حضر جماعة من النوفليين ^(٢) ، فقال له القاسم بن إسحاق النوفلي : إنه انتهى إلينا أن الأمير ^(٣) من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فقال : لست من ولد عيسى ، أنا من ولد يحيى بن زيد .

قال محمد بن الحسن : فانتقل من أحمد بن عيسى بن زيد إلى محمد بن محمد بن زيد ، ثم انتقل من محمد إلى يحيى بن زيد ؛ وهو كاذب لأن الإجماع واقع على أن يحيى بن زيد مات ولم يعقب ولم يولد له إلا بنت واحدة ماتت ؛ وهي ترضع .
فهذا ما ذكره أبو جعفر الطبري في " التاريخ الكبير " .

وذكر علي بن الحسن المسعودي في " مروج الذهب " ، أن هذه الواقعة بالبصرة ، هلك فيها من أهلها ثلاثمائة ألف إنسان ، وأن علي بن أبان المهلبى بعد فراغه من الواقعة ، نصب منبرا في الموضع المعروف ببني يشكر ، صلى فيه يوم الجمعة ، وخطب لعلي بن محمد صاحب الزنج ، وترحم بعد ذلك على أبي بكر وعمر ، ولم يذكر عثمان ولا عليا عليه السلام في خطبته ، ولعن أبا موسى الأشعري وعثرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ، قال :

(١ - ١) الطبري : « سمعت الحديث وقد حضره جماعة من النوفليين » .

(٢) الطبري : « لأنك » .

وهذا يؤكد ما ذكرناه وحكيما من رأيه ، وأنه كان يذهب إلى قول الأزارقة .

قال : وأستخفي مَنْ سَلِمَ من أهل البصرة في آبار الدور ، فكانوا يظهرون ليلا ، فيطلبون السكّالاب فيذبجونها وبأكلونها ، والفار والسنانير ، فأفنونوها حتى لم يقدرُوا على شيء منها ، فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلوه ، فكان يراعى بعضهم موت بعض ، وَمَنْ قدر على صاحبه قتله وأكله ، وعدموا مع ذلك الماء ، وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة قد احتضرت ، وعندها أختها وقد احتوشوها ينتظرون أن تموت فيأكلوا لحمها ، قالت المرأة : فما ماتت حسناء حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه ، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب وهي تبكى ومعها رأس الميت ، فقال لها قائل : ويحك ! مالك تهكين ! فقالت : اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسناء حتى قطعوها ، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئا إلا الرأس ؛ وإذا هي تبكى شاكية من ظلمهم لها في أختها .

قال : وكان مثل هذا وأكثر منه وأضعافه ، وبلغ من أمر عسكريه أنه ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشرف قريش ، فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم ، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان بن فلان ، وأخذ كل زنجيٍّ منهم العشرين والثلاثين بطوْهن الزنج ويخدم النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن علي عليه السلام ، وكانت عند بعض الزنج وسألته : أن يعقها بما هي فيه ، أو ينقلها من عنده إلى غيره ، فقال لها : هو مولاك ، وهو أولى بك^(٢) .

قال أبو جعفر : وأشخص السلطان لحرب صاحب الزنج محمدا المعروف بالمولد، في جيش

كثيف، فجاء حتى نزل الأبلّة، وكتب صاحب الزنج إلى يحيى بن محمد البحراني يأمره بالمصير إليه، فصار إليه بزوجه، وأقام على محاربتة عشرة أيام، ثم فتر المولدين الحرب، وكتب على ابن محمد إلى يحيى، يأمره أن يبيته، فبيته فهزمه، ودخل الزنج عسكره فغنموا مافيه، وكتب يحيى إلى صاحب الزنج يخبره، فأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، ثم انصرف عنه، فر بالجامدة، وأوقع بأهلها، وانتهب كل ما كان في تلك القرى، وسفك ما قدر على سفكه من الدماء، ثم عاد إلى نهر معقل.

قال أبو جعفر: واتصلت الأخبار بسامراء وبغداد والقواد والموالي وأهل الحضرة، بما جرى على أهل البصرة، فقامت عليهم القيامة، وعلم المعتمد أنه لا يرتق هذا الفتق إلا بأخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل - وكان منصوراً مؤيداً عارفاً بالحرب وقيادة الجيوش، وهو الذي أخذ بغداد المعنز، وكسر جيوش المستعين، وخلعه من الخلافة، ولم يكن لبني العباس في هذا الباب مثله ومثل ابنه أبي العباس - فعقد له المعتمد على ديار مضر وقنسرين والعواصم، وجلس له مستهل شهر ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين، فخلع عليه وعلى مفلح، وشخصاً نحو البصرة لحرب على بن محمد وإصلاح ما أفسده من الأعمال، وركب المعتمد ركوباً ظاهراً يشيع أخاه أبا أحمد إلى القرية المعروفة ببركوارا، وعاد.

قال أبو جعفر: وأما صاحب الزنج فإنه بعد هزيمة محمد المولد أنفذ على بن أبان المهلبى إلى حرب منصور بن جعفر وإلى الأهواز، فكانت بينهما حروب كثيرة في أيام متفرقة حتى كان آخرها اليوم الذي انهزم فيه أصحاب منصور، وتفرقوا عنه، وأدركت منصوراً طائفة من الزنج، فلم يزل يكرّ عليهم حتى انقصف رحمه، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح،

وانتهى إلى نهر يعرف بنهر ابن مروان، فصاح بحصان كان تحته ليمهز ، فوثب فقصر^(١)
فانغمس في الماء .

وقيل : إن الحصان لم يقصر في الوثبة؛ ولكن رجلاً من الزنج سبقه إلى النهر، فألقى
نفسه فيه ، لعله أنه لا يحمي لمنصور عن النهر ، فلما وثب الفرس تلقاه الأسود، فكس
ففاصل الفرس ومنصور ، ثم أطلع منصور رأسه ، فنزل إليه غلام من السودان من عرقاء
مصلح ، يقال له ابرون ، فاحتز رأسه ، وأخذ سلكه، فولى يارجوخ التركي صاحب حرب
خوزستان ، ما كان مع منصور من العمل أصفجون التركي .

وقال أبو جعفر : وأما أبو أحمد، فإنه شخص عن سامراء في جيش لم يسمع السامعون
بمثله ، كثرة وعدة ، قال : وقد عاينت أنا ذلك الجيش ، وأنا يومئذ ببغداد بباب الطاق ،
فسمعت جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون : قد رأينا جيوشا كثيرة للخلفاء ؛ فما رأينا
مثل هذا الجيش أحسن عدة وأكمل عتادا وسلاحا ، وأكثر عدداً وجما ، واتباع ذلك
الجيش من متسوفة أهل بغداد خلق كثير .

قال أبو جعفر : فحدثني محمد بن الحسن بن سهل ، أن يحيى بن محمد البحراني كان
مقيماً بنهر معقل قبل موافاة أبي أحمد ، فاستأذن صاحب الزنج في المصير إلى نهر العباس ،
فكره ذلك ، وخاف أن يوافيه جيش من قبل السلطان ، وأصحابه متفرقون، فألح عليه
يحيى حتى أذن له ، فخرج واتبعه أكثر أهل عسكر صاحب الزنج ، وكان على بن أبان

(١) الطبري : « وقصرت رجلاه فانغمس في الماء » .

مقيماً بجُحِّي في جمع كثير من الزنج ، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر صاحب الزنج ،
يغادونها ويرأونها لنقل ما نالته أيديهم منها إلى منازلهم ، فليس بمعسكر على بن محمد^(١)
يومئذ من أصحابه إلا القليل ، فهو على ذلك من حاله ، حتى وافى أبو أحمد في الجيش ومعه
مفلح ، فورد جيش عظيم لم يرد على الزنج مثله ، فلما وصل إلى نهر معقل ، انصرف من
كان هناك من الزنج ، فالتحقوا بصاحبهم مرعوبين ، فراعه ذلك ، ودعا برئيسين منهما ،
فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما ، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد ،
وكثرة عدد أهله وإحكام عدتهم ، وأن الذي عايناه من ذلك لم يكن في قوتها الوقوف له
في المدة التي كانا فيها ، فسألها : هل علمنا من يعود هذا الجيش ؟ فقالا : قد اجتهدنا في علم
ذلك ، فلم نجد من يصدقنا عنه .

فوجه صاحب الزنج طلائعهم في سميريات ليعرف الخبر ، فرجعت طلائعهم إليه بتعظيم
أمر الجيش وتفضيحه ، ولم يقف أحد منهم على من يقوده ، فزاد ذلك في جزعه وارتياحه ،
فأمر بالإرسال إلى علي بن أبان ليعلمه خبر الجيش الوارد ، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه ،
ووافق جيش أبي أحمد ، فأناخ بإزاء صاحب الزنج فلما كان اليوم الذي كانت فيه الواقعة ،
خرج علي بن محمد بطوف في عسكره ماشياً ، ويتأمل الحال فيمن هو من حزبه ومن
هو [مقيم]^(٢) بإزائه على حزبه ، وقد كانت السماء مطرت ذلك اليوم مطراً خفيفاً ، والأرض
ثريّة^(٣) تزل عنها الأقدام ، فطوف ساعة من أول النهار ورجع ، فدعا بدواة وقرطاس
ليكتب كتاباً إلى علي بن أبان ، ليعلمه ما قد أظله من الجيش ، ويأمره بتقديم من قدر
على تقديمه من الرجال ؛ فإنه أفي ذلك ، إذ أتاه أبو دلف القائد أحد قواد الزنج ، فقال له : إن

(١) الطبرى : « الحبيب » .

(٢) من الطبرى .

(٣) في الأصول : « ثريّة » وما أثبتته من الطبرى .

القوم قد غَشَوْكَ ورهقوك ، وانهزم الزنج من بين أيديهم ، وليس في وجوههم من يردِّم ؛ فانظر لنفسك ، فإنهم قد انتهوا إليك ^(١) . فصاح به وانهره وقال : اغرُب ^(٢) عني فإنك كاذبٌ فيما حكيت ، إنما ذلك جزعٌ داخل قلبك ^(٣) لكثرة من رأيت من الجمع ، فانخلع قلبك ، فلست تدري ما تقول !

فخرج أبو دُلفٍ من بين يديه ، وأقبل يكتب ، وقال لجمع بن إبراهيم السجَّان : نادى الزنج ، وحرَّكهم للخروج إلى موضع الحرب ، فقال له : إنهم قد خرجوا ، وقد ظفروا بسُميرتين من سفن أصحاب السلطان ، فأمره بالرجوع لتحريك الرِّجالة ، وكان من الفضاء والقدر أن أصيب مفلح - وهو القائد الجليل ، المرشح لقيادة الجيش بعد أبي أحمد - بسهم غرب ^(٤) لا يدري ، من رماه ، فمات لوقته ، ووقعت الهزيمة على أصحاب أبي أحمد ، وقوى الزنج على حربهم ، فقتلوا منهم جمعا كثيرا . ووافى على بن محمد زنججه بالروس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألغوها بين يديه ، فكثرت الروس يومئذٍ حتى ملأت الفضاء ، وجعل الزنج يقتسمون لحوم القتلى ، ويتهادون بها بينهم ، وأتى بأسير من الجيش فسأله عن رأس العسكر ، فذكر أبا أحمد ومفلحا ، فارتاع لذكر أبي أحمد ، وكان إذا راعه أمرٌ كذب به ، وقال : ليس في الجيش إلا مفلح ، لأنى لست أسمع الذِّكر إلا له ، ولو كان في الجيش من ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد ، ولما كان مفلح إلا تابعا له ، ومضافا إليه ^(٥) .

قال أبو جعفر : وقد كان قبل أن يصيب السهم مفلحا ، انهزم الزنج لما خرج عليهم

(١) الطبرى : « إلى الجبل الرابع » .

(٢) في الأصول : « اغرب » ، وما أثبت من الطبرى

(٣) الطبرى : « دخلك » .

(٤) يقال : أصابه سهم غرب ، بإضافة أو الوصف ، أى لا يدري راميهِ .

(٥) الطبرى : « إلى صحبته » .

جيش أبي أحمد ، وجزعوا جزعاً شديداً ، ولجئوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ، ولا جسرَ يومئذ عليه ، ففرق منهم خلق كثير ، ولم يلبث صاحب الزنج إلا يسيراً حتى وافته على بن أبان في أصحابه ، فوافاه وقد استغنى عنه بهزيمة الجيش السلطاني ؛ وتحيز أبو أحمد بالجيش إلى الأُبُلَّة ، ليجمع ما فرقت الهزيمة منه ، ويجدد الاستعداد للحرب ، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به .

قال أبو جعفر : لحدثني محمد بن الحسن ، قال : فكان صاحب الزنج لا يدرى كيف قُتِل مُفلح ؛ فلما لم يرَ أحداً ينتحل رميّه ادّعى أنه كان الرامي له ، قال : فسمعتة يقول : سقط بين يديّ منهم من السماء ، فأتاني به واح خادمي ، فدفعه إليّ ، فرميتُ به فأصاب مُفلحاً فقتله ، قال محمد : وكذب في ذلك ، لأني كنتُ حاضراً معه ذلك المشهد ، مازال عن فرسه حتى أتاها خبرُ الهزيمة^(١) .

قال أبو جعفر : ثم إنَّ الله تعالى أصاب صاحب الزنج بمصيبة تعادل فرحَه وسروره بقتل مُفلح عقيب قتل مُفلح ، وذلك أنَّ قائده الجليل يحيى بن محمد البحرانيّ أُسِرَ وقتل ، وصورة ذلك أن صاحب الزنج كان قد كتب إلى يحيى بن محمد ، يعلمه ورودَ هذا الجيش عليه ، ويأمره بالقدوم والتحرّر في منصرفه من أن يلقاه أحدٌ منهم وقد كان يحيى غنمَ سفناً فيها متاعٌ وأموال ؛ لتجار الأهواز جلييلة ، وحامى عنها أصحابُ أصفجون التركي فلم يُغن ، وهزمهم يحيى ، ومضى الزنج بالسفن المذكورة يمدُّونها متوجّهين نحو معسكر صاحب الزنج على سَمت البطيحة المعروفة ببَطِيحَة الصَّحْنَاء ، وهى طريقة متعسّقة وعرة ؛

(١) بعدها في الطبرى : « وأتى بالرهوس وانقضت الحرب » .

فيها مشاق متعبة ، وإنما سلكها يحيى وأصحابه ، وتركوا الطريق الواضح ؛ للتجاسد الذي كان بين يحيى بن محمد وعلى بن أبان ، فإن أصحاب يحيى أشاروا عليه ألا يسلك الطريق التي يمرّ فيها على أصحاب علي بن أبان ، فأصغى إلى مشورتهم فشرعوا له الطريق المؤدى إلى البطيحة المذكورة فسلّكها ، وهذه البطيحة ينتهى السائر فيها إلى نهر أبى الأسد ، وقد كان أبو أحمد انحاز إليه ، لأن أهل القرى والسواد كاتبوه يعرفونه خبير يحيى بن محمد البحرانيّ ، وشدة بأسه ، وكثرة جمعه ، وأنه ربما خرج من البطيحة إلى نهر أبى الأسد ، فمسكر به ، ومنع أبا أحمد الميرة ، وحال بينه وبين ما يأتيه من الأعراب وغيرهم ، فسبقه أبو أحمد إلى نهر أبى الأسد ، وسار يحيى حتى إذا قرب من نهر أبى الأسد ، وافته طلائعهم ، فأخبرته بالجيش ، وعظمت أمره ، وخوفته منه ، فرجع من الطريق الذي كان سلكه بمشقة شديدة نالته ، ونالت أصحابه ، وأصابهم مرض لترددهم في تلك البطيحة ، وجعل يحيى على مقدمته سليمان بن جامع ، وسار حتى وقف على قنطرة فوج نهر العباس ، في موضع ضيق تشدّ فيه جرية الماء ، وهو مشرف ينظر أصحابه الزنج : كيف يجرون تلك السفن التي فيها الغنائم ، فمنها ما يفرق وما يسلم .

قال أبو جعفر : فحدثني محمد بن سمعان قال : كنت في تلك الحال واقفاً مع يحيى على القنطرة ، وقد أقبل على متمجّبا من شدة جربة الماء ، وشدة ما يلقى أصحابه من تلقّيه بالسفن ، فقل : أرايت لو هجم علينا عدوّ في هذه الحال من كان يكون أسوأ حالا مِنّا ؟ فوالله ما انقضى كلامه حتى وافى كاشمهم التركي في جيش ؛ قد أنفذه معه أبو أحمد عند رجوعه من الأبلة إلى نهر أبى الأسد ، يتلقّى به يحيى ، فوقعت الصيحة ، واضطربت الزنج ، فهضمت متشوّفا للنظر ، فإذا الأعلام الحمر قد أقبلت في الجانب الغربى من نهر العباس ويحيى به ، فلما رآها الزنج ألغوا أنفسهم جملة في الماء ، فمعبروا إلى الجانب الشرقى

وخلال للوضع الذى فيه يحى ، فلم يبق معه إلا بضعة عشر رجلا منهم ، فنهض عند ذلك فأخذ درقته وسيفه ، واحتزم بمندبل ، ثم تلقى القوم^(١) فى النفر الذين تخلّفوا معه ، فرشقهم أصحاب كاشهم التركى بالسهم ، حتى كثر فيهم الجراح ، وجرح يحيى بأهمهم ثلاثة فى عضده اليمنى وساقه اليسرى ؛ فلما رآه أصحابه جريحا ، تفرقوا عنه ولم يعرف فيه قصده ، فرجع حتى دخل بعض تلك السفن ، وعبر به إلى الجانب الشرقى من النهر ؛ وذلك وقت الضحى ، وأثقلته الجراحات التى أصابته ، فلما رأت الزنج شدة ما نزل به ، اشتدّ جزعهم ، وضمفت قلوبهم ، فتركوا القتال ، وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم ، وحاز أصحاب السلطان تلك الغنائم التى كانت فى السفن فى الجانب الغربى من النهر ، وانفضّ الزنج بالجانب الشرقى عن يحيى ، فجعلوا يتسلّون بقيّة نهارهم بعد قتل ذريع فيهم ، وأسرى كثير ، فلما أمسوا وأسدف الليل ، طاروا على وجوههم . فلما رأى يحيى تفرّق أصحابه ركب سُميرية كانت هناك ، وأقعد معه فيها متطببا ، يقال له عباد^(٢) ، وطمع فى الخلاص إلى عسكر صاحب الزنج ، فسار حتى قرب من فوهة النهر ، فأبصر سميريات وشذايا لأصحاب السلطان فى فوهة النهر ، فخاف أن تعترض سميريته ، وجزع من المرور بها ، فعبر به الملاح إلى الجانب الغربى من النهر ، فألقاه وطيبه على الأرض فى زرع هناك ، فخرج يمشى وهو مثقل حتى ألقي نفسه فى بعض تلك المواضع ، فأقام هناك ليلته تلك . فلما أصبح نزفه الدم ، ونهض عبّاد الطبيب^(٣) ، فجعل يمشى مشوّفاً أن يرى إنسانا ، فرأى بعض أصحاب السلطان ، فأشار لهم إلى موضع يحيى ، فجاءوا ، حتى وقفوا عليه ، فأخذوه ، وانتهى خبره إلى [الخبيث]^(٤) صاحب الزنج فجزع عليه جزعا شديدا ، وعظم عليه توجّعه .

(١) الطبرى : « القوم الذين أتوه » .

(٢) الطبرى : « ويعرف بأبى جيش » .

(٣) بعد فى الطبرى : « المتطبب » .

(٤) من الطبرى .

ثم حُلَّ يحيى إلى أبى أحمد ، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد ، فأدخل إلى سامراء راكباً
جل ، والناس مجتمعون ينظرونه ، ثم أمر المعتمد ببناء دكة عالية بحضرة مجرى الحلية ،
فبنيت ، ورفع للناس عليها حتى أبصره الخلائق كافة ، ثم ضرب^(١) بين يدي المعتمد وقد
جلس له مائتي سوط بثمارها^(٢) ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف ، [ثم خبط بالسيوف] ثم
ذبح وأُحرق .

قال أبو جعفر : فحدثني محمد بن الحسن ، قال : لما قتل يحيى البحراني ، فانتهى خبره
إلى صاحب الزنج ، قال لأصحابه . لما عظم على قتله ، واشتد اهتامي به ، خوطبت فقبل لي :
قتله خيرٌ لك ! إنه كان شرهاً . ثم أقبل على جماعة أنا فيهم ، فقال : من شره أنا غنمنا
غنيمة من بعض ما كنا نغنمه^(٢) وكان فيها عقدان ، فوقعا في يد يحيى ، فأخفى عني
أعظمهما خطراً ، وعرض على أخسهما ، ثم استوهبته فوهبته له ، فرفع إلى العقد الذي
أخفاه حتى رأيته ، فدعوته فقلت : أحضر لي العقد الذي أخفيته ، فأتاني بالعقد الذي وهبته
له ، وجحد أن يكون أخذ غيره ، فرفع إلى العقد ثانياً ، فبجعت أصفه له وأنا أراه وهو
لا يراه ، فبُهِت وذهب ، فأتاني ، ثم استوهبني فوهبته له ، وأمرته بالاستغفار .

قال أبو جعفر : وذكر محمد بن الحسن ، أن محمد بن سيمان حدثه أن صاحب الزنج ،
قال في بعض أيامه : لقد عُرِضَتْ عليّ النبوة فأبيتها . فقيل له : ولم ذلك ؟ قال : إنَّ لها
أعباء خِفت ألا أطيق حملها .

(١-١) الطبري : « ثم رفع للناس حتى أبصروه ، فضرب بالسياط ، وذكر أنه دخل سامرا يوم
الأربعاء لتسع خلون من رجب على جل ، وجلس المعتمد من غير ذلك اليوم ؛ وذلك يوم الخميس ، فضرب
بين يديه مائة سوط بثمارها .
(٢) الطبري : « نصيبه » .

قال أبو جعفر : فأما الأمير أبو أحمد ، فإنه لما صار إلى نهر أبي الأسد وأقام به ، كثرت العلل فيمن معه من جنده وغيرهم ، وفشا فيهم الموت ، فلم يزل مقيماً هنالك حتى أبل من نجا منهم من علقته ، ثم انصرف ، راجعاً إلى باذآورد ، فعسكر به ، وأمر بتجديد الآلات وإصلاح الشدوات والسمريات وإعطاء الجند أرزاقهم وشحن السفن بقواده ومواليه وغلمانه ، ونهض نحو عسكر الناجم ، وأمر جماعة من قواده بقصد مواضع سماها لهم ؛ من نهر أبي الخصيب وغيره ، وأمر الباقين بملازمة الحاربة معه ؛ في الموضع الذي يكون فيه ، وهم الأقلون ؛ وعرف الزنج تفرق أصحاب أبي أحمد عنه ، فكثروا في جهته ، واستمرت الحرب بينه وبينهم ، وكثرت القتل والجراح بين الفريقين ، وأحرق أصحاب أبي أحمد قصوراً ومنازل كان الزنج ابتغوها ، واستنقذوا من نساء أهل البصرة جمعاً كثيراً . ثم صرف الزنج سورتهم وشدة حملتهم إلى الموضع الذي به أبو أحمد ، فجاهد منهم جمع لا يقاوم ، بمثل العدة اليسيرة التي كان فيها ، فرأى أن الحزم في محاربتهم ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على تودة وتمهل ، ففعلوا ، وبقيت رائقة من جنده ولجؤوا تلك الأدغال والمضايق ، فخرج عليهم كمين للزنج فأوقعوا بهم ، فبحاموا عن أنفسهم ، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج إلى أن قتلوا بأجمعهم ، وحملت رؤوسهم إلى الناجم ، فزاد ذلك في قوته وعتوه ونجبه بنفسه ، وانصرف أبو أحمد بالجيش إلى باذآورد ، وأقام بعبي أصحابه الرجوع إلى الزنج ، ف وقعت نار في طرف من أطراف عسكره ، وذلك في أيام عصف الرياح ، فاحترق العسكر ، ورحل أبو أحمد منصرفاً وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط^(١) .

فأقام بها إلى ربيع الأول ، ثم انصرف عنها إلى سامراء ؛ وذلك أن المعتمد كاتبه واستقدمه

(١) بعدها في الطبري : « فلما صار إلى واسط تفرق عنه عامة من كان معه من أصحابه » .

لحرب يعقوب بن الليث الصفار أمير خراسان ، فاستخلف على حرب الناجم محمدا المولد ، وأما الناجم فإنه لم يعلم خبر الحريق الذي وقع في عسكر أبي أحمد ، حتى ورد عليه رجلان من أهل عبادان ، فأخبراه ، فأظهر أن ذلك من صنع الله تعالى له ونصره على أعدائه ، وأنه دعا الله على أبي أحمد وجيشه ، فنزلت نار من السماء فأحرقتهم .

وعاد إلى العبث ، واشتد طغيانه وعتوه ، وأنهض على بن أبان المهلبى ، وضم إليه أكثر الجيش ، وجعل على مقدمته سليمان بن جامع ، وأضاف إليه الجيش الذى كان مع يحيى بن محمد البحرانى وسليمان بن موسى الشعرانى ، وأمرهم بأن يقصّدوا الأهواز وبها حينئذ أصفهون^(١) التركى ، ومعه نيزك القائد ؛ فالتقى العسكران بصحراء تعرف بدشت ميسان^(٢) ، واقتتلوا ، فظهرت^(٣) الزيج ، وقتل نيزك في كثير من أصحابه ، وغرق أصفهون التركى ، وأسر كثير من قواد السلطان ؛ منهم الحسن بن هرثمة المعروف بالشارى^(٤) ، والحسن بن جعفر . وكتب على بن أبان بالخير إلى الناجم ، وحمل إليه أعلاما ورءوسا كثيرة وأمرى ، ودخل على بن أبان الأهواز ، وأقام بها بزوجه يعيث وينهب القرى والسواد ، إلى أن ندب المعتمد على الله موسى بن بغا لحربه ، فشخص عن سامرا ، في ذى القعدة من هذه السنة ، وشيعة المعتمد بنفسه إلى خلف الحائطين ، وخلع عليه هنالك فقدم أمامه عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز وإسحاق بن كنداخ إلى البصرة ، وإبراهيم بن سينا إلى الباذورذ .

قال أبو جعفر : فلما ورد عبد الرحمن بن مفلح على الأهواز أنانخ بقنطرة أريق^(٥) عشرة أيام ، ثم مضى إلى على بن أبان المهلبى فواقعه فمزقه على بن أبان ، فأنصرف فاستعد

(١) في الأصول : « صفهون » ، تحريف .

(٢) الطبرى : « رستادان » .

(٣) الطبرى : « فكانت الدبرة يومئذ على أصفهون » .

(٤) الطبرى : « الشار » .

(٥) الطبرى : « أربك » .

ثم عاد لمحاربتهم ، فأوقع به وقعة عظيمة ، وقتل من الزنج قتلاً ذريعاً وأسرى كثيرة ،
وانهزم على بن أبان ومن معه من الزنج حتى أتوا الموضع المعروف ببنيان ، فأراد الناجم ردهم
فلم يرجعوا ، الذعر الذي خالط قلوبهم . فلما رأى ذلك أذن لهم في دخول عسكره ، فدخلوا
جميعاً ، فأقاموا معه بالمدينة التي كان بناها ، ووافى عبد الرحمن بن مفلح حصن مهدي
ليمسك به ، فوجه إليه الناجم على بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه ، ومضى على بن أبان إلى
قريب من الباذاورد ؛ وهناك إبراهيم بن سينا ، فواقعه إبراهيم ، فهزم على بن أبان ، فعاوده
فهزمه إبراهيم ، فضى في الليل ، وسلك الأدغال والآجام ؛ حتى وافى نهر يحيى ، فأنهى
خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فوجه إليه طاشتير التركي في جمع من الموالى ، فلم يصل
إلى على بن أبان ومن معه ، لوعورة الموضع الذي كانوا فيه ، وامتناعه بالقصب والخلاف^(١) ،
فأضره عليهم نارا ، فخرجوا منه هاربين ، وأسروا منهم أسرى ، وانصرف إلى عبد الرحمن
ابن مفلح بالأسرى والظفر ، ومضى على بن أبان ، فأقام بأصحابه في الموضع المسمى بنسوخا ،
وانتهى الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فصار إلى العمود ، فأقام به ، وصار على بن
أبان إلى نهر السدرة ، وكتب إلى الناجم يستمده ويسأله التوجيه إليه بالشذا ، فوجه إليه
ثلاث عشرة شذاة ، فيها جمع كثير من أصحابه ، فسار على بن أبان ومن معه في الشذا ،
ووافى عبد الرحمن بمن معه ، فلم يكن بينهما قتال ، وتواقف الجيشان يومهما ذلك .
فلما كان الليل انتخب على بن أبان من أصحابه جماعة يثق بجلدهم وصبرهم ، ومضى
ومعه^(٢) سليمان بن موسى المعروف بالشمراني ، وترك سائر عسكره مكانه ليخفى أمره ،
فصار من وراء عبد الرحمن ، ثم بيته وعسكره^(٣) ، فنال منه ومن أصحابه نيلا ما ، وانحاز

(١) الخلاق : مكان ينبت الخلفاء .

(٢) الطبرى : « فيهم » .

(٣) الطبرى : « في عسكره » .

عبدُ الرحمن عنه وترك أربع شذَوَاتٍ من شذَوَاتِه ، فغنمها على بن أبان ، وانصرف ومضى عبد الرحمن لوجهه ؛ حتى وافى دُولَاب^(١) ، فأقام بها ، وأعدّ رجالاً من رجاله ، وولّى عليهم طاشتمر التركي ، وأنفذهم إلى على بن أبان ، فوافوه وهو في الموضع المعروف بباب آزر ، فأوفوا به وقعةً انهزم منها إلى نهر السُدرة ، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بأنهم زامه عنه ، فأقبل عبد الرحمن بحيشه حتى وافى المواد ؛ فأقام به واستعدّ أصحابه للحرب ، وهياً شذواته ، وولّى عليها طاشتمر ، وسار إلى قُوْمة نهر السُدرة ، فواقع على بن أبان وقعة عظيمة . انهزم منها على بن أبان ، وأخذ منه عشر شذَوَاتٍ ، ورجع على بن أبان إلى الناجم مفلولاً مهزوماً ، وسار عبد الرحمن من فوره ، فعسكر ببيان ، فسكّات عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيماء يتناوبان المصير إلى عسكر الفّاجم ، فيوقعان به ، ويخيفان مَنْ فيه وإسحاق بن كنداجيق^(٢) يومئذ بالبصرة ، وقد قطع الميرة عن عسكر الناجم ؛ فسكان الناجم يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم ابن سيماء ؛ حتى ينقضى الحرب ، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة ، فيواقع بهم إسحاق ابن كنداجيق ؛ فأقاموا على هذه الحال بضعة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بقاعن حرب الزّنج^(٣) .

قال أبو جعفر : وسبب ذلك أنّ المعتدردّ أمرَ فارس والأهواز والبصرة وغيرهما من

(١) الطبري : « الدُولاب » .

(٢) الطبري : « كنداج » .

(٣) في الطبري : « إلى أن صرف موسى بن بقاعن حرب الخبيث ، ووليها مسرور البلخي ، وانتهى الجبر بذلك إلى الخبيث » .

النواحي والأقطار إلى أخيه أبي أحمد ، بعد فراغه من حرب يعقوب بن الليث الصقار وهزيمة له ، فاستخلف أبو أحمد على حرب صاحب الزنج مسروراً البلخي ، وصرف موسى بن بغا عن ذلك ؛ واتفق أن ابن واصل حارب عبد الرحمن بن مفلح ، فأسره وقتله ، وقتل طاشتمر التركي أيضاً ، وذلك بناحية رامهرمز ، فاستخلف مسرور البلخي على الحرب أبا الساج وولى الأهواز ؛ فكانت بينه وبين علي بن أبان المهلبى وقعة بناحية دولا ب ، قتل فيها عبد الرحمن صهر أبي الساج ، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم ، ودخل الزنج الأهواز ؛ فقتلوا أهلها وسبوا وأحرقوا [دورها] ^(١) .

قال أبو جعفر : ثم وجه صاحب الزنج جيوشه بعد هزيمة أبي الساج إلى ناحية البطيخة والخوانيت ودستميسان ، قال : وذلك لأن واسطاً خلت من أكثر الجند في وقعة أبي أحمد ويعقوب بن الليث التي كانت عند دير العاقول ، فطمع الزنج فيها ، فتوجه إليها سليمان بن جامع في عسكر من الزنج ، وأردفه الناجم بجيش آخر مع أحمد بن مهدي في سميريات ، فيها رماة من أصحابه ، أنفذه إلى نهر المرأة ، وأنفذ عسكراً آخر فيه سليمان بن موسى ، فأسره أن يعسكر بالنهر المعروف باليهودي ؛ فكانت بين هؤلاء وبين من تخلف بهذه الأعمال من عساكر السلطان حروب شديدة ، وكانت سجلاً لهم وعليهم ؛ حتى ملكوا البطيخة والخوانيت ، وشارفوا واسطاً ، وبها يومئذ محمد المولّد من قبل السلطان فكانت بينه وبين سليمان بن جامع حروب كثيرة يطول شرحها وتعدادها ، وأمدّه الناجم بالخليل بن أبان - أخى علي بن أبان المهلبى - في ألف وخمسمائة فارس ، ومعه أبو عبد الله الزنجي المعروف بالمدوّب ، أحد قوادم المشهورين ، فقوى سليمان بهم ، وأوقع بمحمد المولّد ، فهزمه ، ودخل واسطاً في ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين بزوجه وقواده ، فقتل منها خلقاً كثيراً ، ونهبها وأحرق دورها وأسواقها ، وأخرب كثيراً من منازل أهلها ،

(١) من تاريخ الطبرى .

وثبت المحاماة عنها قائد كان بها من جانب محمد بن المولّد، يقال له كنجور البخارى،
لغامسى يومه ذلك إلى العصر، ثم قتل. وكان الذى يقود الخيل يومئذ فى عسكر سليمان بن
جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالذوّب، وكان أحمد بن مهدى الجبائى فى
السميريات، وكان مهربان^(١) الزنجى فى الشّدّوات، وكان سليمان بن موسى الشعرانى
وأخوه فى ميمنته وميسرته، وكان سليمان بن جامع، وهو الأمير على الجماعة فى قواده
السّودان ورجالته منهم، وكان الجميع يداً واحدة، فلما قضوا وطّروا من نهب واسط وقتل
أهلها، خرجوا بأجمعهم عنها، ففضوا إلى جُنُبلاء، وأقاموا هناك يعميئون ويخربون.
وفى أوائل سنة خمس وستين، دخلوا إلى الثّمانيّة، وجزّجرايا وجبّل، فنهبوا
وأخربوا وقتلوا وأحرقوا، وهرب منهم أهل السّواد فدخلوا إلى بغداد.

قال أبو جعفر: فأما على بن أبان المهابى فإنه استولى على معظم أعمال الأهواز، وعاش
هناك وأخرب وأحرق، وكانت بينه وبين عمال السلطان وقواده مثل أحمد بن ليثويه،
ومحمد بن عبد الله الكردى، وتكين البخارى، ومطر بن جامع، وأغرتش التركى وغيرهم،
وبينه وبين عمال يعقوب بن الليث الصفار، مثل خضر بن العنبر وغيره حروب عظيمة،
ووقعات كثيرة، وكانت سجالاً، تارة له وتارة عليه؛ وهو فى أكثرها المستظهر عليهم.
وكثرت أموال الزنج والفتائم التى حوّوها من البلاد والنواحي، وعظم أمرهم، وأهم الناس
شأنهم، وعظم على المعتمد وأخيه أبى أحمد خطبهم، واقدموا الدنيا؛ فكان على بن محمد
الناجم صاحب الزنج وإمامهم مقيماً بنهر أبى الخصيب، قد بنى مدينة عظيمة سمّاها
المنقارة، وحصنها بالخنادق، واجتمع إليه فيها من الناس ما لا ينتهى العدة والحصر إليه،
رغبة ورهبة؛ وصارت مدينة تضاهى سامراء وبغداد، وتزيد عليهما، وأمرأوه وقواده

(١) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: «مهربان».

بالبصرة وأعمالها يحبون الخراج على عادة السلطان لما كانت البصرة في يده ، وكان على ابن أبان المهلبى - وهو أكبر أسرائه وقواده - قد استولى على الأهوز وأعمالها ، ودوّن بلادها . كرامهم مز وتستر وغيرهما ، ودان له الناس ، وجبا الخراج ، وملك أموالا لا تحصى .

وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعرانى ، ومعهما أحمد بن مهدى الجبائى فى الأعمال الواسطية ، قد ملكوها وبنوا بها المدن الحصينة ، وغازوا بأموالها وارتفاعها ، وجبوا خراجها ، ورتبوا عملهم وقوادهم فيها ، إلى أن دخلت سنة سبع وستين ومائتين ، وقيل عظم الخطب وجل ، وخيف على ملك بنى العباس أن يذهب وينقرض ؛ فلم يجد أبو أحمد الموفق - وهو طلحة بن المتوكل على الله - بدا من التوجه بنفسه ومباشرته هذا الأمر الجليل برأيه وتدبيره ، وحضوره معارك الحرب ، فذهب أمامه ابنه أبا العباس ، وركب أبو أحمد إلى بستان الهادى ببغداد ، وعرض أصحاب أبى العباس ، وذلك فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، فكانوا عشرة آلاف ، فرسانا ورجالة فى أحسن زى وأجل هيئة ، وأكل عدة ، ومعهم الشدوات والسميريات والمعابر برسم الرجالة^(١) ، كل ذلك قد أحكت صنعة . فركب أبو العباس من بستان الهادى ، وركب أبو أحمد مشيعا له حتى نزل القرية المعروفة بالفرك ، ثم عاد وأقام أبو العباس بالفرك أياما ؛ حتى تكامل عدده وتلاحق به أصحابه .

ثم رحل إلى المدائن ، فأقام بها أياما ، ثم رحل إلى دير العاقول ، فورد عليه كتاب نصير المعروف بأبى حمزة ، وهو من جلة أصحابه ، وكان صاحب الشدأ والسميريات ، وقد كان قدمه على مقدمته بدجلة يعلمه فيه أن سليمان بن جامع قد وافى لما علم بشخصه أبى العباس ، والجبائى يقدمه ، فى خيلهما ورجالهما وسفنهما حتى نزلا الجزيرة التى بحضرة

(١) الطبرى : « للرجالة » .

بردودا ، فوق واسط بأربعة فراسخ ، وأن سليمان بن موسى الشعراني قد وافي نهر أبان بمسكره ؛ عسكر البرّ وعسكر الماء ؛ فرحل أبو العباس لما قرأ هذا الكتاب حتى وافي جرّجَ رَايا ، ثم منها إلى قم الصّلاح ، ثم ركب الظهر وسار حتى وافي الصّلاح ، ووجهه طلائعه ليتعرّف الخبر ، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم ، وأن أولهم قريب من الصّلاح ، وآخرهم بستان موسى بن بفا ، أسفل واسط ؛ فلما عرف ذلك عدّل عن سنن الطريق ، ولقى أصحابه أوائل القوم ، فتطاردوا لهم عن وصيّة أوصاهم أبو العباس بها ، حتى طمع الزنج فيهم ، واغترّوا وأمعنوا في اتباعهم ، وجعلوا يصيحون بهم : اطلبوا أميراً للحرب ، فإن أميركم مشغول بالصّيد !

فلما قربوا من أبي العباس بالصّلاح ، خرج إليهم فيمن معه من الخيل والرجل ، وأمر فصيح بأبي حمزة : يا نصير ، إلى أين تتأخر عن هؤلاء السكّالاب ! ارجع إليهم . فرجع نصير بشدّاته وسميريّاته ؛ وفيها الرجال ، وركب أبو العباس في سميريّة ، ومعه محمد بن شعيب ، وحفّ أصحابه بالزنج من جميع جهاتهم ؛ فأنهزموا ، ومنح الله أبا العباس وأصحابه أكتافهم ، يقتلونهم ويطردونهم ، إلى أن وافوا قرية عبد الله ؛ وهي على ستة فراسخ ، من الموضع الذي لقوهم فيه ، وأخذوا منهم خمس شذوات وعشر سميريّات ، واستأمن منهم قوم ، وأسير منهم أسرى ، وغرق من سفنهم كثير ؛ فكان هذا اليوم أول الفتح على أبي العباس .

قال أبو جعفر : فلما انقضى هذا اليوم ، أشار على أبي العباس قوّاده وأولياؤه ، أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه ، إشفافاً عليه من مقاربة القوم ، فأبى إلا نزول واسط بنفسه ، ولما انهزم سليمان بن جامع ومن معه ، وضرب الله وجوههم ، انهزم سليمان بن

موسى الشعراني عن نهر أبان ؛ حتى وافى سوق الخميس ؛ ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير ؛ وقد كان القوم حين لقوا أبا العباس، أجالوا الرأي بينهم فقالوا : هذا فتى حَدَث لم تطل ممارسته الحرب وتدرّبه بها ، والرأى أن نرميه بحدنا كله ، ونجتهد في أول لقية نلقاه في إلزائه؛ فاعل ذلك أن يروعه، فيسكون سببا لانصرافه عفا ففعلوا ذلك وحشدوا واجتهدوا ، فأوقع الله تعالى بهم بأسه ونقمته، ولم يتم لهم ماقدروه ، وركب أبو العباس من غدٍ يوم الوقعة ، حتى دخل واسطاً في أحسن زى ، وكان ذلك يوم الجمعة، فأقام حتى صلى بها صلاة الجمعة ، واستأمن إليه خلق كثير من أتباع الزنج وأصحابهم، ثم انحدر إلى العُمر؛ وهو على فرسخ واحد من واسط، فاتخذ معسكراً، وقد كان أبو حمزة نُصير وغيره أشاروا عليه أن يجعل معسكره فوق واسط ، حذراً عليه من الزنج فامتنع ، وقال : لست نازلاً إلا العُمر ، وأمر أبا حمزة أن ينزل فُوّهة بردودا فوق واسط ، وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم ، واستبدّ برأى نفسه، فنزل العُمر وأخذ في بناء الشدّوات والسُميريّات ، وجعل يراوح الزنج القتال ويغاديهم ، وقد رتب خاصة غلمانة ومواليه في سُميريّات ، فجعل في كلّ سُميرية أميراً منهم .

ثم إنَّ سليمان استعدَّ وحشد وفرّق أصحابه ، فجعلهم في ثلاثة أوجه : فرقة أنت من نهر أبان ، وفرقة من برّ تمرتا ، وفرقة من بردودا ، فلقبهم أبو العباس ؛ فلم يلبثوا أن انهزموا ، فلاحقت طائفة منهم بسوق الخميس، وطائفة بمازروان ، وطائفة ببرّ تمرتا، وسلك آخرون نهر الماذيان ، واعتصم قوم منهم ببردودا ، وتبعهم أصحاب أبي العباس ، وجعل أبو العباس قصده القوم الذين سلكوا نهر الماذيان، فلم يرجع عنهم حتى وافى بهم برّ مساور، ثم انصرف ، فجعل يقف على القرى والمسالك ويسأل عنها ويتعرفها ، ومعه الأدلاء وأرباب الخبرة ؛ حتى عرف جميع تلك الأرض ومنافذها ، وما ينتهى إليه من

البطائح والآجام وغيرها ؛ وعاد إلى مُعسكره بالمُعمر ، فأقام به أياما مريحا نفسه وأصحابه .

ثم أتاه مخبر فأخبره أن الزنج قد اجتمعوا واستعدوا لكبس عسكره ، وأنهم على إتيانه من ثلاثة أوجه ، وأنهم قالوا : إن أبا العباس غلام يفرّ بنفسه ، وأجمع رأيهم على تكمين الكُمناء ، والمصير إليه من الجهات الثلاث ؛ فحذر أبو العباس من ذلك واستعد له ، وأقبلوا إليه وقد كانوا زهاء عشرة آلاف في برتمرتا ، ونحوها من العدة في قس هئا^(١) وتقدم منها عشرون سميرة إلى عسكر أبي العباس ؛ على أن يخرج إليهم فيهربوا بعد مفاوضة يسيرة ، فيجيزوا أبا العباس وأصحابه إلى أن يجاوزوا الكُمناء ؛ ثم يخرج السكين عليهم من ورائهم .

فمنع أبو العباس أصحابه من اتباعهم لما وقعهم ، وأظهروا الكثرة والعدد ، فعملوا أن كيدهم لم ينفذ فيه ، وخرج حينئذ سليمان والجبائي في الشذا والسميريّات العظيمة ، وقد كان أبو العباس أحسن تعبئة أصحابه ، فأمر أبا حمزة نصيرا أن يخرج إليهم في الشذا والسميريّات المرتبة ؛ فخرج إليهم ، ونزل أبو العباس في شداة من شدّوات قد كان سماها الغزال ، واختار لها جدّافين ، وأخذ معه محمد بن شعيب الاشتيام ، واختار من خاصّة أصحابه وغلماؤه جماعة ، دفع إليهم الرماح ، وأمر الخيالة بالمسير بإزائه على شاطئ النهر ، وقال لهم : لاندعوا المسير ما أمكنكم ، إلى أن تقطعكم الأنهار . ونشبت الحرب بين الفريقين ؛ فكانت معركة القتال من حدّ قرية الرمل إلى الرصافة ؛ حتى أذن الله في هزيمة الزنج ؛ فانهزموا ، وحاز أصحاب أبي العباس منهم أربع عشرة شداة ، وأفلت سليمان والجبائي في ذلك اليوم بعد أن أشقىا على الهلاك راجلين ، وأخذت دوابهما ، ومضى جيش الزنج بأجمعه ، لا يذنبني أحد منهم حتى وافوا يهينا ، وأسلموا ما كان معهم من أنثا وآلة ، ورجع

(١) في الأصول : « برهنا » .

أبو العباس ، فأقام بمعسكره بالعُمر ؛ وأصلح ما كان أخذ منهم من الشذا والسفن ^(١) ، ورتب الرجال فيها ، وأقام الزنج بعد ذلك عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد .

قال أبو جعفر : ثم إن الجبائي صار بعد ذلك يحىء في الطلائع كل ثلاثة أيام ويفصرف ، وحفر في طريق عسكر أبي العباس آباراً ، وصير فيها سفافيد حديد ، وغشاها بالهوارى ، وأخفى مواضعها ، وجعلها على سنن مسير الخيل ايتهور فيها المجتازون بها ، وجعل بواقٍ طرف العسكر متعرّضاً به ، لنخرج الخيل طالبةً له ، فجاء يوماً وطلبتُه الخيل كما كانت تطلبه ، ففطر ^(٢) فرس رجل من قوادم الفراغة في بعض تلك الآبار ، فوقف أصحاب أبي العباس بما ناله من ذلك على ما كان دبره الجبائي ، فحذروا ذلك ، وتككبوا سلوك تلك الطريق .

قال أبو جعفر : وألح الزنج في مغادرة العسكر في كل يوم بالحرب ، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير ، وكتب سليمان إلى النّاجم يسأله إمداده بسميريات ، لكل واحدة منهن أربعون مجداً ؛ فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سميرية ، فيها الرجال والسيوف والتّراس والرماح ، فكانت لأبي العباس معهم وقعات عظيمة ، وفي أكثرها الظفر لأصحابه والخذلان على الزنج ؛ ولجّ أبو العباس في دخول الأنهار والمضايق ؛ حتى انتهى إلى مدينة سليمان بن موسى الشمراني بنهر الخميس التي بناها وسمّاها المنيمة ، وخاطر أبو العباس بنفسه مراراً ، وسلم بعد أن شارب العطب ، واستأمن إليه جماعة من قوادم الزنج فأمنهم ، وخلع عليهم وضمهم إلى عسكره ، وقتل من قوادم

(١) الطبرى : « والسمریات » .

(٢) قطر : ذهب وأسرع .

الزنج جماعة ، وتمادت الأيام بينه وبينهم ، واتصل بأبي أحمد الموفق أن سليمان بن موسى الشعراني والجبائي ومن بالأعمال الواسطية من قواد صاحب الزنج ، كاتبوا صاحبهم ، وسألوه إمدادهم بعلي بن أبان المهلبى ؛ وهو المقيم حينئذ بأعمال الأهواز ، والمستولى عليها ، وكان على بن أبان قائد القواد وأمير الأمراء فيهم ، فكتب الناجم إلى علي بن أبان يأمره بالمصير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن جامع ، ليجتمعوا على حرب أبي العباس .

فصح عزم أبي أحمد على الشخوص إلى واسط وحضور الحرب بنفسه ، فخرج عن بغداد في صفر من هذه السنة ، وعسكر بالفرك وأقام بها أياما ؛ حتى تلاحق به عسكره ، ومن أراد المسير معه ، وقد أعد آلة المساء^(١) ورحل من الفرك إلى المدائن ، ثم إلى دير العاقول ، ثم إلى جرجاريا ، ثم قني ، ثم جليل ، ثم نزل الصلح ؛ ثم نزل على فرسخ من واسط^(٢) .

وتلقاه ابنه أبو العباس في جريدة خيل فيها وجوه قواده ، فسأله أبوه عن خبرهم ، فوصف له بلاءهم ونصحتهم ، فخلع أبو أحمد على أبي العباس ، ثم على القواد الذين كانوا معه . وانصرف أبو العباس إلى معسكره بالمعمر فبات به ، فلما كان صبيحة الغد ، رجل أبو أحمد منحدرأ في الماء ، وتلقاه ابنه أبو العباس في آلات الماء بجميع العسكر في هيئة الحرب ، على الوضع الذي كانوا يحاربون الزنج عليه ، فاستحسن أبو أحمد هيئتهم ، وسر بذلك ، وسار أبو أحمد حتى نزل بإزاء القرية المعروفة بقرية عبد الله ، ووضع العطاء ، فأعطى الجيش كله أرزاقهم ، وقدم ابنه أبا العباس أمامه في السفن ، وسار وراءه . فتلقاه

(١) الطبرى : « وقد أعد له قبل ذلك المشا والسميريات والمبار » .

(٢) بعدها في الطبرى : « فأقام هناك يومه » .

أبو العباس برعوس وأسرى من أصحاب الشعرائى ، وكان لقيهم ، فأمر أبو أحمد بالأسرى فضربت أعناقهم ، ورحل يريد المدينة التى بنهاها الشعرائى بسوق الخميس ، وسماها المنبوعة .

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب الشعرائى قبل حرب سليمان بن جامع ؛ لأن الشعرائى كان وراءه ، يخاف إن بدأ بآبن جامع ، أن يأتية الشعرائى من ورائه ، فيشغله عمن هو أمامه ؛ فلما قرُب من المدينة ، خرج إليه الزنج ، فخاربه حربا ضعيفة ، وانهزموا ، فعلا أصحاب أبى العباس السور ، ووضعوا السيف فيمن لقيهم ، وتفرق الزنج ، ودخل أبو العباس المدينة ، فقتلوا وأسروا ، وحوّوا ما كان فيها ، وأفلت الشعرائى هارباً ومعه خواصه ، فاقبهم أصحاب أبى العباس ، حتى وافوا بهم البطائح ، ففرق منهم خلق كثير ، ولجأ الباقون إلى الآجام ، وانصرف الناس ، وقد استنقذ من المسلمات اللواتى كنّ بأيدي الزنج فى هذه المدينة خاصة خمسة آلاف امرأة ، سوى من ظفر به من الزنجيات (١) .

فأمر أبو أحمد بحمل (٢) النساء اللواتى سباهنّ الزنج إلى واسط ، وأن يدفعنّ إلى أوليائهنّ ، وبات أبو أحمد ببحال المدينة ، ثم باكرها ، وأذن للناس فى نهب ما فيها من أمتعة الزنج ، فدخلت ونهب كل ما كان بها ، وأمر بهدم سورها ، وطم (٣) خندقها وإحراق ما كان بقى منها ، وظفر فى تلك القرى التى كانت فى يد الشعرائى بما لا يحصى من الأرز والحلطة والشعير ؛ وقد كان الشعرائى استولى على ذلك كله ، وقتل أصحابه ، فأمر أبو أحمد ببيعهم وصرف ثمنه فى إعطيات مواليه وغلمايه وجنده .

(١) الطبرى : « من الزنجيات اللواتى كن فى سوق الخميس » .

(٢) الطبرى : « ببيعة النساء » .

(٣) طم الخندق والنهر : رده .

وأما الشعراني فإنه التحق هو وأخوه بالمدار ، وكتب إلى الناجم يعرفه ذلك وأنه معتصم بالمدار .

قال أبو جعفر : حدثني محمد بن الحسن بن سهل ، قال : حدثني محمد بن هشام السكرنبائي المعروف بأبي وائلة ، قال : كنت بين يدي الناجم ذلك اليوم وهو يتحدث ، إذ ورد عليه كتاب سليمان بن خنبر الواقعة وما نزل به ، وانهمز إليه إلى المدار ، فما كان إلا أن فض الكتاب ، ووقعت عينه على ذكر الهزيمة ، حتى انحلت وكاء بطنه ، فنهض لحاجته ثم عاد . فلما استوى به مجلسه ، أخذ الكتاب وتأمله ، ف وقعت عينه على الموضع الذي أنهضه أولاً ، فنهض لحاجته حتى فعل ذلك مرارا ، فلم أشك في عظم المصيبة ، وكرهت أن أسأله ، فلما طال الأمر تجاسرت ، فقلت : أليس هذا كتاب سليمان بن موسى ؟ قال : بلى ، ورد بقاصمة الظهر ؛ ذكر أن الذين أناخوا عليه أوقعوا به وقعة لم تبق منه ولم تذر ، فكتب كتابه هذا وهو بالمدار ، ولم يسلم بشئ غير نفسه . قال : فأكبرت ذلك - والله يعلم ما أخفى من السرور الذي وصل إلى قلبي - قال : وصبر علي بن محمد على مكروه ما وصل إليه ، وجعل يظهر الجلد ، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذره مثل الذي نزل بالشعراني ، ويأمره بالتيقظ في أمره وحفظ ما قبله .

قال أبو جعفر : ثم لم يكن لأبي أحمد بعد ذلك هم إلا في طلب سليمان بن جامع ، فأثنته طلابه ، فأخبرته أنه بالحوانيت ، فقدم أمامه ابنه أبا العباس في عشرة آلاف ، فأتته إلى الحوانيت ، فلم يجد سليمان بن جامع بها ، وألنى هناك من قواد السودان المشتهرين بالبأس والنجدة القائدين ، المعروف أحدهما بنشبل ، والآخر بأبي الندي^(١) ، وهما من قدماء

(١) الطبري : « أبو النداء » .

أصحاب الناجم الذين كان قودهم في بدء نحرجه ، وكان سليمان قد خلف هذين القائدين بالخوانيت ، لحفظ غلات كثيرة كانوا قد أخذوها ، فحاربهما أبو العباس ، فقتل من رجالهما وجرح بالسهم خلقا كثيرا . وكانوا أجلد رجال سليمان بن جامع ونخبتهم الذين يعتمد عليهم . ودامت الحرب بين أبي العباس وبينهم ذلك اليوم إلى أن حَجَز الليل بين الفريقين . ورعى أبو العباس في ذلك اليوم كُرْكُيا طائرا ، فوقع بين الزنج والسهم فيه ، فقالوا : هذا سهم أبي العباس ، وأصابهم منه دُعر ، واستأمن في هذا اليوم بعضهم إلى أبي العباس فسأله عن الموضع الذي فيه سليمان بن جامع ، فأخبره أنه مقيم بمدينة التي بناها بطهينا ، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان ، وأن معه هنالك جميع أصحابه لإشبالا وأبا الندى ؛ فإنهما بالخوانيت لحفظ الغلات التي حَوَّوها . فأمر حينئذ أبو أحمد أصحابه بالتوجه إلى طهينا ، ووضع العطاء ، فأعطى عسكره ، وشخص مصاعداً إلى بردود ، ليخرج منها إلى طهينا ؛ إذ كان لا سبيلَ له إليها إلا بذلك ، فظنَّ عسكره أنه هارب ، وكادوا ينفضون لولا أنهم عرفوا حقيقة الحال ، فأنهى إلى القرية بالخواندية ، وعقد جسرا على النهر المعروف بمهرود ، وعبر عليه الخيل ، وسار إلى أن صار بينه وبين مدينة سليمان التي سماها النصورة بطهينا ميلان ، فأقام هناك بعسكره ، ومطرت السماء مطرا جَوْدًا ، واشتدَّ البرد أيام مُقامه هنالك ، فشغل بالمطر والبرد عن الحرب فلم يحارب ، فلما فتركب في غفر من قواده ومواليه لارتداد موضع لجال الخيل ، فأنهى إلى قريب من سور تلك المدينة ، فتلقاه منهم خلق كثير وخرج عليه كُمَاء من مواضع شتى ، واشتدَّت الحرب واشدَّت ، فترجل جماعة من الفرسان ، ودافعوا حتى خرجوا عن المضائق التي كانوا أوغلوها ، وأسير من غلمان أبي أحمد غلامٌ يقال له وصيف العَلَمدار وعدة من قواد زيرك ، وقيل في هذا اليوم أحمد بن مهدى الجبائي أحد القواد العظماء من الزنج ، رماه أبو العباس بسهم فأصاب أحدَ منخريه حتى خالط دماغه ، فخرَّ صريعا ، وحمل من المعركة وهو حي ، فسأل أن يحمل

إلى الناجم ، لحمل من هناك إلى نهر أبي الخصب إلى مدينة الناجم التي سماها المختارة ، فوضع بين يديه ، وهو على مابه ، فعظمت المصيبة عليه به إذ كان من أعظم أصحابه غناء ، وأشدّهم تصبّراً لإطاعته ، فمكث الجبائيّ يعالّج هنالك أياماً ثم هلك ، فاشتدّ جزع الناجم عليه ، وصار إليه ، فولى غسله وتكفينه والصلاة عليه ، والوقوف على قبره إلى أن دفن ؛ ثم أقبل على أصحابه فوعظهم ، وذكر موت الجبائيّ . وكانت وفاته في ليلة ذات رُعود وبروق .

فقال فيما ذكر عنه : لقد سمعتُ وقت قبض روحه زَجَل الملائكة بالدعاء له ، والترحم عليه . وانصرف من دفنه مفكسراً ، عليه السكابة .

قال أبو جعفر : فلما انصرف أبو أحمد ذلك اليوم من الوقعة ، غاداهم بكثرة الغدّه ، وعبّا أصحابه كتائب فرسانا ورجالة ، وأمر بالشذا والسمير يات أن يسار بهامعه في النهر الذي يشقّ مدينة طهيشا ، وهو النهر المعروف بنهر المنذر ، وسار نحو الزنج ؛ حتى انتهى إلى سور المدينة قريب قوادغلمانة في المواضع التي يخف خروج الزنج عليه منها ، وقدم الرجالة أمام الفرسان ، ونزل فصلى أربع ركعات ، وابتهل إلى الله تعالى في النّصر والدعاء للمسلمين ، ثم دعا بسلاحه فلبسه ، وأمر ابنه أبا لعباس أن يتقدم إلى السور ويحضّ الغلمان على الحرب ففعل ؛ وقد كان سليمان بن جامع أعدّ أمام سور المدينة التي سماها المنصورة خندقاً ، فلما انتهى الغلمان إليه تهيّبوا عبوره ، وأحجموا عنه ، فخرّضهم قوادهم ، وترجّلوا معهم فاقتحموه متجاسرين عليه ، فعبروه وانتهوا إلى الزنج وهم مشرفون من سور مدينةهم ، فوضعوا السلاح فيهم ، وعبرت شِرْذمة من الفرسان الخندق خوفاً ، فلما رأى الزنج خبر هؤلاء الذين لقوهم وجراءتهم عليهم ، ولوّا منهم زمين ، واتبه هم أصحاب أبي أحمد ، ودخلوا

المدينة من جوانبها ، وكان الزنج قد حصنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به ، فجعلوا يقفون عند كل سور وخندق انتهوا إليه ، وأصحاب أبي أحمد يكشفونهم في كل موقف وقفوه ، ودخلت الشذا والسميريات مدينتهم مشحونة بالغلمان المقاتلة من النهر الذي يشقها بعد انهمزاهم ، فأغرقت كل ما سرت به لهم من شذا أو سميرية ؛ واتبعوا من تجافى النهر منهم ؛ يقتلون ويأسرون ؛ حتى أجلوهم عن المدينة وعمما يتصل بها ، وكان ذلك زهاء فرسخ ، فحوى أبو أحمد ذلك كله ، وأفلت سليمان بن جامع في نفر من أصحابه ، واستحضر القتل فيهم والأسر ؛ واستنقذ من نساء أهل واسط وصبيانهم وما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء عشرة آلاف ؛ فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإيفاق عليهم ، وحملوا إلى واسط فدفعوا إلى أهلهم ، واحتوى أبو أحمد على كل ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي ؛ فكان شبيهاً جليل القدر ، فأمر ببيع الغلات وغيرها من العروض ، وصرفه في أعطيات عسكره ومواليه وأسرى نساء سليمان وأولاده عدة ، واستنقذ يومئذ وصيف العلمدار من كان أسره الزنج معه ، فأخبر جوامع الحبس ، وقد كان الزنج أمجلمهم الأمر عن قتله وقتلهم ، وأقام أبو أحمد بطريقاً سبعة عشر يوماً ، وأمر بهدم سور المدينة ، وطم خنادقها ، ففعل ذلك ، وأمر بتتبع من لجأ منهم إلى الآجام ، وجعل لكل من أتاه برجل منهم جُعلاً ؛ فسارع الناس إلى طلبهم ، فكان إذا أتى بالواحد منهم خلع عليه وأحسن إليه ، وضمه إلى قواد غلمانه لما دبر من استمالتهم ، وصرفهم عن طاعة صاحبهم ، وندب نصيراً صاحب الماء في شذا وسميريات لطلب سليمان بن جامع والهاربين معه من الزنج وغيرهم ، وأمره بالجد في اتباعهم ؛ حتى يجاوز البطائح ، وحتى يلج دجلة المعروفة بالمرءاء ؛ وتقدم إليه في فتح السكور^(١) التي كان سليمان أحدثها ليقطع بها الشذا عن دجلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب ؛ وتقدم إلى

(١) السكور : جم سكر بالسكسر ؛ وهو ما سد به النهر .

زيرك في المقام بطهينما في جمع كثير من العسكر، ليتراجع إليها الذين كان سليمان أجلاهم عنها من أهلها، فلما أحكم ما أراد إحكامه، تراجع بعسكره مزمعا على التوجه إلى الأهواز ليصلحها؛ وقد كان قدّم أمامه ابنه أبا العباس، وقد تقدّم ذكره على أبان المهلبى، وكونه استولى على معظم كور الأهواز، ودوخ جيوش السلطان هناك، وأوقع بهم، وغلب على معظم تلك النواحي والأعمال.

فلما تراجع أبو أحمد وافى بردودا، فأقام بها أياما، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه المسير على الظهر إلى الأهواز، وقدّم أمامه من يصلح الطرق والمنازل؛ وبعد فيها الميرة للجيوش التي معه؛ ووافاه قبل أن يرحل عن واسط. زيرك منصرفا عن طهينما، بعد أن تراجع إلى النواحي التي كان بها الزنج أهلها؛ وخلفهم آمنين، فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار في الشدا والسمريات في نخبة عسكره وأنجادهم، فيصير بهم إلى دجلة الموراء، فتجتمع يده ويد نصير صاحب الماء على نقض دجلة، واتباع المهزمين من الزنج والإقباغ بكل من لقوا من أصحاب سليمان إلى أن ينتهي بهم المسير إلى مدينة الناجم بنهر أبي الخصيب، فإن رأوا موضع حرب حاربوه في مدينة؛ وكتبوا بما يكون منهم إلى أبي أحمد، ليرد عليهم من أمره ما يعملون بحسه.

واستخلف أبو أحمد كل من خلفه من عسكره بواسط. ابنه هارون، وأزمع على الشخصوس في خيف^(١) من رجاله وأصحابه، ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنه هارون في أن يحذر الجيش الذي خلفه معه في السفن إلى مستفره بدجلة، إذا وافاه كتابه بذلك، وارتحل شاخصا من واسط. الأهواز وكورها، فنزل بأذين، إلى الطيب، إلى قرقوب إلى وادي السوس؛ وقد كان عقده عليه جسر، فأقام به من أول النهار إلى وقت الظهر؛ حتى عبر عسكره أجمع. ثم سار حتى وافى السوس فنزلها؛ وقد كان أمر مسرورا بالبأخى وهو عامله على الأهواز ياقدوم؛ عليه فوافاهم في جيشه وقواده من غد اليوم الذي نزل فيه السوس؛

(١) الطبرى: « فيمن خف ».

تخلع عليه وعليهم ، وأقام بالسُّوس ثلاثاً ، وكان ممن أسير من الزنج بطهيتا أحمد بن موسى ابن سميد البصري المعروف بالقلوص ، وكان قائداً جليلاً عندهم ، وأحد عُدَد الناجم ، ومن قدماء أصحابه ، أسير بعد أن أثنى جراحات كانت فيها منيته ، فأمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط .

قال أبو جعفر : واتصل بالناجم خبر هذه الوقعة بطهيتا ، وعلم ما نيل من أصحابه ، فانتفض عليه تدبيره وضلت حيلته ، فحمله الهلع إلى أن كتب إلى علي بن أبان المهلبى ، - وهو يومئذ مقيم بالأهواز فى زهاء ثلاثين ألفاً - يأمره بترك كل ما كان قبلة من الميرة والأثاث ، والإقبال إليه بجميع جيوشه ، فوصل الكتاب إلى المهلبى ، وقد أتاه الخبر بإقدام أبى أحمد إلى الأهواز وكورها ، فهو لذلك طائر العقل . فقرأ الكتاب ، وهو يحفزُه فيه حفزاً بالمصير إليه ، فترك جميع ما كان قبلة ، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائى . فلما شتخص المهلبى عنه لم يثبت ولم يقيم ، لما عنده من الوجل وتراؤف الأخبار بوصول أبى أحمد إليه ، فأخلى ما استخلف عليه ، وتبع المهلبى - وبالأهواز يومئذ ونواحيها من أصفاف الحبوب والتمر والمواشى شىء عظيم - فخرجوا عن ذلك كله ، وكتب الناجم أيضاً إلى بهبوذ بن عبد الوهاب القائد - وإليه يومئذ الأعمال التى بين الأهواز وفارس - يأمره بالقدوم عليه بمسكركه ، فترك بهبوذ ما كان قبلة من الطعام والتمر والمواشى ، فكان ذلك شيئاً عظيماً ، فحوى جمع ذلك أبو أحمد ؛ فكان قوة له على الناجم ، وضعفاً للناجم .

ولما رحل المهلبى عن الأهواز بث أصحابه فى القرى التى بينه وبين مدينة الناجم ، فانتهبوها وأجلوا عنها أهلها ، وكانوا فى سلمهم ؛ وتختلف خلق كثير ممن كان مع المهلبى من الفرسان والرجالة عن اللحاق به ، وأقاموا بنواحي الأهواز ، وكتبوا يسألون أبا أحمد

الأمان لما انتهى عنه إليهم من عفوه عمن ظفرو به من أصحاب الناجم ؛ وكان الذي دعا الناجم إلى أمر المهلب وبهبوذ بسرعة المصير إليه ، خوفه موافاة أبي أحمد بجيوشه إليه ، على الحالة التي كان الزنج عليها من الوجَل وشدة العرب ، مع انقطاع المهلب وبهبوذ فيمن كان معهم عنه . ولم يكن الأمر كما قدّر ، فإنّ أبا أحمد إنما كان قاصداً إلى الأهواز ؛ فلو أقام المهلب بالأهواز وبهبوذ بمكانه في جيوشهما ، لكان أقرب إلى دفاع جيش أبي أحمد عن الأهواز ، وأحفظ للأموال والفلات التي تركت بعد أن كانت اليد قابضة عليها ،

قال أبو جعفر : وأقام أبو أحمد حتى أحرز الأموال التي كان المهلب وبهبوذ وخلفاؤها تركوها ، وفتحت السكور التي كان الناجم أحدثها في دجلة ، وأصلحت له طارقه ومسالكه . ورحل أبو أحمد عن السوس إلى جُنديسابور فأقام بها ثلاثاً ، وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر ، فوجه في طلبها وحملها ، ورحل عن جُنديسابور إلى تستر ، فأقام بها لجباية الأموال من كور الأهواز ، وأنفذ إلى كل كورة قائداً ليردج بذلك حمل المال ، ووجه أحمد بن أبي الأصبع إلى محمد بن عبدالله الكردي ، صاحب رامهرمز وما يليها من القلاع والأعمال ، وقد كان مالا المهلب ؛ وحمل إلى الناجم أموالاً كثيرة ، وأسره بإبناسه وإعلامه ماعليه رأيه في العفو عنه ، والتعمد لزلته ، وأن يتقدم إليه في حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز بجميع من معه من الموالى والعلمان والجمد ، ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق ، وينهضهم معه لحرب الناجم . ففعل وأحضرهم ، وعرضوا رجلاً رجلاً ، وأعطوا ثم رحل إلى عسكر مُسكرم ، فجعله منزلة أياماً ، ثم رحل منه فوافى الأهواز وهو يرى أنّه قد تقدّمه إليها من الميرة ما يحمل عساكره ، فلم يكن كذلك ، وغاظ الأمر في ذلك اليوم ، واضطرب الناس اضطراباً شديداً ، فأقام ثلاثة أيام ينتظر ورود الميرة فلم ترد ، فسأت أحوال الناس ، وكاد ذلك يفرق جماعتهم ، فبحث عن السبب المؤخر لورودها ،

فوجد الزيت قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية ، كانت بين سوق الأهواز ورامهرمز ، يقال لها قنطرة أربق ، فامتنع التجار ومن كان يحمل الميرة من الورد ، لقطع تلك القنطرة ، فركب أبو أحمد إليها ، وهى على فرسخين من سوق الأهواز ، فجمع من كان فى العسكر من السودان ، وأخذهم بنقل الصخر والحجارة لإصلاح هذه القنطرة ، وبذل لهم من أموال الرعية ، فلم يرم حتى أصلحت فى يومه ذلك ، وردت إلى ما كانت عليه ، فسلكتها الباس ، ووافت القوافل بالميرة ، فحى أهل العسكر ، وحسنت أحوالهم ، وأسر بجمع السفن لعقد الجسر على دجيل الأهواز ، فجمعت من جميع الكور ، وأقام بالأهواز أياما حتى أصلح أصحابه أمورهم ، وما احتاجوا إليه من آلاتهم ، وحسنت أحوال دوابهم ، وذهب عنها ما كان بها من الضرر بتأخر الأعلاف ، ووافت كتب القوم الذين تخلفوا عن المهلبى ، وأقاموا بعده بسوق الأهواز يسألون أبا أحمد الأمان ، فأتمهم ، فأتاه منهم نحو ألف رجل ، فأحسن إليهم ، وضمهم إلى قواد غلمانه ، وأجرى لهم الأرزاق ، وعقد الجسر على دجيل الأهواز ، ورحل بعد أن قدم جيوشه أمامه ، وعبر دجيلا ، فأقام بالموضع المعروف بقصر المأمون ثلاثا ، وقد كان قدم ابنه أبا العباس إلى نهر المبارك ، من فرات البصرة ، وكتب إلى ابنه هارون بالانحدار إليه ليجتمع العساكر هناك ، ورحل أبو أحمد عن قصر المأمون إلى قورج العباس ، ووافاه أحمد بن أبى الأصبح هناك بهدايا محمد بن عبد الله السردى صاحب رامهرمز من دواب ومال ^(١) . ثم رحل عن القورج فنزل الجعفرية ، ولم يسكن بها ماء ، وقد كان أنفذ إليها وهو بعد فى القورج من حفر آبارها ، فأقام بها يوما وليلة ، وألقى بها ميرا مجموعة ، فأتسع الجند بها ، وتزودوا منها ، ثم رحل إلى المنزل المعروف بالبشير ، فألقى فيه غديرا من ماء المطر ، فأقام به يوما وليلة ، ورحل إلى المبارك وكان منزلا بعيد المسافة ،

(١) الطبرى : « وشار وغير ذلك » .

فَتَلَقَّاهُ ابْنَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ وَهَارُونَ فِي طَرِيقِهِ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ، وَسَارَا بِسِيرِهِ، حَتَّى وَرَدَ بِهِمُ الْمُبَارَكُ؛
وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ لِلْبَيْصِ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ : سَمِعَ وَسَمِعِينَ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ، فَأَمَّا نُصَيْرُ وَلِزْبَرْكٍ، فَقَدْ كَانَا اجْتَمَعَا بِدَجَلَةِ الْعَوْرَاءِ، وَانْحَدَرَا حَتَّى وَافِيَا
الْأُبُلَّةَ بِسَفْنِهِمَا وَشَذَاهُمَا، فَاسْتَأْمَنَ إِلَيْهِمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّاجِمِ، فَأَعْلَمَهُمَا أَنَّهُ قَدْ أَنْفَذَ
عَدَدًا كَثِيرًا مِنَ السَّمِيرِيَّاتِ وَالزَّوَارِقِ مَشْحُونَةٍ بِالزَّيْتِ، بِرَأْسِهِمْ قَائِدٌ مِنْ قُوَّادِهِ؛ يَقَالُ لَهُ
مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَيَكْنَى أَبُو عَيْسَى .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَمُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ هَذَا، رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، جَاءَ بِهِ إِلَى النَّاجِمِ
صَاحِبُ شُرْطَتِهِ الْمَعْرُوفِ بِبَسَّارٍ، وَاسْتَصْلَحَهُ لِكِتَابَتِهِ فَسَكَانَ يَكْتُبُ لَهُ حَتَّى مَاتَ ^(١)،
وَقَدْ كَانَتْ ارْتَفَعَتْ حَالُ أَحْمَدَ بْنِ مَهْدِيٍّ الْجُبَّائِيِّ عِنْدَ النَّاجِمِ، وَوَلَّاهُ أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ، فَضَمَّ
مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ هَذَا إِلَيْهِ، فَسَكَانَ كَاتِبُهُ، فَلَمَّا قَتَلَ الْجُبَّائِيُّ فِي وَقْعَةِ سَلِيمَانَ الشَّعْرَانِيَّ، طَمَعَ
مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ هَذَا فِي مَرَاتِبِهِ، وَأَنْ يَحْمِلَهُ النَّاجِمُ مَحَلَّهُ، فَنَبَذَ الْقَلَمَ وَالِدَوَاةَ، وَلَبِسَ آلَةَ الْحَرْبِ،
وَتَجَرَّدَ لِلْقِتَالِ، فَأَنَهَضَهُ النَّاجِمُ فِي هَذَا الْجَيْشِ، وَأَمَرَهُ بِالْإِعْتِرَاضِ فِي دَجَلَةِ لِمَدَافِعَةِ مَنْ
يَرُدُّهَا مِنَ الْجِيُوشِ، فَسَكَانَ ^(٢) يَدْخُلُهُ أحيانًا، وَأحيانًا يَأْتِي بِالْجَمْعِ الَّذِي مَعَهُ إِلَى النَّهْرِ
الْمَعْرُوفِ بِنَهْرِ يَزِيدَ، وَكَانَ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ مِنْ قُوَّادِ الزَّيْتِجِ شَهْلُ بْنُ سَالِمٍ وَعَمْرُو الْمَعْرُوفِ
بِفُلَامِ بُوذِي ^(٣) وَأَخْلَاطُ مِنَ السُّودَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَاسْتَأْمَنَ رَجُلٌ مِنْهُمْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ
إِلَى لِزْبَرْكٍ وَنُصَيْرٍ، وَأَخْبَرَهُمَا خَبْرَهُ، وَأَعْلَمَهُمَا أَنَّهُ عَلَى الْقَصْدِ لِسُودٍ عَسْكَرَ نُصَيْرٍ . وَكَانَ نُصَيْرُ
يَوْمَئِذٍ مَعَسْكَرًا بِنَهْرِ الْمَرْأَةِ، وَإِنْتَهَمَ عَلَى أَنْ يَسْلُكُوا الْأَنْهَارَ الْمُعْتَرِضَةَ عَلَى نَهْرِ مَعْقِلٍ، وَبَثَّقَ

(١) الطَّبْرِي : « فَسَكَانَ يَكْتُبُ لِبَسَّارٍ عَلَى مَا يَلِي حَتَّى مَاتَ » .

(٢) الطَّبْرِي : « فَسَكَانَ فِي دَجَلَةِ أحيانًا » .

(٣) كَذَا فِي الطَّبْرِي .

شِيرين حتى يوافوا الشرطة ، ويخرجوا من وراء العسكر ، فيكبّوا على مَنْ فيه ، فرجع نصير
عند وصول هذا الخبر إليه من الأُبلة ، مبارزا إلى عسكره وسار لزيك قاصدا بثق شيرين ،
معارضاً لمحمد بن إبراهيم ، فنقيّه في الطريق ، فوهب الله له العلوّ عليه بعد صبر من الزّنج له ،
ومجاهدة شديدة ، فانهزموا ولجئوا إلى النهر الذي فيه كمينهم ، وهو نهر يزيد ، فدلّ لزيك
عليهم ، فتوغّلت إليهم سميرياته^(١) ، فقتل منهم طائفة وأسر طائفة ؛ فكان محمد بن إبراهيم
فيمن أسير ، وعمر و غلام بوذي ، وأخذ ما كان معهم من السميريات ؛ وهى نحو ثلاثين
سميرية ، وأفلت شبل بن سالم في الذين نجوا معه ، فلحق بعسكر الناجم ، وخرج لزيك
في بثق شيرين سالماً ظافراً ، ومعه الأسارى ورءوس القتلى ؛ مع ماحوى من السميريات
والسفن ، وانصرف من دجلة العوراء إلى واسط ، وكتب إلى أبى أحمد بالفتح ، وعظم
الجزع على كل من كان بدجلة وكورها من أتباع الناجم ؛ فاستأمن إلى نصير صاحب الماء ،
وهو مقيم حينئذ بنهر المرأة زهاء ألفى رجل من الزّنج وأتباعهم .

فكتب إلى أبى أحمد يخبرهم ، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان ، وإجراء الأرزاق
عليهم ، وخططهم بأصحابه ، ومناهضة العدو بهم ، ثم كتب إلى نصير يأمره بالإقبال إليه إلى
نهر المبارك ؛ فوفاه هنالك .

وقد كان أبو العباس عند منصرفه إلى نهر المبارك ، انحدر إلى عسكر الناجم في الشّداء ،
فأوقع بهم في مدينته بنهر أبى الخصيب ، فكانت الحرب بينهما من أوّل النهار إلى آخر
وقت الظّهر .

واستأمن إليه قائد جليل من قوّاد الناجم من المضمومين ، كانوا إلى سليمان بن جامع ،
يقال له منتاب ، ومعه جماعة من أصحابه ؛ فكان ذلك مما كسر من الناجم وانصرف أبو
العباس بالظّفر ، وخلع على منتاب الزّبحى ، ووصله وحمله . فلما لقي أباه أخبره خبره ، وذكر

(١) الطبرى : « عليهم سميراته وشذواته » .

إليه خروجه إليه في الأمان ، فأمر أبو أحمد له بخلع وصلة ومحلان ، وكان منتاب أول من استأمن من جملة قواد الناجم .

قال أبو جعفر : ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك^(١) كان أول ما عمل به في أمر الناجم أن كتب إليه كتاباً يدعو فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى ؛ مما ارتكب من سفك الدماء ، وانتهاك المحارم ، وإخرا ب البلدان والأمصا ر ، واستحلال الفروج والأموال ، وانتحال ما لم يحمله الله أهلاً من النبوة والإمامة ، ويعلمه أن التوبة له ميسوطة ، والأمان له موجود ؛ فإن نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله تعالى ، ودخل في جماعة المسلمين ، محا ذلك ماسكف من عظيم جرائمه ؛ وكان له به الحظّ الجزيل في دنياه وآخرته ، وأنفذ ذلك إليه مع رسول ، فالتمس الرسول إصاله إليه ، فامتنع الزنج من قبول الكتاب ، ومن إصاله إلى صاحبهم ، فألقى الرسول الكتاب إليهم إلقاء ، فأخذوه وأتوا به صاحبهم ، فقرأه ولم يحب عنه شيء ، ورجع الرسول إلى أبي أحمد ، فأخبره . فأقام خمسة أيام متشاغلاً بعرض السفن ، وترتيب القواد والموالي والعلمان فيها ، وتخير الرماة ، وانتخابهم للمسير بها .

ثم سار في اليوم السادس في أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الناجم^(٢) التي سمّاها المختارة ، من نهر أبي الخصيب فأشرف عليها ، وتأملها فرأى منعتها وحصانتها بالشور والنفادق المحيطة بها ، وغور^(٣) الطريق المؤدّي إليها ؛ وما قد أعد^(٤) من الجانيق

(١) الطبري : « ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك يوم السبت لانسف من رجب سنة سبع وستين ومائتين »

(٢) الطبري : « فلما كان يوم الخميس سار أبو أحمد في أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الخبيث » .

(٣) الطبري : « وما عور من الطرق المؤدية لها » .

(٤) الطبري : « وأعد » .

والعرادات^(١) والقسيّ النواكبيّة ، وسائر الآلات على سُورها ، فرأى ما لم ير مثله ممن تقدّم من منازعي السلطان . ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استفلظ أمره .

ولما عين الزنج أبا أحمد وأصحابه ، ارتفعت أصواتهم بما ارتجت له الأرض ، فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنه أبا العباس بالتقدّم إلى سور المدينة ، ورشق من عليه بالسهم ، ففعل ودنا ، حتى الصق شدواته بمسناة قصر الناجم ، وانحاز الزنج بأسرهم إلى المواضع الذي دنت منه الشذا . وتحاشدوا ، وتناحبت سهامهم وحجارة منجنقاتهم وعراداتهم ومقاليعهم ، ورمى عوامهم بالحجارة عن أيديهم ؛ حتى ما يقع طرف ناظر على موضع إلا رأى فيه سهماً أو حجراً .

وثبت أبو العباس ، فرأى الناجم وأشياؤه من جهدهم واجتهادهم وصبرهم مالا عهد لهم بمثله من أحدٍ ممن حاربهم ، وحينئذ أمر أبو أحمد ابنه أبا العباس بالرجوع بمن معه إلى مواقعهم ليروّحوا عن أنفسهم ، ويدأوا جروحهم ، ففعلوا ذلك ، واستأن في هذه الحال إلى أبي أحمد مقاتلان من مقاتلة السمريّات من الزنج ، فأتياه بسُميريّاتهما وما فيها من الملاحين والآلات ، فأمر لهما بخلع ديباج ومناطق محلّاة بالذهب ، ووصلهما بمال ، وأمر للملاحين بخلع من الحرير الأحمر والأخضر الذي حسن موقعه منهم ، وعمّهم جميعاً بصيالاته ، وأمر بإدنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم ؛ فكان ذلك من أنجع^(٢) المكائد التي كيّد بها صاحب الزنج ؛ فلما رأى الباقيون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم رغبوا في الأمان ، وتنافسوا فيه ، فابتدر منهم جمع كثير مسرعين نحوه ، راغبين فيما شرّع لهم منه . فأمر أبو أحمد لهم بمثل ما أمر به لأصحابه ؛ فلما رأى الناجم ركون أصحاب السمريّات إلى الأمان ، ورغبتهم فيه ، أمر بردّ من كان منهم في دجلة إلى نهر أبي

(١) المرادة : شبه المنجنق ؛ إلا أنها صغيرة .

(٢) الطبرى : « أنجع » .

الخصيب ، ووكل بفوهة النهر مَنْ يَمْنَعُهُم الخروح ، وأمر بإظهار شذاوته الخاصة ، وندب لهم بهبوذ بن عبد الوهاب - وهو من أشدّ كراته بأساً ، وأكثرم عدداً وعدّة - فانتدب بهبوذ لذلك ؛ وخرج في جمع كثيف من الزّنج فسكانت بيته وبين أبي حمزة نصير صاحب الماء وبين أبي العباس بن أبي أحمد وقعات شديدة ، في كلّها يظهر عليه أصحاب السلطان ، ثم يعمود فيرتاش ويحتشد ، فيخرج فيواقمهم ، حتى صدّقوه الحرب ، وهزموه وألجئوه إلى فناء قصر الفاجم ، وأصابته طعناتان ، وجرح بالسهم ، وأوهنت أعضائه الحجارة ، وألجئوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت ، وقُتل قائد جليل معه من قوّاد الزنج ذو بأس ونجدة ؛ وتقدّم في الحرب ؛ يقال له عميرة .

واستأمن إلى أبي أحمد جماعة أخرى ، فوصلهم وحبّاهم وخلّع عليهم ، وركب أبو أحمد في جميع جيشه وهو يومئذ في خمسين ألف رجل ، والفاجم في ثلاثمائة ألف رجل ، كلهم يقاتل ويدافع ؛ فن ضارب بسيف ، وطاعن برمح ، ورام بقوس ، وقاذف بمقلاع ، ورام بعراة ومفجّيق ، وأضعفهم أمر الرماة بالحجارة عن أيديهم ، وهم النظارة المسكثرون للسّود ، والمعيتون بالذّعر والصياح ، والنساء يشرنّ كنهنّ في ذلك أيضاً ، فأقام أبو أحمد بإزاء عسكر الفاجم إلى أن أضحى ، وأمر فودى : الأمان مبسوط للناس : أسودهم وأحرهم ، إلا لعدوّ الله الدّاعي علىّ بن محمد . وأمر بسهام فعلقت فيها رقايع مكتوب فيها من الأمان ، مثل الذي نودى به ، ووعد الناس فيها الإحسان ورمى بها إلى عسكر الفاجم ، فالت إليه قابوب خلق كثير من أولئك ؛ ممّن لم يكن له بصيرة في اتباع الفاجم ، فأثابه في ذلك اليوم جمع كثير يحملهم الشّدّا والسّميريات ، فوصلهم وحبّاهم ، وقدم عليه قائدان من قوّاده ، وكلاهما من مواليه ببغداد ، أحدهما بكتمر والآخر بفرا^(١) في جمع

(١) طبرى : « جعفر بن بلاءز » .

من أصحابهما ؛ فكان ورودها زيادةً في قوّته . ثم رحل في غدٍ هذا اليوم بجميع جيشه ، فنزل متاخماً لمدينة النّاجم في موضع كان تختاره للنزول ، فأوطن ^(١) هذا الموضع ، وجعله معسكراً له وأقام به ، ورتب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم ، فجعل نصيراً صاحب الماء في أول المعسكر ، وجعل زيرك التركي في موضع آخر ، وعلى بن جهشار حاجبه في موضع آخر ، وراشداً مولاه في مواليه وغلماؤه الأتراك والخزر والروم والديلمة والطبرية والمغاربة والزنج والفراغنة والعجم والأكراد ، محيطاً هو وأصحابه بمضارب أبي أحمد وفساطيطه وسُرادقائه ، وجعل صاعداً بن مخلد وزيره وكتابه في جيش آخر من الموالى والغلمان ، فوق عسكر راشد ، وأنزل مسروراً البلخي القائد صاحب الأهواز في جيش آخر على جانب من جوانب عسكره ، وأنزل الفضل ومحمداً ابني موسى بن بغا في جانب آخر بجيش آخر ^(٢) ، وتلاهما القائد المعروف بموسى ^(٣) ، وأنجوا في جيشه وأصحابه ، وجعل بُراج التركي على ساقته في جيش كشيّف بمدة عظيمة ، وعدد جم . ورأى أبو أحمد من حال النّاجم وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم معه أنه لا بدّ له من الصبر عليه ، وطول الأيام في محاصرته ، وتفريق جموعه ، وبذل الأمان لهم ، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم ، والغلظة على مَنْ أقام كلّ غيّه منهم ، واحتاج إلى الاستسكثار من الشّذا وما يحارب به في الماء ، وشرّع في بناء مدينة مماثلة لمدينة النّاجم ، وأمر بإنفاذ الرسل في تحمل الآلات والصنّاع من البرّ والبحر ، وإنفاذ الميّر والأزواد والأقوات وإيرادها إلى عسكره بالمدينة التي شرع فيها ، وسماها الموقفية . وكتب إلى عماله بالنّواحي في تحمل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة ، وألا يحتمل إلى بيت المال بالخرّصة درهم واحد ، وأنفذ رسلاً إلى سيراف وجَمّابة ^(٤) في بناء الشّذا

(١) أوطن الموضع : أقام فيه .

(٢) الطبري : « في جيشيهما على النهر المعروف بهالة » .

(٣) الطبري : « موسى دالجوبه » .

(٤) الطبري : « وجنابا »

والاستبصار منها حاجته إلى أن يثبتها ويفرقها في المواضع التي يقطع بها الميرة عن الناجم وأصحابه ، وأمر بالكتابة إلى عماله في إنفاذ كل من يصلح للإثبات والعرض في الدواوين ؛ من الجند والمقاتلة ، وأقام ينتظر ذلك شهرا أو نحوه ، فوردت المير متتابعة ، يتلو بعضها بعضا ، ووردت الآلات والصناعات والمدينة ، وجهاز التجار صنوف التجارات في الأتممة ، وحملوها إليها ، واتخذت بها الأسواق ، وكثر بها التجار والمجهزون من كل بلد ، ووردت إليها مراكب من البحر ، وقد كانت انقطعت لقطع الناجم وأصحابه سبلها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين ، وبني أبو أحمد في هذه المدينة المسجد الجامع ، وصلى بالداس فيه واتخذ دور الضرب ، فضرب بها الدنانير والدرهم ، فجمعت هذه المدينة جميع المرافق وسبق إليها صنوف المنافع ؛ حتى كان ساكنوها لا يفقدون فيها شيئا ، مما يوجد في الأمصار العظيمة القديمة ، وحملت الأموال وأدّر العطاء على الناس في أوقاته ، فأتسعوا وحسنت أحوالهم ، ورغب الداس جميعا في المصير إلى هذه والمقام بها .

قال أبو جعفر : وأمر الناجم بهود بن عبد الوهاب ، فعبّر والداس غارون في سمريات إلى طرف عسكري أبي حمزة صاحب الماء ، فأوقع به ، وقتل جماعة من أصحابه ، وأسر جماعة ، وأحرق أكواخا كانت لهم ، وأرسل إبراهيم بن جعفر الهمداني - وهو من جملة قواد الناجم - في أربعة آلاف زنجي ، ومحمد بن أبان المسكني - أبا الحسين - أخا علي بن أبان المهلب - في ثلاثة آلاف والقائد المعروف بالدور في ألف وخمسمائة ، ليغيروا على أطراف عسكري أبي أحمد ويوقعوا بهم . فذير بهم ^(١) أبو العباس ، فنهى إليهم في جمع كثيف من أصحابه ، وكانت بينه وبينهم حروب كان الاستظهار فيها كلها له ، واستأمن إليه جماعة منهم ، فخلع عليهم ، وأمر أن يوقفوا بإزاء مدينة الناجم إيعاينهم أصحابه ، وأقام أبو أحمد يكاید الناجم ، ويبذل

(١) نذر : علم .

الأموال لأصحابه تارة ، وبواقمهم وبجارهم تارة ؛ ويقطع الميرة عنهم ، فسرى بهبود الزنجى فى الأجلاذ المنتخبين من رجاله ليلة من الليالى ، وقد تأدى إليه خبر قنيروان^(١) ورد للتجار ، فيه صنوف التجارات والأمتعة والمير ، فكن فى النخل ، فلما ورد القيروان ، خرج إلى أهله وهم غارون ، فقتل منهم وأسر ، وأخذ ما شاء أن يأخذ من الأموال .

وقد كان أبو أحمد علم بورود ذلك القيروان ، وأنفذ قائداً من قواده لبذرقة^(٢) فى جمع خفيف ، فلم يكن لذلك القائد بهبود طاقة ، فانصرف عنه منهزماً . فلما انتهى إلى أبى أحمد ذلك ، غلظ عايله ما نال الناس فى أموالهم وتجاراتهم ، فأمر بتمويضهم . وأخلف عليهم مثل الذى ذهب منهم ، ورتب على فوهة النهر المعروف بنهر بيان ، وهو الذى دخل القيروان فيه جيشاً قويا لحراسته .

قال أبو جعفر : ثم أنفذ الفاجم جيشاً عليه القائد المعروف بصندل الزنجى ، وكان صندل هذا - فيما ذكر - يكشف وجوه الحرائر اللسلمات ورءوسهن ويقلهنّ تغليب الإمام ، فإن امتنعت منهنّ امرأة لطم وجهها ، ودفعها إلى بعض علوج الزنج يواقعها ، ثم يخرجها بعد ذلك إلى سوق الرقيق فيبيعها بأوكس الثمن ، فيسرّ الله تعالى قتله فى وقعة جرت بينه وبين أبى العباس ، أسر وأحضر بين يدى أبى أحمد ، فشدّه كتافاً ، ورماه بالسهم حتى هلك .

قال أبو جعفر : ثم ندب الناجم جيشاً آخر ، وأمره أن يغير على طرف من أطراف عسكر أبى أحمد وهم غارون ، فاستأمن من ذلك الجيش زنجى مذكور ، يقال له مهذب ،

(٢) البذرقة : الحراسة والحفارة .

(١) القيروان : القافلة .

كان من فرسان الزنج وشجعانهم ، فأنى به إلى أبى أحمد وقت إفطاره ، فأعلمه أنه جاء راعياً في الطاعة والأمان ، وأن الزنج على العبور في ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات ، وأن المندوبين لذلك أنجادهم وأبطالهم ، فأمر أبو أحمد أبا العباس ابنه أن ينهض إليهم في قواد عينهم له ، فنهضوا ، فلما أحس ذلك الجيش بأنهم قد نذروا بهم ، وعرفوا استئمان صاحبهم ، رجعوا إلى مدينتهم .

قال أبو جعفر : ثم إن الناجم ندب أجل قواده وأكبرهم قدراً عنده ، وهو على ابن أبان المهلبى ، وانهض له أهل البأس والجلد ، وأمره أن يبيت عسكر أبى أحمد ، فعبّر في زهاء خمسة آلاف رجل ، أكثرهم الزنج ، وفيهم نحو مائتى قائد من مذكورهم وعظمائهم ، فعبّر ليلاً إلى شرق دجلة ، وعزموا على أن يفترقوا قسمين : أحدهما خلف عسكر أبى أحمد والثانى أمامه ، ويفير الذين أمامه على أصحاب أبى أحمد ، فإذا ثاروا إليهم ، واستعرت الحرب ، أكتب أولئك الذين من وراء العسكر على من يليهم ؛ وهم مشاغيل بحرب من بإزائهم . وقدّر الناجم وعلى بن أبان أن يتهيأ لهما من ذلك ما أحبّاء ، فاستأمن منهم إلى أبى أحمد غلام كان معهم من الملاحين ليلاً ، فأخبره خبرهم ، وما اجتمعت عليه آراؤهم ، فأمر ابنه أبا العباس والغلمان والقواد بالحذر والاحتياط والجلد ، وفرّقهم في الجهتين المذكورتين .

فلما رأى الزنج أن تدبيرهم قد انتقض ، وأنه قد فُطن لهم ونذّر بهم ، كرّوا راجعين في الطريق الذى أقبلوا فيه ، طالبين التخلّص . فسبقهم أبو العباس ولزيرك إلى فوهة النهر لينعموهم من عبوره ، وأرسل أبو أحمد غلامه الأسود الزنجى الذى يقال له ثابت - وكان له قيادة على السودان الذين بعسكر الموفق - فأمره أن يعترضهم ، ويقف لهم في طريقهم

بأصحابه ، فأدركهم وهو في خمسمائة رجل ، فواقهم وشدَّ عَضُدَهُ أبو العباس ولزيرك بمن معهم ، فقتل من الزنج أصحاب الناجم خلق كثير ، وأسير منهم كثير ، وأفلت الباقون فلحقوا بمدينتهم ، وانصرف أبو العباس بالفتح وقد علق رموس الزنج في الشَّذَا وصلب الأسارى أحياء فيها ، فاعترضوا بهم مدينتهم ليُرهبوا أصحابهم ، فلما رأوهم رعبوا وانكسروا . واتصل بأبي أحمد أن الناجم مَوَّه على أصحابه ، وأوهم أن الرموس المرفوعة مُثْلٌ مثْلُها لهم أبو أحمد ليراعوا ، وأن الأسارى من المستأمنة . فأمر أبو أحمد عند ذلك بجميع الرموس والمسير بها إلى إزاء قصر الناجم ، والقذف بها في منجنيق منصوب في سفينة إلى عسكره ، ففعل ذلك ، فلما سقطت الرموس في مدينتهم ، عرف أولياء القتلى رموس أصحابهم ، فظهر بكأؤهم وصراخهم .

قال أبو جعفر : وكانت لهم وقعات كثيرة بعد هذه ، في أكثرها يهزم الزنج ويُنْظَرُ بهم ؛ وطلب وجوههم الأمان ، فكان ممن استأمن محمد بن الحارث القائد ، وإليه كان حفظ النهر المعروف بِمَنْسُكِي ، والصور الذي يلي عسكر أبي أحمد ، كان خروجه ليلاً مع عدَّة من أصحابه ، فوصله أبو أحمد بصِلَاتٍ كثيرة ، وخلع عليه ؛ وحمله على عدَّة دواب بحايتهم وآلاتها ، وأسنى له الرزق .

وكان محمد هذا حاول لإخراج زوجته معه - وهي إحدى بنات عمِّه - فمجزت المرأة عن اللحاق به ، فأخذها الزنج فردَّوها إلى الناجم ، فحبسها مدة ، ثم أمر بإخراجها والتداء عليها في السوق ، فبيعت .

ومن استأمن ، القائد المعروف بأحمد البرذعي كان من أشجع رجالهم ، وكان يكون أبداً مع المهاجى .

وكان ممن استأمن مر بدا^(١) القائد وبرنكوبة^(٢) وبيلوليه^(٣) ، فخلعت عليهم الخلع ووصلوا بالصلوات الكثيرة ، وحملوا على الخيول المحلاة ، وأحسن إلى كل من جاء معهم من أصحابهم .

قال أبو جعفر : فضاعت المير على الناجم وأصحابه ، فندب شبلاً القائد وأبا الندى — وهما من رؤساء قواده ، وقدماء أصحابه الذين يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم — وأمرهما بالخروج في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم ، والفصد إلى نهر الدبر ونهر المرأة ونهر أبي الأسد ، والخروج من هذه الأنهار إلى البطيحة ، والغارة^(٤) على المسلمين وأهل القرى وقطع الطرقات ، وأخذ جميع ما يقدرون عليه من الطعام والميرة وحمله إلى مدينته ، وقطعه عن الوصول إلى عسكر أبي أحمد . فندب أبو أحمد لقصدهم مولاة ازبرك في جيش كثيف ، بعضه في المساء ، وبعضه على الظهر ، فوافعهم في الموضع المعروف بنهر عمر ، فكانت يده وبينهم حرب شديدة ، أسفرت عن انكسارهم وخذلان الله لهم ، فأخذ منهم أربع مائة سفينة وأسرى كثيرين ، وأقبل بها وبهم ، وبالرءوس إلى عسكر أبي أحمد .

قال أبو جعفر : وندب أبو أحمد ابنه أبا العباس لقصد مدينة الناجم ، والعلو عليها ، فقصدها من النهر المعروف بالغربي ، وقد أعد الناجم به على بن أبان المهدي ، فاستعرت الحرب بين الفريقين ، فأمد الناجم عليا بإسليمان بن جامع في جمع كثير من قواد الزنج ، واتصلت الحرب ، واستأمن كثير من قواد الزنج إلى أبي العباس وامتدت الحرب إلى بعد العصر ، ثم انصرف أبو العباس ، فاجتاز في منصرفه بمدينة الناجم ، وقد انتهى إلى الموضع المعروف

(٢) الطبري : « وابن أنكلويه » .

(٤) الطبري : « للغارة » .

(١) الطبري : « مديد » .

(٣) الطبري : « ومنيته » .

بنهر الأتراك ، فرأى في ذلك النهر قلة من الزنج الذين يحرسونه ، فطمع فيهم ، فقصدهم ، وصعد جماعة من أصحابه سور المدينة ، وعليه فريق من الزنج ، فقتلوا من أصابوا هناك ، ونذر الناجم بهم ، فأنجدهم بقواد من قواده ، فأرسل أبو العباس إلى أبيه يستمده ، فوافى من عسكر أبي أحمد من خف من الغلمان ، فقوى بهم عسكر أبي العباس .

وقد كان سليمان بن جامع لما رأى أن أبا العباس قد أوغل في نهر الأتراك ، صعد في جمع كثير من الزنج ، ثم استدبر أصحاب أبي العباس وهم متشغلون بحرب من يازائهم على سور المدينة ، فخرج عليهم من ورائهم وخفقت طبولهم ، فانكشف أصحاب أبي العباس وحملت الزنج عليهم من أمامهم ، فأصيب في هذه الواقعة جماعة من غلمان أبي أحمد وقواده ، وصار في أيدي الزنج عدة أعلام ومطارد ، وحامى أبو العباس عن نفسه حتى انصرف سالماً ، فأطمت هذه الواقعة الزنج وأتباعهم^(١) ، وشدت قلوبهم ، فأجمع أبو أحمد على العبور بجيشه أجمع ، وأمر بالاستعداد والتأهب ، فلما تهيأ له ذلك عبّر في آخر ذي الحجة من سنة سبع وستين ، في أكتف جمع ، وأكمل عدة ، وفرق قواده على أقطار مدينة الناجم ، وقصد هو بنفسه ركناً من أركانها ، وقد كان الناجم حصنه بابنه الذي يقال له أنسكلای ، وكنفه علي بن أبان ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمداني وحنه بالجانيق والعرادات^(٢) والقسي النواكيسة ، وأعد فيه الناشبة^(٣) وجمع فيه أكثر جيشه ، فلما التقى الجمعان أمر أبو أحمد غلمانه الناشبة والراحة^(٤) والسودان بالدنو من هذا

(١) الطبرى : « وتباعهم » .

(٢) المرادة بالتشديد : من آلات الحرب ، أصغر من المنجنيق

(٣) الناشبة : الرماة بالنشاب ؛ والنشاب : السهام ؛ مأخوذة من النشوب .

(٤) الراحة : الرماة بالرمح .

الركن ، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك ، وهو نهر عريض عزيز الماء ، فلما انتهوا إليه أحجموا عنه ، فصيح بهم ، وحرّضوا على العبور ، فعبروه سباحةً ، والزنج ترميهم بالجانيق والعرّادات والمقاليع والحجارة عن الأيدي ، والسهماء عن قسيّ اليد ، وقسيّ الرجل ، وصنوف الآلات التي يرمى عنها ، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر وانتهوا إلى السور ، ولم يكن لحقهم من الفعلة من كان أعدّه لهدمه . فتولّى الغلمان تشييت السور بما كان معهم من السلاح ، وبسّر الله تعالى ذلك ، وسهلوا لأنفسهم السبيل إلى علوه ، وحضرهم بعض السلاطين التي كانت اتخذت لذلك ، فعلوا الركن ونصبوا عليه علماً عليه مكتوب : «الموفق بالله» ، وأكبت عليهم الزنج ، فحاربوا أشدّ حرب ، وقتل من قوّاد أبي أحمد القائد المعروف بثابت الأسود ، رُميَ بسهم في بطنه فمات ، وكان من جملة القوّاد ، وأحرق أصحابُ الموفق ما على ذلك الركن من المدجّنات والعرّادات .

وقصد أبو العباس بأصحابه جهةً أخرى من جهات المدينة ليُدخلها من النهر المعروف بمنسكى ، فعارضه علىّ بن أبان في جمع من الزنج ، فظهر أبو العباس عليه ، وهزمه ، وقتل قوماً من أصحابه ، وأفلت علىّ بن أبان المهلّج راجعاً ، وانتهى أبو العباس إلى نهر منسكى وهو يرى أنّ المدخل من ذلك الموضع سهل ، فوصل إلى الخندق ، فوجده عريضاً منيعاً ، فحمل أصحابه أن يعبروه فعبروه ، وعبرته الرّجالة سباحةً ، ووافوا السور فثلموا منه ثلماً واسعاً لهم دخولها فدخلوا ، فلقى أوتهم سليمان بن جامع وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية ، فحاربوه وكشفوه ، وانتهوا إلى النهر المعروف بان سمان ، وهو نهر سيق بالمدينة ، وصارت الدار المعروفة بدار ابن سمان في أيديهم ، فأحرقوا ما كان فيها وهدموها .

فوقفت الزنج على نهر ابن سمان ، وقوفاً طويلاً ودافعوا مدافعةً شديدةً ، وشدّ بعض موالى الموفق علىّ بن أبان فأدبر عنه هارباً فقبض على مؤذره ، فخل على المنزر ونهذه إلى الغلام ، ونجا بعد أن أشرف على الهلكة ، وحمل أصحاب أبي أحمد على الزنج ، فكشفوهم

عن نهر ابن سمان، حتى وافوا بهم طرف المدينة، وركب الفاجم بنفسه في جمع من خواصه؛ فتلقاه أصحاب الموفق، فعرفوه وحملوا عليه، وكشفوا مَنْ كان معه حتى أفرد، وقرب منه بعضُ الرجال حتى ضرب وجه فرسه بترسه، وكان ذلك وقت غروب الشمس، وحجَز الليل بينهم وبينه وأظلم، وهبَّت ريح شمال عاصف، وقوى الجزر؛ فلصق أكثر سفن الموفق بالطين، وحرَّض الناجم أصحابه، فتاب منهم بجمع كثير، فشدوا على سفن الموفق، فخلوا منها نيلاً، وقتلوا نفرًا، وصمد بهبود الزنجي لسرور الباختي بنهر الذربي، فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر أسرى، وصار في يده دواب من دوابهم، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفق، وقد كان هرب في هذا اليوم كثير من قواد صاحب الزنج، وتفرقوا على وجوههم نحو نهر الأمير وعبادان وغيرهما، وكان ممن هرب ذلك اليوم منهم أخو سليمان ابن موسى الشعراني ومحمد وعيسى، فضيا يؤمّن البادية، حتى انتهى إليهم أروجع أصحاب الموفق، ومائيل منهم، فرجعا، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا في عسكر الفاجم، وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد، فأمنهم، ووجه إليهم السفن، وحملهم إلى الموقية، وخلع عليهم، وأجرى لهم الأرزاق والأنزال.

وكان ممن رغب في الأمان من قواد الفاجم القائد المعروف بريحان بن صالح المفري، وكانت له رئاسة وقيادة، وكان يتولّى حجة أنكلاني بن الناجم^(١). فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفذ إليه عدد كثير من الشدا والشميريات والمعابر مع لزيك القائد، صاحب مقدمة أبي العباس؛ فسلك نهر اليهودي إلى آخره، فألقى به ريحان القائد ومن كان معه من أصحابه، وقد كان الموعد تقدّم منه في موافاة ذلك الموضع. فسار لزيك به وبهم إلى دار الموفق، فأمر لريحان بخلع جليلة،

(١) الطبري: «ابن الحيث المعروف بأنكلاني».

وحمل على عدة أفراس بآلتها وحليتها، وأجيز بجائزة سنّية، وخَلَع على أصحابه، وأجيزوا على أقدارهم ومراتبهم، وضمّ ربحان إلى أبي العباس، وأمر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار الناجم، فوقفوا هنالك في الشّدَا؛ عليهم الخلع الملوّنة بصنوف الألوان والذهب حتى عاينهم مشاهدة، فاستأمن في هذا اليوم من أصحاب ربحان الذين كانوا يتخلفوا عنه ومن غيرهم جماعة، فألحقوا في البرّ والإحسان بأصحابهم ^(١).

ثم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسّجّان في أول يوم من سبعة ثمان وستين ومائتين، وكان أحد ثقات الناجم، ففعل به من الخلع والإحسان ما فعل بربحان، وحمل في سُميرية حتى وقف بإزاء قصر الناجم؛ حتى يراه أصحابه، وكلمهم وأخبرهم أنهم في غرور من صاحبهم، وأعلمهم ما وقف عليه من كذبه وفجوره؛ فاستأمن في هذا اليوم خلق كثير من قوّاد الزنج وغيرهم، وتتابع النّاس في طلب الأمان، وأقام أبو أحمد يُجِمُّ أصحابه، ويداوى جراحهم، ولا يحارب ولا يعبر إلى الزنج إلى شهر ربيع الآخر.

ثم عبر جيشه في هذا الشهر المذكور مرتباً على ما استصلحه من تفريقه في جهات مختلفة، وأمرهم بهدم سور المدينة، وتقدّم إليهم أن يقتصرُوا على الهدم، ولا يدخلوا المدينة، ووكل بكل ناحية من الفواحي التي وجّه إليها قوّاده سفناً فيها الرّماة، وأمرهم أن يحمّوا بالسهم من يهدم السور من الفعلة، ففعلت في هذا اليوم من السور ثلث كثيرة، واقتحم أصحاب أبي أحمد المدينة من جميع تلك الثلث وهزموا من كان عليها من الزنج، وأوغلوا في طلبهم، واختلف بهم طرق المدينة، وتفرقت بهم السكك والفجاج،

(١) في الطبري بعدها: « وكان خروج ربحان بعد الوقعة التي كانت يوم الأربعاء في يوم الأحد لليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وستين ومائتين ».

وانتهوا إلى أبعدين المواضع التي كانوا وصلوا إليها في المرة التي قبلها، فتراجعت إليهم الزنج، وخرج عليهم كفاؤهم من نواح يهتدون إليها، ولا يعرفها جيش أبي أحمد. فتجبر جيش أبي أحمد، فقتل منهم خلق كثير، وأصاب الزنج منهم أسلحة وأسلاباً؛ وأقام ثلاثون دليلاً من أصحاب أبي أحمد يُدافعون عن الناس ويحمونهم، حتى خلّص إلى السفن مَنْ خلّص، وقتلت الديالة عن آخرها، وعظم على الناس ما أصابهم في هذا اليوم، وانصرف أبو أحمد إلى مدينته الموقّية، فجمع قوّاده، وعذّلهم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والإفساد عليه في رأيه وتديبره، وتوعّدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لمثل ذلك، وأمر بإحصاء المقتولين^(١) من أصحابه، فأتيَ بأسمائهم، فأقرّ ما كان جارياً لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسّن موقع ذلك، وزاد في صحة نيات أصحابه، لما رأوا من خياطته خلف مَنْ أصيب في طاعته.

قال أبو جعفر: وشرع أبو أحمد في قطع الميرة عن مدينة النّاجم من جميع الجهات، وقد كان يجلب إليهم من السمك الشيء العظيم من مواضع كثيرة، فبيع ذلك عندهم، وقتل القوم الذين كانوا يجلبونه، وأخذت عليهم الطّرق، واسدّد عليهم كلّ مسلك كان لهم، وأضرّ بهم الحصار، وأضعف أبدانهم وطالت اللدّة، فسكان الأسير منهم يؤسّر، والمستأمن يستأمن؛ فيُسأل عن عهده بالخبر^(٢)، فيقول: منذ سنة أو سنتين؛ واحتاج مَنْ كان منهم مقيماً في مدينة النّاجم إلى الحيلة لقوّته، فتفرّقوا في الأنهار النائية عن عسكرهم طلباً للقوت، وكثرت الأسارى منهم في عسكر أبي أحمد؛ لأنه كان يلتقطهم بأصحابه يوماً فيوماً، فأمر باعتراضهم^(٣) لما رأى كثرتهم، فمَنْ كان منهم ذا قوّة وجلّد ونهوض بالسلاح منّ عليه، وأحسن إليه، وخلّطه بغلمان السودان، وعرفهم ما لهم عنده من البرّ والإحسان ومَنْ كان منهم ضعيفاً لا حراك به، أو شيخاً فانياً لا يطيق تحمل السلاح، أو مجروحاً جراحة قد أزمنته، أمرَ بأن يكسّى ثوبين، ويوصل بدارهم، وبزود ويحمل إلى عسكر

(١) الطبري: «المفقودين».

(٢) في الأصول: «بالخبر»، والصواب ما أثبتته من الطبري.

(٣) د: «بعضهم».

الناجم ، فيلقى هناك بعد أن بوصى^(١) بوصف ماعين من إحصان أبي أحمد إلى كل مَنْ يصير إليه ، وأن ذلك رأيه في جميع مَنْ يأتيه مستأمناً ، أو يأسره ، فتحمي له بذلك ما أراد من استمالة الزنج ؛ حتى استشعروا الميل إلى ناحيته ، والدخول في سبيله وطاعته .

قال أبو جعفر : ثم كانت الواقعة التي قتل فيها بهبوذ^(٢) الزنجي القائد وجرح أبو العباس ، وذلك أن بهبوذ كان أكثر أصحاب الناجم غارات ، وأشدّهم تعرضاً لقطع السبل ، وأخذ الأموال ، وكان قد جمع من ذلك لنفسه ما لا جليلاً ، وكان كثير الخروج في السُميريات الخفاف ، فيخترق بها الأنهار المؤدية إلى دجلة ، فإذا صادف سفينة لأصحاب أبي أحمد أخذها واستولى على أهلها ، وأدخلها النهر الذي خرج منه ، فإن تبعه تابع حتى توغل في طلبه ، خرج عليه من ذلك النهر قوم من أصحابه ، قد أعدّهم لذلك ، فأقطعوه وأوقعوا به . فوقع التحرش حينئذ منه ، والاستعداد لغاراته ، فركب شذاة ، وشبهها بشذوات أبي أحمد ، وانصب عليها علماً مثل أعلامه ، وسار بها ومعه كثير من الزنج ، فأوقع بكثير من أصحاب أبي أحمد ، وقتل وأسر . فندب له أبو أحمد ابنه أبا العباس في جمع كثير ، فكانت بينهما وقعة شديدة ، ورُمي فيها أبو العباس بسهم فأصابه ، وأصاب بهبوذ طعنة في بطنه من يد غلام من بعض سُميريات أبي العباس ، فهو إلى الماء ، فابتدره أصحابه ، فحملوه ورجعوا به إلى عسكر الناجم ، فلم يصلوا به إلا وهو ميت ، فعظمت الفجعة به على الناجم وأولياؤه ، واشتد عليه جزعهم ، وخفي موته على أبي أحمد ؛ حتى استأمن إليه رجل من الملاحين ، فأخبره بذلك ؛ فسرّ ، وأمر بإحضار الغلام الذي طعنه ، فوصله وكساه وطوّقه ، وزاد في رزقه . وأمر لجميع مَنْ كان في تلك السُميرية بصِلات وخِلع ، وعولج أبو العباس من جُرّحه مدّة حتى برأ ، وأقام أبو أحمد في مدينته الموقّية ممسكاً عن حرب الزنج ، محاصراً لهم

(٢) الطبري : بهبوذ بن عبد الوهاب .

(١) الطبري : « يؤمر » .

بسدّ الأنهار وسكّرها ، واعترض من يخرج منهم لجلب الميرة ، ومنتظرا يرو ولده ؛ حتى
كَمَل بعد شهور كثيرة ، وانقضت سنة ثمان وسنتين .
ونقل إسحاق بن كنداجيق عن البصرة وأعمالها ؛ فوُلّي الموصلَ والجزيرة وديار
ربيعة وديار مُضر .

ودخلت سنة تسع وستين وأبو أحمد مقيمٌ على الحصار ، فلما أَمِنَ على أبي العباس ،
وركب على عادته ، عاود النهوضَ إلى حرب النّاجم .

قال أبو جعفر : وقد كان بهبود لمّا هلك طِمَح النّاجم في أمواله لكثرتها ووفورها ،
وصحَّ عنده أنه ترك مائتي ألف دينار عينا ، ومن الجواهر وغيرها بمثل ذلك ، فطلب المالبّة
المذكور بكلّ حيلة ، وحبس أولياء بهبود وقرابته وأصحابه ، وضر بهم بالسياط ، وأثار دوراً
من دوره ، وهدم أبنية من أبنية ؛ طمعا في أن يجد في شيء منها دفيئا ؛ فلم يجد من ذلك شيئا ؛
فكان فعله هذا أحداً ما أفسد قلوب أصحابه عليه ، ودعاهم إلى الحرب ^(١) معه ، والزهد في صحبته ،
فاستأمن منهم إلى أبي أحمد خلقٌ كثير ، فوصلتهم وخلع عليهم ، ورأى أن يبرّد جلة من
الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي ، فيجعل لنفسه هناك معسكرا ، ويبني به مدينةً أخرى ،
ويضيّق خناق النّاجم ، ويتمكّن من مغاداته ومراوحتة بالحرب ، فقد كانت الرياح العاصف
تحولُ بينه وبين عبور دجلة في كثير من الأيام بالجيش ؛ فأمر بقطع الدّخل المقارب للمدينة
النّاجم لذلك ، وإصلاح موضع يتخذ معسكرا ، وأن يحفّ بالخنادق ، ويحصر بالسور
ليأمن بيّات الزّنج ، وجعل على قوّاده نواب لذلك ، ومعهم الفعلة والرجال ، فقابل النّاجم
ذلك ؛ بأن جعل على بن أبان المهلبى وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمداني نوّبا
للحرب والمدافعة عن ذلك ؛ وكان أنكلاني بن النّاجم ربّما حضر في نوّبة أيضا ، وضمّ

(١) الطبري : « الحرب » .

إليه سليمان بن موسى بن الشعرائي ، وقد كان صار إليه من المذار بعد الوقعة التي انهزم فيها ،
وعلم الناجم أن أبا أحمد إذا جاوره صُعب أمره ، وقرُب على مَنْ يريد اللّحاق به من
الزّنج المسافة مع ما يدخل قلوب أصحابه بمجاورته من الرّعب والرّهبة ، وفي ذلك انتقاص
تدبيره ، وفساد جميع أموره ؛ فكانت الحرب بين قوَاد أبي أحمد وقوَاد الناجم متصلة ؛
على إصلاح هذا الموضع ، ومداومة الزّنج عنه .

واتفق أن عصفت الرياح يوماً وجماعة من قوَاد أبي أحمد بالجانب الغربيّ للعمل الذي
يريدونه ، فانهز الناجم الفرصة في امتناع العبور بدجلة ، لعصف الرياح ، فرماه بجميع
جيشه ، وكأثرهم برّجله ، فلم تجد الشّدوات التي مع قوَاد أبي أحمد سبيلاً إلى الوقوف بحيث
كانت واقفة به ، لحمل الرياح إياها على الحجارة ، وخوف^(١) أصحابها عليها من التّكسر ،
ولم يجدوا سبيلاً إلى العبور في دجلة ، لشدة الرياح واضطراب الأمواج ، فأوقعت الزّنج بهم ،
فقتلهم عن آخرهم ، وأفلت منهم نفر ، فعبروا إلى الموقية ، فاشتدّ جزع أبي أحمد وأصحابه
لما نالهم .

ولما تهيباً الزّنج عليهم ، وعظم بذلك اهتمامهم . وتعقب أبو أحمد الرأى ، فرأى أن
نزوله ومقامه بالجانب الغربيّ ، مجاور مدينة النّاجم خطأ ، وأنه لا يؤمن منه حيلة ، وانتهز
فرصة ، فيوقع بالمسكر بيئاتاً ، أو يجد مساعاً إلى^(٢) ما يكون له قوة ، لسكرة الأدغال في ذلك
الموضع ، وصعوبة المسالك ، وإنّ الزّنج على التّوغل في تلك المواضع الوعرة الموحشة أقدرُ وهو
عليهم أسهل من أصحابه ؛ فانصرف عن رأيه في نزول الجانب الغربيّ^(٣) ، وصرف همّه وقصده

(١) الطبري : « وما خاف » .

(٢) الطبري : « إلى شيء مما يكون » .

(٣) الطبري : « غربي دجلة » .

إلى هدم سور مدينة الناجم ، وتوسعة الطريق والمسالك لأصحابه في دخولها؛ فندب الفؤاد لذلك ، وندب الناجم قواده للمدافعة عنها ، وطال الأمد ، وتمادت الأيام .

فلما رأى أبو أحمد تحاشد الزنج وتعاونهم على المنع من هدم السور، أزمع على مباشرة ذلك بنفسه ، وحضوره إياه ، ليستدعى بذلك جد أصحابه واجتهادهم، ويزيد في عنايتهم وهمهم ، فحضر بنفسه ، واتصلت الحرب ، وغلظت على الفريقين ، وكثر القتل والجراح في الحزبين ، وأقام أبو أحمد أياما كثيرة يغاديهما الحرب ويراوحهما ، فسكانوا لا يفترون يوما من الأيام ، وصعب على أصحاب أبي أحمد ما كانوا يرومونه ، واشتدت حماية الزنج عن مدينتهم ، وباشر الناجم الحرب بنفسه، ومعه نخبة أصحابه وأبطالهم، والمؤمنون أنفسهم على الصبر معه ، فحاموا جهدهم، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدا منهم السهم أو الطعنة أو الضربة فيسقط ، فيجذبه الذي إلى جانبه، فينتحيه، ويقف موقفه إشفافا من أن يخلو موقف رجل منهم ، فيدخل الخلل عليهم .

واتفق في بعض الأيام شدة ضباب ستر بعض الناس عن بعض؛ فما يكاد الرجل يبصر صاحبه ، وظهر أصحاب أبي أحمد ، ولاحت تباشير الفتح ، ودخل الجند إلى المدينة وولجوها ، وملكوا مواضع منها ؛ وإنهم لعل ذلك ؛ حتى وصل سهم من سهام الزنج إلى أبي أحمد؛ رماء بهرومي كان مع الناجم، يقال له قرطاس؛ فأصابه في صدره وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين. فستر أبو أحمد وخواصه ماناله من ذلك عن الناس ، وانصرف إلى الموقعية آخر نهار يومه هذا، فعولج في ايلته تلك وشدت الجراحة، وغدا على الحرب على ماناله من ألمها ليشد بذلك قلوب أصحابه من أن يدخلها وهن أو ضعف ، فزاد في قوة عنته ، بما حل على نفسه من الحركة ، فغلظت وعظم أسرها، حتى خيف عليه العطب ، واحتاج إلى علاج نفسه بأعظم ما يعالج به الجراح ؛ واضطرب لذلك

العسكر والجند والرعية؛ وخافوا قوة الزنج عليهم؛ حتى خرج عن الموقعية جماعة من التجار كانوا مقيمين بها لما وصل إلى قلوبهم من الرهبة .

قال أبو جعفر: وحُدثت على أبي أحمد في حال صعوبة علقته، حادثة في سلطانه وأمر متعلقة بما بينه وبين أخيه المعتمد، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرحلة عن معسكره إلى بغداد، وأن يخلف من يقوم مقامه، فأبى ذلك، وحاذر أن يكون فيه تلافى ما قد فرّق من شمل صاحب الزنج؛ فأقام على صعوبة علقته، وغلظ الأمر الحادث في سلطانه وصبر إلى أن عوفي، فظهر لقواده وخاصته؛ وقد كان أطال الاحتجاب عنهم، فقويت برؤيته منهم، وأقام مماثلاً مودّعا نفسه إلى شعبان من هذه السنة؛ فلما أبلى وقوى على الركوب والنهوض، نهض وعاد ما كان مواظبا عليه من الحرب، وجعل الفاجم لما صحّ عنده الخبر بما أصاب أبا أحمد بعد أصحابه العِدات، ويمتئهم الأمانى، واشتدّت شوكتهم، وقويت آمالهم، فلما اتّصل به ظهور أبي أحمد، جعل يحلف الزنج على منبره، أن ذلك باطل لا أصل له، وأن الذى رأوه في الشدا مثل مؤه وشبهه عليهم .

قلت : الحادث الذى حدث على أبي أحمد من جهة سلطانه، أن أخاه المعتمد؛ وهو الخليفة يومئذ، فارق دار ملكه، ومستقرّ خلافته مغاضبا له متجنّيا عليه، زاعما أنه مستبدّ بأموال المملكة وجبايتها، مضطهد له مستأثر عليه، فسكّاب ابن طولون صاحب مصر، وسأله أن يأذن له فى اللحاق به، فأجابه ابن طولون إلى ذلك، فخرج من سائرء فى جماعة من قواده ومواليه، قاصدا مصر. وكان أبو أحمد هو الخليفة فى المعنى؛ ولما المعتمد صورة

خالية من معاني الخلافة ، لا أمر له ولا نهى ، ولا حل ولا عقد ، وأبو أحمد هو الذى يرتب الوزراء والكتّاب ، ويقود القواد ، ويقطع الأقطاع ، ولا يرجع المعتمد فى شىء من الأمور أصلاً ، فاتصل به خبر المعتمد فى شخوصه عن سامراء ، وقصده ابن طولون ، فكتب إسحاق بن كنداحيق وهو يومئذ على الموصل والجزيرة ، فأمره أن يعترض المعتمد ؛ ويقبض عليه وعلى القواد والموالى الذين معه ويعيدهم إلى سامراء ، وكتب لإسحاق بإقطاعه ضياع أولئك القواد والموالى بأجمعهم ، فاعترضهم إسحاق ، وقد قرّبوا من الرقة ، فأخذهم وقبض عليهم ، وقيدهم بالقيود الثقيلة ، ودخل على المعتمد فعنفه ، وهجنه وعذّله فى شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه ، ومفارقة أخيه على الحال التى هو بها ، وحرب من يحاول قتله ، وقتل أهل بيته وزوال ملكهم .

ثم حملهم فى قيودهم حتى وافى بهم سامراء ، فأقرّ المعتمد على خلافته ، ومنعه عن الخروج ، وأرسل أبو أحمد ابنه هارون ، وكان به صاعد بن مخلد من الموفقية إلى سامراء فخلعوا على ابن كنداحيق ، خلعاً جليلاً ، وقُدّ بسيفين من ذهب ؛ ولُقّب ذا السيفين ؛ وهو أول من قُدّ بسيفين ، ثم خلع عليه بعد ذلك بيوم قباء دبّاج أسود ، ووشاحين مرصعين بالجواهر الثمين ، وتوّج بتاج من ذهب مرصع بنفيس الجواهر ، وقُدّ سيفاً من ذهب مرصع بالجواهر العظيمة ، وشيّه إلى منزله هارون وصاعد ، وقعدا على طعامه ؛ كلّ ذلك مكافأة له عن صنيعه فى أمر المعتمد . فليعجب المتعجب من همة الموفق أبى أحمد ، وقوة نفسه ، وشدة شكيمة ! أن يكون بإزاء ذلك العدو ، ويقتل من أصحابه كل وقت من يقتل ، ثم يصاب ولده بسهم ، ويصاب هو بسهم آخر فى صدره يشارف منه على الموت ، ويحدث من أخيه وهو الخليفة ما يحدث ، ولا تنكسر نفسه ولا يهوى عزمه ، ولا تضعف قوته . وبحق

ما سمى المنصور الثاني ! ولولا قيامه في حرب الزنج ، لانقرض مُلك أهل بيته ؛ ولما سكن الله تعالى ثبته لما يريد من بقاء هذه الدولة .

قال أبو جعفر : ثم جدّ الموفق في تخريب السور ، وإحراق المدينة ، إعداد المقاتلة والحطاة عن سُورِهِ ومدينته، فكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجلّ عن الوصف ، ورمى الفاجم سفن الموفق المقاربة لسور مدينته بالرصاص المذاب ، والمجانيق والعرادات، وأمر أبو أحمد بإعداد ظلة^(١) من خشب [للسد^(٢)] وإلباسها جلود الجواميس ، وغطية ذلك بالخيوش المطلية بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الإحراق، ففعل ذلك، وحُورب صاحب الزنج من تحتها، فلم تعمل ناره ورصاصه المذاب فيها شيئا، واستأمن إلى أبي أحمد محمد بن سمان ، كاتب الفاجم ووزيره في شعبان من هذه السنة، فهذ باستئمانه أركان الفاجم ، وأضعف قوته ، وانتدب أبو العباس نقصد دار محمد بن يحيى الكرنبائي ؛ وكانت بإزاء دار الفاجم ، وشرع في الحيلة في إحراقها ، وأحرق الموفق كثيرا من الرواشين^(٣) المظلة على سور المدينة وشعثها، وعلا غلمان أبي أحمد على دار الفاجم وولجوها وانتهبوها ، وأضرموا النار فيها ، وفعل أبو العباس بدار الكرنبائي مثل ذلك، وجرح أنسكلاني بن الفاجم في بطنه جراحة شديدة ، أشفى منها على التلف ، واتفق مع هذا الظفر العظيم أن غرق أبو حمزة نصير صاحب جيش الماء عند ازدحام الشدّوات وإكباب الزنج على الحرب، فصعّب ذلك على أبي أحمد، وقوى بغرقه أمر الزنج، وانصرف أبو أحمد

(١) الطبرى : « ظلال » ؛ وهما اسم جمع ؛ واحدهما ظلة ، بالضم .

(٢) من الطبرى .

(٣) الرواشين : جم روشن ؛ وهو السكوة .

آخر نهار هذا اليوم ، وعَرَضَتْ له عِلَّةٌ أقام فيها بقية شعبان وشهر رمضان ، وأياماً من شوال مَسْكاً عن حَرْب الزَّنج ، إلى أن استبَلَّ من علقته .

قال أبو جعفر: فلما أحرقت دار الناجم ودُور أصحابه ، وشارف أن يؤخذ ، وعرضت لأبي أحمد هذه العلة ، فأمسك فيها عن الحرب ، انتقل الناجم من مدينته التي بناها بغربى نهر أبي الخصب إلى شرقيته إلى منزل وغيره لا يخلص إليه أحد لاشتباك القصب والأدغال والأحطاب فيه ، وعليه خنادق من أنهار قاطعة معترضة ، ففطن هناك في خواصه ومن تخلف معه من جلة أصحابه وثقاته ، ومن بقي في نصرتهم من الزنج ؛ وهم حدود عشرين ألف مقاتل ، وانقطعت الميرة عنهم ، وبان للناس ضعف أمرهم ، فتأخر الجلب الذي كان يصل إليهم ، فبلغ الرطل من خبز البرّ عندهم عشرة دراهم ، فأكلوا الشعير ، ثم أكلوا أصناف الحبوب ؛ ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتبعون الناس ؛ فإذا خلا أحد منهم بصبي أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه . ثم صار قوى الزنج يعدّو على ضعيفهم ، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه ، ثم ذبحوا أولادهم ، فأكلوا لحومهم ، وكان الناجم لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلا بالحبس ، وإذا تطاول حبسه أطلقه .

ولما أبلّ الموفق من علقته ، وعلم انتقال الناجم إلى شرقي نهر أبي الخصب واعتصامه به ، أعمل فكره في تخريب الجانب الشرقي عليه ، كما فعل بالجانب الغربي ، ليمكن من قتله أو أسره ؛ فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدّحال^(١) وسدّ الأنهار ، وطمر الخنادق ، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار المبنية ، وإدخال الشدّاء ؛ وفيها المقاتلة إلى حريم الناجم ؛ وفي كلّ ذلك يدافع الزنج عن أنفسهم بحرب شديدة ، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس ، وتراق فيها الدماء ، وكان الظفر في ذلك كلّ لأبي أحمد ، وأمر الزنج يزداد ضعفاً

(١) الدحال : جم دحل ، وهو النقب الضيق الأعلى الواسع الأسفل ؛ يمكن أن يعمى فيه .

وطالت الأيام على ذلك ؛ إلى أن استأمن سليمان بن موسى الشعرائى ، وهو من عظمائهم ، وقد تقدّم ذكره ، فوجه يطلب الأمان من أبى أحمد ، ففدعه ذلك لما كان سلف منه من العيث وسفك الدماء بنواحى وسط .

ثم اتّصل بأبى أحمد أنّ جماعة من رؤساء الزنج قد استوحشوا لمعه الشعرائى من الأمان ، فأجاب إلى إعطائه الأمان استصلاحاً بذلك غيره من رؤساء الزنج ، وأمر بتوجيه الشّذا إلى موضع وقّع الميعاد عليه ، فخرج سليمان الشعرائى وأخوه ، وجماعة من قوّاده ، فنزلوا الشّذا ، فصاروا إلى أبى العباس ، فحملهم إلى أبى أحمد ، فخلع على سليمان ومن معه ، وحمله على عِدّة أفراس بسرّوجها وآلتها ، وأنزل له ولأصحابه أنزلاً سنّية ، ووصله بمال جليل ، ووصل أصحابه ، وضمّه وضمّهم إلى أبى العباس ، وأمر بإظهاره وإظهارهم فى الشّذا لأصحاب النّاجم ، ليزدادوا ثقةً بأمانته ، فلم تهرج الشّذا ذلك اليوم من موضعها ؛ حتى استأمن جمع كثير من قواد الزنج ، فوصلوا وألحقوا بإخوانهم فى الحُبّاء والبرّ والخلع ، والجوائز ؛ فلما استأمن الشعرائى اختلّ ما كان النّاجم قد ضبطه به من مؤخر عسكريه ، وقد كان جملة على مؤخر نهر أبى الخصب ، فوهى أمره وضعف ، ولقد ما كان سليمان يتولاه القائد المعروف بشبل بن سالم - وهو من قوّادهم المشهورين - فلم يمسّ أبو أحمد حتى وافاه رسول شبل ابن سالم يطلب الأمان ، ويسأل أزا ، يوقف له شذّوات عند دار ابن سمان ؛ لئلا يكون قصده فى الليل إلى سهل ، ومعه من يثق به من أصحابه ، فأجيب إلى سؤاله ، ووافى آخر الليل ومعه عياله وولده ، وجماعة من قوّاده ، فصاروا إلى أبى أحمد ، فوصله بصيلة جليّة ، وخلع عليه خلعاً كثيرة ، وحمله على عِدّة أفراس بسرّوجها وآلتها ، ووصل أصحابه ، وخلع عليهم ، وأحسن إليهم ؛ وأرسله فى الشّذّوات ، فوقفوا بحيث يراهم النّاجم وأصحابه نهائراً ، فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه ، وأخلص شبل فى مناصحة أبى أحمد ، فسأل أن يضمّ إليه عسكريه بيت به عسكر النّاجم ، ويسلك إليه من مسالك يعرفها هو ولا يعرفها أصحاب أبى أحمد ، ففعل

وكَبَسَ عسكر الناجم سَحَرًا ، فأوقع بهم وهم غارثون؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسرجمًا من قواد الزنج وانصرف بهم إلى الموفق، وذُعر الزنج من شبل وما فعله ، فامتنعوا من الذّوم ، وخافوا خوفًا شديدًا ، فكانوا يتحارسون بعد ذلك في كلّ ليلة ، ولا تزال البُفرة تقع في عسكرهم ، لما استشعروا من الخوف ، ووصل إلى قلوبهم من الوحشة ؛ حتى لقد كان ضجيجُهم وتحارُسهم يسمع بالموقية .

وصحّ عزم الموفق على العبور لمحاربة الناجم في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصب، فجلس مجلسًا عامًا، وأمر بإحضار قواد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجّالتهم من الزنج والبيضان فأدخلوا إليه ، فخطبهم وعرفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك الحرم، وما كان صاحبهم زينّه لهم من معاصي الله سبحانه ؛ وأنّ ذلك قد كان أحلّ له دماءهم، وأنه قد غفر الزّلة وعفا عن العقوبة ، وبذل الأمان ، وعاد على من لجأ إليه بالفضل والإحسان. فأجزل الصّلات ، وأسنى الأرزاق ، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة ، وأنّ ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقّه وطاعته ، وأنهم إن يأتوا بشيء يتعرّضون به لطاعة ربّهم ، والاستدعاء لرضا سلطانهم أوّلَى بهم من الجِدِّ في مجاهدة الناجم وأصحابه، وأنّهم من الخبرة بمسالك عسكر الناجم ومضايق طرق مدينته، والمعازل التي أعدّها للحرب على ما ليس عليه من غيرهم؛ فهم أخرى أن يمحضّوه نصيحهم ، ويجهدوا على الولوج إلى الناجم ، والتوغّل إليه في حصونه ؛ حتى يمسكّهم الله منه ومن أشياعه ، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد ، ومن قصر منهم استدعى من سلطانه إسقاط حاله ، وتصغير منزلته ووضع مرتبته .

فارتفعت أصواتهم جميعًا بالدعاء للموفق والإقرار بإحسانه ، وبما همّ عليه من صحّة الضمائر من السّمع والطاعة والجِدِّ في مجاهدة عدوّه ، وبذل دمائهم ومهجهم في كلّ ما يقرّ بهم منه ، وأنّ مادعاهم إليه قد قوّى منّهم ، ودلّهم على ثقته بهم ، وإحلاله إياهم

محلّ أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحيةً ، ولا يخلطهم بعسكره ، ليظهر من حُسن جهادهم بين يديه ؛ وخلص نياتهم في الحرب ، ونكايتهم في العدوّ وما يعرف به طاعتهم، وإفلاحهم عملاً كانوا عليه من جهلهم .

فأجابهم إلى ذلك ، وعزّتهم حسنَ ما ظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد .

قال أبو جعفر : ثم استمدّ أبو أحمد ورتّب جيشه ؛ ودخل إلى عسكر النّاجم شرقيّ نهر أبي الخصب في خمسين ألف مقاتل ، من البرّ والبحر ، فرسانا ورجالة ، يكبرون ويهلاّون ويقرءون القرآن ، ولم ضجيج وأصوات هائلة . فرأى النّاجم منهم ما هاله وتلقّاهم بنفسه وجيشه ؛ وذلك في ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين .

واشتبكت الحرب ، وكثر القتل والجراح ، وحامى الزّنج عن صახبهم وأنفسهم أشدّ محاماة ، واستماتوا ، وصبر أصحاب أبي أحمد ، وصدقوا القتال ، فنّ الله عليهم بالنصر ، وانهمزم الزّنج ، وقيل منهم خلقٌ عظيم ، وأسير منهم أسرى كثيرة ؛ فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى في المعركة ، وقصد بنفسه دار النّاجم ، فوافها وقد لجأ النّاجم إليها ؛ ومعه أجداد أصحابه للدفاع عنه .

فلما لم يفتنوا شيئاً أسلّوها ، وتفرّقوا عنها ، ودخلها غلمان الموفق ، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث ، فأخذوه وانتهبوه ، وأخذوا حرّمه وولده الذكور والإناث ؛ وتخلّص النّاجم بنفسه ، ومضى هارباً نحو دار عليّ بن أبان المهلبيّ ، لا يلوى على أهل ولا ولد ولا مال ، وأحرقت داره ، وحمل أولاده ونساؤه إلى الموقمية في التوكيل ، وقصد أصحاب أبي أحمد دار المهلبيّ ، وقد لجأ إليها النّاجم وأكثر الزّنج ، وتشاغل أصحاب أبي أحمد بنهب

الأموال من دور الزنج ، فاغتنم الناجم تشاغلهم بالنهب ، فأمر قواده بانتهاز الفرصة ، والإكباب عليهم ، فخرجوا عليهم من عدة مواضع ، وخرج عليهم كمناء أيضا قد كانوا مكنوم لهم ، فكشفوهم واتبعوهم حتى وافوا بهم نهر أبي الخصب ، فقتلوا من فرسانهم ورجالتهم جماعة ، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع .

ثم تراجع الناس ، ودامت الحرب إلى وقت العصر ، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرف أصحابه ، فأمرهم بالرجوع فرجعوا على هدوء وسكون ، كى لا تكون هزيمة ، حتى دخلوا سفنهم ، وأحجم الزنج عن اتباعهم ، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مرا كزهم .

قال أبو جعفر : ووافى إلى أبي أحمد في هذا الشهر كانبه صاعد بن مخلد من سامراء في عشرة آلاف ، ووافى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون - وكان إليه أمر الرقة وديار مضر - في عشرة آلاف من نخبة الفرسان وأنجادهم ، فأمر أبو أحمد لؤلؤا أن يخرج في عسكره فيحارب الزنج ، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبي أحمد من يده على الطرق والمضائق ؛ فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة في ذى الحجة من هذه السنة ؛ استظهر فيها لؤلؤ عليهم ؛ وبان من نجدة وشجاعة وإقدام أصحابه ، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ما سرّ أبا أحمد وملأ قلبه .

قال أبو جعفر : فلما دخلت سنة سبعين ومائتين ، تابعت الأمداد إلى أبي أحمد من سائر الجهات ، فوصل إليه أحمد بن دينار في تجمع عظيم من المطوعة ، من كور الأهواز ونواحيها ، وقدم بعده من أهل البحرين جمع كثير من المطوعة زهاء ألفي رجل ، يقودهم رجل من عبد القيس ، وورد بعد ذلك زهاء ألف رجل من فارس ، ورئيسهم شيخ من المطوعة يكنى أبا سلمة ، وكان أبو أحمد يجلس لكل من يرد ويخضع عليه ، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة ، ويصلهم بالصلوات ، فمطم جيشه جدًا ، وامتلات بهم الأرض ، وصح

عزمه على لقاء الناجم بجميع عسكره ، فرتب جيوشه ، وقسمهم على القواد ، وأمر كل واحد من القواد أن يقصد جهة من جهات معسكر الناجم عيها له ، وركب بنفسه ، وركب جيشه ، وتوغلوا في مسالك شرق نهر أبي الحصيب ، ولقيهم الزنج ، وقد حشدوا واستقبلوا ؛ فكانت بينهم وقعة شديدة ، منحهم الله تعالى فيها أكتاف الزنج ، فولوا منهزمين ؛ فاتبهم أصحاب أبي أحمد يقتلون ويأسرون ، فقتل منهم كثير ، وغرق كثير ، وحوى أصحاب أبي أحمد معسكر الناجم ومدينته ، وظفروا بعيال على بن أبان المهلبى وداره وأمواله ، فاحتروا عليها ، وعبر أهله وأولاده إلى الموقية مع كلابهم ، ومضى الناجم ومعه المهلبى وابنه أنسكلانى ، وسليمان بن جامع ، والهمدانى وجماعة من أكابر القواد ، حامدين إلى موضع كان الناجم قد أعدّه لنفسه ملجأ إذا غلب على مدينته وداره في النهر المعروف بالسفياى . فتقدم أبو أحمد ومعه لؤلؤ قاصدين هذا النهر ، لأن أبا أحمد دل عليه ، فأوغل في الدخول وفقد أصحابه ، فظنوا أنه رجع ، فرجعوا كلهم ، وعبروا دجلة في الشذا ظانين أنه عبر راجعا ، وانتهى أبو أحمد ومعه لؤلؤ ، قاصدين هذا النهر ، فافتحمه لؤلؤ بفرسه ، وعبر أصحاب لؤلؤ خلفه .

ووقف أبو أحمد في جماعة من أصحابه عند النهر ، ومضى الناجم هاربا ، ولؤلؤ يتبعه في أصحابه ؛ حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقربرى ، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه ، فأوقموا به وبين معه فكشفوهم ، فولوا هاربين حتى عبروا النهر المذكور ؛ ولؤلؤ وأصحابه يطردونهم من ورائهم ، حتى ألجئوهم إلى نهر آخر ، فعبروه واعتصموا بدحال وراءه ، فولجوها ، وأشرف لؤلؤ وأصحابه عليها فأرسل إليه الموفق ينهائهم عن اقتحامها ، ويشكرهم ، وبأمره بالانصراف ؛ فانفرد لؤلؤ هذا اليوم وأصحابه بهذا الفعل ؛ دون أصحاب الموفق ؛ فانصرف لؤلؤ محمود الفعل ، فحمله الموفق معه في شداته وجدد له من البر والكرامة ورفع المنزلة لئلا كان منه في أمر الناجم ، حسبا كان مستحقا له ؛ ولهذا نادى

أهلُ بغداد لما أدخل إليهم رأس الناجم بين يدي أبي العباس : ماشتم قولوا ، كان القتح للؤلؤ .

قال أبو جعفر : فجمع الموفق في غدٍ هذا اليوم قواده وهو حقيقٌ عليهم لانصرافهم عنه ، وإفرادهم إياه ، وكان لؤلؤ وأصحابه تولّوا طلب الناجم دونهم ، فعنفهم وعذّلم ووبّخهم على ما كان منهم ، وعجزهم وأغلظ لهم ، فاعتذروا إليه بما توهّموه من انصرافه ، وأنهم لم يعلموا أنه قد تلجج وأوغل في طلب الناجم ، وأنهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه .

ثم تحالفوا بين يديه ، وتعاقدوا ألا يبرحوا في غير موضعهم إذا توجهوا نحو الزّبح ، حتى يُظفرهم الله تعالى به ، فإن أعيام ذلك أقاموا حيث انتهى بهم النهار في أيّ موضع كان حتى يحكم الله بينهم وبينه . وسألوا الموفق أن يردّ السفن إلى الموقية ، بحيث لا يطمع طامع من العسكر في الالتجاء إليها والعبور فيها .

فقبل أبو أحمد عذرهم ، وجزاهم الخير عن تنصلهم ، ووعدهم بالإحسان ، وأمرهم بالتأهب للعبور ؛ ثم عبّر بهم على ترتيب ونظام قد أحكمه وقرره ، وذلك في يوم السبت المئتين خلّتا من صفر من سنة سبعين ومائتين ، وقد كان الناجم عاد من تلك الأنهار إلى معسكره بعد انصراف الجيش عنه ، فأقام به ، وأمل أن تتناول به وبهم الأيام^(١) ، وتدفع عنه المناجزة ، فلقية في هذا اليوم سرعان^(٢) العسكر ؛ وهم مغيظون محققون من التقرير والتوبيخ اللّاحقين بهم بالأمس ، فأوقعوا به وبأصحابه وقعةً شديدة ، أزالوهم عن مواقعهم ، فنفرتوا لا يلوي بعضهم على بعض ، واتّبعهم الجيش يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم ، وانقطع

(١) الطبري : « تتناول بهم الأيام » .

(٢) سرعان الناس : أوائلهم . وفي الطبري : « فوجد الموفق المتسرعين من فرسان غلمانه ورجالهم » .

(١٤ - نهج ٨)

النَّاجِمُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ كَمَا تَه مِنْ قُوَادِ الزَّنَجِ ؛ مِنْهُمْ الْمُهَلَّبِيُّ ، وَفَارَقَهُ ابْنَهُ انْسِكَلَانِي وَسُلَيْمَانُ
ابْنُ جَامِعٍ ، فَكَانَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مَجْتَمِعِينَ ، ثُمَّ افْتَرَقَا فِي الْحَزِيمَةِ ، فَصَادَفَ سُلَيْمَانُ بْنُ جَامِعٍ
قَوْمٌ مِنْ قُوَادِ الْمَوْفِقِ ، لِحَارِبِهِ وَهُوَ فِي جَمْعٍ كَثِيفٍ مِنَ الزَّنَجِ ، فَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنْ كَمَا تَه ،
وَوَظَّفِرَ بِهِ فَأَسْرَ ، وَحُلِلَ إِلَى الْمَوْفِقِ بِغَيْرِ عَهْدٍ وَلَا عَقْدٍ ، فَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ بِأَسْرِ سُلَيْمَانِ ،
وَكَثُرَ التَّكْبِيرُ وَالضَّجِيحُ ، وَأَيَقَنُوا بِالْفَتْحِ إِذْ كَانَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ غَنَاءً ، وَأَسْرَ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ
ابْنُ جَعْفَرِ الْمَدَنِيِّ ، وَكَانَ مِنْ عِظَاءِ قُوَادِهِ وَأَكْبَرِ أَمْرَاءِ جِيُوشِهِ ، وَأَسْرَ نَادِرُ الْأَسْوَدُ
الْمَعْرُوفُ بِالْحَفَّارِ ، وَهُوَ مِنْ قَدَمَاءِ قُوَادِ النَّاجِمِ ، فَأَمَرَ الْمَوْفِقُ بِتَقْيِيدِهِمُ بِالْحَدِيدِ ، وَتَصْيِيرِهِمْ فِي
شَدَاةٍ لِأَبِي الْعَبَّاسِ ، وَمَعَهُمُ الرِّجَالُ بِالسَّلَاحِ ، وَجَدَّ الْمَوْفِقُ فِي طَلَبِ النَّاجِمِ ، وَأَمِنَ فِي نَهْرٍ إِلَى
الْخَصِيبِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، أَنَّهُ الْبَشِيرُ بِقَتْلِ النَّاجِمِ فَلَمْ يَصْدُقْ ، فَوَافَاهُ بِشِيرٌ آخَرٌ ، وَمَعَهُ كَفٌّ
زَعَمَ أَنَّهَا كَفُّهُ ، فَقَوَّى الْخَبَرَ عِنْدَهُ بِعِضِّ الْقُوَّةِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَنَاهُ غُلَامٌ مِنْ غُلَامَانِ لَوْلَاؤِي رِكَضٌ
وَمَعَهُ رَأْسُ النَّاجِمِ ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَرَضَهُ الْمَوْفِقُ عَلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا تِلْكَ الْحَالِ مَعَهُ مِنْ
قُوَادِ الْمُسْتَأْمَنَةِ ، فَعَرَفُوهُ ، وَشَهِدُوا أَنَّهُ رَأْسُ صَاحِبِهِ ، نَفَرٌ سَاجِدٌ^(١) ، وَسَجَدَ ابْنُهُ أَبُو الْعَبَّاسِ ،
وَسَجَدَ الْقُوَادُ كُلُّهُمْ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَأَمَرَ بِرَفْعِ الرَّأْسِ
عَلَى قَنَازَةٍ ، وَنَصَبَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَرَأَاهُ النَّاسُ ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَالضَّجِيحُ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ لَمَّا أَحْبَطَ بِالنَّاجِمِ ، لَمْ يَبْقَ مَعَهُ مِنْ رُؤَسَاءِ أَصْحَابِهِ
إِلَّا الْمُهَلَّبِيُّ ، فَلَمَّا عَلِمَا أَنَّهُمَا مَقْتُولَانِ افْتَرَقَا ، فَوَقَفَ النَّاجِمُ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ هَذَا الْغُلَامُ وَمَعَهُ
جَمَاعَةٌ مِنْ غُلَامَانِ لَوْلَاؤِي ، فَنَازَعَ عَنْ نَفْسِهِ بِسَيْفِهِ حَتَّى عَجَزَ عَنِ الْمَمَانَعَةِ ، فَأَحَاطَ وَابَهُ وَضَرَبُوهُ
بِسُيُوفِهِمْ حَتَّى سَقَطَ ، وَنَزَلَ هَذَا الْغُلَامُ فَاحْتَزَّ رَأْسَهُ ، وَأَمَّا الْمُهَلَّبِيُّ فَإِنَّهُ قَصَدَ النَّهْرَ الْمَعْرُوفَ

(١) إِمْدَهُ فِي الطَّبَرِيِّ : « عَلَى مَا أَوْلَاهُ وَأَبْلَاهُ » .

بنهر الأمير، فخذف بنفسه يرومُ النجاة، وقبل ذلك كان ابن الفاجم وهو المعروف بأنكلافي فارق أباه، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالديناري، متهصّناً فيه بالأدغال والآجام، فلم يظفر بهما ذلك اليوم، ودلّ الموفق عليهما بعد ذلك.

وقيل له: إنّ معهما جمعا من الزنج وجماعة من جيلة قوادهم، فأرسل غلماناً في طلبهما، وأمرهم بالتضييق عليهما، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم، وأعطوا بأيديهم. فظفر بهم الغلمان، وحلّوهم إلى الموفق، فقتل منهم جماعة، وأمر بالاستيثاق من المهلب وأنكلافي بالحديد والرجال الموكّنين بهما.

قال أبو جعفر: وانصرف في هذا اليوم وهو يوم السبت، لليلتين خلتا من صفر وأحد من نهر أبي الخصيب، ورأس الناجم منصوب بين يديه على قفّاة في شذاة يُخترقُ به في النهر، والناس من جانبي النهر ينظرون إليه حتى وافى دجلة، فخرج إليها، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمدانيّ مصلوبان أحياء في شذاتين عن جانبيه، حتى وافى قصره بالموقية. هذه رواية أبي جعفر وأكثر الناس عليهما.

وذكر المسعودي في كتاب "مروج الذهب"، ^(١) أن الناجم ارتث، وُجِل إلى أبي أحمد وهو حيّ، فسلمه إلى ابنه أبي العباس، وأمر بتعذيبه، فجعله كردناجا ^(٢) على النار وجعله ينفخ، ويتفرقع حتى هلك.

والرواية الأولى هي الصحيحة، والذي جعل كردناجا هو قرطاس الذي رمى أباً أحمد

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٥ .

(٢) الكردناج، معناه السكباب، أو ما يشبهه (وانظر ديعزون).

بالسهم ، ذكر ذلك التنوخى فى ” نشوار المحاضرة ” ، قال : كان الزنج يصيحون لما رمى أبو أحمد بالسهم ، وتأخر لعلاج جراحته عن الحرب : ملجوه ملجوه ، أى قد مات وأنتم تسكتمون موته ، فاجعلوه كاللحم المكسود .

قال : وكان قرطاس الرامى لأبى أحمد يصيح بأبى العباس فى الحرب إذا أخذتني فاجعلني كدناجا ؛ يهزأ به .

قال : فلما ظفر به أدخل فى دُبره سيفاً من حديد ، فأخرجه من فيه ، وجعله على النار كدناجا .

قال أبو جعفر : ثم تتابع مجىء الزنج إلى أبى أحمد فى الأمان ، فحضر منهم فى ثلاثة أيام نحو سبعة آلاف زنجي ، لما عرفوا قتل أصحابهم ، ورأى أبو أحمد بذل الأمان لهم ، كى لا يبقى منهم بقية يخاف معرفتها فى الإسلام وأهله ، وانقطعت منهم قطعة نحو ألف زنجي مالت نحو البر ، فمات أكثرها عطشا ، وظفر الأعراب بمن سليم منهم ، فاسترقوهم ، وأقام الموفق بالموقفية ، بعد قتل الفاجم مدة ، ليزداد الناس بمقامه أنسا وأمانا ، ويتراجع أهل البلاد إليها ، ففسد كان الناجم أجلاهم عنها . وقدم ابنه أبو العباس إلى بغداد ، ومعه رأس الفاجم ، فدخلها يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ورأس الناجم بين يديه على قناة ، والناس يحتمون يشاهدونه .

وقد روى غير أبى جعفر ، وذكره الآبى^(١) فى مجموعه المسمى ” نثر الدرر ” ، عن العلاء ابن صاعد بن مخلد ، قال : لما حُلِ رَأْسُ صَاحِبِ الزَنْجِ وَدُخِلَ بِهِ الْمَعْتَصِدُ إِلَى بَغْدَادَ دَخَلَ فِي جَيْشِ

(١) هو الوزير زين الكفافة أبوسعبد منصور بن الحسين الآبى ، وزير مجد الدولة رستم بن فخر الدولة ابن بويه . وكتابه نثر الدرر فى المحاضرات ؛ منه نسخ خطية ؛ وأجزاء متفرقة فى دار الكتب المصرية .

لم يُرْ مثله، واشتق أسواق بغداد، والرأس بين يديه، فلما صرنا بباب الطاق، صاح قوم من دَرْبٍ من تلك الدُّروب: رحم الله معاوية وزاد! حتى علتْ أصواتُ العامة بذلك فتغيّر وجهُ المعتضد، وقال: ألا تسمع يا أبا عيسى! ما أعجبَ هذا! وما الذي اقتضى ذكر معاوية في هذا الوقت! والله لقد بلغَ أبي إلى الموت وما أفلتَ أنا إلا بعد مشارفته، ولقينا كلَّ جهدٍ وبلاء، حتى أنجينا هؤلاء السِّكّالاب من عدوهم، وحصّنا حُرَمَهم وأولادهم، فتركوا أن يترحموا على العباس وعبد الله ابنه وَمَنْ وَلَدَ من الخلفاء، وتركوا الترحم على عليّ بن أبي طالب، وحمزة وجعفر، والحسن والحسين؛ والله لا برحت أو أؤثر في تأديب هؤلاء أنرا لا يماودون بعد هذا الفعل مثله! ثم أمر بجمع الفُطّاطين ليحرق الناحية؛ فقلت له: أيّها الأمير، أطل الله بقاءك! إنَّ هذا اليوم من أشرف أيام الإسلام فلا تفسدْه بجهل عامّة لا أخلاق لهم. ولم أزل أداريه وأرفق به حتى سار.

فأما الذي يرويه الناسُ من أن صاحب الزنج ملك سواد بغداد، ونزل بالمداثن، وأن الموفق أرسل إليه من بغداد عسكرياً، وأصحبهم دنان الفبيذ، وأمرهم أن ينهزموا من بين يدي الزنج عند اللقاء، ويتركوا خيامهم وأثقالهم لينتهبها الزنج وأنهم فعلوا ذلك، فظفر الزنج فيما ظفروا به من أمتعتهم بتلك الدنان، وكانت كثيرة جداً، فشرّبوا تلك الليلة وسكروا، وباتوا على غيرة، فكبسهم الموفق وبيّتهم ليلاً وهم سكارى، فأصاب منهم ما أراد - فباطل موضوع لا أصل له؛ والذي بيّتهم وهم سكارى فنال منهم نيلاً تسكين البخارى؛ وكان على الأهواز بيت أصحاب عليّ بن أبان في سنة خمس وستين ومائتين؛ وقد أتاه الخبر بأنهم تلك الليلة قد عمل النّببذ فيهم؛ والصحيح أنه لم يتجاوز نهبهم ودخولهم البلاد النعمانية. هكذا رواه الناس كلهم.

قال أبو جعفر: فأما عليّ بن أبان وأنسكلاني بن الناجم وَمَنْ أَسِرَ معهما، فإنهم

حملوا إلى بغداد في الحديد والقيد ، فجعلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومعهم غلام للموفق يقال له فتح السعيدى ، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنين وسبعين ومائتين ؛ فكانت الزنج حركة بواسط ، وصاحوا : أنكلانى ، يا منصور ! وكان الموفق يومئذ بواسط ، فكتب إلى محمد بن عبد الله ، وإلى فتح السعيدى يأمرهما بتوجيه رءوس الزنج الذين فى الأسر إليه ، فدخل فتح السعيدى إليهم ، فجعل يخرج الأول فالأول فيذبجه على البالوعة كما تذبج الشاة ، وكانوا خمسة : أنكلانى بن الناجم ، وعلى بن أبان المهلبى ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمذانى ، ونادر الأسود ؛ وقاع رأس البالوعة وطرح فيها أبدانهم ، وسد رأسها ، ووجه برءوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط ، وانهطت حركة الزنج ، ويثس منهم .

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فى جُثث هؤلاء الخمسة ، فأمر بصلبهم بحضرة الجسر ، فأخرجوا من البالوعة ؛ وقد انتفخوا وتغيرت روائحهم ، وتقتشت جلودهم ، فصليب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقى وثلاثة على الجانب الغربى ؛ وذلك لسبع بقين من شوال من هذه السنة ، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صلبوا بحضرته .

وقد قال الشعراء فى وقائع الزنج فأكثرُوا كالبحتريّ وابن الرومى وغيرهما ؛ فن أراد ذلك فليأخذه من مظانه .

الأصل :

منها في وصف الأتراك :

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا كَانُوا جُوهَهُمُ الْمِجَانُ الْمُطْرَقَةُ ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالذِّيْبَاجَ ،
وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلِ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى
الْمَقْتُولِ ، وَيَكُونُ الْمَقْلُتُ أَقْلٌ مِنَ الْمَأْسُورِ .

فقال له بعض أصحابه : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب افضحك
عليه السلام وقال للرجل - وكان كلبيا :

يَا أَخَا كَلْبٍ ؛ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمٍ غَيْبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ ، وَإِنَّمَا عِلْمُ
الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا عَدَدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . . ﴾ الْآيَةُ ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ؛ وَمَنْ يَكُونُ
لِلنَّارِ حَطْبًا أَوْ فِي الْجَنَّةِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا ؛ فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ،
وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمُ عِلْمِهِ اللَّهُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعْلَمَهُ
صَدْرِي ، وَتَضَعُ عَلَيْهِ أَجْوَانِي .

البُخ :

المِجَان : جمع مَجْن بكسر الميم ، وهو الثُّرس ، وإنما سُمِيَ مِجْنًا ، لأنه يُسْتَقَر به ،
والجُنَّة : السترة والجمع جُنَن ؛ يقال استَجَنَّ بِجُنَّة ، أى اسْتَقَر بسترته .

والمُطَرِّقَة ، بسكون الطاء : التى قد أُطْرِقَ بِمَعْضَاهَا إلى بعض ، أى ضُمَّتْ طبقاتها ؛
لحَمْلَ بِمَعْضَاهَا يَتَلَوُّ بِمَعْضَاهَا ، يقال : جاءت الإبل مطاريق ؛ أى يَتَلَوُّ بِمَعْضَاهَا بَعْضًا . والنعل
المطَرِّقَة : الخُصُوفَة ، وأُطْرِقَتْ بالجلد والعَصَب ، أى أَلْبَسَتْ ، وتُرْسٌ مطَرِّق ، وطِراق
النعل : ما أُطْرِقَتْ وخُرِزَتْ به . وریش طِراق ؛ إذا كان بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، وطِراق
الرجلُ بَيْنَ الثَّوْبَيْنِ ؛ إذا لَبَسَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ ؛ وَكُلُّ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى مَفْهُومٍ وَاحِدٍ وَهُوَ
مُظَاهَرَةُ الشَّيْءِ بِمَعْضَاهُ بَعْضًا . وَيُرْوَى : « الْحِجَانُ الْمُطَرِّقَةُ » ، بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ ، أَيْ كَالْتَرَّسَةِ
الْمُتَّخِذَةِ مِنْ حَدِيدٍ مَطَرَّقٍ بِالْمُطَرِّقَةِ .

وَالسَّرَق : شَقَّقَ الْحَرِيرَ ، وَقِيلَ : لَا تَسْمَى مَرَقًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ بَيْضًا ،
الوَاحِدَةُ سَرَقَةٌ .

وَيَمْتَقِبُونَ الْخَلِيلَ ، أَيْ يَحْبِسُونَهَا لِيَمْتَقِلُوا مِنْ غَيْرِهَا إِلَيْهَا . وَاسْتَحْرَارُ الْقَتْلِ : شِدَّتُهُ ،
اسْتَحْرَرَّ وَحَرَّ بِمَعْنَى ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ :

حَيْثُ أَلَقْتُ بِقُبَاءِ بَرِّكَهَا وَاسْتَحْرَرَّ الْقَتْلُ فِي عِبْدِ الْأَشْلِ (١)

وَالْمَفْلِتُ : الْهَارِبُ .

يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ عَلَى قِسْمَيْنِ :

أَحَدُهَا مَا تَفَرَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ؛ وَهِيَ الْأُمُورُ الْخَمْسَةُ
الْمَعْدُودَةُ فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (٢) .

والقسم الثانى ما يعلمه بعض البشر بإعلام الله تعالى إتياءه ؛ وهو ما عدا هذه الخمسة ، والإخبار بملاحمة الأتراك من جملة ذلك .

واتضمت عليه جوانحى : تفتعل ، من الضم ، وهو الجمع ، أى يجتمع عليه جوانح صدرى ، ويروى : « جوارحى » ، وقد روى أن إنسانا قال لموسى بن جعفر عليه السلام : إننى رأيت الليلة فى منامى أتى سألتك : كم بقى من عمرى ؟ فرفعت يدك اليمنى ، وفتحت أصابعها فى وجهى مشيرا إلى ، فلم أعلم خمس سنين ، أم خمسة أشهر ، أم خمسة أيام أقال : ولا واحدة منهن ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التى استأثر الله تعالى بها فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . ﴾ الآية .

فإن قلت : لم ضحك عليه السلام لما قال له الرجل : « لقد أوتيت علم الغيب » ؟ وهل هذا إلا زهو فى النفس ، وعجب بالحال !

قلت : قد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضحك فى مناسب هذه الحال ؛ لما استسقى فسقى وأشرف درور المطر ، فقام إليه الناس ، فسألوه أن يسأل الله تعالى أن يحبسهم عنهم ، فدعا ، وأشار بيده إلى السحاب ، فأنجاب حول المدينة كالإكليل ؛ وهو عليه السلام يخطب على المنبر ؛ فضحك حتى بدت نواجذُه ، وقال : أشهد أنى رسول الله ؛ وسرّ هذا الأمر أن النبى أو الولى إذا تحدّث عنده نعمة الله سبحانه ، أو عرف الناس وجهته عند الله ، فلا بد أن يسرّ بذلك . وقد يحدث الضحك من السرور ؛ وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التّيه والعُجب ، وكان محض السرور والابتهاج ، وقد قال تعالى فى صفة أوليائه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١) .

فإن قلت : فإن من جملة الخمسة : ﴿ وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ، وقد أعلم

الله تعالى نبيّه بأمر يكسبها في غده ، نحو قوله : « ستفتح مكة » ، وأعلم نبيّه وصيه عليه السلام بما يكسبه في غده ، نحو قوله له : « ستقاتل بعدى الناكثين . . . » ، الخبر .

قلت : المراد بالآية أنّه لا تدرى نفس جميع ما تكسبه في مستقبل زمانها ؛ وذلك لا ينفى جواز أن يعلم الإنسان بعض ما يكسبه في مستقبل زمانه .

[فصل في ذكر جنكزخان وفتنة التتر]

واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر عليه السلام عنه قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا، وكان الناس ينتظرونه من أول الإسلام؛ حتى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا ؛ وهم التتار الذين خرجوا من أقاصى المشرق ؛ حتى وردت خيلهم العراق والشام، وفعالوا بملوك الخطا وقفجاق ، وببلاد ما وراء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد العجم ، ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله آدم إلى عصرنا هذا على مثله ؛ فإنّ بابك الحُرّمى لم تكن نكايته . وإن طالت مدّته نحو عشرين سنة إلا في إقليم واحد وهو أذربيجان ؛ وهؤلاء دَوّخوا للمشرق كلّهُ ، وتعدّت نكايتهم إلى بلاد إرمينية وإلى الشام، ووردت خيلهم إلى العراق، وبُيُخِتَ نصر الذي قتل اليهود إنما أخرب بيت المقدس ، وقتل من كان بالشام من بنى إسرائيل ، وأىّ نسبة بين مَنْ كان بالبيت المقدس من بنى إسرائيل إلى البلاد والأمصار التي أخرجها هؤلاء ، وإلى الناس الذين قتلهم من المسلمين وغيرهم ^(١) !

(١) ذكر ابن الأثير هذه الحادثة في تاريخه (حوادث سنة ٦١٧ وما بعدها) ، وقال في أولها : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ؛ فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن ذا الذى يهون عليه ذكر ذلك ! فياليت أُمى لم تلدنى ، وباليقنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ! إلى أن حثني جماعة من الأصفاء على تسطيرها ؛ وأنا متوقف ؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا » .

ونحن نذكر طرفاً من أخبارهم وابتداء ظهورهم على سبيل الاختصار ، فنقول :
لأننا على كثرة اشتغالنا بالتواريخ وبالكتب المتضمنة أصناف الأمم ، لم نجد ذكر هذه
الأمّة أصلاً ؛ ولكننا وجدنا ذكر أصناف الترك ؛ من القفجاق ، والبيك ، والبرلو ،
والنفره ، واليتبه ، والروس ، والخطا ، والقرغز ، والتركان ، ولم يمرّ بنا في كتاب ذكر
هذه الأمّة سوى كتاب واحد ، وهو كتاب ” مروج الذهب “ للمسمودي فإنه
ذكرهم هكذا بهذا اللفظ « التتر » ، والناس اليوم يقولون : « التتار » بألف ؛ وهذه الأمّة
كانت في أقاصى بلاد المشرق في جبال « طمنجاق » من حدود الصين ؛ وبينهم وبين
بلاد الإسلام التي ما وراء النهر ما يزيد على مسير ستة أشهر ؛ وقد كان خوارز مشاه ؛
وهو محمد بن تكش استولى على بلاد ما وراء النهر ، وقتل ملوكها من الخطا الذين كانوا
ببخارى وسمرقند وبلاد تركستان ؛ نحو كاشغر ، وبلاساغون ؛ وأفنام ، وكانوا حجاباً
بينه وبين هذه الأمّة ، وشحن هذه البلاد بقواده وجنوده ؛ وكان في ذلك غلطا ، لأن
ملوك الخطا كانوا وقاية له ويحجّون من هؤلاء ؛ فلما أفنام ، صار هو المتولّى لحرب هؤلاء
أوسانهم ، فأساء قواده وأمرأؤه الذين بتركستان السيّرة معهم ، وسدّوا طرق التجارة
عنهم ؛ فانتدبت منهم طائفة نحو عشرين ألفاً مجتمعة ، كل بيت منها له رئيس مفرد ،
فهم متساندون ، وخرجوا إلى بلاد تركستان ، فأوقعوا بقواد خوارز مشاه وعماله هناك ،
وملكوا البلاد ، وتراجع من بقي من عسكر خوارز مشاه ، وسلم من سيف التتار إلى
خوارز مشاه ، فأغضى على ذلك ، ورأى أن سعة ملكه تمنعه عن مباشرة حربهم بنفسه ،
وأن غيره من قواده لا يقوم مقامه في ذلك ، وترك بلاد تركستان لهم ، واستقرّ
الأمر على أن تركستان لهم ، وما عداها من بلاد ما وراء النهر كسمرقند وبخارى وغيرها
لخوارز مشاه ، فمكثوا كذلك نحو أربع سنين .

ثم إن المعروف بجنكزخان - والناس يلفظونه بالراء ، وذكر لى جماعة من أهل المعرفة بأحوال التتار أنه « جنكز » بالزاي المعجمة - عن له رأى فى النهوض إلى بلاد تركستان ، وذلك أن جنكزخان هذا هو رئيس التتار الأقصين فى المشرق ، وابن رئيسهم ، وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة ، وكان شجاعا عاقلاً موقفاً منصوراً فى الحرب ؛ وإنما عن له هذا الرأى ؛ لأنه رأى أن طائفة من التتار - لا ملك لهم ، وإنما يقوم بكل فرقة منهم مدبر لها من أنفسهم - قد نهضت فملكّت بلاد تركستان على جلالتها ، غار من ذلك ، وأراد الرياسة العامة لنفسه ، وأحب الملك ، وطمع فى البلاد ، فنهض بمن معه من أقاصى الصين ؛ حتى صار إلى حدود أعمال تركستان ، فخاربه التتار الذين هناك ، ومنعوه عن تطرّق البلاد ، فلم يكن لهم به طاقة ، وهزمهم وقتل كثيراً منهم ؛ وملك بلاد تركستان بأجمعها ، وصار كالجوار لبلاد خوارزمشاه ، وإن كان بينهما مسافة بعيدة ، وصار بينه وبين خوارزمشاه سلّم ومهادنة ؛ إلا أنها هُدنة على دخن .

فحكمت الحال على ذلك يسيراً ، ثم فسدت بما كان يصل إلى خوارزمشاه على أسنة التجار من الأخبار ، وأن جنكزخان على عزّم النهوض إلى سمرقند ومايلها ، وأنه فى التأهب والاستعداد ، فلو داراه لكان أولى له ؛ لكنه شرع فسد طرق التجار القاصدين إليهم ، فتهذرت عليهم الكسوات ، ومنع عنهم الميرة والأقوات التى تجلب وتحمل من أعمال ما وراء النهر إلى تركستان ، فلو اقتنع بذلك لكان قريباً ؛ لكنه أنهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوتران ، وهى آخر ولايته بما وراء النهر ، أن جنكزخان قد سیر جماعة من تجار التتار ، ومعهم شىء عظيم من الفضة إلى سمرقند ، ليشتروا له ولأهله وبني عمه كسوة وثياباً وغير ذلك .

فبعث إليه خوارز مشاه يأمره بقتل أولئك التجار ، وأخذ مامعهم من الفضّة
وإنفاذاً إليه ، فقتلهم وسير إليهم الفضّة . وكان ذلك شيئاً كثيراً جداً ؛ ففرقه خوارز مشاه
على تجار سمرقند وبخارى ، وأخذ ثمنه منهم لنفسه . ثم علم أنه قد أخطأ ، فأرسل إلى
نائبه بأوتران ، يأمره أن ينفذ جواسيس من عنده إليهم ، ليخبروه بعدتهم ، فضت
الجواسيس ، وسلكت مفارز وجبالاً كثيرة ، وعادوا إليه بعد مدة ، فأخبروه بكثرة عددهم ،
وأنهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدركهم ، وأنهم من أصبر الناس على القتال ؛ لا يعرفون
الفرار ، ويعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم ، وأن خيلهم لا تحتاج إلى الشعير ،
بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى ، وأن عندهم من الخيل والبقر مالا يحصى ، وأنهم
يأكلون الميتة والكلاب والخنازير ، وهم أصبر خلق الله على الجوع والعطش والشقاء ،
وثيابهم من أخشن الثياب مساً ، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب الميتة ؛
وأنهم أشبه شيء بالوحش والسباع .

فأنهى ذلك كله إلى خوارز مشاه ، فقدم على قتل أصحابهم ، وعلى خرق الحجاب
بينه وبينهم ، وأخذ أموالهم ، وغلب عليه الفكر والوجل ، فأحضر الشهاب الخيوق ،
وهو فقيه فاضل كبير الحلّ عنده ، لا يخالف ما يشير به ، فقال له : قد حدث أمر عظيم
لا بدّ من الفكر فيه ، وإجالة رأى فيما نعمل ؛ وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من
الترك في عدد لا يحصى ، فقال له : عساكر كثيرة ، وتكاتب الأطراف ، وتجمع
الجنود ، ويكون من ذلك نفيّر عام ، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدة تلك الأموال
والرجال ، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون ، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد
الترك وبين بلاد خوارز مشاه ، فتسكون هناك ، فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة ،
لقيناه ونحن جامون مستريحون ، وقد مسّه وعساكره النصب واللغوب .

فجمع خُوارِزْ مشاهُ أمراءه ، وَمَنْ عَفْدَه من أرباب المشورة ، فاستشارهم فقالوا: لا بل
الرأى أن نتركهم ليعبرُوا ويأسيحون إلينا ، ويسلُكوا هذه الجبال والمضايق ، فإنهم جاهلون
بطرقها ، ونحن عارفون بها ، فنظهُرُ عليهم ، ونهْلِسُكُهم عن آخرهم .
فسكانوا على ذلك حتى وصل رسول من جنسكز خان ومعه جماعة ، يتهدّد خُوارِ
زَمْشاهُ ، ويقول: تقتلُ أصحابي وتجاري ، وتأخذ مالى منهم ! استعدّ للحرب ، فإنى واصل
إليك بجمع لا قِبَل لك به .

فلما أدّى هذه الرسالة إلى خُوارِزْ مشاهُ أمر بقتل الرسول فقتل ، وحلق لِحَى الجماعة
الذين كانوا معه ، واعادهم إلى صاحبهم جنكز خان ليخبرُوه بما فعل بالرسول ، ويقولوا له:
إنَّ خُوارِزْ مشاهُ يقول لك : إني سائر إليك ، فلا حاجة لك أن تسير إلى ، فلو كنتَ في
آخر الدنيا لطلبتك حتى أقتلك ، وأفعل بك وبأصحابك ما فعلتُ برسلك .
وتجهّز خُوارِزْ مشاهُ ، وسار بعد نفوذ الرّسول ، مبادراً لسبّقى خبره ، ويكبس^(١)
التتار على غِرّة ؛ فقطع مسيرة أربعة أشهر في شهر واحد ، ووصل إلى بيوتهم
وخرّ كواثمهم^(٢) فلم ير فيها إلا النساء والصّبيان والأطفال ؛ فأوقع بهم ، وغنم الجميع ، وسبى
النساء والذرية .

وكان سبب غيموبة التتار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك التّرك ،
يقال له « كشلوخان » ، فقاتلوه فهزموه ، وغنموا أمواله ، وعادوا ، فلقيتهم الخبر في طريقهم
بما فعل خُوارِزْ مشاهُ بخلفيتهم ، فأغذّوا السير فأدركوه ، وهو على الخروج من بيوتهم ،

(١) يقال : كبس القوم دار فلان ؛ إذا هجموا عليها فجأة واحتاطوها .

(٢) الحركة : الحيلة الكبيرة ، المدورة الشكل (انظر ديميزون) .

بعد فراغه من الغنيمه ؛ فواقموا و تصافوا للحرب ثلاثة أيام بلياليها ؛ لا يفترّون نهّارا ولا ليلا ، فقتل من الفريقين ما لا يعدّ ، ولم ينهزم منهم أحد .

أما المسلمون فصبروا حميةً للدين ، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للإسلام باقية ؛ ثم إنهم لا ينجون ، بل يؤخذون وبؤسرون ابعدهم عن بلادٍ يمتنعون بها ، وأما التتار فصبروا لاستنقاذ أموالهم وأهلهم ، واشتد الخطب بين الطائفتين ؛ حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ، ويقاقل قِرْنَه راجلاً ، مضاربةً بالسكاكين ، وجرى الدّمُ على الأرض ؛ حتى كانت الخيل تزلق فيه لكثرتِه ؛ ولم يحضر جنكزخان بنفسه هذه الوقعة ؛ وإنما كان فيها قان وولدُه ، فأحصى من قُتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا ، ولم يحصَ عدّة من قُتل من التتار .

فلما جاءت الليلةُ الرابعة افترقوا ، فنزل بعضهم مقابلَ بعض ، فلما أظلم الليل ، أوقد التتار نيرانهم ، وتركوها بحالها ، وساروا راجعين إلى جنكزخان ملكهم ، وأما المسلمون فرجعوا ومعهم محمد خوارزمشاه ، فلم يزالوا سائرين حتى وافوا بخارى ، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له بجنكزخان ، لأنّ طائفة من عسكره لم يلقوا خوارزمشاه بجميع عساكره بهم ، فكيف إذا حشدوا وجاءوا على^(١) بكرة أبيهم ، وملكهم جنكزخان بينهم . فاستعدّ للحصار ، وأرسل إلى سمرقند يأمرُ قوّاده المقيمين بها بالاستعداد للحصار ، وجمع الذخائر للمتاع والمقام من وراء الأسوار ، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس يحمونها ، وفي سمرقند خمسين ألفا ، وتقدّم إليهم بحفظ البلاد حتى يعبر هو إلى خوارزم وخراسان ، فيجمع العساكر ، ويستنجد بالمسلمين والغزاة المطوّعة ويعود إليهم .

(١) في الأصول « عن » وصواب المثل ما ذكرته . وانظر مجمع الأمثال ١ : ١٧٦ .

ثم رحل إلى خراسان ، فعبر جيحون ؛ وكانت هذه الواقعة في سنة ست عشرة وسمائة
فنزل بالقرب من بلخ ، فسكر هناك ، واستنفر الناس .

وأما التتار فإبهم رحلوا بعد أن استمدوا يطلبون بلاد ما وراء النهر ؛ فوصلوا إلى
بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوارزمشاه عنها ، وحاصروها ، فقاتلوا العسكر الم رابط
بها ثلاثة أيام قتالا متتالبا ، فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ؛ ففتحو أبواب المدينة
ليلاً ، وخرجوا بأجمعهم عائدين إلى خراسان ، فأصبح أهل بخارى وليس عندهم من
العسكر أحد أصلاً ، فضعفت نفوسهم ، فأرسلوا قاضي بخارى^(١) ليطلب الأمان للرعية ،
فأعطاه التتار الأمان ، وقد كان بقي في قلعة بخارى خاصة طائفة من عسكر خوارزمشاه
معتصمون بها .

فلما رأى أهل بخارى بذلهم للأمان ، ففتحوا أبواب المدينة ، وذلك في رابع ذى الحجة
من سنة ست عشرة وسمائة فدخل التتار^(٢) بخارى ، ولم يقرضوا لأحد من الرعية ،
بل قالوا لهم : كل ما لخوارزمشاه عندهم من ودعة أو ذخيرة أخرجه إلينا ؛ وساعدونا
على قتال من بالقلعة ، ولا بأس عليكم . وأظهروا فيهم العدل وحسن السيرة ودخل
جنكز خان بنفسه إلى البلد ، وأحاط بالقلعة ، ونادى مناديه في البلدان : لا يتخلف أحد ؛
ومن تخلف قتل . فحضر الناس بأسرهم ، فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والأحطاب
والتراب ، ثم زحفوا نحو القلعة ، وكان عدة من بها من الجند الخوارزمية أربعائة
إنسان ، فبدلوا جهدهم ، ومنعوا القلعة عشرة أيام إلى أن وصل الدقايون إلى سور
القلعة ، فقبوه ودخلوا القلعة ، فقتلوا كل من بها من الجند وغيرهم .

(١) في ابن الأثير : « وهو بدر الدين قاضيخان » .

(٢) ابن الأثير : « فدخل السكفار » .

فلما فرغوا منها أمر جنسكزخان أن يكتب له وجوه البلد ورؤسائهم ، ففعل ذلك ، فلما عَرَضُوا عليه أمر بإحضارهم ، فأحضروا ، فقال لهم : أريد منكم الفضة النُقْرة ^(١) التي باعها إياكم خوارزمشاه ، فإنها لي ، ومن أصحابي أخذت . فكان كل من عنده شيء منها يحضره ، فلما فرغ من ذلك أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصة ، فخرجوا مجردين عن أموالهم ، ليس مع كل واحد منهم إلا ثيابه التي على جسده ، فأمر بقتلهم ، فقتلوا عن آخرهم ، وأمر حينئذ بنهب البلد ، فنهب كل ما فيه ، وسييت النساء والأطفال ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال . ثم رحلوا عنه نحو سمرقند ، وقد تحققوا بنجَز خوارزمشاه عنهم ، واستصحبوا معهم مَنْ سَلِمَ من أهل بخارى ؛ أسارى مشاة على أقبح صورة ، وكل من أعيأ وهجز عن المشي قتلوه .

فلما قابروا سمرقند ، قدّموا الخيالة ، وتركوا الرجال والأسارى والأثقال وراءهم ، حتى يلتحقوا بهم شيئا فشيئا ، ليرعبوا قلوب أهل البلد ، فلما رأى أهل سمرقند سوادهم ، استعظموهم ؛ فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجال والأثقال ؛ ومع كل عشرة من الأسارى عَلم ، فظن أهل البلد أن الجميع عسكر مقاتلة ؛ فأحاطوا بسمرقند ، وفيها خمسون ألفا من الخوارزمية ، ومالا يحصى كثرة من عوام البلد ؛ فأحجم العسكر الخورزمي عن الخروج إليهم ، وخرجت العامة بالسلاح ، فأطمعهم التتار في أنفسهم ، وفتحوا عليهم ؛ وقد كمنوا لهم كمناء ؛ فلما جاوزوا السكين خرج عليهم من وراءهم ، وشدّ عليهم من وراءهم جمهور التتار ؛ فقتلوه عن آخرهم .

فلما رأى مَنْ تخلف بالبلد ذلك ، ضعفت قلوبهم ، وخيّلت للجند الخوارزمي أنفسهم

(١) النقرة : القطعة المذابة من الفضة أو الذهب .

أنهم إن استأمنوا إلى التتار أبقوا عليهم للمشاركة في جنسية التركيبية ؛ فخرجوا بأموالهم وأهليهم إليهم مستأمنين ، فأخذوا سلاحهم وخيلهم ، ثم وضعوا السيف فيهم ، فقتلوههم كلهم ، ثم نادوا في البلد : برئت الذمة ممن لم يخرج ، ومن خرج فهو آمن . فخرج الناس إليهم بأجمعهم ، فاختلفوا عليهم ، ووضعوا فيهم السيف ، وعدّبو الأغنياء منهم ، واستصفّوا أموالهم ، ودخلوا سمرقند ؛ فأخربوها ، ونقضوا دورها ؛ وكانت هذه الواقعة في الحرم سنة سبع عشرة وستمائة .

وكان خوارزمشاه مقبلاً بمنزله الأول ، كلما اجتمع له جيش سيّره إلى سمرقند ، فيرجع ولا يقدم على الوصول إليها ؛ فلما قضوا وطرا من سمرقند ، سير جنكزخان عشرين ألف فارس ، وقال لهم : اطلبوا خوارزمشاه أين كان ، ولو تعلق بالسماء ، حتى تدركوه وتأخذوه !

وهذه الطائفة تسميها التتار المغربة ، لأنها سارت نحو غرب خراسان ، وهم الذين أوغلوا في البلاد ، ومقدمهم جرماغون ؛ نسيب جنكزخان .

وحكى أن جنكزخان كان قد أمر على هذا الجيش ابن عم له شديد الاختصاص به ؛ يقال له متكلى نويرة ، وأمره بالجد وسرعة المسير ؛ فلما ودّعه ، عطف متكلى نويرة هذا ، فدخل إلى خركاة ، فيها امرأة له كان يهواها ليوّدّعها ، فاتصل ذلك بجنكزخان ، فصرفه في تلك الساعة عن إمارة الجيش ، وقال : مَنْ يَدْنِي عَزَمَهُ امرأة لا يصالح لقيادة الجيوش . ورتب مكانه جرماغون ، فساروا وقصدوا من جيحون موضعاً يسمى « بنج آب » أي خمسة مياه ، وهو يمنع العبور ؛ فلم يجدوا به سفناً ، فعملوا من الخشب مثل الأحواض السكبار ، ولبسوه جلود البقر ، ووضعوا فيه أسلحتهم ، وأحموا خيولهم الماء ، وأمسكوا بأذيالها ،

وتلك الأحواض مشدودة إليها، فكان الفرّس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض ، فمعبروا كلّهم ذلك الماء دَفْعَةً واحدة ، فلم يشعر خوارزمشاه بهم إلّا وهم معه على أرض واحدة ؛ وكان جيشه قد ملأ رعباً منهم ، فلم يقدروا على الثّبات ، فتفرّقوا أيدي سباً ؛ وطلب كلّ فريق منهم جهة ، ورحل خوارزمشاه في نفرٍ من خواصّه ، لا يلوئى على شيء ، وقصد نيسابور ، فلما دخلها اجتمع عليه بعضُ عسكره فلم يستقرّ ، حتى وصل جرماغون إليه ؛ وكان لا يتعرّض في مسيره بنهب ولا قتل ؛ بل يطوى المنازل طياً ؛ يطلب خوارزمشاه ولا يمهله ليجمع عسكرا . فلما عرف قرب التّتار منه ، هرب من نيسابور إلى مازندران^(١) ، فدخلها ورحل جرماغون خلفه ، ولم يعرّج على نيسابور ، بل قصد مازندران ، فخرج خوارزم شاه عنها ، فكان كلّما رحل عن منزل نزل التّتار ؛ حتى وصل إلى بحر طبرستان ، فنزل هو وأصحابه في سفن ، ووصل التّتار ، فلما عرفوا نزوله البحر ، رجعوا وأيسوا منه .

وهؤلاء الذين ملكوا عراق العجم وأذربيجان ، فأقاموا بفاحية تَبْرِيز إلى يومنا هذا .

ثم اختلف في أمر خوارزمشاه ، فقوّم يحكون أنّه أقام بقلعة له في بحر طبرستان منيعة ، فتوفّي بها ، وقوم يحكون أنّه غرق في البحر ، وقوم يحكون أنّه غرق ونجا عرياناً ، فصعد إلى قرية من قرى طبرستان ، فعرفه أهلها ، فجاءوا وقبّلوا الأرض بين يديه ، وأعلموا عاملهم به ، فجاء إليه وخدمه ، فقال له خوارزم شاه : أنجلني في مركب إلى الهند ، فحمله إلى شمس الدين أنليمش ملك الهند ؛ وهو نسيبه من جهة زوجته والدته منسكبوني بن خوارزم شاه الملك جلال الدين ، فإنّها هندية من أهل بيت الملك ؛ فيقال إنه وصل إلى أنليمش ، وقد تغير

(١) ما زندران : اسم ولاية بطبرستان .

